مكتبة الدراسات الأدبية
٦٩

الدكتور شوقي ضيف

الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية

الطبعة الثالثة
منقحة



دار المعارف بمصر

مكتبة الدراسات الأدبيّة

٦٩

الدكتور شوقى ضيف

الشعرُ والغناءُ فى المدينة ومكّة لعصر بنى أميّة

الطبعة الثالثة
منقحة



دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

الشعر والغناء في المدينة ومكّة
لعصر بني أميّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

من يقرأ فى الشعر العربى وينظر فى نصوصه ونماذجه الكثيرة يجد صورتين متقابلتين منذ العصر الجاهلى : صورة تقليدية تعتمد على رسوم وتقاليد كثيرة ، وصورة أغان خالصة تعتمد على العزف والضرب على الآلات الموسيقية .

وتتخالف الصورتان فى كثير من الجوانب ، فالصورة الأولى صورة معقدة ، ولعل خير ما يمثلها مطولات الشعر العربى فى المديح والهجاء وما يتصل بهما ، حيث نجد الشعراء يبالغون فى صنع نماذجهم مبالغة أفضت بزهير فى الجاهلية إلى أن يصنع المطولة من مطولاته فى حَوْل كامل ، كما يقول الرواة ، ومن أجل ذلك كانت تسمى مطولاته باسم الحوليات .

وقد اتخذت هذه المطولات على مر العصور صورة موروثة ، إذ نجد الشعراء يبدءون فيها بوصف الأطلال وبكاء الدِّمن ، ثم ينتقلون إلى وصف رحلاتهم فى الصحراء وحينئذ يصفون إبلهم التى كانوا يجدون فيها جمالاً ، حين يُريحون وحين يَسْرحون ، ونراهم فى أثناء ذلك يصفون مشاهد الصحراء وحيوانها . وما يزالون فى هذه المقدمات حتى يخرجوا إلى الموضوع الذى ألفوا من أجله مطولاتهم ، من مديح أو هجاء أو غيرهما . وقد حافظ العرب دائماً على هذه الصورة فى شعرهم التقليدى من العصر الجاهلى إلى العصر الحديث .

وكان يقابل هذه الصورة من الشعر العربى صورة أخرى لم تكن مطولات ، إنما كانت فى أكثرها مقطوعات ، ولم تكن تدور حول المديح والهجاء ، وإنما كانت تدور غالباً حول الغـزل ووقائعه ، ولم تكن تقال لتنشد ، وإنما كانت تقال لتِغنَّى وتُصْحَبَ بالعَزْف والضرب على الأدوات الموسيقية . ولعل خير اسم يمكن أن نطلقه على هذه الصورة هو اسم شعر الغناء أو الأغانى .

وهاتان الصورتان للشعر العربى استمرتا تتقابلان فى عصوره المختلفة ، وكانت صورة الأغانى أكثر من أختها التقليدية قابلية للتطور والتحول ، بحكم اتصالها بالغناء والموسيقى ولغة الناس الشعبية ، مما أحدث أخيراً فى الأندلس الموشحات والأزجال على نحو ما هو معروف . وقبل هذه الأزجال والموشحات كانت تحدث تطورات واسعة فى الأغانى لا منذ العصر العباسى بل منذ العصر الأموى ، إذ نهض الحجاز بالغناء نهضة كبيرة أثرت تأثيراً شديداً فى الأغانى هناك . وهو تأثير امتد إلى كل شىء فيها ، امتد إلى لغتها ، إذ نرى الشعراء يتخذونها غالباً من لغة الناس المألوفة لأنهم يريدون أن يكونوا قريبين منهم ، وامتدَّ إلى موسيقاها ، إذ نرى الشعراء يكثرون فيها من الزحافات والعلل ، حتى يلائموا بين شعرهم وتقصيرات المغنين والمغنيات وتمديداتهم . وأيضاً فإنهم أخذوا يجزِّئون ويعدّلون فى صورة أوزانهم ، حتى تحمل كل ما يريد المغنون من أصوات وغناء . وقد نظرتُ فإذا المدينة ومكة تتنافسان تنافساً شديداً فى إحداث هذه الصورة والتطور بها تحت تأثير الغناء .

وقد أخذت أتتبع فن الغناء الذى كان له فضل التطور بأغانى الشعر حينئذ ، فإذا المدينة هى التى برزت فيه ، وإذاهى التى وضعت نظرية الغناء العربى التى نقرأ مصطلحاتها فى كتاب الأغانى ، حينئذ رأيت أن أؤخر الحديث عن مكة وما كان بها من نشاط فى الغناء والأغانى حتى أتعرف على المدينة وعلى ما كان بها من هذا النشاط .

وإنى لأعترف بأن نصوصاً كثيرة صادفتنى وفسرت لى كل ما كنت أنشده فى هذه الدراسة . والله أسأل أن يلهمنى السداد والإخلاص فى الفكر والقول والعمل ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

شوقى ضيف

الكتاب الأول
فى المدينة



الفصل الأول

المدينة

١

موقع المدينة

تقع المدينة فى إقليم الحجاز الذى يمتد بين أيلة (العقبة) واليمن ، ويفصل بين مباسط تهامة ومشارف نجد . ويتميز الحجاز بكثرة ما يتخلله من جبال ومرتفعات ، ووديان ومنخفضات . ومَنْ يرجع إلى مخطَّط المدينة يجد فى شماليها جبل أحُد وجبل ثَوْر ، وفى جنوبيها جبل عَيْر ، بينما يحفُّها من الشرق والغرب مرتفعان ، يتألَّفان من حجارة سود نَخِرَة ، وهما حرتا واقم والوَبْرَة .

وداخل هذا السياج من الجبال والحرَّات تقوم المدينة اليوم ، فهى فى منخفض ، تكتنفه مرتفعات يعلو بعضها بعضاً . وفى هذا المنخفض تكثر الوديان ، وتكثر الآبار والعيون ، لوفرة ما يهطل فيه من أمطار فى أثناء الشتاء والربيع . وأهم الوديان هناك بُطْحان ورانوناء ومَهْزور ومُذَينب فى الجنوب بين المدينة وعَيْر ، وقناة فى الشمال بين المدينة وأحُد ، والعقيق فى الغرب وراء حرَّة الوبَرْة . وتكتظ هذه الوديان بالعيون من الآبار ، وأشهرها عين الأزرق وبئر أَريس فى وادى رانوناء وبئر عروة وبئر رومة فى وادى العقيق[١].

وتنبت حول هذه العيون والآبار جنات النخيل والأشجار ، فتملأ البصر بهجة ورواء بهذه المشاهد الأنيقة وسط بحار الرمل التى تموج بها صحراء العرب . ومن ثَمَّ كانت المدينة تبدو داخل الجزيرة العربية كأنها واحة بديعة ، أو قل إنها ابتسامة الطبيعة تبدو على محياً عابس هو محيا الصحراء الهامدة .

وجعلت هذه المياه والخضرة ، أو قل هذه العيون والجنات ، جَوَّ المدينة

---

(١) انظر فى وديان المدينة وآبارها وعيونها كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى للسمهودى (طبع مطبعة المؤيد) ١١٩/٢ وما بعدها وكذلك ١٨٦/٢ وما بعدها وانظر فتوح البلدان للبلاذرى (طبع ليدن) ص ١٤ وما بعدها .

محتملا ، فهى على الرغم من وقوعها على خط العرض ٢٥ وهو الخط نفسه الذى يمر بمدينة الأقصر ، طيبة مصر الفرعونية ، تمتاز بجو ملطّف ، وهو جو يزخر بظلال النخيل والأشجار . وربما كان من أهم أسباب اعتدال جوها أنها تعلو سطح البحر بنحو ستمائة متر ، مما يجعل جوها مقبولا وخاصة فى فصلى الشتاء والربيع ، إذ تسقط الأمطار . أما فى فصل الصيف فإن الحرارة تشتد اشتداداً قد يعرِّض المدينة لنمو بعض الحميات ، وقد مرض بها جماعة من المهاجرين فى أول هجرتهم إليها ، وعلى رأسهم أبو بكر الصديق(١) .

وأجمل بقاع المدينة وادى العقيق ، وكان متنزه أهل المدينة فى العصور الإسلامية ، وخاصة حين تنزل الأمطار والسيول ، وتتجمع فيه على شكل بركة كبيرة(٢) . واشتهر العقيق بجمَّاواته الثلاث : جَمَّاء تضارع ، وجَمَّاء أم خالد ، وجَمَّاء عاقل . والجمَّاء مرتفع صخرى بارز ، تسيل منه مياه الأمطار فى منظر بهيج . وفى شمالى العقيق نجد العرصة الكبرى والعرصة الصغرى ، وهما من أفضل بقاعه ، وأكرم أصقاعه(٣) .

وكلمة المدينة فى العربية معناها البلدة ، واختصت بيثرب بعد هجرة النبى صلى الله عليه وسلم إليها ، ولذلك تضاف إليه ، فيقال مدينة الرسول . ويميز اللغويون فى النسبة بينها وبين المدن الأخرى ، فيقال فى النسبة إليها « مدنى » وإلى غيرها « مدينى » .

وسُمِّيت أسماء مختلفة حتى قيل إن لها عشرة أسماء(٤) وأوصل السمهودى أسماءها إلى نحو تسعين اسما(٥) . وربما جاءت كثرة هذه الأسماء من أسماء مواضع فيها كانت تنزلها العشائر فى الجاهلية . واسمها الذى عُرفت به واشتهرت فى العصر الجاهلى يثرب ، وقد جاء ذكره فى القرآن الكريم(٦) ، وفى السيرة النبوية فى أشعار حسان(٧) بن ثابت وكعب(٨) بن مالك .

---

(١) سيرة ابن هشام (طبع الحلبى) ٢٣٨/٢ .

(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ٣٢/٣ . وفى الأجزاء التسعة الأولى تراجع دائماً طبعة دار الكتب وفى الأجزاء الأخرى تراجع طبعة بولاق .

(٣) انظر كلمة ، عرصة فى معجم البلدان لياقوت .

(٤) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه (طبع ليدن) ص ٢٣

(٥) وفاء الوفا للسمهودى ٧/١ وما بعدها .

(٦) انظر سورة الأحزاب : الآية ١٣ .

(٧) ابن هشام ٢٨١/٣

(٨) ابن هشام ١٥١/٣

والمدينة –كما رأينا– بلد زروع ونخيل ، ومن هنا كان سكانها من أهل المدَر لا من أهل الوبر ، فهم لا يعتمدون فى حياتهم مثل البدو على رعى الأغنام ، وإنما يعتمدون على زرع الأرض ، وهم لا يتخذون بيوتهم من الأصواف والأوبار ، وإنما يتخذونها من الآطام والحصون التى أقاموها على المرتفعات لتحميهم من هجمات البدو وغزواتهم . ولم تكن المدينة فى الجاهلية تحاط بسور ، وقصة حفر الخندق حولها حين تجمعت قريش لقتال الرسول صلى الله عليه وسلم معروفة .

٢

المدينة فى العصر الجاهلى

تاريخ المدينة فى العصر الجاهلى يحوطه كثير من الغموض ، وهو فى أكثره يعتمد على الأسطورة ، وخاصة ما تعمق منه فى القدم . وتذكر المصادر العربية أن أول من سكنها العمالقة ، وكانوا أهل عزٍّ وبغى شديد ، وهم أول من اتخذ فيها النخيل والزروع[١] ، ووفد عليهم اليهود فى القرن الأول للميلاد أو بعده بقليل على أثر اضطهاد الرومان لهم ، وكانوا قبائل أهمها بنو قُرَيْظة وبنو النَّضير وبنو بهدل وبنو قَيْنُقَاع[٢] ، ويخاطبهم القرآن الكريم فى مواطن متفرقة باسم بنى إسرائيل . وظلوا على دين آبائهم ، وكانوا يعيشون على الزرع والحرث[٣]، واحترفت طائفة منهم صناعة الأسلحة ، كما احترف بعض نسائهم نسج الأقمشة[٤]. ونزح إلى المدينة من اليمن فى القرن الخامس للميلاد بعد سيل العرم قبائل الأوس والخزرج[٥]، وغلبوا اليهود عليها ، يعينهم أبو جبيلة ملك الغساسنة[٦]، وقيل أبو كرب تبع بن حسان ملك اليمن[٧]، وبذلك أصبحوا – وظلوا – سادة المدينة . وكانوا مثل

---

(١) أغانى (طبع بولاق) ٩٦/١٩ والسمهودى ١١٠/١

(٢) ساق أبو الفرج الأصبهانى ثبتاً بأسماء القبائل اليهودية فى المدينة . انظر الأغانى ٩٥/١٩ وطبعة دار الكتب ١١٦/٣ .

(٣) السمهودى ١١٣/١ وما بعدها .

(٤) البلاذرى ص ٦٠ .

(٥) Nicholson, A Lit. Hist. of the Arabs, p. 16.

(٦) أغانى ٦٩/١٩ .

(٧) أغانى ١١٩/١٣ وما بعدها .

العرب من حولهم – لا يأمنون مكر اليهود ويعدونهم عدوًّا لهم .

وعيَّن السمهودى الأماكن التى نزلت فيها قبائل الأوس والخزرج ، أما الخزرج وخاصة بنى النجار فكانوا ينزلون داخل المدينة وانتشرت جماعات منهم فى الشرق والشمال الشرقى منها ، وأما الأوس فكانوا ينزلون فى الجنوب والجنوب الشرقى من المدينة [١]. وكانوا جميعاً وثنيين يعبدون اللات ومناة . ولسنا نعرف بعد ذلك شيئاً واضحاً عن عبادتهم ، ونجد بعض شعرائهم يذكرون الله فى شعرهم [٢]. ويبدو أن النصرانية كانت معروفة فى يثرب ، فنى السيرة أن شخصاً يسمى عبد عمرو بن صيفى خرج على النبى صلى الله عليه وسلم وحارب فى صفوف قريش ، وكان قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح [٣].

ويظهر أن عدوى الحرب بين القبائل العربية المتبدِّية فى نجد انتقلت إلى المدينة فى أواخر العصر الجاهلى ، ولكن لا بين الأوس والخزرج من جهة واليهود من جهة ثانية ، وإنما بين الأوس والخزرج أنفسهما ، ويبدو أن اليهود لما شعروا بأنهم لا قِبلَ لهم بهاتين القبيلتين الكبيرتين أشعلوا نيران العداوة والبغضاء بينهما وكانوا يمدونهما بالأسلحة التى يستخدمانها فى حروبهما إذ كانوا يحترفون صنع الأسلحة كما مرَّ بنا .

وهكذا دارت رحى الحرب فى المدينة لأواخر العصر الجاهلى بين الأوس والخزرج ، وأخذت هذه الرحى تعركهم بثقالها عَرْكاً عنيفاً ، بحيث يظن الإنسان أنه لم يعد من الممكن أن يعمّ السلم فى المدينة ، فدائماً حرب ، ودائماً رماح مُشْرعة وسيوف مسلولة ودماء مسفوحة .

وعلى هذا النحو كان الأوس والخزرج أواخر العصر الجاهلى لا يرفعون أيديهم من دماء حرب قديمة حتى يغمسوها فى دماء حرب جديدة ، وكأنهم تعاهدوا على الموت وأن تلتهمهم نيران الحروب التهاماً .

---

(١) السمهودى ١/١٣٤ وما بعدها .

(٢) كما فى شعر أبى قيس بن الأسلت . انظر الأغانى (طبع دار الكتب) ٣/١٤ وشعر قيس بن الخطيم انظر المصدر نفسه ٣/٢٣ .

(٣) ابن هشام ٢/٢٣٤ .

٣

فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين

رأينا أهل المدينة من الأوس والخزرج فى العصر الجاهلى غارقين فى الدماء ، كما رأيناهم غارقين فى ظلمات الوثنية ، غير أنهم لم يلبثوا أن غسلوا أنفسهم من كل ذلك بأضواء الدين الجديد ، دين الإسلام الذى استلّ أحقادهم وسخائمهم ، وجعلهم بنعمة الله إخواناً .

وقد حمل إليهم مشاعل هذا الدين الجديد أول الأمر نفر منهم لقيهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى مكة ، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا[١] وفى العام القابل أتاه وفد يضم عشرة من الخزرج واثنين من الأوس فبايعوه بيعة العقبة الأولى[٢]. وبعث النبي مع هذا الوفد مُصْعَب بن عُمَير يعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين[٣]. وسرعان ما أخذت أضواء الإسلام تنتشر من دار إلى دار ، بين الأوس والخزرج ، حتى إذا استدار العام وفد على الرسول سبعون رجلا وامرأتان ، فسألوه الخروج إليهم وبايعوه بيعة العقبة الكبرى[٤]. وجعل منهم النبي اثنى عشر نقيباً كفلاء عليهم : تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس[٥].

وكانت هذه البيعة صريحة فى أن الرسول سيترك دار الأرقم محل دعوته فى مكة ، ويتخذ من المدينة كلها داراً لدعوته بين ظهرانى الأنصار ، فقد وجدهم أكثر قبولاً لرسالته .

وأخذت يثرب تستعد لاستقبال الرسول وأصحابه من المسلمين ، وقد رأى أن يهاجر أصحابه ، فأمرهم بالهجرة ، فهاجروا أولاً ، ولم تمض بضعة أشهر حتى كانوا قد هاجروا إليها جميعاً ، إلا من استبقاهم الرسول معه ، وأخيراً خرج من داره مهاجراً ، ومعه أبو بكر الصديق ، ودليلهما عبد الله ابن أُرَيْقِط . ودقت البشائر فى

---

(١) ابن هشام ٧٠/٢ .

(٢) ابن هشام ٧٥/٢ .

(٣) ابن هشام ٧٦/٢ .

(٤) ابن هشام ٨٤/٢ وكذلك ٩٧/٢ . وانظر اليعقوبى ٣٨/٢ .

(٥) ابن هشام ٨٥/٢

المدينة بهجرته ، فكانوا يتسمعون أخبار رحلته ، ويخرجون لاستقباله ، حتى وافتهم طلعته السنية ، وأقبل رجال الأوس والخزرج يتزاحمون حول راحلته بالمناكب ، فكل يود لو ينزل فى داره ، واختار الرسول دار أبى أيوب الأنصارى ، فأقام عنده ، حتى بنى له داراً ، وبنى بجوار الدار مسجداً[١] .

وكان أول عمل قام به الرسول صلى الله عليه وسلم فى يثرب أن آخى بين المسلمين[٢] ، فكلٌّ يتخذ له أخاً فى الله ، وبذلك آخى بين المهاجرين والأنصار من جهة ، كما آخى بين الأوس والخزرج من جهة أخرى ، وكأنه أراد أن يزيل كل ما كان بين الفئتين من إحَن فى الجاهلية ، حتى تتم وحدة المسلمين ، وتتماسك عُراهم فلا يتخاذلوا بعدها أبداً .

ولم يكتف الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقد أراد ليثرب أن يعمها السلام ، فعقد بينه وبين اليهود معاهدة جاء فيها : « أن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم فلا يبغى بعضهم على بعض » كما جاء فيها « أن بين الفئتين من اليهود والمسلمين النصر على من دهم يثرب »[٣].

وكان ذلك كفيلا أن يعيش الرسول والمسلمون من حوله فى يثرب آمنين مطمئنين ، ولكن اليهود أخذوا يشنُّون حرباً شعواء من الأسئلة والجدل فى أمر الرسول وصحة رسالته ، فكان يستقبلهم باللين ، وأوغلوا فى حربهم[٤] ولم يقف هذه الحربَ إسلامُ جماعة منهم[٥] ، فإن الكثرة وقفت معارضة ، بل وقفت معادية تحادُّ الله ورسوله .

ولما انتصر الرسول صلى الله عليه وسلم على قريش فى بدر فى أثناء السنة الثانية للهجرة ، أخذ بنو قَيْنُقَاع يتحرشون بالمسلمين ، فجمعهم النبى بالسوق التى تنسب إليهم ، ودعاهم إلى الإسلام ، فبادروا إليه قائلين : « لا يغرنَّك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة إنا والله لئن حاربناك لتعلمنَّ أنا نحن الناس »

---

(١) ابن هشام ٢/١٤١ .
(٢) ابن هشام ٢/١٥٠
(٣) ابن هشام ٢/١٤٧
(٤) ابن هشام ٢/١٦٠ وما بعدها
(٥) ابن هشام ٢/١٦٣ وكذلك ٢/١٧٤

وأعلنوا حربهم للرسول ، فحاصرهم وظل هذا الحصار ، حتى رضوا أن يجلوا عن المدينة، فخرجوا إلى أذْرِعات بالشام[١].

ولما كانت موقعة أُحُد حاول النبي أن يستعين ببنى النَّضير فى دِيَة بعض القتلى ، فائتمروا به أن يقتلوه[٢] ، حينئذ لم يجدمناصاً من إعلانه الحرب عليهم وحاصرهم ، ولما رأوا أن لا قوة لهم على حربه ، طلبوا الصلح ، فصالحهم على أن يخرجوا من المدينة « ولهم ما حملت الإبل من خُرْثِىِّ متاعهم ، لا يخرجون معهم بذهب ولا فضة ولا سلاح » ، فتحمَّلوا[٣]سنة أربع من الهجرة[٤]، وعلى رأسهم حُيَىٌّ ابن أَخطب ، ونزلوا فى خَيبر وأذرِعات .

ولما كانت وقعة الخندق المعروفة أرسل بنو قُرَيْظَة إلى قريش ومن معها من العرب المحاصرين للمدينة أنهم سينقضون عهد موادعتهم للرسول والمسلمين وينضمون إليهم وكادت أن تقع الكارثة بدخول هذه الجيوش المحاصرة ليثرب من ديارهم ، فلما أنقذ الله يثرب توجه الرسول إليهم مع المهاجرين والأنصار . فآذنهم بحرب جزاء وفاقاً لنكثهم أيمانهم . واشتبك الطرفان ، وأسرع بنو قريظة إلى حصونهم ، فحاصرهم رسول الله ، حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ ، وارتضوا ما يحكم به فحكم أن يُقتَل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتُسبى الذرارى والنساء[٥] .

ولما استدار العام ذهب النبى إلى مكة للحج ، وصدَّته قريش وهادن أهلها[٦] . ثم عاد إلى المدينة يستجمُّ لمتابعة أعداء الإسلام من اليهود فى خَيْبر وغيرها من حصونهم شمالى المدينة . وفى هذه السنة السادسة بعث برسله إلى عظماء الملوك فى عصره يدعوهم إلى الإسلام[٧] ولا ريب فى أنه كان مدفوعاً فى ذلك برسالته وأنها عامة ، إذ أُرسل إلى الناس كافة ، يقول جلَّ شأنه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ويقول عزَّ وجلَّ : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ، لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ .

---

(١) ابن هشام ٣/٥٠ وما بعدها .
(٢) ابن هشام ٣/١٩٩
(٣) اليعقوبى ٢/٥٠ .
(٤) ابن هشام ٣/١٩٩ .
(٥) ابن هشام ٣/٢٥١ .
(٦) ابن هشام ٣/٣٢١ واليعقوبى ٢/٥٤ .
(٧) ابن هشام ٤/٢٥٤ واليعقوبى ٢/٨٣ .

وفى العام القابل ، وهو العام السابع للهجرة ، تابع النبى اليهود فى خَيْبر فحاربهم وحاصرهم وألقوا إليه عن يدٍ وهم صاغرون على أن يعطوه نصف ثمر بلادهم[١] مقابل عملهم بها . وكذلك صنع يهود فَدَك[٢] ، ويهود تَيماء ، ووادى القُرى[٣] .

وأتم الله نعمته على نبيه ففتح مكة فى العام الثامن للهجرة[٤] ، ثم تركها إلى وقعة حُنَيْن والطائف . وكان لهذه الانتصارات أثر عظيم فى استعلاء الإسلام نهائيًّا على الوثنية ، فإن العرب لما سمعوا بها أخذوا يدخلون فى دين الله أفــواجاً . ولم يأت العام التاسع للهجرة ، حتى كانت المدينة تكتظ بوفود القبائل التى جاءت تعلن الإسلام[٥] وتمت المعجزة الكبرى فقد انضوت القبائل العربية كلها ، لأول مرة فى تاريخها ، تحت لواء واحد هو لواء الإسلام . وقد أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يتمم رسالته ، وأن ينفخ بها فى آذان الأمم الأجنبية ، فأرسل جيشاً لغزو الروم ، وكانت وقعة مُؤْتة[٦] .

ولم يلبث النبى صلى الله عليه وسلم أن انتقل إلى الرفيق الأعلى ، دون أن يترك وصية بمن يلى شؤون المسلمين ، ولم يكن العرب يعرفون النظام الملكى وما يقوم عليه من وراثة ، كذلك لم يكونوا يعرفون ما اعتنقته الشيعة فيما بعد من أن أسرة الرسول لها حق مقدس ، ومن هنا كان اجتماع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ، وقد أرادوا أن يكون لهم الأمر بعد الرسول أو يكونوا شركاء فيه ، وذهب إليهم المهاجرون وعلى رأسهم أبو بكر وعمر ، وأقنعوهم بأن العرب لا تخضع إلا لشخص من قريش ، وبويع أبو بكر بالخلافة[٧] لرسول الله والقيام على ما شرع من الدين ، وكان لعمر الفضل الأول فى مبايعته .

واضطلع أبو بكر بالخلافة ، وكان « رجلاً مَأْلَفاً لقومه محبباً سهلاً »[٨] وطالما كان الرسول يشيد بذكره . وأنفق بعد إسلامه أكثر ماله فى شراء الموالى الذين كانت تعذبهم قريش[٩] . ولما ولى الخلافة صعد المنبر ، فجلس دون مجلس رسول الله

---

(١) ابن هشام ٣٥٢/٣ وانظر البلاذرى ص ٢٣ .
(٢) ابن هشام ٣٦٨/٣ وانظر البلاذرى ٢٩ .
(٣) البلاذرى ص ٣٣ وما بعدها .
(٤) ابن هشام ٣١/٤ .
(٥) ابن هشام ٢٠٥/٤ وما بعدها .
(٦) المصدر السابق ١٥/٤ .
(٧) انظر الطبرى فى سنة ١١ هـ. واليعقوبى ١٣٧/٢
(٨) ابن هشام ٢٦٧/١ .
(٩) ابن هشام ٣٣٩/١ وما بعدها .

بمرقاة ، ثم حمد الله ، وأثنى عليه وقال : « إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن استقمت فاتبعونى ، وإن زغت فقوّمونى . . » وأثنى على الأنصار خيراً (١).

وبدأ فأمر أسامة بن زيدَ أن ينفذ فى جيشه الذى أعده النبى صلى الله عليه وسلم للإغارة به على الشام وشيَّعه قائلاً : « لا آمرك بشىء إلا بما أمرك به النبى وأمض حيث ولأّك » ومكث أسامة فى هذه الغزوة ستين يوماً (٢).

وتنبأت جماعة فى مطلع خلافة أبى بكر وعلى رأسها مسيلمة الكذاب (٣)، وارتد كثير من العرب عن الإسلام ، وامتنع كثيرون عن دفع الزكاة (٤). وهنا نرى أبا بكر يقوم بعمل جليل فقد عبأ الجيوش لإنقاذ الإسلام ، وأرسلها فى طلب مسيلمة وغيره ممن ارتدوا أو منعوا الزكاة . وما زالت هذه الجيوش تعمل ، حتى أذعنت بلاد العرب للإسلام ثانية (٥) . ولما استحرَّ القتل فى هذه الحروب بالصحابة وبمن معهم من القراء أشار عمر على أبى بكر أن يجمع القرآن فى مصحف خشية ضياعه ، وكان مفرقاً فى اللِّخَاف وغيْرها ، فجمع أبو بكر الحفظة المشهود لهم بإتقان حفظه وأمرهم بجمعه فى مصحف واحد ، وفى مقدمتهم زيد بن ثابت وأبى بن كعب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب ، وصدعوا بأمره .

ولم يكتف أبو بكر بجمع العرب على كلمة الإسلام ، فقد أراد أن يجمع الناس عليها متأثراً بما قدمناه من تعاليم الدين الإسلامى التى تذهب إلى أن النبى أرسل إلى الناس كافة ، فأرسل الجيوش إلى الشام وفارس تفتح فيها . وقد استمرت موجة الفتح من بعده فى ارتفاعها واشتدادها .

ولم يلبث أبو بكر أن لبَّى نداء ربه فى السنة الثالثة من خلافته ، فذهب راضياً مرضياً ، وأوصى بالخلافة من بعده لعمر ، وهو المثل الأعلى للخليفة عند المسلمين فى خلقه ودينه وسياسته ، وهو أول من تلقب بأمير المؤمنين (٦) ، ولما ولى الأمر صعد

---

(١) اليعقوبى ٢/١٤١ .

(٢) اليعقوبى ٢/١٤٢ .

(٣) يظن مرجوليوث أن مسيلمة كان يتأثر ببعض تعاليم المسيحية . انظر فى ذلك : Nicholson A Lit. Hist. of the Arabs. p. 183.

(٤) اليعقوبى ٢/١٤٤ .

(٥) البلاذرى ص ٩٤ وما بعدها .

(٦) التاج للجاحظ طبعة أحمد زكى ص ٨٨ .

المنبر فجلس دون مجلس أبي بكر بمرقاة ، وخطب الناس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي ، وذكر أبا بكر وفضْله ، وترحم عليه ، ثم قال : « ما أنا إلا رجل منكم ، ولولا أني كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله لما تقلدت أمركم »[١].

وكان أول عمل بدأ به في خلافته أن رَدَّ سبايا أهل الردة إلى عشائرهم ، وقال : إني كرهت أن يصير السَّبْي سنَّة على العرب[٢] واستمر على سياسة أبي بكر في إمداد الجيوش وفتح البلدان ، بحيث لم يمر أكثر من اثنتي عشرة سنة من خلافته وخلافة أبي بكر حتى كانت الإمبراطورية الفارسية قد أصبحت ولاية تابعة للمدينة ، وكذلك أصبحت سوريا ومصر .

ومن المحقق أن عمر لم يُكْرِه أتباع زرادشت في فارس ، ولا أتباع عيسى في مصر والشام على الإسلام ، ومع ذلك فقد دخله كثير منهم حرًّا مختاراً ، وظل قوم على دينهم نظير دفع الجزية . ومن المحقق أنها لم تكن عقاباً لمن امتنعوا عن الإسلام من أصحاب الديانات الأخرى ، إنما كانت نوعاً من الضرائب يدفع لحمايتهم ، فقد جاء في نصوص بعض المعاهدات التي عقدها خالد بن الوليد في العراق : « فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا »[٣].

وأظهر عمر تسامحاً منقطع النظير مع هؤلاء الذين ضُربت عليهم الجزية . وبينما كان يأخذ أهل الديانات الأخرى بالتسامح ، كان يأخذ عُمَّاله بالشدة . وكما كان شديداً على عُمَّاله كان شديداً على نفسه[٤].

وقُتِل عمر سنة ٢٣ هـ ، قتلته يد أجنبية آثمة هي يد أبي لؤلؤة فيروز المجوسي ، مولى المغيرة بن شعبة ، وكان قائماً يصلي[٥]. وجعل عمر الأمر من بعده شورى لستة نفر من أصحاب رسول الله هم : عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، فانتخبوا عثمان ، وبايعوه بالخلافة ، وبايعه الناس ، وكان طاعناً في السن ، فأسلم أموره إلى بعض ذويه من بني أمية . وكان ذلك سبباً للثورة

---

(١) اليعقوبي ٢/١٥٧ .

(٢) اليعقوبي ٢/١٥٨ .

(٣) الطبري : طبع أوربا : القسم الأول ص ٢٠٥٠ .

(٤) انظر الطبري : القسم الاول ص٢٧٤١ .

(٥) البلاذري ص ٣٤ .

عليه ، سنة[١] ٣٥ للهجرة . وبويع على بالخلافة ، بايعه أهل المدينة[٢]. وسارع فعزل ولاة عثمان ، وكان من بينهم معاوية فى الشام ، فلم يستجب لهذا العزل ، بل رفع راية العصيان عليه ، وطالبه بثأر عثمان ، إذ كان مثله من بيت بنى أمية .

وذهب على إلى العراق لُيعِدَّ جيشاً يحارب به معاوية ، وذهب إليه معاوية على رأس جيش من الشام ، ولم تلبث الأمور أن تطورت ، فقُتِلَ علىّ سنة ٤٠ ﻫ ، وتنازل ابنه الحسن عن الخلافة لمعاوية سنة ٤١ ﻫ ، وبذلك عادت الخلافة إلى بيت بنى أمية ثانية ، واستمرت فيه نحو قرن من الزمان .

٤

فى العصر الأموى

لعل أهم ظاهرة تميِّز المدينة فى العصر الأموى (٤١ – ١٣٢ ﻫ.) أنها فقدت زعامتها السياسية ، التى تمتعت بها طوال حكم الخلفاء الراشدين ، فقد كانت عاصمة للإمبراطورية الإسلامية ، تتبعها الولايات وتصرّف شئونها ، أما فى هذا العصر فقد أصبحت تابعة لدمشق العاصمة ، وأصبح الولاة يختارون لها فيها ، بعد أن كانت هى التى تختارهم لها ، وتقيمهم عليها وعلى غيرها من بلدان العالم الإسلامى ، ولم يقف الأمر عند ذلك ، فقد أخذت تدفع إلى دمشق خراجها مما كان يسمى الصَّوافى من الحنطة والتمر[٣] .

وقد ولىّ عليها معاوية (٤١ – ٦٠ ﻫ) مروان[٤] بن الحكم كاتب عثمان ابن عفان ومشيره ، ثم أقاله ، وولَّى عليها سعيد بن العاص ، ثم عزله وولى مروان ثانية . ويستطيع من ينظر فى مختتم السنين فى الطبرى أن يجد أسماء الولاة الذين

---

(١) الطبرى القسم الأول ص ١٩٨٠ وما بعدها .

(٢) اليعقوبى ٢/٢٠٦ .

(٣) اليعقوبى ٢/٢٩٧ .

(٤) الطبرى : القسم الثانى ص ١٦ .

توالوا عليها طوال العصر الأموى ، وأكثرهم من بيت بنى أمية ، ولم يُوَلَّ عليها من الأنصار سوى ابن حزم فى عهد سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز .

وكانت المدينة طوال العصر الأموى تقف موقف المعارضة من بنى أمية . ومن المعروف أنه لما استولى بنو أمية على الخلافة قامت معارضة واسعة ضدهم ، إذ كانوا من سلالة أشراف مكة فى الجاهلية ، ولم يكن لهم سابقة فى الإسلام ، بل على العكس من ذلك كانوا يناهضون النبى فى أول دعوته إلا قليلاً منهم ، ولم يسلم أكثرهم إلا بعد فتح مكة ، فكان كثير من المسلمين يرون أنهم غاصبون للخلافة[١] .

وانتشرت هذه الفكرة فى إقليمين كبيرين ، هما إقليما العراق والحجاز ، أما العراق فقد كان فيه الخوارج وكان فيه الشيعة ، وكان فيه أيضاً الموالى . يقول اليعقوبى : « فى عصر معاوية خرجت عصابة من الموالى أميرهم أبو على من أهل الكوفة ، وهو مولى لبنى الحارث بن كعب ، وكانت أول خرجة خرجت فيها الموالى »[٢] وحاربهم المغيرة بن شعبة وانتصر عليهم أحد قواده .

وهذه الطوائف الثلاث كان مركزها العراق وكان يقابلها فى الحجاز طوائف أخرى من قريش والأنصار ، وكانت المدينة مركز هذه الطوائف ، فقد كان بها بيت الزبير بن العوام ، ومنه خرج عبد الله ابنه ، ودعا لنفسه بالخلافة ، ودوَّخ جيوش بنى أمية ورجالهم حيناً ، وكان بها بيت على بن أبى طالب ، فإن الحسن بعد بيعته لمعاوية ذهب إلى المدينة[٣]، وكذلك صنع أخوه الحسين[٤]، ولم يلبث الحسين بعد وفاة معاوية أن خرج على يزيد ، وذهب إلى مكة ثم العراق حيث قُتل ، وبعد مقتله أرسل يزيد أهله إلى المدينة[٥] ، فكانَ أولاده وأولاد أخيه الحسن يعيشون فيها ، وكذلك كان يعيش فيها ابن الحنفية[٦] وغيره من بنى هاشم الذين كانوا يرون جميعاً أنهم أحق بالخلافة من بنى أمية .

وليست هاتان الأسرتان ، أسرتا الزبيريين والهاشميين ، هما وحدهما اللتان كانتا

---

(١) اليعقوبى ٢/٢٧٦ .

(٢) المصدر نفسه ٢/٢٦٢ .

(٣) الطبرى : القسم الثانى ص ٦ .

(٤) المصدر نفسه : القسم الثانى ص ٩ .

(٥) المصدر نفسه : القسم الثانى ص ٢٨٣ .

(٦) الأخبار الطوال للدينورى طبع ليدن ص ٣٠٨

تشعران باغتصاب بنى أمية للخلافة ، فقد كان يشعر شعورهما أسرة المخزوميين ، إذ كان كثير منها زبيريّ الهوى(١) . وأكبر الظن أن كثيراً من الأسر الأخرى كأسرة أبى بكر وعمر بن الخطاب كانت مغاضبة للأمويين أيضاً .

كان إذن كثير من القرشيين الذين يعيشون فى المدينة مغاضبين لبنى أمية ، وكان يذهب هذا المذهب نفسه جماعة الأنصار ، ولمغاضبتهم تاريخ قديم ، فإن الأنصار خذلوا عثمان(٢)، وبايعوا عليًّا بعد قتله مباشرة(٣) . ولما ذهب إلى العراق ذهب معه كثير منهم وعلى رأسهم أبو أيوب الأنصارى(٤) . وقد شهد صفين مع علىّ من أهل بدر سبعة وثمانون رجلاً ، منهم سبعون من الأنصار ، وشهدها معه ممن بايع تحت الشجرة ، وهى بيعة الرضوان ، تسعمائة(٥).

ولما دار الزمان دورته وأصبح معاوية هو الخليفة كان يعتبر أهل المدينة قتلة عثمان وأعداءه(٦)، ويقال إنه أرسل إليهم بُسْر بن أرطأة ، فأقام عندهم شهراً ، يستعرضهم ، ليس أحد ممن يقال هذا أعان على عثمان إلا قتله(٧).

لم تكن المدينة ولم يكن الأنصار من هوى معاوية ، وقد أغمدوا سيوفهم بعد قتل على وانتقال الخلافة إلى معاوية ، ولكن يظهر أنهم لم يغمدوا ألسنتهم ، فقد هجا عبد الرحمن بن حسان بن ثابت معاوية حين استلحق زياداً هجاء قبيحاً(٨)، واستفحل الشر بينه وبين عبد الرحمن بن الحكم فى المدينة فتهاجيا وتفاحشا(٩). ولم يستطع ابن الحكم أن ينتصر منه على ما يظهر . وهنا نجد يزيد ابن معاوية يرسل إلى كعب بن جُعَيْل كى يهجو له الأنصار ، فقال له : أرادِّى أنت إلى الإشراك بعد الإيمان ؟ لا أهجو قوماً نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن أدلّك على غلام منا نصرانى ، فدلّه على الأخطل ، فأرسل إليه ، فهجا الأنصار وعبد الرحمن بن حسان بقصيدة طويلة قال فيها :

---

(١) أغانى طبع دار الكتب ٣/٣١٦ .
(٢) مروج الذهب للمسعودى ٤/٢٨٤ وما بعدها
(٣) اليعقوبى ٢/٢٠٦ .
(٤) المسعودى ٤/٣١٠ .
(٥) المسعودى ٤/٢٩٥ .
(٦) الطبرى : القسم الثانى ص ٩٢ .
(٧) الطبرى : القسم الثانى ص ٢٢ ، وانظر المسعودى ٥/٤٦ واليعقوبى ٢/٢٦٥ .
(٨) ابن عبد ربه ٣/٢٩٨ .
(٩) أغانى (طبع بولاق) ١٣/١٥٠ .

ذهبتْ قريشٌ بالمكارم كلِّهـــا   واللؤمُ تحت عَمائم الأنصارِ(١)

وبينما نرى يزيد يصنع ذلك إذا بنا نجد معاوية يرسل إلى مروان بن الحكم واليه على المدينة أن يجلد أخاه عبد الرحمن كما يجلد عبد الرحمن بن حسان مائة سوط ، حتى تنطفئ هذه النار التى يؤججانها فى المدينة . ولبَّى مروان أمر معاوية فضرب ابن حسان مائة ، وضرب أخاه خمسين ، وبعث إلى ابن حسان بِحُلَّة ، وسأله أن يعفو عن الخمسين الأخرى ، فرضى عبد الرحمن بن حسان وقال ، وشاع قوله فى المدينة : ضربنى حدَّ الحر وضربه حدَّ العبد(٢).

كانت المدينة موالية لمعاوية إذن عن قهر وموجدة ، فلما توفى معاوية وانتقلت الخلافة إلى ابنه يزيد أخذت تتحين الفرص للخروج عليه ، وحدث أن أرسل إليها بعثمان بن محمد بن أبى سفيان، وهو فتى غِرّ لم تحنكه التجارب . حينئذ نجد المدينة تنتهز الفرصة فتثور على يزيد ، وتخرج عامله عثمان هو وبنى أمية جميعاً من المدينة إلى الشام ، وتتبعهم ترميهم بالحجارة(٣). وقد رجعت فبايعت عبد الله ابن حنظلة الغسيل(٤) . ولما علم يزيد أرسل إليها مسلم بن عقبة فى خمسة آلاف ، فأوقع بأهلها وقعة الحرّة المشهورة(٥)، وقد قُتل فيها خلق كثير(٦) ، ودخل مسلم المدينة وأباحها جيشه ثلاثة أيام(٧)، فنُهبت الأموال وهُتكت الحُرمات ، وفى أثناء ذلك أُخذت البيعة ليزيد من الناس على أنهم عبيد له(٨) . وبعث مسلم برؤوس أهل المدينة إلى سيده ، فلما أُلقيت بين يديه جعل يتمثل بقول ابن الزِّبَعْرى يوم أحد(٩) :

---

(١) انظر ابن عبد ربه ٣/١٤٠ ، والأغانى ١٤/١٢٢ حيث يرجع أبو الفرج المسألة إلى سبب شخصى !

(٢) أغانى ١٤/١٢٣ وما بعدها .

(٣) انظر اليعقوبى ٢/٢٩٧ وأغانى طبع دار الكتب ١/٢٣ .

(٤) الطبرى : القسم الثانى ص ٤٠٣ وابن سعد ٥/٤٧ .

(٥) انظر فى وقعة الحرة الطبرى : القسم الثانى ص ٤٠٥ وما بعدها .

(٦) انظر كلمة حرة فى معجم البلدان لياقوت إذ يذكر أنه قتل من الأنصار ١٧٠٠ ومن المهاجرين ١٣٠٠ غير من قتل من الموالى وكانوا خمسة آلاف .

(٧) الطبرى : القسم الثانى ص ٤١٨ .

(٨) اليعقوبى ٢/٢٩٨ .

(٩) ابن عبد ربه ٢/٣١١ وانظر ابن سلام ص ٨٩ وابن هشام ٣/١٤٣ .

ليت أشياخي ببدر شهدوا   جَزَعَ الخزرج من وقع الأَسَلْ[١]
لأهلّوا واستهلّوا فرحاً   ولقالوا ليزيدٍ لا فَشَلْ

ولم يلبث يزيد أن توفى ، فدخلت المدينة فى طاعة ابن الزبير ، واستمرت موالية له حتى قُتل ، فاضطرت راغمة أن تُذْعن للأمويين من بيت مروان بن الحكم . وقد زارها عبد الملك بن مروان سنة ٧٦ هـ ، فأغلظ لأهلها فى القول ، وقام خطباؤه فصنعوا مثل صنيعه[٢] . ورماها بهشام بن إسماعيل المخزومى سنة ٨٢ هـ ، فأساء السيرة ، وجار فى الأحكام ، وتحامل على آل رسول الله[٣] ، وتعرض لسعيد ابن المسيِّب فقيه المدينة ، وكان يُبْغض خلفاء بنى أمية ، فضربه ستين سوطاً ظلماً وعدواناً ، وطاف به[٤]

وحج الوليد سنة ٩١ هـ ، فمر بالمدينة ، لينظر إلى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما أصلح منه ، ولقيه أشرافها لقاء حسناً ، وقسم فيهم عطاءه ، ومع ذلك خطبهم فتوعدهم قائلاً لهم : إنكم أهل الخلاف والمعصية ، فقام إليه قوم فكلموه ، فقال ما نجهل ما تقولون ، ولكن فى النفوس ما فيها[٥]. وقد ولَّى عليها أولى الأمر عمر بن عبد العزيز ثم عزله ، وولى عثمان بن حيان المرِّىّ ، وكانت فيه شدة ، فطلب إليه أن يفرق من فيها من أهل الأهواء[٦] .

ونرى من كل ما سبق أن المدينة كانت موطناً من مواطن معارضة الأمويين ، وقد قسوا على أهلها كثيراً فى معاملتهم تارة بتوجيه الجيوش إليهم ، وتارة بإقامة ولاة يبطشون بهم . واستمرت المدينة مغاضبة لهم طوال خلافتهم ، لا تنسى خصومتهم ، وما أذاقوها من سوء العذاب .

---

(١) الأسل : الرماح
(٢) ابن عبد ربه ٢/٣٣٩ .
(٣) اليعقوبى ٢/٣٤٠ .
(٤) اليعقوبى ٢/٣٢٧ .
(٥) الطبرى : القسم الثانى ص ١١٦٩ .
(٦) الطبرى : القسم الثانى ص ١٢٦٠ .

٥

ثراء وحضارة

رأينا المدينة فى عصر الخلفاء الراشدين تصبح عاصمة الإمبراطورية الإسلامية فقد اجتاح العرب بلاد الفرس كما اجتاحوا بلاد الشام ومصر ، وقد أخذت الأموال تسيل إلى المدينة منذ ولى الأمر أبو بكر حتى من داخل الجزيرة نفسها ، فقد كان أول مال قسمه أبو بكر فى الناس ما وَّجه به العلاء الحَضْرمى من فتح بعض نواحى البحرين ، وقد فرقه فى الناس جميعاً أحراراً وعبيداً ديناراً لكل إنسان[١] . وأخذت أموال الفَىْء تنهال على المدينة بعد ذلك من فارس والشام ، فكان أبو بكر يقسم بين الناس بالسوية ولا يفضل أحداً على أحد[٢].

ولما جاء عمر جاءته كنوز الأرض مما كان يفتحه العرب ، فكان يوزع هذه الكنوز على المسلمين . روى الرواة أن أبا هريرة وفد عليه من البحرين فى أول خلافته فقال له : ما جئت به ؟ قال جئت بخمسمائة ألف ، قال : هل تدرى ما تقول ؟ قال : مائة ألف ومائة ألف وَعدَّ خمساً ، فخطب عمر فى الناس : إنه قدم علينا مال كثير ، فإن شئتم أن نعدَّه لكم عَدًّا ، وإن شئتم أن نكيله لكم كيلاً[٣]. وبلاد البحرين ليست أهم بلاد الإمبراطورية الإسلامية حينئذ ، وما جاء منها لا يعدل شيئاً مما أخذه المسلمون فى حروبهم من بلاد فارس ، وما أفاء الله عليهم من الغنائم فى الشام ومصر . وقد رُوىَ أن الأسلاب قُسمت بعد موقعة القادسية التى قُتل فيها رستم فبلغ سهم الفارس أربعة عشر ألفاً ، وسهم الراجل سبعة آلاف ومائة[٤]. ويقال إن خراج سواد الكوفة وحدها من بلاد العراق بلغ فى خلافة عمر ثمانين ألف ألف درهم فى أحد الأعوام ، وفى العام الذى يليه بلغ عشرين ومائة ألف ألف درهم ، وكان صاحب الكوفة يحمل إلى المدينة من هذا الخراج نحو عشرين

---

(١) اليعقوبى ٢/١٥١ .

(٢) اليعقوبى ٢/١٥٤ .

(٣) البلاذرى ص ٤٥٣ .

(٤) اليعقوبى ٢/١٦٥ .

أو ثلاثين ألف ألف[١] ويقول ابن الطقطقى : « لما كانت سنة خمس عشرة من الهجرة فى خلافة عمر رأى أن الفتوح قد توالت ، وأن كنوز الأكاسرة قد مُلكت ، وأن الحمول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تتابعت فرأى التوسيع على المسلمين وتفريق تلك الأموال فيهم ، ولم يكن يعرف كيف يصنع ، وكيف يضبط ذلك ، وكان بالمدينة بعض مرازبة الفرس ، فلما رأى حَيْرة عمر قال له : يا أمير المؤمنين ! إن للأكاسرة شيئاً يسمونه ديواناً ، جميعُ دَخْلهم وخرجهم مضبوط فيه ، لا يشذ منه شيء ، وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب ، لا يتطرق عليها خلل ، فتنبّه عمر وقال : صفه لى ، فوصفه المرزبان ، ففطن عمر لذلك ، ودوَّن الدواوين ، وفرض العطاء ، فجعل لكل واحد من المسلمين نوعاً مقرراً ، وفرض لزوجات الرسول صلى الله عليه وسلم ولسراريه وأقاربه[٢]. وقد بدأ عمر فى الديوان بالعباس عم النبى صلى الله عليه وسلم وبقية بنى هاشم ، ثم الأقرب فالأقرب إلى النبى ، وفرض للناس بحسب السابقة فى الإسلام ، ففرض لأهل بدر خمسة آلاف ، ثم فرض لمن بعد بدر إلى الحديبية أربعة آلاف أربعة آلاف ، ثم فرض لمن بعد الحديبية إلى أن أقلع أبو بكر عن أهل الردة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ، فى ذلك من شهد الفتح وقاتل . . . ثم فرض لأهل القادسية وأهل الشام ألفين ألفين ، وفرض لأهل البلاء البارح منهم ألفين وخمسمائة ألفين وخمسمائة . . . وفرض لمن بعد القادسية واليرموك ألفاً ألفاً . . . وأعطى نساء النبى عشرة آلاف عشرة آلاف . . . وجعل نساء أهل بدر فى خمسمائة خمسمائة ، ونساء مَنْ بعدهم إلى الحديبية فى أربعمائة أربعمائة ، ونساء من بعد ذلك إلى القادسية فى ثلثمائة ثلثمائة ، ونساء أهل القادسية فى مائتين مائتين ، ثم سوَّى بين النساء بعد ذلك وجعل الصبيان سواء فى مائة مائة[٣].

وإنما سقنا ذلك لندل على مدى ما كان يصيبه أهل المدينة من أموال فى عصر الخلفاء الراشدين . وهذا غير ما كان يجلبه الذين اشتركوا منهم فى الحرب والفتوح . واستمرت موجة هذه الفتوح والحروب فى ارتفاعها طوال حكم عمر ،

---

(١) اليعقوبى ١٧٤/٢ .

(٢) الفخرى (طبع أوروبا) ص ١٠١ .

(٣) الطبرى : القسم الأول ص ٢٤١٢ وما بعدها .

حتى إذا كان عصر عثمان أخذت تتوقف ، ومع ذلك فالبلاذرى يروى أن عبد الله ابن سعد بن أبي سرح صالح بطريق إفريقية بعد فتحها فى عهد عثمان على ثلثمائة قنطـار من الذهب ، وقدَّر ذلك بعض المؤرخين بمليونين ونصف من الدنانير[١] . ويقال إن عثمان أمر لمروان بن الحكم بخمس هذا المال[٢].

ولم تدخل هذه الأموال فى المدينة وحدها منفصلة عن كل ما كان يتصل بها فى البلاد الأجنبية ، بل لقد دخلت ومعها الرقيق الذى كان يُسْبَى فى الحروب من رجال ونساء . وأول رقيق دخل المدينة كان فى عهد عمر ، إذ أرسل إليه معاوية بأربعة آلاف من سَبْي قَيْسارية[٣] ، ودخل المدينة بعد ذلك رقيق آخر كثير . وما من ريب فى أن هذا الرقيق كان يفهم من الحضارة ألواناً لا يفهمها أهل المدينة القدماء ، وقد كان منه فرس وشاميون وأفريقيون فأخذوا يؤثرون فى حياة أهل المدينة تأثيراً عميقاً وهو تأثير بدأ طفيفاً أول الأمر ، وخاصة فى عصر عمر ، إذ كان يدعو إلى الارتباط بالحياة القديمة وعدم الانفصال عنها[٤].

ونحن لا نترك عهد عمر إلى عهد عثمان حتى نحس أن أهل المدينة تغيروا تغيراً كثيراً عما كنا نعهدهم عليه من تقشف . ويكفى فى تصوير ذلك ما تركه كبار الصحابة من ثروات ، فقد روى الرواة – إن صحَّ ما يروونه – أن طلحة بن عبيد الله خلف ثلثمائة بهار من ذهب وفضة ، والبهار مزود من جلد عجل[٥] ، ويقول المسعودى – إن صحّ ما يقول – : إن الزبير خلف خمسين ألف دينار ، بينما خلف زيد بن ثابت مائة ألف دينار ، ومات يعلى بن مُنية عن خمسمائة ألف دينار ، وديون وعقارات قيمتها ثلثمائة ألف دينار ، وبلغ الربع فى تركة عبد الرحمن بن عوف أربعة وثمانين ألف دينار . أما عثمان فقد خلف خمسين ومائة ألف دينار ، وألف ألف درهم ، وعقارات قيمتها مائة ألف دينار . وقد عقب المسعودى بعد ذكره لهذه التركات بقوله : وهذا باب يتسع ذكره ، ويكثر وصفه ، فيما تُملِّك من الأموال فى أيام عثمان ، ولم يكن مثل

---

(١) البلاذرى ص ٢٢٧ .

(٢) اليعقوبى ١٩١/٢ .

(٣) البلاذرى ص ١٤٢ .

(٤) العقد الفريد لابن عبد ربه ١٨/١ وانظر الوزراء والكتاب للجهشيارى طبعة الحلبى ص ١٩ وكذلك الطبرى : القسم الأول ص ٢٧٤٧ .

(٥) ابن عبدربه ٢٧٩/٢ .

ذلك فى عصر عمر بن الخطاب . . .وحج عمر فأنفق فى ذهابه ومجيئه إلى المدينة ستة عشر ديناراً وقال لولده عبد الله : قد أسرفنا(١) ! . وهذا إن صح إنما هو نمو طبيعى للأموال التى انهالت على المدينة فى عصر عمر ، وما جناه قواد الحرب من غنائم فى أثناء الفتوحات .

على كل حال اتسع ثراء المدينة منذ عثمان ، واتسعت معه الرفاهية ، أو أخذت تظهر الرفاهية ، ولم تكن معروفة فى عصر عمر كما يلاحظ ذلك المسعودى . وكان من مظاهر هذه الرفاهية الواضحة اتخاذ القصور وبناؤها بالآجر والجص واتخاذ أبوابها من الساج ، وبدأ ذلك – فيما يقال – عثمان الخليفة نفسه(٢)، وتبعه أعيان أهل المدينة من مثل سعد بن أبى وقاص ، وطلحة ، والمقداد ، وعبد الرحمن ابن عوف . أما سعد فيقال إنه ابتنى له داراً بالعقيق ، رفع سمكها ، ووسّع فضاءها ، وجعل على أعلاها شُرفات ، وأما طلحة فيقال أيضاً إنه ابتنى له داراً بالجِصّ والآجرّ والساج ، وأما المقداد فكانت داره بالموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة ، وجعل على أعلاها شُرفات ، وصيَّرها مجصَّصة الظاهر والباطن ، وكذلك بنى عبد الرحمن بن عوف له داراً كبيرة(٣) .

ونحن لا نمضى فى العصر الأموى حتى نجد أولاد الصحابة يخلفونهم على هذا الثراء وهذه الأموال والقصور ، وقد دوَّن عمر ديوان العطاء وأصبح لكل شخص فى المدينة عطاء مميَّز به . وانتقلت عاصمة الخلافة إلى دمشق ومع ذلك ظلت المدينة لا تحرَم من فئ الفتوح ، فقد رُوى عن الوليد بن عبد الملك الذى فُتحت فى عهده الأندلس ، كما فُتح شطر كبير من الهند ، أنه زار المدينة ، وقسم فيها رقيقاً كثيراً بين الناس ، كما قسم آنية من الذهب والفضة وأيضاً فإنه قسم أموالاً(٤) ومعروف أن معاوية وضع نصب عينيه استرضاء خصومه بالمال ، فكان يكثر من عطاياه على كل من يفد عليه من المدينة . وتبع معاوية غيره من خلفاء بنى أمية فى هذا التقليد ، فكانوا يجيزون من يفد عليهم جوائز سنية ، يريدون بذلك أن

---

(١) انظر مروج الذهب ٢٥٣/٤ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر ٢٥٣/٤ .

(٣) مروج الذهب للمسعودى ٢٥٤/٤ وما بعدها وانظر الطبرى : القسم الأول ص ٢٨٦٠ حيث يذكر أن بناء الدور فى هذا العهد بلغ سلعاً .

(٤) الطبرى : القسم الثانى ص ١٢٣٣ .

يصطنعوهم لأنفسهم ، وأن يتقوا موجدتهم وغضبهم . وكان بيت بنى هاشم على رأس البيوت التى تُسْتقبل استقبالاً كريماً فى دمشق ، فكان معاوية إذا وفد عليه أحد منهم وصله بالجوائز(١) ، ويروى أن الحسن وفد عليه فأجازه بمائة ألف(٢) ، وقبل ذلك حين صالحه جعل له ما فى بيت ماله وخراج دارابجرد ، فأخذ ما فى بيت ماله فى الكوفة ، وكان فيه خمسة آلاف ألف(٣).

وذهب معاوية ، وجاء يزيد ، فاستن سنة أبيه فى اصطناع الناس بالمال ، وقد أعطى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب أربعة آلاف ألف(٤) ، وبعث إليه عثمان بن محمد بن أبى سفيان عامله على المدينة وفداً منها ، فأحسن إليهم ، وأعظم جوائزهم ، وأعطى كلا منهم مائة ألف درهم(٥) ، ووفد عليه عبد الله بن حنظلة زعيم الأنصار فى المدينة ومعه ثمانية بنين فأعطاه مائة ألف درهم ، وأعطى بنيه لكل واحد منهم عشرة آلاف سوى كسوتهم وما حملهم عليه(٦).

ولما تبعت المدينة عبد الله بن الزبير كان شحيحاً ، ولكن أخاه مصعباً كان جواداً كريماً ، فلما ولاه أخوه على العراق كان يصل أهل المدينة ، وقد أعطى عاصم بن عمر ستة عشر ألف دينار ، وأعطى عبد الله بن جعفر ضعف ذلك(٧) . ويروى أنه أهدى صديقاً له فى المدينة وهو عبد الله بن أبى فروة كنزاً وجده عامله فى خراسان ، وهو نخلة كانت لكسرى مصنوعة من الذهب عثاكيلها من لؤلؤ وجوهر وياقوت أحمر وأخضر ، وقد قوَّمها المقومون لمصعب بألفى ألف دينار ! فكان ابن أبى فروة أيسر أهل المدينة(٨) .

ولما استقامت الخلافة لبنى مروان أخذوا يقطعون ألسنة الناس وعلى رأسهم أهل المدينة بالمال ، وكان خلفاؤهم يذهبون أحياناً إليها ويقسمون فيها قسماً كثيرة على نحو ما صنع الوليد كما مر آنفاً ، وقد زارها سليمان بن عبد الملك سنة ٩٧ هـ فقسم فيها أموالاً وفرض لقريش خاصة أربعة آلاف فريضة(٩) .

---

(١) الفخرى ص ١٢٧ .
(٢) ابن عبدربه ١٤٥/١ .
(٣) الطبرى : القسم الثانى ص ٤ .
(٤) ابن عبد ربه ١٤٥/١ .
(٥) الطبرى : القسم الثانى ص ٤٠٢ .
(٦) المصدر نفسه : القسم الثانى ص ٤٢٢ .
(٧) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٤٦ .
(٨) الجهشيارى ص ٤٤ .
(٩) اليعقوبى ٣٥٨/٢ .

ومهما يكن فإن كثيرين من أهل المدينة اتسع بهم الثراء فى العصر الأموى اتساعاً شديداً ، إما بفضل ما جاءت به الفتوح آباءهم قديماً ، ونَمَّوه حديثاً ، وإما بفضل ما كان يُصَبُّ فى حجورهم من خزائن دمشق ، وقد كان ديوان العطاء مدداً مستمرًّا لا ينفد ، ولم يُروَ أنه انقطع عنهم ما يأتيهم منه ، إلا سنة واحدة فى عصر هشام بن عبد الملك . فإنه منعهم عطاءهم حين خرج عليه زيد بن على ، ولكنه لم يلبث أن توفِّى فأعاده عليهم الوليد بن يزيد(١) .

كان أهل المدينة فى يسار ونعمة طوال هذا العصر الأموى ، بل كان كثير منهم ثريًّا واسع الثراء ، وكان يقترن بهذا الثراء ضروب واسعة من الحضارة لم تعرفها المدينة قبل هذا العصر. وفرق بين حضارة سكان المدينة فى هذا العصر ، وهم الذين تعوَّد أصحاب الحديث أن يسموهم بالتابعين ، وسكانها فى عصر الخلفاء الراشدين ، وهم الذين تعوَّد أصحاب الحديث أيضاً أن يسموهم بالصحابة . وحقاً أن الصحابة اطلعوا على ما عند الأمم الأجنبية واقتبسوا منهم ، ولكن اقتباسهم كان محدوداً جدًّا ، وخاصة قبل عصر عثمان . وبدأ هذا الاقتباس يتسع فى عصر عثمان ، فبنى بعض الصحابة الدور والقصور ، ولكنه كان على كل حال اقتباساً فى حدود ضيقة . أما فى هذا العصر الأموى فقد نشأ جيل آخر لم تكن له صلة بالجاهلية ولا بالحياة القديمة إلا ما يروى من أخبارها ، أما صلته كلها فبالحضارة الأجنبية التى دخلت كل شىء فى حياته ، وهو جيل التابعين ، وكان خليطاً من العرب والموالى(٢) ، وهم جماعة من الأجانب الذين سبوا فى الفتوح هم وأبناؤهم ، وكانوا كثيرين فى المدينة منذ كانت الفتوح فى عهد أبى بكر وعمر ، وقد ترك الزبير بن العوام وحده منهم ألف عبد وأمة(٣) ، وكان غيره من الصحابة تكتظ بيوتهم بهم .

وكان هؤلاء الموالى يشتركون فى حياة المدينة ، سلمها وحربها ، ففى وقعة الحرة قُتل منهم خمسة آلاف ، وفى السلم كانوا ينهضون بإعداد الحياة لهؤلاء الأنصار والمهاجرين ، إذ كانوا يقومون على خدمتهم . يقول ابن خلدون : « لما ملك العرب

---

(١) أغانى طبع دار الكتب ٢٢/٧ .

(٢) انظر ابن سعد : الجزء الخامس حيث يترجم أولاً للتابعين من قريش والأنصار فى المدينة ثم يترجم للموالى .

(٣) المسعودى ٢٥٤/٤ .

فارس والروم استخدموا بناتهم وأبناءهم ، ولم يكونوا لذلك العهد فى شيء من الحضارة ، فقد حُكى أنه قُدِّم لهم المرقّق ، فكانوا يحسبونه رِقاعاً ، وعثروا على الكافور فى خزائن كسرى ، فاستعملوه فى عَجينهم ، فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم ، واستعملوهم فى مهنهم وحاجات منازلهم ، واختاروا منهم المهرة فى أمثال ذلك والقوَمة عليه أفادوهم علاج ذلك ، والقيام على عمله ، والتفنن فيه ، مع ما حصل لهم من اتساع العيش ، والتفنن فى أحواله ، فبلغوا الغاية من ذلك ، وتطوروا بطور الحضارة والترف فى الأحوال ، واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمبانى والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخُرْثىّ . . فأتوا من ذلك وراء الغاية »[١] .

وقد حجز ابن الخطاب أهل المدينة دون هذه الحضارة التى جلبوها من الخارج[٢]، إذ كان يكره للعرب من سكان المدينة وغيرهم أن يأخذوا بأسباب الحضارة الأجنبية ، وأن ينعموا بملذاتها فى المطعم والمشرب والمسكن ، ولكن لا يذهب عمر ، حتى نجدهم يقبلون على هذه الحضارة وما تستتبعه من رفاهية ، وقد بدءوا ذلك منذ عثمان ، فاتخذوا الدور والقصور على ما مر فى غير هذا الموضع ، وكلما تقدم بهم الزمن ازدادوا فى الاخذ من هذه الحضارة والرفاهية .

ونحن لا نكاد نمضى فى العصر الأموى حتى نجد أهل المدينة يضربون فى الحضارة الأجنبية بحظ بل بحظوظ ، فعرفوا كثرة الألوان فى الأطعمة[٣] ، وأكلوا فى أوانى الذهب والفضة[٤] .

وكما عرف أهل المدينة التنعم فى المطعم عرفوا التنعم فى الملبس فاتخذوا الخَزّ والديباج والإسْتَبْرق . ومن طريف ما يُرْوَى عن السيدة عائشة أنها سئلت عن ثوبها فى زمن الرسول ، فقالت : أما والله ما كان خَزًّا ولا قَزًّا ولا ديباجاً ولا قطناً ولا كتاناً . . . إنما كان سَداه من شعر ، ولُحْمته من أوبار الإبل[٥] .

تغيرت ثياب نساء المدينة فكن يلبسن الديباج والحرير[٦] ، والقطن والكتان ،

---

(١) مقدمة ابن خلدون (طبع بولاق) ص ١٤٤ .

(٢) انظر ابن عبد ربه ٧/١ وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد طبع القاهرة ١٠١/٣ .

(٣) المستطرف للأبشيهى طبع المطبعة العثمانية بمصر ١٦٢/١ .

(٤) ابن عبد ربه ١١١/١ وانظر ابن سعد ١٢٦/٤ .

(٥) ابن عبد ربه ٣٩٤/١ .

(٦) ابن سعد ٣٥٢/٨ .

وكن يلبسن الثياب المعصفرة ، والثياب الرقيقة الشفافة . ولم يقف الأمر فى ذلك عند النساء فقد أخذ الرجال يلبسون المضرّجات والممصّرات والملوّنات[١]، ويروى أن أول من لبس الطيلسان فى المدينة جُبَيْر بن مطعم[٢]، وكان فتية بنى مروان يرفلون فى القوهىّ والوشى كأنهم الدنانير الهرقلية[٣]، واشتهر عبد الله بن جعفر بلبس الخزّ[٤] ، وكان مروان بن أبان بن عثمان يلبس سبعة قمص كأنها درج بعضها أقصر من بعض ، وفوقها رداء عدنى بألفى درهم[٥] ، وكان عمر بن عبد العزيز ، وهو وال على المدينة ، يلبس الثوب بأربعمائة ، فيقول : ما أخشنه وأغلظه[٦] .

وكانوا يتخذون الطيب ويكثرون منه ، ومما يدل على مدى اتخاذهم له ما يروى عن هارون بن صالح عن أبيه أنه قال : «كنا نعطى الغسّال الدراهم الكثيرة حتى يغسل ثيابنا فى إثر ثياب عمر بن عبد العزيز من كثرة الطيب فيها يعنى المسك[٧]» ، وكان ذلك فى ولايته على المدينة وقبل أن يتزهد ، وعمر إنما كان يجارى شباب المدينة فى طيبه ومسكه .

وعلى نحو ما بالغ أهل المدينة لعصر بنى أمية فى ملابسهم وطيبهم بالغوا فى حليّهم وجواهرهم فكان النساء يتحلين باللؤلؤ والياقوت[٨] ، واشتهرت السيدة عائشة بنت سعد ابن أبى وقاص بزينتها من قلائد الذهب[٩] ، كما اشتهرت السيدة سُكينة بنت الحسين بأنها كانت تثقل ابنتها بالحلى واللآلئ[١٠] وقلد الرجال النساء ، فكانوا يتخذون مثلهن الحلى والجواهر[١١] .

ولا شك أن هذا كله إنما تَمَّ تحت تأثير الحضارة الجديدة التى دخلت المدينة ، والتى أخذ أهلها يغرقون فيها إلى آذانهم ، فهم يرصّعون حياتهم ويحيلونها حلية وزينة خالصة .

---

(١) أغانى طبع دار الكتب ٦/١٣ وانظر طبعة بولاق ١٨/٢٠٤ .
(٢) المعارف لابن قتيبة (طبع جوتنجن) ص ٢٧٤.
(٣) أغانى طبع دار الكتب ١/٣١٠ .
(٤) أغانى طبع بولاق ١١/٧٦ .
(٥) أغانى ١٧/٨٩ .
(٦) ابن سعد ٥/٢٤٦ .
(٧) أغانى طبع دار الكتب ٩/٢٦٢ .
(٨) أغانى ٨/٢٧٣ .
(٩) ابن سعد ٨/٣٤٣ .
(١٠) أغانى طبع بولاق ١٤/١٦٨ .
(١١) أغانى طبع دار الكتب ٨/٢٧٨ .

٦

ترف

تحضر أهل المدينة كما رأينا ، وأدى بهم هذا التحضر إلى ترف واسع فى العصر الأموى ، وماذا ينقصهم ليكونوا مترفين ؟ إن المال تحت أيديهم ، وهم يصيبون منه ما يريدون ، وهم يتنعمون به ما شاءوا من ألوان النعيم .

ونحن لا نستطيع الآن أن ندرك إدراكاً دقيقاً ما كان عليه القوم من ترف ، لأن النصوص التى تمثل ذلك فى الأغانى والطبرى وغيرهما قليلة ، وإن ألمت بشخص تركت أشخاصاً ، وإن ألمت ببيت تركت بيوتاً . وما من ريب فى أن بيوت بنى هاشم وبنى أمية والزبيريين والمخزوميين دخلها الترف ، فبين أيديها المـــال الكثير الذى يهيئ لها كل ما تريد . ولعل مما يصور ذلك ما يروى عن حمزة بن عبد الله ابن الزبير من أن ابن قيس الرقيات وفد عليه فأعطاه أربعة آلاف دينار[١] ، واقترض منه ابن قطن مولى معبد ألف دينار ثم جاء يردها إليه فأبى أن يأخذها[٢]، وكان معبد منقطعاً إليه يغنيه فيما يمدحه به الشعراء[٣]. وأمثال حمزة من الأثرياء المترفين فى المدينة كثير ، ولعل خير من يمثلهم فى هذا العصر عبد الله بن جعفر ابن أبى طالب ، وكان جواداً سمحاً ، فكان يعطى الشعراء عطايا كثيرة . ويقول صاحب الأغانى إن أهل المدينة كان يقترض بعضهم من بعض إلى أن يأتى عطاؤه[٤]. ويقول الرواة إن الحجاج تزوج ابنته فأمهرها تسعين ألف دينار[٥] ، أى نحو خمسين ألف جنيه ، وهو صداق لا تستطيع بنات الأثرياء ثراء واسعاً أن تشرئب أعناقهن إليه فى هذا العصر .

وكان عبد الله على ما يظهر مترفاً فى حياته ، حَدَّث صاحب الأغـــانى أن عبد الملك بن مروان منع ابن قيس الرقيات عطاءه من بيت المال ، وطلبه ليقتله ،

---

(١) أغانى طبع دار الكتب ٩٣/٥ .
(٢) المصدر نفسه ٣٦٤/٣ .
(٣) المصدر نفسه ١٠٣/٥ .
(٤) أغانى طبع بولاق ٦٩/١١ .
(٥) ابن عبدربه ٢٩٢/٣ .

فاستجار بعبد الله بن جعفر ، وقصده فألفاه نائماً ، ولما كان صديقاً لسائب خاثر (المغنى مولى ابن جعفر) ، وطلب الإذن على ابن جعفر فتعذر ، جاء سائب خاثر ليستأذن له عليه ، قال سائب : فجئت من قبل رِجل عبد الله بن جعفر فنبحت نباح الكلب الهرم ، فانتبه ، وفتح عينيه ، فرآنى ، فقال : مالك ويحك ؟ ! فقلت : ابن قيس الرقيات بالباب ، فقال : ائذن له ، فأذنت له ، فدخل إليه ، فرحب ابن جعفر به ، وقربه ، فعرفه ابن قيس خبره ، فدعا بظبية (جراب) فيها دنانير وقال : عدّ له منها ، فجعلت أعدّ وأترنم ، وأحسِّن صوتى بجهدى ، حتى عددت ثلثمائة دينار فسكت ، فقال لى عبد الله مالك ويلك سكت ؟ ! ما هذا وقت قطع الصوت الحسن ، فجعلت أعدّ ، حتى نفد ما كان فى الظبية ، وفيها ثمانمائة دينار ، فدفعتها إليه [١] .

أرأيت إلى هذه الحادثة الطريفة ؟ إنها تصور لنا ترف العصر ، فهذا ابن قيس الرقيات لا يستطيع أن يدخل بيت ابن جعفر إلا بعد استئذان ، وهو يستأذن عليه فيتعذر لقاؤه له ، فيأتى مولى له يألفه ، كى يدخله عليه . ويقبل سائب خاثر فيجد ابن جعفر نائماً ، فيصطنع معه أسلوباً يدل على ما كان به من ترف . إن ابن قيس الرقيات بالباب ، وسائب خاثر يخشى أن يعلم به والى المدينة ، فيأخذه إلى عبد الملك ، كى يقضى فيه ما هو قاض ، ليس أمامه إلا أن يوقظ ابن جعفر ولكن كيف يوقظه ؟ لقد أتاه من قبل رجله فنبح نباح الجرو الصغير ، فانتبه ابن جعفر ولم يفتح عينيه ، وركله برجله ، فأتاه من قبل رأسه ، ونبح نباح الكلب الهرم ، فانتبه ، وفتح عينيه ، حينئذ حدثه بخبر ابن قيس .

وما أرتاب فى أننا لو سمعنا هذا الخبر فى عصرنا يحكى عن شخص مترف لعجبنا عجباً شديداً ولذهبنا نتخيل صوراً كثيرة عن ترفه . وأجار عبد الله بن جعفر صاحبه ، ولم يكتف بذلك بل أخذ يهدئ من روعه بالذهب يلقيه فى حجره بتلك الصورة من عدّ سائب خاثر وغنائه على عده . وأكبر الظن أن ابن جعفر لم يكن بدعاً فى عصره ، بل كان يستنّ بترف قومه .

---

(١) أغانى طبع دار الكتب ٥/٨١ .

وكما كان الرجال مترفين كانت النســـــاء مترفات ، ولعل ترفهن كان أوسع من ترف الرجال بعامل ما فى طبع المرأة من ميل إلى التأنق والزينة . وخير من يمثل نساء المدينة المترفات فى هذا العصر سيدتان من أنبل السيدات ، هما : السيدة عائشة بنت طلحة ثم السيدة سُكينة بنت الحسين .

وكانت السيدة عائشة عند عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر ، ثم توفِّى ، فتزوجها مصعب بن الزبير ، وأمهرها ألف ألف درهم(١) ، وتوفِّى عنها ، فتزوجها عمر بن عبيد الله بن معمر التَّيْمى ، ومات عنها ولم تتزوج بعده (٢)، وكانت إذا حجت ذهبت ومعها ستون بغلاً عليها الهوادجِ والرحائل ، فتعرَّض لها عروة بن الزبير فقال :

عائشُ يا ذات البغالِ الستِّينْ أكلَّ عــام هــكذا تحجّينْ

فأرسلت إليه نعم يا عريَّة (٣). ويروى أن عاتكة بنت يزيد بن معاوية استأذنت عبد الملك فى الحج فقال لها : « ارفعى حوائجك واستظهرى ، فإن عائشة بنت طلحة تحجّ ، ففعلت ، فجاءت بهيئة جَهِدَتْ فيها ، فلما كانت بين مكة والمدينة إذا موكب قد جاء فضغطها ، وفرَّق جماعتها ، فقالت : أرى هذه عائشة بنت طلحة ، فسألت عنها ، فقالوا هذه خازنتها ، ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك ، فقالوا : عائشة عائشة ، فضغطهم ، فسألت عنه ، فقالوا هذه ماشطتها ، ثم جاءت مواكب على هذه الهيئة إلى سَننها ، ثم أقبلت كوكبة فيها ثلثمائة راحلة ، عليها القباب والهوادج ، فقالت عاتكة ما عند الله خير وأبقى »(٤).

وإذا كانت بنت الخليفة يزيد حفيدة معاوية لا تبلغ مبلغ عائشة بنت طلحة فى زينتها وهيئتها ، فماذا كانت هذه الهيئة والزينة ؟ إننا لو سمعنا فى هذا العصر أن أميرة تحج على هذا النحو لهبَّ المصورون من آفاق العالم يأخذون صورها ويذيعونها على الصحف . وقد قالوا إن مصعباً أهداها ثمانى حبات من اللؤلؤ قيمتها عشرون ألف دينار ، فلما دخل عليها ليقدم هديته وجدها نائمة ، فأيقظها ، فلما رأت الهدية لم تُعْنَ بها ، وقالت : كان النوم أحبّ إلىّ(٥). وقد رُوِى أنها لما تأيَّمت كانت

---

(١) أغانى طبع بولاق ٥٨/١٠ .
(٢) أغانى طبع دار الكتب ٣٨٠/٢ .
(٣) أغانى ٦٠/١٠ .
(٤) أغانى ٦٠/١٠ .
(٥) المصدر نفسه ٥٧/١٠ .

تقيم بمكة سنة وبالمدينة سنة ، وتخرج إلى مال لها بالطائف عظيم وقصر لها ، فتتنزه وتجلس فيه بالعشيات ، فتناضل بين الرماة ، ثم يفد عليها الشعراء فتجيزهم[١].

وكانت تشركها فى كثير من جوانب هذه الصورة المترفة السيدة سُكَيْنة بنت الحسين ، كانت قد تزوجت عبد الله بن الحسن بن على ، وهو أول أزواجها[٢] ، ولما قتل مع أبيها تزوجت بعده مصعب بن الزبير ، فأمهرها ألف ألف درهم[٣] ولما قتل تزوجت عبد الله بن عثمان الخزامى ، ثم زيد بن عمرو بن عثمان ، ثم الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان[٤].

ويقول صاحب الأغانى : « كانت السيدة سكينة عفيفة برزة من النساء تجالس الأجلة من قريش ، ويجتمع إليها الشعراء[٥] » . ويقول أيضاً : « إنها كانت أحسن الناس شعْراً ، وكانت تُصَفِّف جُمَّتها تصفيفاً لم يُـرَ أحسن منه ، حتى عُرف ذلك ، وكانت تلك الجمة تسمى السُّكَيْنِيّة ، وكان عمر بن عبد العزيز – فى ولايته على المدينة – إذا وجد رجلاً يصفِّف جُمَّته السكينية جَلَده وحَلَقه »[٦].

وكان للسيدة سكينة ذوق جيد فى الشعر ، فكانت تنقد الشعراء وتفاضل بينهم[٧] وكان أشعب مضحك أهل المدينة يختلف إليها كثيراً لإضحاكها وجلب السرور إليها[٨].

ومن خير ما يصور ترفها ما يُرْوَى عنها من أنها حجت ، ورمت الجمار ، فسقطت من يدها الحصاة السابعة ، فرمت بخاتمها ![٩]. ويروى أنها استبدلت مالها بالزوراء بقصر فى العقيق يسمى البريدى ، فلما سال العقيق خرجت ومعها جواريها تمشى حتى جاءت السيل ، فجلست على جَرْفه ، ومالت برجليها فى السيل ، ثم قالت : والله لهذه الساعة فى هذا القصر خير من الزوراء[٩]. ويروى الرواة أنها توفيت فلم تدفن فى اليوم نفسه فاشتروا لها عوداً من الطيب بأربعمائة

---

(١) أغانى ٦١/١٠ .
(٢) أغانى ١٦٨/١٤ .
(٣) المصدر نفسه ١٦٨/١٤ والمعارف لابن قتيبة ص ١٢٠ .
(٤) انظر فى أزواجها الأغانى ١٦٨/١٤ وما بعدها .
(٥) أغانى ١٦٥/١٤ .
(٦) أغانى ١٦٥/١٤ .
(٧) أغانى ١٧٣/١٤ .
(٨) أغانى ١٦٨/١٤ .
(٩ ، ٩) أغانى ١٧٢/١٤ .

دينار ظل مشتعلاً بجوارها طوال الليل[١] حتى يعبق الجو من حولها بالأريج العطر .

وأكبر الظن أن ما يروى عن السيدة سكينة إنما هو رمز لترف البيئة ، فقد كانت المدينة ، رجالها ونساؤها فى العصر الأموى ، غارقة فى ألوان الترف وأصباغ النعيم .

٧

بعض فنون اللهو

وهذه الحياة المترفة لأهل المدينة فى العصر الأموى اقترن بها فراغ واسع ، إذ كانت الدولة منصرفة عنهم ، فقلما استخدمتهم فى شئونها ، لما عرفت فيهم من معارضتهم لها . وهذا الفراغ ، أو قل هذا التعطل كان لا بد لهم أن يملئوه ، وقد ملأته كثرتهم بفنون من اللهو المختلفة ، وكان الغناء على رأس هذه الفنون ، فإن أهل المدينة شُغفوا به فى هذا العصر شغفاً شديداً ، وقد نمّاه لهم مواليهم الذين كانت تكتظ بهم بيوتهم ، وسرعان ما نجد فى المدينة دوراً خاصة بالغناء يقصد إليها الناس لسماعه . ولم يكن الغناء كل ملاهيهم ، فقد لهوا بطيران الحمام وبالرمى على الجلاهقات ، وهى قوس البندق[٢] ، كما لهوا بالنرد[٣] والشطرنج[٤] .

وطبيعى أن تشيع بعض فنون اللهو فى المدينة بعامل ما كان هناك من فراغ وثراء وتحضر وترف . وشاع حينئذ لهو من نوع آخر ، وهو نوع لا يشيع إلا بعد أن تتحضر الأمة أو المدينة من المدن ، وتترف ، فيوجد من أبنائها من يتخذون أناساً يضحكونهم ويملئون جوهم بالسرور . وكان أشعب مضحكَ المدينة فى هذا العصر ، وقد بدأ حياته فى بيت السيدة عائشة بنت عثمان ، ويقال إنها دفعته إلى البزازين فمكث عندهم حولا ، فسألته بعد الحول عما تعلمه ، فقال لها : تعلمت نصف العمل وبقى نصفه ، قالت : وما تعلمت ؟ فقال : تعلمت النَّشْر وبقى الطى[٥] .

---

(١) أغانى ١٤/١٧٨ .

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى (طبع المطبعة الميمنية) ص ٦٤ .

(٣) أغانى طبع بولاق ١٧/١٠٢ .

(٤) أغانى طبع دار الكتب ٤/٥٢ .

(٥) أغانى ١٧/٨٥ .

وكان يعجب بأشعب أشراف المدينة وشريفاتها فكان يجلس إليهم جميعاً ، ويقيم عندهم فى دورهم أياماً ، وله مع السيدة سُكَيْنة نوادر كثيرة . يُروى أنها غضبت منه يوماً فحلفت ليحلقن لحيته ودعت بالحجّام فقالت له : احلق لحيته . فقال له الحجام : انفخ شدقيك حتى أتمكن منك ، فقال له : أأمرتك أن تحلق لحيتى أو تعلمنى الزمر[١] . وكان زوج السيدة سكينة زيد بن عمرو ابن عثمان بخيلاً ، فكان إذا وضع الأكل وأقبل عليه بعض الناس رفعه ، وقال علىَّ بالترياق والماء الحار ، وتصادف أن صنع ذلك أياماً متتالية ، وانصرف الضيوف يوماً ، فأحضر الأكل ، وكان دجاجاً ، فقال : يا أشعب هل إلى إسخان هذا الدجاج سبيل ؟ فقال له : أخبرنى عن دجاجك هذا هل هو من آل فرعون ؟ فهو يعرض على النار غُدُوًّا وَعِشيًّا[٢] .

ومما يروى من فكاهاته أن امرأة قالت له : هب لى خاتمك أذكرك به ، قال : اذكرينى أن منعتك إياه فهو أحب إلىّ[٣] . ويروى أيضاً أن أمرأة كان يتودد إليها ويدخل منزلها سألته أن يهديها شيئاً ففرَّ فزعاً ومكث شهرين لا يقرب منزلها ، ثم جاءها ذات يوم ، فأرسلت إليه قدحاً ملآن ماء ، وقالت : اشرب هذا من الفزع ، فقال : اشربيه أنت من الطمع[٤] .

وهكذا كان أهل المدينة يتناقلون فكاهات أشعب ، كما كانوا يتناقلون فكاهات مضحك آخر يسمى الناضرى[٥] . ولا شك أنهما كانا يشيعان فى المدينة جوًّا مرحاً ، كله الضحك والهزل . وكان كثير من أهل المدينة أنفسهم ومن أشرافها يصنع صنيعهما لا من إضحاك الناس ، ولكن من العناية بالفكاهة ، وماذا نريد إلى قوم فارغين حجورهم مملوءة بالمال ، وكل ما يطلبونه مهيّأ لهم . روى صاحب الأغانى أن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب كان يعبث بأشعب أشد عبث ، وربما أراه فى عبثه أنه قد ثمل وأنه يعربد عليه ، ثم يخرج إليه بسيف مسلول ، ويريه أنه يريد قتله ، فيجرى بينهما فى ذلك كل مستمَع[٦] . ولم يكن الحسن وحده الذى يذهب

---

(١) أغانى ١٠١/١٧ .

(٢) المصدر نفسه ١٧٢/١٤ .

(٣) أغانى ٩١/١٧ .

(٤) أغانى ٩١/١٧ .

(٥) أغانى ٩٤/١٧

(٦) أغانى ١٠٤/١٧ .

هذا المذهب من الهزل ، فقد كان أبان بن عثمان والى المدينة لعبد الملك من أهزل الناس وأعبثهم ، وبلغ من عبثه أنه كان يجيء بالليل ، وهو وال على المدينة ، إلى منزل رجل فى أعلى المدينة له لقب يغضب منه ، فيقول له : أنا فلان ابن فلان ، ثم يهتف بلقبه فيشتمه أقبح شتم ، وأبان يضحك(١). وكل ذلك من آثار التحضر الذى تحضرته المدينة وما داخل حياتها من ترف .

(١) أغانى ١٠٢/١٧ .

الفصل الثانى

الغناء فى المدينة

١

الغناء فى المدينة قديم

عُرف العرب قديماً بمحبتهم للغناء ، وهناك نصوص كثيرة متفرقة فى كتب التاريخ والأدب تشهد بأنهم كانوا يغنُّون من المهد إلى اللحد ، إذ كانوا يرقصون أطفالهم بالغناء [١] ، كما كانوا يبكون موتاهم بالنواح[٢] ، وهو ضرب حزين من الغناء . وقد اشتهروا بحُدائهم للإبل فى مسيرهم وترحالهم ، كما اشتهروا بأغانيهم فى الحروب وأشعارهم الحماسية [٣]ويظهر أنهم كانوا يستخدمون الغناء فى عباداتهم ففى القرآن الكريم : (وَمَا كَانَ صَلاتُهم عِنْدَ البَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً) والمكاء الصفير والتصدية التصفيق . ويقول ابن عبد ربه : « إنمـــا كان أصل الغنـــاء ومعدنه فى أمهات القرى من بلاد العرب ظاهراً فاشياً وهى المدينة والطائف وخَيْبر ووادى القرى ودُوْمة الجندل واليمامة »[٤] . ومعنى ذلك أن المدينة كانت إحدى مواطن الغناء المهمة فى العصر الجاهلى . ومن هنا لا يكون غريباً أن نسمع بعد ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة مهاجراً استقبله أهلها من الأنصار استقبالاً حافلًا ، وقد ألَّف نساؤهم فى أثناء ذلك ما يشبه الجوقات إذ كن يغنين جماعات بالدف والألحان[٥] :

طَلَعَ البَـــدْرُ علينا من ثَنِيَّـــاتِ الوَدَاعِ

---

(١) المسعودى ٨/٩٥ .

(٢) أغانى ١٩/٨٩ ونواح الخنساء على أخيها وأبيها معروف ، وكذلك نواح هند بنت عتبة على أبيها وأخيها وعمها ، انظر أغانى ٤/٢٢٠ .

(٣) الطبرى : القسم الأول ص ١١١٦ .

(٤) ابن عبد ربه ٣/٢٤١ .

(٥) إحياء العلوم للغزالى طبع بولاق ٢/٢٥٤ .

وَجَبَ الشُّكْرُ علينا ما دَعَا لله داعِ

وفى طبقات ابن سعد أن الصحابة كانوا يتغنون ببعض الرجز فى أثناء حفرهم للخندق فى وقعة الخندق المعروفة[١] .

وهذه النصوص تؤكد أن الغناء كان شائعاً فى المدينة ، وأن نساء العرب كن يشتركن فيه على نحو ما صنع نساء الأنصار فى استقبال النبى صلى الله عليه وسلم. ونجد بجانب هذه النصوص نصوصاً أخرى تدل على أن القِيان عُرِفْنَ فى المدينة فى أثناء العصر الجاهلى . ومعروف أن القيان كن أجانب ، وأنهن استُخْدمن فى الغناء حينئذ فى مدن الجزيرة العربية ، وفى بعض القبائل[٢] . ويرى ليال أنهن كن من الفرس أو من اليونان من سوريا ، ويقول إنهن كنَّ يغنِّين بالعربية ، وربما كنَّ يغنين بلهجة أجنبية ، ويذهب فون كريمر إلى رأى أبعد من ذلك ، فيقول انهن كن يغنين بلسانهن اليونانى أو الفارسى لا باللسان العربى[٣]. وليس بين أيدينا ما يؤيد قول ليال من أنهن كن يغنين بلهجة أجنبية ، فضلًا عما يقوله فون كريمر من أنهن كن يغنين بلسانهن الأجنبى ، بل على العكس تؤكد جميع النصوص التى رُويت فى الأغانى وغيره أنهن كن يغنين باللسان العربى ، ففى أخبار النابغة أن أهل المدينة أمروا إحدى القيان أن تغنيه بشعر له ، كان فيه إقواء ، فعرف موضع خطئه ولم يعد إليه[٤]. وطبيعى أن تكون هذه القينة قد تعلمت العربية وأحسنت لهجتها حتى استطاع النابغة أن يفطن إلى موضع خطئه . وفى أخبار عمرو بن الإطنابة الخزرجى أنه دعا بشرابه وقيانه فتغنين له بقوله :

عَلِّلانى وعَلِّلاَ صاحبيَّا واسْقيانى من المروَّق رِيَّا

---

(١) طبقات ابن سعد ، الجزء الثانى ، القسم الأول ص ٥٠ .

(٢) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، الطبعة الثامنة ص ٤٦ .

(٣) انظر Farmer, A History of Arabian Music (London 1929) p. 12.

(٤) أغانى طبع بولاق ٩/١٦٤ .

إن فينـا القِيـان يَعْزِفْنَ بالـدّ ... فِّ لفتياننـا وعيشاً رَخِيَّا[١]

ويقال إنه كان فى المدينة دار للبغاء اتخذها عبد الله بن أبىّ وجلب إليها ستاً من الإماء ، وفيهن وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ولا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُم عَلَى البِغَاءِ﴾[٢] وأكبر الظن أنهن كن يغنين ، ويحترفن الغناء .

وينبغى أن نعرف أنه لم تكن هناك قواعد مرسومة للغناء فى العصر الجاهلى ، فهؤلاء المغنون من قيان وغير قيان لم يكونوا يتبعون نظاماً خاصاً فى غنائهم ، بل كان كلٌّ يغنى حسب شعوره وعواطفه وما يريد من تأثير فى سامعيه ، إذ كان العرب لا يزالون أميل إلى الفطرة فى حياتهم وفنونهم .

ونحن نرى من كل ما سبق أن الغناء كان شائعاً فى المدينة منذ العصر الجاهلى ، وأغلب الظن أنه كانت هناك دور خاصة به ، فقد كان القوم يشغفون بالغناء ، وكان يوجد فى حياتهم العامة ، كما كان يوجد فى حياتهم الخاصة .

٢

فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين

ظـل الغنـاء بالمدينـة فى عصر الرسول والخلفـاء الراشـدين ولم تكن تسرف فيـه ، إلا أنها على كل حال كانت تأخذ منه بنصيب ، وهناك أحاديث كثيرة تؤكد أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يحرم الغناء ، بل على العكس كان يبيحـه ، فقد أُثِر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما بعث الله نبياً إلا حسن الصوت » وقال أيضاً : « لله أشد أَذَناً (استماعاً) للرجل الحسن الصوت بالقرآن يجهر به من صاحب القينة لقينته » وقال فى معرض المدح لداود عليه السلام : « إنه كان حسن الصوت فى النياحة وفى تلاوة الزبور[٣] » . ومما أُثر عنه أيضاً أنه قال : « زَيِّنوا القرآن بأصواتكم » ، واستمع إلى أبى موسى الأشعرى وهو يتلو القرآن

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ١٢١/١١ .

(٢) انظر تفسير الزمخشرى (الكشاف) فى سورة النور آية ٣٣

(٣) الغزالى ٢٤٩/٢ .

فأُعجب به ، وقال : لقد « أوتى مزماراً من مزامير آل داود »[١].

لم يكره النبي أن يؤدّى أبو موسى الأشعرى وغيره القرآن بتطريب فى أصواتهم . وهو كذلك لم يكره هذا التطريب فى الأذان ، ولكن فى صورة بسيطة بحيث لا يخرج إلى التلحين الموسيقى وما يقترن به من معازف ، فإن النبي كان يكره أن يتصل القرآن بمظهر من مظاهر الوثنية ، ومن هنا فَصَلوا بين الترنم بالشعر فسموه غناء ، والترنم بالقرآن فسموه تغييراً[٢].

على أنه ليس معنى ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حرّم الغناء بالشعر ، فقد رُوى أنه سأل السيدة عائشة فى زواجٍ بعض الأنصار : « هل أهديتم الفتاة إلى بعلها ؟ قالت نعم ، قال فبعثتم معها من يغنّى ؟ قالت لا ، قال أو ما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم الغزل ؟ »[٣] . ورُوى أيضاً أنه دخل بيت الرُّبَيِّع بنت معوِّذ بن عفراء قاتل أبى جهل يوم بَدْر وعندها جوار يغنين فسمع إحداهن تغنى بما معناه : « وفينا نبى يعلم ما فى غد » ، فقال صلى الله عليه وسلم : « دعى هذا وقولى ما كنت تقولين »[٤] وروى ابن عبد ربه أنه مرَّ بجارية وهى تغنى :

هل علىَّ ويحـــــكمُ　　　إن لهوتُ مـــن حَـرَجِ

فقال صلى الله عليه وسلم : لا حرج إن شاء الله[٥] . وهناك حديثان يرويان عن السيدة عائشة ، وهما يدلان على عدم كراهية النبى للغناء ، أما الحديث الأول ففيه أن أبا بكر دخل عليها فى أيام مِنًى ، وعندها جاريتان تدفِّفان ، وتضربان ، والنبى صلى الله عليه وسلم متغش بثوبه ، فانتهرهما أبو بكر رضى الله عنه ، فكشف النبى صلى الله عليه وسلم عن وجهه وقال : دعهما يا أبا بكر ، فإنها أيام عيد[٦]. وأما الحديث الثانى فتروى فيه السيدة عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندها جاريتان تغنيان بغناء بُعاث ، فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه ، فدخل أبو بكر ، فانتهرهما وقال : مزمار الشيطان عند رسول الله ، فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه

---

(١) الغزالى ٢/٢٧٤ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٣٥٦ .
(٣) ابن عبدربه ٣/٢٣١ .
(٤) الغزالى ٢/٢٧٧ .
(٥) ابن عبدربه ٣/٢٣١ .
(٦) غزالى ٢/٢٥٤ .

وسلم ، وقال : دعهما(١).

وهذه كلها أحاديث تؤيد أن الرسول لم يكن يحرِّم الغناء ، أما ما رُوى من أنه أمر بقتل قَيْنَتين يوم فتح مكة ، وهما قينتا ابن خَطَل ، فإن ذلك يرجع إلى أنهما كانتا تغنيان بهجائه وهجاء الإسلام ، وقد فَرَّتْ إحداهما ، وقُتلت الأخرى(٢) . لم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتلهما إذن لأنهما مغنيتان ، وإنما أمر بقتلهما لأنهما كانتا تغنيان بشعر فيه هجاء له وللإسلام . ولعل مما يدل على عدم نهيه عن الغناء ، وأنه لم يكن يحرِّمه ، أننا نجد الأعشى حينما يفـــد عليه ليمدحه يرصده رجال قريش حتى إذا مَرَّ بهم تعرّضوا له قائلين أين أردت يا أبا بَصير ؟ قال : أردت صاحبكم لأسلم ، فقالوا إنه ينهاك عن خِلال ، ويحرمها عليك ، وكلها بك رافق ، ولك موافق ، فلما سألهم عن هذه الخلال ، ما هن ؟ قال أبو سفيان بن حرب ، الزنا والقمار والربا والخمر(٣)، ولم يذكر الغناء بين هذه الخلال ، ولو كان النبي حَرَّمه لذكره حتى يردَّ الأعشى ، إذ كان مغنياً يغنى شعره على الصَّنْج ولذلك سُمِّى صَنَّاجة العرب(٤).

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل دلالة قاطعة على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يحرِّم الغناء ، ولا كان يدعو إلى نَبْذه . أما ما شاع بعد ذلك من كراهية الغناء فإنما جاء متأخراً ومتأثراً بآراء شخصية لبعض الصحابة والتابعين من مثل عبد الله بن عمر وابن مسعود(٥). وهكذا أخذ الناس مع مر الزمن يختلفون فى الغناء وفى إباحته وتحريمه ويقول ابن عبد ربه : « اختلف الناس فى الغناء فأجازه عامة أهل الحجاز وكرهه عامة أهل العراق »(٦). وأخذ رأى أهل العراق يسود فى العصور المتأخرة وخاصة عند المتشددين ، وقد عقد الغزالى فصلًا طويلًا فى الإحياء دلَّل فيه من وجوه كثيرة على إباحته ، وأنه لا يدعو إلى تحريمه نص ولا قياس(٧).

---

(١) غزالى ٢/٢٥٥ .

(٢) ابن هشام ٤/٥٢ .

(٣) أغانى طبع دار الكتب ٩/١٢٥ وما بعدها .

(٤) المصدر نفسه ٩/١٠٩ وانظر .
Nicholson : A Literary History of the Arabs. p. 133.

(٥) غزالى ٢/٢٦٣ وانظر ابن عبد ربه ٣/٢٣١ حيث تجد سعد بن أبى وقاص يتغنى وهو محرم .

(٦) ابن عبد ربه ٣/٢٣٠ .

(٧) غزالى ٢/٢٤٨ .

على كل حال لم يكن الغناء محرَّماً فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإذا تركنا عصره إلى عصر أبى بكر وعمر وجدنا المدينة مشغولة بالحروب والفتوح ، وقد تَمَّ لها الغلب على الإمبراطورية الفارسية وعلى كثير من أطراف الإمبراطورية الرومانية ، ولا نكاد نسمع فى عصر أبى بكر شيئاً عن الغناء والمغنين سوى ما ذكره الطبرى والبلاذرى من أن المهاجر لما أخضع اليمن قطع أيدى الثبجاء الحضرمية وهند بنت يامين اليهودية ، ونزع أسنانهما ، حتى لا تغنيا ، ولم يصنع ذلك لأنهما كانتا تغنيان فقط ، وإنما لأنهما كانتا تغنيان أغانى ، فيها هجاء للمسلمين وذم للإسلام (١).

ومَرَّ بنا فى حديثى عائشة أن أبا بكر كان ينكر الغناء عندها ، ويظهر أنه كان يكرهه ، وكذلك كان يكرهه عمر . وربما كان ذلك أحد الأسباب التى جعلت الغناء لا يشيع فى عصرهما . روى ابن الفقيه أن عمر خرج يوماً فإذا جوارٍ يضربن بالدفّ ، ويغنين ، ويقلن :

تَغَنَّيْنَ تغنيـــــنَ فللَّهْـــــوِ خُلِقْتُنَّ

فجعل عمر يضرب رؤوسهن بالدِّرَّة ويقول : كذبتن ، كذبتن ، فأخزى الله شيطاناً رمى هذا إليكن (٢) .على أن عمر ربما لم يضربهن للغناء من حيث هو ، وإنما ضربهن لدعوتهن إلى اللهو وقولهن « للهو خلقتن » . وقد روى أنه استمع إلى ابنه عاصم وآخر ، وهما يغنيان غناء النَّصْب ، فقال : أعيدا علىَّ ، فأعادا عليه ، فقال لهما : أنتما كحِمارى العِبادىِّ قيل له : أى حِماريك شر ؟ قال ذا ثم ذا (٣).

ومهما يكن فإن عمر كان متشدداً كسلفه ، فلم يتسع الغناء فى عصره ولا فى عصر أبى بكر ، إنما أخذ يتسع ، فى عصر عثمان،فقد اكتظت المدينة بجماهير الأسرى التى أخذت تتعرب ، كما اكتظت بالكنوز والأموال العظيمة.ولم تظهر نتائج ذلك فى عصر عمر ، وإنما ظهرت فى عصر عثمان ، إذ هدأت الفتوح ،

---

(١) الطبرى : القسم الأول ص ٢٠١٤ والبلاذرى ص ١٠٢ .
(٢) ابن الفقيه ص ٤٣ .
(٣) ابن عبدربه ٢٣١/٣ .

وأخذ العرب يستجمُّون منها ، وحاولوا أن يهيئوا لأنفسهم شيئاً من الحضارة التى رأوها فى البلاد الأجنبية .

تحولت معيشة العرب إذن ، فقد أصبحت المعيشة الفخمة مألوفة لا فى العراق وسوريا ، بل أيضاً فى المدينة نفسها ، إذ أخذت تتحضر بألوان الحضارة التى رآها العرب فى الإمبراطورية الفارسية والبيزنطية ، فقد جاءوا بها إليها ، كما جاء بها الأسرى من فرس ومصريين وشآميين .

وقد بنى أشراف المدينة القصور على ما قدمنا ، وأخذت هذه القصور ، منذ عثمان ، تكتظ بالمغنين الذين جلبهم أهل المدينة من قريش والأنصار إليها ، فكل شخص كان يأتى لنفسه بمغن أومغنية ، وأحياناً يأتى بجوقة من المغنين أوالمغنيات . روى صاحب الأغانى أن عبد الله بن عامر والى عثمان على البصرة اشترى إماء صَنَّاجات وأتى بهن إلى المدينة فكان لهن يوم فى الجمعة يلعبن فيه ، وسمع الناس منهن وأخذوا عنهن(١) .

وممن عُرف بالغناء من الأجانب فى عصر عثمان طُوَيس المغنى(٢) وهو أول من غَنَّى بالعربية فى المدينة من الموالى وألقى الخُنْثَ بها(٣) . ومن مغنى هذا العصر فِنْد ، وهومولى لسعد بن أبى وقاص(٤)

وهكذا أخذت المدينة تستعد – بفضل هؤلاء الموالى الأجانب – لأن تصبح أهم مركز للغناء فى العصر الأموى . وتوقفت هذه الحركة قليلًا فى عصر على ابن أبى طالب لانشغال أهل المدينة بالحروب بينه وبين معاوية ولكن لم تلبث الأمور أن هدأت ، فأقبلت المدينة على الغناء ، تسترد منه ما فاتها ، وحاولت حينئذ أن تتفوق فيه تفوقاً واضحاً .

---

(١) أغانى ٣٢١/٨ .
(٢) ابن عبدربه ٢٤١/٣ .
(٣) أغانى ٢٧/٣ .
(٤) ابن عبد ربه ٢٤٥/٣ .

٣

المدينة أهم مراكز الغناء فى العصر الأموى

من المعروف أن الحجاز عُنى بالغنـــاء فى العصر الأموى عناية بالغة فقد طلبه أشرافه واهتموا به اهتماماً شـــديداً ، حتى أصبح إقليمهم أشهر الأقاليم العربية به . وفى الأغانى نصوص كثيرة تدل على أن أهل العراق لم يكونوا يعجبون بالغناء(١)، مع أن أحد وعاظهم ، وهو الحسن البصرى ، أُثِرَ أنه قال : نعم العون الغناء على طاعة الله ، يصل الرجل به رحمه ، ويواسى صديقه(٢). أما الشام فإنها أيضاً لم تُعْنَ بالغناء فى أوائل هذا العصر ، إذ كان معاوية لا يعجب به على ما يظهر . وقد اضطر عبد الله بن جعفر أن يقدِّم له مغنياً على أنه شاعر(٣). وأول من اتخذ الغناء وآوى المغنين من بنى أمية يزيد بن معاوية ، فقد طلبهم من المدينة ، وذهب إليه سائب خاثر(٤)مولى عبد الله بن جعفر .

لم تُعْنَ الشام بالغناء فى أول الأمر ، واستمرت العراق لا تُعْنَى به طوال هذا العصر إلا قليلًا . وأما الحجاز فقد غرقت فيه إلى أذنيها ، وكانت المدينة أسبق مدن الحجاز إلى العناية بالغناء ، فقد رأينا أنها أخذت تعنى به منذ عصر عثمان ، إذ ظهر طُويس وفِنْد وغيرهما . أما ما يزعمه المسعودى من أن الغناء لم يَنْمُ فى المدينة ومثلها مكة إلا منذ عصر يزيد بن معاوية(٥)فغير صحيح ، لأن النصوص التى تحت أيدينا تنكره بالنسبة للمدينة على الأقل .

ونحن لا نسمع عن مغن أجنبي فى مكة فى أثناء عصر الخلفاء الراشدين ، ولعل فى هذا ما يؤكد أن المدينة سبقت إلى العناية بالغناء ، وهذا طبيعى ،

---

(١) انظر الأغانى ١/٧١ كذلك ٦/٣٣٩ .

(٢) ابن عبد ربه ٣/٢٣٢ ولم يعرف للعراق مغن مشهور فى هذا العصر سوى حنين ، انظر الأغانى ٢/٣٤١ وما بعدها .

(٣) أغانى ٨/٣٢٣ ، ولا نعرف للشام مغنياً مشهوراً قبل أبى كامل الغزيل مغنى الوليد بن يزيد ابن عبد الملك ، انظر أغانى طبع دار الكتب ٧/٩١ .

(٤) أغانى ٨/٣٢٤ .

(٥) المسعودى ٥/١٥٧ .

لأنها هى التى سبقت إلى الثراء من الفتوح ، وهى أيضاً التى سبقت إلى اتخاذ الرقيق ، وكانت عاصمةَ الإمبراطورية الإسلامية ، فأسرعت إليها هذه الموجة من موجات الترف .

ومع ذلك فإن مكة لم تلبث أن عُنيت بالغناء وأصبحت تنافس المدينة فيه ، فظهر عندها ابن مِسْجح[١] وتلاميذه . ولكن ينبغى أن نعرف أن المدينة ظلت هى المركز الأول فى الحجاز للغناء والمغنين وتخريجهم . ولعل مما يدل على ذلك دلالة واضحة أن نجد خلفاء دمشق يطلبون مغنيهم غالباً من المدينة ، بل إننا نجد مكة نفسها تطلب مغنيها من المدينة[٢].

ومن المؤكد أن المدينة امتازت فى الغناء هذا الامتياز بسبب كثرة الموالى فيها منذ عصر الخلفاء الراشدين ، وساعد على ذلك أن أشرافها ونبلاءها كانوا يطلبونه ، بل نرى منهم من جعل داره أشبه بفندق للمغنين ، على نحو ما هو معروف عن عبد الله بن جعفر سيد بنى هاشم ، فقد كان الناس يؤمون داره لسماع مَنْ بها من المغنيات والمغنين[٣].

ويخيَّل إلى الإنسان أنه لم يبق أحد فى المدينة إلا وكان يُعْجَبُ بالغناء ، حتى ليقول صاحب الأغانى إن الغناء فى المدينة لا ينكره عالمهم ولا يدفعه عابدهم[٤]. واستمرت المدينة مشهورة بذلك حتى العصر العباسى إذ نرى أبا يوسف يقول لبعض أهلها : « ما أعجب أمركم يا أهل المدينة فى هذه الأغانى ! ما منكم شريف ولا دنئ يتحاشى عنها[٥]» . ويروى أبو الفرج أن العقيق كان إذا سال ، وأخذ المغنون يلقون فيه أغانيهم ، لم تبق فى المدينة مخبَّأة ، ولا شابة ، ولا شاب ، ولا كهل ، إلا خرج يُبْصره[٦].

وأخذ المغنون يؤلفون طبقة مميزة فى العصر ، ولا نعرف أكانت لهم نقابة أو لا ،

---

(١) انظر الأغانى ٣/٢٧٦ وما بعدها .

(٢) وابن سريج أهم مغنيها بعد ابن مسجح أصله من المدينة . انظر ابن عبد ربه ٣/٢٤٢ حيث يجعله تلميذاً لطويس وانظر الأغانى ١/٢٤٩ وكذلك ١/٢٥١ حيث يجعله مولى لعبد الله بن جعفر وكذلك كانت مكة تطلب بعض المغنيات من المدينة ، انظر الأغانى ٨/٣٢٥ .

(٣) المسعودى ٥/٣٨٥ .

(٤) أغانى ٨/٢٢٤ .

(٥) ابن عبد ربه ٣/٢٣٣ .

(٦) المصدر السابق ٣/٢٤٥ .

لكن على كل حال كانت لهم جماعة مميَّزة بسبب رقى فنهم ، لا بسبب احتقار العرب لصنعتهم ، فإننا نجد كثيراً من العرب يطلبون الغناء،وبرع فيه فى أثناء هذا العصر مغن عربى معروف هو مالك بن أبى السَّمْح الطائى . وحدث حسين ابن دَحْمان الأشقر – إن صحّ حديثه – قال : «كنت بالمدينة ، فخلا لى الطريق وسط النهار فجعلت أتغنى :

ما بالُ أهلكِ يارَبابُ   خُــزْراً كأنهمُ غضابُ[١]

قال : فإذا خَوْخَةٌ قد فُتحت ، وإذا وجه قد بدا ، تتبعه لحية حمراء ، فقال : يا فاسق أسأت التأدية ، ومنعت القائلة ، وأذعت الفاحشة ، ثم اندفع يغنيه ، فظننت أن طويساً قد نُشر بعينه ، فقلت له : أصلحك الله من أين لك هذا الغناء ؟ فقال : نشأت ، وأنا غلام حَدث ، أتبع المغنين وآخذ عنهم فقالت لى أمى : يا بنى إن المغنى إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه ، فدع الغناء ، واطلب الفقه فإنه لا يضر معه قبح الوجه ، فتركت المغنين واتبعت الفقهاء . فقلت له : فأعد جعلت فداءك فقال : لا ، ولا كرامة ، أتريد أن تقول : أخذته عن مالك بن أنس ، وإذا هو مالك بن أنس ، ولم أعلم »[٢] .

ولعل فيما تقدم ما يدل على أنَّ العرب كانوا يقدرون الغناء فى هذا العصر ، وأخذ يظهر فيه بوضوح عنصر الرجال من الموالى الأجانب ، ولم يكن هذا العنصر معروفاً فى العصر الجاهلى ، إنما كان المعروف عنصر القيان ، أما فى هذا العصر فكان القيان ، وكان بجانبهم الرجال من الموالى . وقد تميزوا أول الأمر بأنهم كانوا من المخنثين[٣] ، وهى جماعة من الرجال كانت تذهب مذهب النساء ، فتلبس ملابسها ، وتقلدها فى عاداتها . وأول محترف للموسيقى والغناء فى المدينة كان من هذه الجماعة ، وهو طُوَيْس[٤] .

على أن موجة الغناء لم تلبث أن اتسعت ، فشملت جماعات أخرى من

---

(١) خزرا : ينظرون بلحظ العين كناية عن الغضب .

(٢) أغانى ٢٢٢/٤ .

(٣) المصدر نفسه ٢٧٣/٤ .

(٤) أغانى ٢٧/٣ .

الموالى غير المخنثين ، كما شملت جماعات من العرب أنفسهم ، بحيث نرى عمر ابن عبد العزيز ، وهو وال على المدينة ، يصنع مجموعة من الأصوات يسجلها لــه صاحب الأغانى(١) .وهكذا مع مضى الزمن أصبح الغناء فى المدينة عملًا شريفاً بحيث نجد كثيراً من العرب والموالى الممتازين يقبلون عليه ، فكان مالك ابن أبى السَّمْح الطائى ، كما مرَّ بنا ، يحترف الغناء ، وكان البُرْدان ، وهو مولًى كان يتولى السوق فى المدينة ويحكم بين الناس ، يحترف الغناء كذلك ، وكان معَدَّلاً مقبول الشهادة(٢). وكان دَحْمان صالحاً كثير الصلاة ، وهو من مغنى المدينة ، ويُرْوَى أنه شهد ، عند عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله بن حنطب المخزومى وهو يلى القضاء ، لرجل من أهل المدينة على رجل من أهل العراق بشهادة ، فأجازها وعدَّله ، فقال له العراقى : إنه دَحْمان ! قال : أعرفه ، ولو لم أعرفه لسألت عنه ، قال : إنه يغنِّى ويعلم الجوارى الغناء ! قال : غفر الله لنا ولك ، وأينا لا يَتَغَنّى »(٣).

وهكذا كان فقيه المدينة مالك بن أنس – إن صح الخبر السابق – يعرف الغناء ، وكذلك كان قاضى المدينة ابن حَنْطب ووالى المدينة عمر بن عبد العزيز . ويظن الإنسان أنه لم يبق فى المدينة أحد إلا وكان يتغنى ، فإن لم يتغنَّ كان يستمع إلى الغناء ، ويعجب به .

اندفع الموالى وغير الموالى فى المدينة من رجال ونساء يتغنون ، واشتهر من الرجال كثيرون . وقد عقد لهم صاحب الأغانى فصولاً طويلة فى كتابه ، واهتم بتسجيل أخبار كثير منهم وأصواتهم ، وعلى رأسهم طُوَيْس وسائب خاثر والدلال ومَعْبد وابن عائشة ومالك ابن أبى السمح الطائى ويونس الكاتب ودَحْمان وعطرَّد ، وغيرهم كثير .

أما النساء فكان على رأسهن عَزَّة المَيْلاء . وكان لها دار يقصدها أهل المدينة لسماع الغناء . ويلى عزةَ جميلةُ ، وكان لها الدار الكبرى للغناء فى المدينة . ويروى

---

(١) أغانى ٩/٢٥٠ .
(٢) أغانى ٨/٢٧٧ .
(٣) المصدر نفسه ٦/٢١ .

صاحب الأغانى أنها خرجت تحج ، ويصف موكب حَجِّها . ويدل وصفه دلالة واضحة على مدى ما بلغته المدينة فى هذا العصر من ازدهار فن الغناء بها ، فقد خرجت جميلة فى مهرجان كبير يضم مجموعة من شعراء المدينة على رأسها الأحوص ، كما يضم مجموعة من المغنيات ، أما المغنون فكان على رأسهم هَيْت والدلال وطُوَيْس وبَرْد الفؤاد ونَوْمَة الضحى ، وفِندٌ ، ورحمة ، وهبَة الله ، ومعبد ، ومالك ، وابن عائشة ، ونافع بن طُنْبورة ، وبُدَيْح المليح ، ونافع الخير ، وأما المغنيات فكان على رأسهن الفَرِهَة ، وعَزَّة المَيْلاء ، وحَبابة ، وسَلاّمة ، وخُلَيْدة ، وعُقَيْلة ، والشَّماسِيَّة ، وفَرْعة ، وبُلْبلة ، ولذة العيش ، وسُعَيْدة ، والزرقاء . وكان فى ركبها لأهل المدينة من القيان زهاء خمسين قينة . ولما دنا هذا الركب من مكة استقبله مغنوها وعلى رأسهم ابن مِسْجَح وابن سُرَيْج والغَرِيض وابن مُحْرِز ، كما استقبله شعراؤها ، وعلى رأسهم عمر بن أبى ربيعة .

ويتهم أبو الفرج هذا الخبر[١]، ومع ذلك فهو يرويه عن يونس الكاتب ، وهو أول من ألّف فى الغناء ، وكان أحد شهود هذا المهرجان ، فلا مفر إذن من قبوله . ولا ريب فى أنه يصور مبلغ ما وصلت إليه المدينة من أهميةٍ هذا العصر فى فن الغناء ، فإن أصحابه يُعَدُّون فيها بالعشرات رجالاً ونساءً . وكان هؤلاء المغنون والمغنيات يغنون الناس فى المدينة بدون ستارة تفصل بينهم ، فصاحب الأغانى يروى أن جميلة غنت أمام عبد الله بن جعفر وجماعة كانوا معه بدون ستارة ؛ إذ ظهرت أمامهم هى وجواريها[٢] ، وكذلك يروى أن عَزَّة الميلاء غنت فى بيت سُكينة بنت الحسين بدون ستارة[٣]. ويظهر أن الستارة كانت توضع إذا اجتمع الرجال والنساء للسماع ، ففى أخبار عائشة بنت طلحة أنها أقامت حفلاً دعت فيه نبيلات قريش ونبلاءها ، وغنت فى هذا الحفل عَزَّة الميلاء ، وكانت هناك ستارة تفصلها هى والنساء عن الرجال[٤] . وواضح أن الستارة اتُّخذت هنا من أجل النساء ، لا من أجل عزة .

---

(١) أغانى ٢٠٨/٨ .
(٢) أغانى ١٩٧/٨ .
(٣) أغانى طبع بولاق ١٣٢/١٥ ومابعدها .
(٤) المصدر نفسه ٥٧/١٠ .

٤

الغناء يصبح فنا له مصطلحاته وتقاليده

وهذه الجماعات الكثيرة التى احترفت الغناء لم تلبث أن حولته إلى فن له مصطلحاته وتقاليده . وكان أول من حاول السير فى هذه الطريق طُوَيْس شيخ المغنين فى المدينة ، فقد قال صاحب الأغانى : إنه أول من غنى الغناء المتقن ، وقال أيضاً : إنه أول من صنع الهَزَج والرَّمَل فى الإسلام(١). ولا ريب فى أن هذا الغناء المتقن الجديد كان يخالف الغناء العربى القديم ، الذى كان يعتمد فى أغلب الأمر على عروض الشعر وذوق المغنى ، وقلما ذهب فيه المغنون إلى التلحين والتوقيع توقيعاً يقوم على مصطلحات خاصة . ويقول ابن الكلبى إن غناء العرب قديماً كان على ثلاثة أوجه : النَّصْب والسِّناد والهزَج ، فأما النَّصب فهو أغانى الركبان والقينات ، وأما السِّناد فهو أنغام ثقيلة ، وأما الهزج فهو غناء خفيف(٢).

وواضح فى كلام ابن الكلبى أنه يريد بالسِّناد والهزج الغناء الإسلامى الحديث ، أو كما يسميه صاحب الأغانى الغناء المتقن ، فالسناد هو الغناء الثقيل ، والهزج ضرب من الغناء الخفيف . ورأينا أبا الفرج ينسب الهزج إلى طويس ، وقد نسب الغناء الثقيل إلى سائب خاثر ، فقال إنه أول من غنى بالعربية الغناء الثقيل(٣) ، وروى بجانب ذلك أن عزة الميلاء أول من غَنَّت من النساء الغناء الموقع(٤) ، وهو يقصد هذا الغناء الجديد الذى يسميه تارة المتقن وتارة الموقع .

وأخذ هذا الغناء الموقع ينوّع إلى ستة ضروب تجدها منتشرة فى أخبار مغنى المدينة لهذا العصر ، وهى : ثقيل أول ، وثقيل ثان ، وخفيف الثقيل ، وَرَمل ، وخفيف الرمل ، وهزج . وهى ضروب ترجع إلى نوع النقرات ، فقد تكون ثقيلة ،

---

(١) أغانى ٤/٢١٩ .
(٢) المسعودى ٨/٩٣ .
(٣) أغانى ٨/٣٢٢ .
(٤) أغانى ١٦/١٣ .

والثقيلة على ألوان ، وقد تكون خفيفة ، والخفيفة على ألوان أيضاً . وقد ميزوا بجانب ذلك مجرى الصوت بحسب الأصابع ، فقالوا ثقيل أول بالوسطى ، وخفيف ثقيل بالسَّبَّابة ، وخفيف رَمَل بِالبِنْصر ، أو يقولون رمل بالسبابة فى مجرى البِنْصر ونحو ذلك مما نقرؤه فى الأغانى منسوباً إلى مغنى العصر(١).

ولعل من الطريف أن نلاحظ هنا أن هذه المصطلحات التى تمت لفن الغناء وأصبح بها فنًّا قائماً له رسومه إنما تكونت تحت أيدى الموالى ، فهل معنى ذلك أن الغناء العربى تحوَّل هذا التحول تحت تأثير نظريات جديدة أتته من الخارج ؟

هناك نصوص كثيرة فى الأغانى تثبت صلة واضحة بين هذا الغناء العربى وبين الغناء الأجنبى ، فأبو الفرج يذكر – كما مرَّ بنا – أنه كان هناك إماء صَنّاجات أحضرهن عبد الله بن عامر والى البصرة فى عصر عثمان ، وكان لهن يوم فى الأسبوع يغنين فيه الناس(٢) ، وربما تأثر بهن طويس ، وربما تأثر بمغنين من الفرس لم يذكرهم أبو الفرج . على أنه ذكر مغنياً فارسياً ، يسمى نشيطاً ، اشتراه عبد الله(٣) بن جعفر ، وكان يغنى فى المدينة الغناء الفارسى ، ويقول إن سائب خاثر أخذ عنه غناءه الفارسى ، كما أخذ هو عن سائب خاثر الغناء العربى(٤). وفى ترجمة عَزَّة يقول أبو الفرج إن نشيطاً وسائب خاثر قدما المدينة ، فغنيا أغانى بالفارسية ، وأخذت عزة عنهما أنغاماً ، وألَّفت عليها ألحاناً (٥).

واحتذى مغنو مكة حَذْوَ مغنى المدينة فى التأثر بالغناء الفارسى ، فأبو الفرج يروى أن ابن مِسْجح أقدم المغنين هناك استمع إلى الفرس يغنون ، وهم يبنون المسجد الحرام فى خلافة ابن الزبير ، فنقل غناءهم من الفارسية إلى العربية(٦). ويقول إن عود ابن سُرَيْج كان على صنعة عيدان الفرس ، وإنه أول من ضرب بالعود

---

(١) فى مسالك الأبصار نص طريف نزلت فيه ألقاب الأنغام والأصوات التى فى كتاب الأغانى على ألقاب المحدثين فى عصر صاحب الكتاب وأنغامهم من أصبهان وزنكلا وراهوى وحسينى . انظر المسالك ، نسخة فوتوغرافية بدار الكتب المصرية ، الجزء الأول من المجلد السادس الورقة ٢ .

(٢) أغانى ٣٢١/٨ .

(٣) المصدر نفسه والصفحة وانظر المصدر نفسه ٣٨/١ .

(٤) أغانى ٣٢١/٨ .

(٥) أغانى ١٣/١٦ .

(٦) أغانى ٢٧٧/٣ .

الفارسى فى مكة على الغناء العربى[١] . ويروى أبو الفرج أيضاً أن ابن محرز شخَصَ إلى فارس ، فتعلم ألحان الفرس ، وكذلك شخص إلى الشام فتعلم ألحان الروم،وألّف بين ذلك ، ونقله إلى الغناء العربى[٢] .

وإذن فهناك صلة مؤكدة بين الغناء العربى الذى شاع فى المدينة بل فى الحجاز كله ، وبين الغناء الأجنبى الفارسى والرومى . على أنه ينبغى ألا نبالغ فى هذه الصلة ، فنزعم أن العرب نقلوا نظريتهم الغنائية فى هذا العصر من لدن الأجانب . حقاً هم تأثروا بهم ، ولكنهم لم يذوبوا فى غناء غيرهم ، ولعل من طريف ما يلاحظ فى هذا الصدد أن المغنين مع أنهم كانوا من الأجانب لم يولدوا فى بلادهم ، وإنما وُلدوا فى بلاد العرب ، أو على الأقل نشأوا فيها ، ما عدا مغنياً واحداً هو نشيط الفارسى .

وأيضاً فإن هؤلاء المغنين الأجانب ، الذين تتردد أسماؤهم فى الأغانى والذين تمت تحت أيديهم وألسنتهم نظرية الغناء العربية الجديدة ، كانوا يبدءون دائماً بالغناء العربى ، ثم يتعلمون الغناء الأجنبى بعـــد ذلك كما تعلم ابن محرز فى بلاد الفرس والشام . ومصطلحات الغناء نفسها فى هذا العصر التى تتردد فى كتاب الأغانى كلها من الألفاظ العربية . وإن فى هذا كله ما يشير إلى أن التأثير الأجنبى لم يكن واسعاً . وأيضاً فإن الآلات الموسيقية التى تتردد مع المغنين الأمويين أكثرها قديم من مثل الصَّنْج والمِزْهر والقضيب والدفّ والطبل والمزمار وحتى العود والطُّنْبور يظن أنهما عُرفا فى العصر الجاهلى .

والحق أنه ينبغى ألا نبالغ فى التأثير الأجنبى ، وما أثَّر به الغناء الرومى والفارسى فى الغناء العربى فى أثناء العصر الأموى ، فإن ذلك لم يتجاوز ، فى الأعم الأغلب ، بعض ألحان رومية وفارسية انتقلت إلى الغناء العربى . ونحن لا نجد للروم مغنياً فى الحجاز فى أثناء هذا العصر ! وربما كان التأثير الفارسى أهم ، وقد نقل العرب بعض الألحان من غناء عُمَّالهم الذين استُخْدموا فى بناء الكعبة وبناء بعض القصور[٣] ، وكان منهم نشيط الفارسى المغنى المشهور . ومع ذلك فإننا

---

(١) أغانى ١/٢٥٠ .

(٢) المصدر نفسه ١/٣٧٨ .

(٣) أغانى ٣/٢٨١ .

لا نستطيع أن نقول إن العرب استعاروا نظريتهم فى الغناء من الفرس . أما ما يزعمه ابن خُرْداذبه من أن العرب نقلوا الإيقاع منهم[١]، فليس عليه دليل ، خاصة إذا عرفنا أن الفرس لم يكونوا يعرفون نظرية الوزن فى الشعر ، فإن هذه النظرية إنما انتقلت اليهم من العرب على نحو ما هو معروف فى تاريخ اللغة الفارسية الحديثة . وربما كان من أوضح الأدلة على ما نزعمه أن الحِيرة ، وهى أقرب إلى بلاد الفرس من المدينة ومكة ، لا نجدها تأخذ شيئاً واضحاً من الغناء الفارسى ! وكان المعقول أن تكون أسرع إلى التأثر بالغناء الفارسى ، ومع ذلك فإننا لا نجد فيها هذا العصر سوى النَّصْب الذى عُرف عن العرب منذ العصر الجاهلى ، ولذلك لم يدوّن شيء من غناء أهلها لسقوطه ، وأنه ليس من أغانى الفحول[٢].

ولعل فى هذا كله ما يدل على أن العرب لم ينقلوا من الفرس ولا من الروم نظريتهم الغنائية ، إنما نقلوا بعض الألحان وبعض الأنغام وبعض الأدوات الموسيقية وخاصة فى العصر العباسى ، وقد عرض المسعودى لهذه الآلات فى كتابه مروج الذهب بالتفصيل[٣].

ومن يقرأ أخبار جميلة فى الأغانى يلاحظ أن الغناء تمَّ له فى بيتها كل ما يتصوره الإنسان من رقى ، إذ كانت تغنِّى بمصاحبة جوقة كبيرة تضرب على العيدان والأوتار ، حتى لتبلغ الجوقة أحياناً خمسين شخصاً ،وكانت تضرب فى أثناء غنائها ، وتضرب الجوقة على ضربها[٤] . وكما عرف بيت جميلة الغناء المصحوب بجوقة كبيرة ، عرف كذلك الغناء المصحوب بالرقص . روى أبو الفرج أنها جلست يوماً ولبست بُرْنساً طويلاً ، وألبست من كان عندها برانس دون ذلك . . . ثم قامت ، ورقصت وضربت بالعود ، وعلى رأسها البرنس الطويل ، وعلى عاتقها بُرْدَة يمانية ، وعلى القوم أمثالها ، وقام ابن سُرَيْج يرقص ومَعْبد والغَريض وابن عائشة ومالك ، وفى يد كل منهم عود ، يضرب به على ضرب جميلة ورقصها ، فغنت وغنى القوم على غنائها ، ثم دعت بثياب مصبّغة ، ودعت للقوم بمثل ذلك فلبسوا ثم ضربت

---

(١) المسعودى ٨/٩٠ .

(٢) أغانى ٢/٣٥٢ .

(٣) المسعودى ٨/٩٠ وما بعدها .

(٤) أغانى ٨/٢١٨ .

بالعود وتمشّت ، وتمشى القوم خلفها ، وغنّت وغنوا بغنائها بصوت واحد[١] .

والحق أن المدينة لم تكد تبْقى للعصور التالية شيئاً جديداً تضيفه إلى نظريتها الغنائية ، فإن الغناء بلغ فيها فى أثناء هذا العصر الأموى كل ما كان يحلم به العربى . ولعلنا بعد ذلك لا نعجب حين نسمع عن تأثر الناس بغناء مغنيها تأثراً يفوق الوصف ، إذ كان بعضهم يخرُّ مغشيًّا عليه[٢] ، وكان بعضهم يصفق ويرقص[٣] . وقد سمع ابن أبى ربيعة صوتاً من جميلة فبلغ به سحر الصوت أن شق جَيْبَ قميصه إلى أسفله فصار قَبَاءً ، وهو لا يدرى[٤] وغير ابن أبى ربيعة كان إذا سمع جميلة يجد شيئاً يضغط قلبه ويحرقه فلا يملك عينه[٥]. ويُرْوَى أن مولى حَبابة إحدى تلميذات جميلة بعد أن باعها إلى يزيد بن عبد الملك سمعها عنده وكان بجواره شمعة فعرَّض لحيته لها ، فاحترقت من شدة الطرب ، وهو لا يدرى[٦] ومن غريب ما يروى أن قاضى المدينة محمد بن عمران التّيْمى استمع يوماً إلى جارية عنده ، تغنى ، فوثب إلى نَعْله ، فعلقها فى أذنه من شدة الطرب ، وحَبَا على ركبتيه ، وأخذ بطرف أذنه والنَّعْل فيها ، وجعل يقول : اهْدونى أنا بَدَنة ، اهدونى أنا بدنة ![٧].

وفى هذا ما يفسر تولُّه بعض العبّاد والنساك بهؤلاء المغنين والمغنيات ، فقد حذقوا فنهم حذقاً شديداً ، وقصة عبد الرحمن بن أبى عمار الجُشَمىِّ الذى كان يلقَّب بالقَسِّ لعبادته وفتنته بسلامة حتى سميت سَلاَّمة القَسِّ ، شائعة معروفة[٨]. ويروى صاحب الأغانى أنه كان بالمدينة ناسك من أهل العلم والفقه ، وكان يغشى مجلس عبد الله بن جعفر ، فسمع جارية مغنية لبعض النخاسين تغنى (بانت سعاد وأمسى حَبْلُها انقطعا) فاستهتر بها ، وهام ، وترك ما كان عليه . . وبلغ عبد الله بن جعفر خبره ، فبعث إلى النخاس ، فاعترض الجارية ، وسمع غناءها بهذا الصوت ، وقال ممن أخذته ؟ قالت : من عَزَّة المَيْلاء ، فابتاعها بأربعين ألف درهم ، ثم بعث إلى الرجل ، فسأله عن خبره فأعلمه إياه وصَدقه عنه ، فقال له : أتحب أن تسمع

---

(١) أغانى ٢٢٧/٨ .

(٢) ابن عبد ربه ٢٥٧/٣ .

(٣) أغانى ٢٧٧/٤ .

(٤) المصدر نفسه ٢٠٦/٨ .

(٥) المصدر نفسه ٢٠٩/٨ وكذلك ٢٣٥/٨ .

(٦) أغانى ٣١٦/١ .

(٧) المصدر نفسه ٣٣٨/٦ .

(٨) المصدر نفسه ٣٣٤/٨ وما بعدها .

هذا الصوت ممن أخذته عنه تلك الجارية ، قال نعم ، فدعا بِعَزَّة ، وقال لها : غَنِّيه إياه ، فغنته ، فصُعق الرجل وخرَّ مغشياً عليه . . . » وأهدى عبد الله بن جعفر الجارية إليه[١] .

وهذا السحر إنما بلغته مغنيات المدينة بفضل إحسانهن للغناء حتى ليقال إن دَحْمان اشترى جارية بمائتي دينار وعلمها الغناء فباعها بعشرة آلاف دينار[٢]. واشترى يزيد بن عبد الملك سَلَّامة بعشرين ألف دينار[٣] ، واشترى حبابة بأربعة آلاف دينار[٤]. ومن يرجع إلى أخبار المغنين فى كتاب الأغانى يجد خلفاء الأمويين منذ الوليد بن عبد الملك يستقبلونهم استقبالاً ، لعله يتفوق على استقبالهم للشعراء ، إذ كانوا يجيزونهم جوائز جزيلة . ومما يُرْوَى فى هذا الجانب أن يزيد عبد الملك وفد عليه مَعْبد ومالك بن أبى السمح وابن عائشة ، فأمر لكل منهم بألف دينار[٥] وقد توسع الوليد بن يزيد فى جوائز المغنين ، فيقال إنه أعطى معبداً اثنى عشر ألف دينار[٦] ، واستقدم جميع مغنى الحجاز ، وأجازهم جوائز كثيرة[٧]. وهكذا كانت الدولة تعترف بالغناء وأصحابه .

ولا ريب فى أن هذا التقدير كله إنما يرجع إلى ما أحرزه المغنون والمغنيات فى هذا العصر من مهارة وتفوق فى فن الغناء . وتوّج هذه النهضة يونس الكاتب تلميذ معبد بكتاب فى الأغانى التى كانت متداولة فى عصره ، وهو أول من دوَّن الغناء ، ويقول أبو الفرج : كتابه فى الأغانى ونَسَبها إلى من غَنَّى فيها هو الأصل الذى يُعْمَلُ عليه ويرجع إليه[٨]. وهكذا أتيح لهذه الحركة أن يسجلها أحد أصحابها فى عصرها . ومن هنا كانت أخبار المغنين فى هذا العصر الأموى وما غنوا فيه ، كل ذلك لا سبيل إلى تهمته ، إلا إذا قامت قرائن واضحة ، وسنعرض فى إيجاز لأشهر مغنى العصر فى المدينة ومغنياته .

---

(١) أغانى ١٩/١٦ .
(٢) أغانى ٢٥/٦ .
(٣) المصدر نفسه ٣٤٣/٨ .
(٤) أغانى ١٥٦/١٣ .
(٥) أغانى ١٠٩/٥ .
(٦) المصدر نفسه ٥٥/١ .
(٧) أغانى ١١١/٥ .
(٨) أغانى ٣٩٨/٤ .

٥

أشهر المغنين

كان المغنون فى هذا العصر بالمدينة كثيرين كثرة مفرطة ، وقد ترجم صاحب الأغانى لكثيرين منهم ، ولكنا سنكتفى بالحديث عن مشهوريهم ، لأننا نعتقد أنهم أثَّروا فى الشعر العربى آثاراً كباراً . ولعل أشهر المغنين حينئذ طُوَيْس وسائب خاثر ومَعْبد وابن عائشة ويونس الكاتب ومالك بن أبى السَّمْح الطائى .

طُوَيْس

من موالى بنى مخزوم ، وطُوَيْس لقبه ، واسمه عيسى بن عبد الله ، وكنيته أبو عبد المنعم . وكان طويلاً أحول ويقول ابن بدرون : إنه اشتهر فى عصر عثمان[١]، وكان لا يضرب بالعود ، وإنما ينقر بالدُّفِّ[٢]، وكان يضحك كل ثكلى حَرَّى . ويقول أبو الفرج إن أول غناء غناه ، وهزج به :

قــد برَانى الحبُّ حتى كدتُ من وَجْدى أذوبُ[٣]

وهو أول من تغنى فى المدينة غناء يدخل فى الإيقاع[٤]، وهو ما يسميه أبو الفرج الغناء المتقن ، وهو أيضاً أول من صنع الهَزَج والرَّمَل فى الإسلام[٥]. ولما طلب مروان بن عبد الملك المخنثين وقال : من جاءنى بمخنث فله عشرة دنانير فَرَّ إلى السُّوَيْداء ، وهى على ليلتين من المدينة فى طريق الشام ، فلم يزل بها عمره حتى مات فى ولاية الوليد بن عبد الملك[٦]. ويذكر ابن عبد ربه من تلاميذه فى المدينة الدلال ونومة الضحى ، وفى مكة ابن سُرَيْج[٧].

---

(١) انظر شرح ابن بدرون لقصيدة ابن عبدون (طبع ليدن) ص ٦٤ .
(٢) أغانى ٢٧/٣ .
(٣) المصدر نفسه ٢٨/٣ .
(٤) المصدر نفسه ٢٩/٣ .
(٥) المصدر نفسه ٢١٩/٤ .
(٦) أغانى ٢٩/٣ .
(٧) ابن عبد ربه ٢٤٢/٣ .

سائب خاثر

هو أبو جعفر سائب بن يسار ، وهو مولى فارسى أصله من فَىْء كسرى ، واشترى عبد الملك بن جعفر ولاءه من مواليه ، وأعتقه ، وكان يلزمه بعد عتقه لا يفارقه(١) . ويقال إنه آلى ألا يغنى أحداً سوى ابن جعفر مولاه إلا أن يكون خليفة أو ولىَّ عهد ، أو ابن خليفة(٢).

ولما جاء نشيط المغنى الفارسى المدينة ، وأُعجب به عبد الله بن جعفر ، جاراه ، ونقل ألحانه إلى الغناء العربى ، ليرضى مولاه . ثم اشترى عبد الله بن جعفر نشيطاً بعد ذلك ، فأخذ عن سائب خاثر الغناء العربى ، وأخذ عنه سائب الغناء الفارسى(٣).

واذا كان طُوَيْس اشتهر بالألحان الخفيفة من الهزج والرمل ، فإن سائب خاثر اشتهر بالغناء الثقيل ، فكان أول من غنَّى به فى العربية . وهكذا وضع هذان المغنيان طُوَيْس وسائب خاثر أسسَ فن الغناء فى عصرهما بنوعيه من النقرات الخفيفة والثقيلة . وقد قُتل سائب فى موقعة الحَرَّة . ونجد بين تلاميذه مَعْبَداً(٤) وجميلة(٥)، وعزَّة(٦) المَيْلاء .

معبد

هومعبد بن وهب مولى ابن قَطَن ، أعتقه ، وكان أبوه عبداً حبشياً(٧) ، وكان يشتغل فى أول حياته بالتجارة ، وربما رعى الغنم لمواليه ، ومع ذلك كان يختلف إلى نشيط الفارسى وسائب خاثر حتى اشتهر بالحذق وحسن الغناء وطيب الصوت(٨). ويقال إنه قدم مكة فى شبابه فوجد أحد نبلائها ، ويسمى ابن صفوان ، قد سبَّق بين المغنين جائزة ، فغناه صوتاً فأعطاه الجائزة(٩).

(١) أغانى ٣٢١/٨ .
(٢) المصدر نفسه ٣٢٢/٨ .
(٣) أغانى ٣٢١/٨ وانظر طبعة بولاق ١٣/١٦ .
(٤) المصدر نفسه ٣٢٢/٨ .
(٥) أغانى ١٧٧/٨ .
(٦) أغانى ١٣/١٦ .
(٧) أغانى ٣٦/١ .
(٨) أغانى ٣٩/١ .
(٩) المصدر نفسه ٤٠/١ .

ويظهر أن صنعة الغناء فى المدينة انتهت عند مَعْبد إلى كل ما كان ينتظر لها من حسن وإبداع حتى ليقول إسحق الموصلى : « هو فَحْل المغنين وإمام أهل المدينة فى الغناء[١] » . ويقولون إنه لم يكن ، فيمن غَنَّى ، أحد أعلم بالغناء منه ، وفيه يقول الشاعر :

أجادَ طويسٌ والسُّرَيْجِيُّ بعده   وما قصباتُ السَّبْق إلا لمعبَدِ

وأُثِر عنه أنه قال : « والله لقد صنعت ألحاناً لا يقدر شبعان ممتلئ ولا سَقَّاء يحمل قربته على الترنم بها ، ولقد صنعت ألحاناً لا يقدر المتكئ أن يترنم بها حتى يقعد مستوفزاً ، ولا القاعد حتى يقوم[٢] » . وسمع به يزيد بن عبد الملك فاستقدمه ، كما استقدم ابن سريج مغنى مكة ، ورُوى أنه قال لمعبد : « إن الذى أجده فى غنائك لا أجده فى غناء ابن سريج ، أجد فى غنائك متانة ، وفى غنائه انحناثاً وليناً[٣] » . وهذا صحيح ، لأن ابن سريج تلميذ طويس ، وهو كان يغنى الغناء الخفيف : الهزج والرمل . أما معبد فتلميذ سائب خاثر ، وهو كان يغنى الغناء الثقيل . ولما تولى الوليد بن يزيد بعث فى طلبه واستقبله استقبالاً حافلاً حين وفد عليه[٤] .

وترك معبد مجموعة كبيرة من الأصوات الملحنة رواها أبو الفرج ، ومن أهمها وأجملها خمسة تعرف بألقابها ، وهى الدوَّامة ، سماه بذلك معبد لكثرة ما فيه من الترجيع ، ثم المُنَمْنَم، ثم معقِّصات القرون ، سماه بذلك لأنه يحرك خصل الشعر ، ثم المُتَبختر ، ثم مقطّع الأثفار[٥]. وبجانب هذه الأصوات الخمسة نجد له سبعة أصوات أخرى مشهورة وكانت تسمى مدن معبد أو حصون معبد ، وذلك أنه سمع رجلا يقول : إن قتيبة بن مسلم فتح سبعة حصون أو سبع مدن بخراسان فيها سبعة حصون صعبة المرتقى والمسالك لم يوصل إليها قط ، فقال : والله لقد صنعت سبعة ألحان كل لحن منها أشد من فتح تلك الحصون ، فسُئل عنها فذكرها ، ورواها أبو الفرج كلها[٦] .

---

(١) أغانى ١/٣٨ .
(٢) المصدر نفسه ١/٣٩. والمستوفز : المتحفز للقيام .
(٣) المصدر نفسه ١/٦٨ .
(٤) أغانى ١/٥٢ وما بعدها .
(٥) أغانى طبع دار الكتب ٩/١٠٥
(٦) المصدر نفسه ٩/١٣٧ .

وكان معبد فى عصره إمام المغنين فى المدينة غير منازَعٍ ، واختلف إليه كثيرون يتلقون عنه صنعته مثل حكَم الوادى[١] وابن عائشة[٢]، ومالك[٣] بن أبى السمح الطائى ، ويونس[٤] الكاتب ودحمان[٥] وحبابة[٦] وسَلاَّمة[٧] القس . وقد توفى فى أيام الوليد بن يزيد بدمشق وهو عنده[٨] ، وندبته تلميذته سلامة[٩].

ابن عائشة

هو محمد بن عائشة ويكنى أبا جعفر ولم يكن يُعْرَفُ له أب فكان ينسب إلى أمه ، وكانت أمه مولاة لكثير بن الصَّلْت الكندى ، وقيل إنها مولاة لآل المطلب ابن أبى وَداعة السهمى ، ورُوِىَ عنه أنــه قال إن أمه كانت ماشطة[١٠].

وكان ابن عائشة من أحسن الناس حلوقاً ، ضربه يوماً رجل فذهب إليه ابن أبى عتيق فضربه ، ثم خَلاَّه ، وأقبل على من حضر ، وقال : هذا أراد أن يكسر مزامير داود[١١]. وقال إسحاق الموصلى عنه : « ابن عائشة أحسن الناس ابتداء وتوسطاً وقطعاً بعد مَعْبد[١٢] » . وقال يونس الكاتب : « كان ابن عائشة يضرب بالعود ، ولم يكن مجيداً فى الضرب ، وكان غناؤه أحسنَ من ضَرْبه ، فكان لا يكاد يمس العود إلا أن تجتمع جماعة من الضُّرَّاب ، فيضربون عليه ، ويضرب هو ويغنِّى ، فناهيك به حسناً[١٣] » . وقد طلبه يزيد بن عبد الملك فغناه صوتاً فطرب حتى ألحد فى طربه ، وقال فيما قاله لساقيه : اسقنا بالسماء الرابعة[١٤] ، وطلبه ابنه الوليد فغناه الصوت نفسه ، فقال له : أحسنت والله يا أميرى . . . ثم نزع ثيابه فألقاها عليه ، وبقى مجرَّداً إلى أن أتوه بمثلها ، ووهب له ألف دينار ، وحمله على بغلة ، وقال : اركبها

---

(١) أغانى ١/٤٥ .
(٢) المصدر نفسه ٢/٢٠٣ .
(٣) المصدر نفسه ٥/١٠١ وما بعدها .
(٤) المصدر نفسه ٤/٣٩٨ .
(٥) أغانى ٦/٢٢ .
(٦) أغانى ١٣/١٥٤ .
(٧) أغانى ٨/٣٣٤ .
(٨) المصدر نفسه ١/٣٦ .
(٩) أغانى ١/٣٧ .
(١٠) المصدر نفسه ٢/٢٠٣ .
(١١) أغانى ٢/٢٠٤ .
(١٢) المصدر والصفحة نفسهما .
(١٣) المصدر نفسه ٢/٢٠٥ .
(١٤) المسعودى ٦/٩ .

بأبي أنت وانصرف ، فقد تركتني على مثل المِقْلى من حرارة غنائك [١] . ويروى أنه غَنَّى أهل المدينة يوماً فى العقيق فارتفعت أصواتهم : أحسنت أحسنت ! وانصرفوا حوله يَزُفّونه إلى المدينة [٢] . ويقال إنه غنى بموسم الحج فحبس الناس عن المسير ، واضطربت المحامل ، ومدت الإبل أعناقها ، وكان أمير الموسم هشام بن عبد الملك فأتوه به ، فكلمه ، فوجده تياهاً ، فقال : ارفق بتيهك ، فقال : حق لمن كانت هذه مقدرته على القلوب أن يكون تياهاً ، فضحك منه وخلى سبيله [٣] . وقد توفى ابن عائشة فى خلافة الوليد بن يزيد ، ويقال إنه توفى مقتولاً [٤] .

يونس الكاتب

هو يونس بن سليمان بن كُرْد بن شِهْريار من ولد هُرْمز ، وهو من موالى عمرو ابن الزبير ، وكان أبوه فقيهاً فأسلمه فى ديوان المدينة فكان من كتَّابه [٥] ، ومن أجل ذلك سمى يونس الكاتب « ولم يكن فى أصحاب معبد أحذق ولا أقوم بما أخذ عنه منه [٦] » . وإذا كان معبد قد اشتهر بحصونه أو مدنه السبع ، فإن يونس اشتهر أيضاً بزينبياته السبع ، وهى كلها من شعر ابن رُهَيْمة فى زينب بنت عكرمة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وقد رواها أبو الفرج كلها فى أغانيه [٧] . وطلبه الوليد بن يزيد فذهب إليه ، وغَنَّاه ، وأُعْجب بغنائه وأجازه بثلاثة آلاف دينار [٨] .

وأهمية يونس لا تأتى من أنه كان مغنياً فحسب ، بل تأتى من أنه سجل لأول مرة الأغانى ونسبها إلى أصحابها ، فكان كتابه فيها الأصل الذى يعوَّل عليه فيما بعد [٩] ، واعتمد عليه إسحق الموصلى وابن المهدى فى كتابيهما عن المغنين والغناء ، وكذلك اعتمد عليه أبو الفرج نفسه فهو كثير الرواية فى أغانيه عنه . ويظهر أنه لم يؤلِّف

---

(١) أغانى ٢/٢٢٦ وانظر المسعودى ٦/٨ .
(٢) أغانى ٢/٢٠٦ وانظر ابن عبد ربه ٣/٢٤٥ .
(٣) أغانى ٢/٢٠٨ .
(٤) انظر وفاته فى الأغانى ٢/٢٣٥ وما بعدها .
(٥) أغانى طبع دار الكتب ٤/٣٩٨ .
(٦) المصدر نفسه ٤/٣٩٨ .
(٧) أغانى ٤/٤٠٢ وما بعدها .
(٨) أغانى ٤/٤٠٠ .
(٩) المصدر نفسه ٤/٣٩٨ .

فى الأغانى والمغنين كتاباً واحداً فحسب ، فصاحب الفهرست يذكر له ثلاثة كتب : كتاب مجرَّد يونس ، وكتاب القيان ، وكتاب النغم[١] . وقد أخذ الغناء عن يونس سِياط ، وهو أستاذ ابن جامع وإبراهيم الموصلى[٢] . وفى الفهرست أن إبراهيم تتلمذ ليونس مباشرة[٣] ، وفى ذلك ما يدل على أنه عاش إلى أوائل العصر العباسى .

مالك الطائى

هو مالك بن أبى السَّمْح الطائى ، فهو مغن عربى أصيل ، كان أبوه من طيئ ، وكانت أمه ، ويقال أم أبيه ، من بنى مخزوم ، فهو طائى الأب قرشى الأم أو الجدة [٤]. وكان أبوه منقطعاً إلى عبد الله بن جعفر ، فلما حضرته الوفاة أوصى به إليه فنشأ فى داره بين المغنين والمغنيات ، الذين كان يرعاهم ابن جعفر ، ويظهر أنه لم يكن يكتفى بمن يسمع من المغنين فى دار ابن جعفر ، فقد لزم بيت جميلة[٥] يستمع إلى من عندها من المغنيات والمغنين ، وكذلك لزم باب حمزة بن الزبير ، وكان معبد منقطعاً إلى حمزة يغنيه فى كل يوم ، فحمل عنه أصواته وغناءه[٦] . ولم يلبث أن أخذ ينفرد بطريقة خاصة به ، وعرف ذلك حمزة ، فقرَّبه منه وأمر معبداً أن يطارحه[٧] وبذلك ذاع صيته فى المدينة وخارج المدينة .

وكان مالك يحوّر فى ألحان معبد ، يزيد فيها وينقص ، فيُظهر من الإتقان والجودة ما يروع به سامعيه ، قال إسحق الموصلى : « كان مالك إذا غنى ألحان معبد الطوال خَفَّفَها وحذف بعض نغمها وقال : أطاله معبد ومطَّطه ، وحذفته أنا وحسَّنته »[٨] ، وقال أبو الفرج إنه غنَّى حمزة يوماً صوته لمعبد بعد أن زاد فيه ونقص منه ، فألقى عليه حُلَّة كانت عليه قيمتها مائتا دينار[٩] .

ولما طارت شهرة مالك استقدمه إليه يزيد بن عبد الملك[١٠] . وكذلك الوليد

---

(١) الفهرست لابن النديم طبعة القاهرة ص ٢٠٧ .
(٢) أغانى ١٥٢/٦
(٣) الفهرست ص ٢٠٧ .
(٤) أغانى طبع دار الكتب ١٠١/٥ .
(٥) المصدر والصفحة نفسهما .
(٦) أغانى ١٠٢/٥ وما بعدها .
(٧) أغانى ١٠٤/٥ .
(٨) أغانى ١١٢/٥ .
(٩) أغانى ١٠٥/٥ .
(١٠) أغانى ١٠٩/٥ .

ابنه ، وكان يعجب به ، وقد استمر عنده حتى قُتل[١] ، وعُمِّر مالك حتى أدرك دولة بنى العباس وقدم على سليمان بن على بالبصرة فمتَّ إليه بخؤولته فى قريش وانقطاعه إلى ابن جعفر ، فوصله وأجزل جائزته[٢] . وعاد من فوره إلى المدينة ، ولا نسمع شيئاً عنه بعد هذه الحادثة ، ويظهر أنه لم يعمَّر طويلاً بعدها .

عطرَّد

مولى الأنصار « وكان جميل الوجه حسن الغناء طيب الصوت جيد الصنعة حسن الرأى والمروءة فقيهاً قارئاً للقرآن ، وكان يغنى مرتجلاً »[٣] وقد أدرك الدولة العباسية وانقطع إلى سليمان بن على ، وعاش إلى عصر المهدى ، وربما لحق عصر هرون الرشيد[٤] . وقد استقدمه الوليد بن يزيد من المدينة ، ويروى أنه لما سمع منه أحد أصواته شَقَّ حُلَّة وَشْي كانت عليه ورمى بنفسه فى بركة خمر ، فما زال بها حتى أخرج كالميت سكراً ، فلما أفاق قال له : كأنى بك الآن قد أتيت المدينة فقمت بى فى مجلسها ومحفلها وقعدت وقلت : دعانى أمير المؤمنين ، فدخلت إليه ، فاقترح علىّ فغنيته وأطربته ، فشق ثيابه وفعل ، والله لئن تحركت شفتاك بشىء مما جرى فبلغنى لأضربن عنقك » ثم أعطاه ألف دينار ، فأخذها وانصرف إلى المدينة[٥] .

وكانت فى عطرَّد دعابة فإن والياً لبنى العباس شدَّد فى المغنين وأصحاب الملاهى ، وحبسهم ، وحُبس عطرد معهم ، فشفع له بعض أهل المدينة ، وقالوا : إنه من أهل المروءة والنعمة والدين ، فأطلقه الوالى ، وخرج ، وسرعان ما عاد إليه ، حين رأى المغنين يُعْرَضون عليه ، وسأله أعلى الغناء حبست هؤلاء ؟ قال نعم ، قال فلا تظلمهم فوالله ما أحسنوا منه شيئاً قط ، فضحك وخلى سبيلهم[٦] فانصرفوا يضحكون من عطرَّد وفكاهته .

ويبدو من روايات الأغانى لأصواته أنه كان يُغْنَى دائماً بالغناء الثقيل

---

(١) أغانى ٥/١١١ وما بعدها وكذلك ٦/٧٩ .

(٢) أغانى ٥/١٠٢ .

(٣) أغانى ٣/٣٠٣ .

(٤) أغانى ٣/٣٠٦ وراجع ٣/٣٠٣ .

(٥) أغانى ٣/٣٠٧ وما بعدها .

(٦) أغانى ٣/٣٠٧ .

فهو من هذه الناحية تلميذ مخلص لفن أستاذه معبد الذى كان يُغْنَى بالأنغام الثقيلة[١] .

وهؤلاء هم أشهر المغنين فى المدينة فى أثناء العصر الأموى ، ووراءهم كثيرون جدًّا كانوا متفوقين فى غنائهم تفوقاً واسعاً . وقد عقد صاحب الأغانى لبعضهم تراجم ألمّ فيها بأخبارهم ، وترددت أسماء كثير منهم فى أثناء حديثنا عن الغناء . وممن لم نذكره سعد بن هارون[٢] ، ومنهم يزيد حَوْراء وقد لحق عصر المهدى[٣] ، ومنهم البَيْذق الأنصارى وقد طرب يزيد بغنائه وأجزل له العطاء[٤] ، ومنهم أبو سعيد مولى فائد وكان فاضلا مقبول الشهادة معدّلاً وعُمّر إلى خلافة الرشيد ولقيه إبراهيم الموصلى وابنه إسحق وذووهما[٥] ، وغير أولئك كثير .

وينبغى أن نعرف أن هذه الطبقة الأخيرة من مغنى المدينة هى التى نقلت الغناء إلى العراق ، أو قل هى التى نُقِلَ عنها الغناء إلى العراق أوائل العصر العباسى ، فإن كثيراً من أهل المدينة لم يذهب إلى العراق وكان يذهب إليهم المغنون للأخذ عنهم . وأول من اهتم بالغناء من الخلفاء العباسيين المهدى على ما هو معروف[٦]. ونحن لا نصل إليه حتى نجده يستقدم المغنين من الحجاز[٧] . ومَنْ يقرأ فى كتاب الأغانى يجد أكثر أسانيده تنتهى إلى مغنى الحجاز ومغنى المدينة بنوع خاص ، مما يدل على أن المدينة أثَّر مغنوها وغناؤهم فى العصر العباسى تأثيراً واسعاً جدًّا .

٦

أشهر المغنيات

رأينا المدينة مكتظة بالمغنين ، وليس معنى ذلك أن المغنيات كن قليلات ، فقد كن كثيرات أيضاً ، ولعل أشهرهن حينئذ عَزَّة المَيْلاء ، وجميلة وسَلَّامة القَسّ وسَلَّامة الزرقاء .

---

(١) أغانى ٣/٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ وكذلك أغانى ٨/١٨٥ ، ٢٠١ .
(٢) أغانى ١/٥٦ .
(٣) أغانى ٣/٢٥١ .
(٤) أغانى (طبع بولاق) ١٣/١٦٣ .
(٥) أغانى (طبع دار الكتب) ٤/٣٣٠ .
(٦) البيان والتبيين ٣/٣٧٠ .
(٧) أغانى ٦/١٧٤ .

عَزَّة المَيْلاء

مولاة للأنصار ، وهى أقدم مغنيات المدينة ، وكانت تغنى أولا أغانى القيان من القدائم مثل سِيرين وزرنب وخَوْلة والرباب وسَلْمى ورائقة ، وكانت أستاذتها ، فهى التى خرجتها . ولما قدم نشيط المدينة أخذت عنه ، وكذلك أخذت عن سائب خاثر ، فكانت أقدم من غنى الغناء الموقَّع بالحجاز من الجوارى(١) .

وكانت عزة من أجمل النساء ، يقول طُوَيْس هى سيدة من غنى من النساء مع جمال بارع(٢) . وكان لها دار اتخذتها تغنى فيها الناس(٣) . وقد سمعها حسان ابن ثابت وأُعجب بها(٤) ، ويقال إنها فتنت رجال المدينة ونساءها فتنة شديدة(٥) ، وممن شُغف بها ابن أبى عتيق(٦) ، وقد قصدها هو ، وعبد الله بن جعفر ، وعمر بن أبى ربيعة يوماً فغنتهم ، وغنت عمر فى شىء من شعره ، فشَقَّ ثيابه ، وصاح صيحة عظيمة ، صُعِقَ معها من شدة الطرب(٧) .

وجمعت عَزَّة بين الغناء القديم والحديث فكانت تضرب بالمزاهر والمعازف القديمة ، كما كانت تضرب بسائر الآلات الحديثة(٨) . ويذكر صاحب الأغانى بين تلامذتها ابن سريج وابن محرز(٩) فى مكة والبُرْدان(١٠) فى المدينة . وعاشت حتى لحقت جميلة وغنَّت فى دارها(١١) .

جميلة

مولاة بنى بَهْز من بنى سُلَيم وكان لها زوج من موالى بنى الحارث بن الخزرج ، وكانت تنزل فيهم فغلب عليها ولاء زوجها ، فقيل إنها مولاة الأنصار(١٢) . وهى أصل

---

(١) أغانى (طبع بولاق) ١٦/ ١٣ وانظر أغانى (طبع دار الكتب) ٨/ ٣٢١ .
(٢) أغانى ١٦/ ١٤
(٣) أغانى ١٦/ ١٤ .
(٤) المصدر نفسه ١٦/ ١٤ وما بعدها .
(٥) المصدر نفسه ١٦/ ١٩ وما بعدها وانظر ١٠/ ٥٥ .
(٦) المصدر نفسه ١٦/ ١٩ وانظر ١١/ ٣٨ .
(٧) المصدر نفسه ١٦/ ١٤ .
(٨) المصدر نفسه ١٦/ ١٤ وانظر أغانى ٤/ ٢١٢ .
(٩) أغانى ١٦/ ١٤ وانظر أغانى ١/ ٣٧٨ .
(١٠) أغانى ٨/ ٢٧٧ .
(١١) أغانى ١٦/ ١٤ .
(١٢) أغانى ٨/ ١٦٨ .

من أصول الغناء فى المدينة ، وقد سُئلتْ أنَّى لك هذا الغناء ، فأجابت : «كان أبو جعفر سائب خاثر لنا جاراً وكنت أسمعه يغنِّى ويضرب بالعود فلا أفهمه ، فأخذت تلك النغمات فبنيت عليها غنائى . . وسمعنى موالياتى يوماً وأنا أغنى سرًّا ، ففهمننى ، ودخلن علىّ ، وقلن : قد علمنا فما تكتمينا ، فأقسمن علىَّ ، فرفعت صوتى وغنيتهن ، فحينئذ ظهر أمرى ، وشاع ذكرى ، فقصدنى الناس وجلست للتعليم ، فكان الجوارى يتكاوشننى (يتزاحمن حولى) فربما انصرف أكثرهن ولم يأخذن شيئاً . ولقد كسبت لموالىّ ما لم يخطر لهن ببال ، وأهل ذلك كانوا وكنت »[١] .

واتخذت جميلة لنفسها فى المدينة داراً كبيرة ، وكانت هذه الدار تمتلئ بالمغنين والجوارى ، وتقام فيها حفلات باذخة للغناء ، وكان يشترك فى هذه الحفلات بعض المغنين من مكة أحياناً مثل ابن مِسْجح وابن سُرَيج والغَرِيض وابن مُحْرِز[٢] . وكذلك كان يشترك فيها المغنون من المدينة من مثل مَعْبد ومالك بن أبى السَّمْح الطائى وابن عائشة ونافع بن طُنْبورة وغيرهم كثير[٣] . وكما كانت تكتظ دار جميلة بالمغنين كانت تكتظ كذلك بالمغنيات من مثل سَلاَّمة القس وسلامة الزرقاء وحَبابة وخُلَيْدة ورُبَيْحة وعُقَيْلَة العقيقية وفَرْعة وبُلْبلة ولذة العيش[٤] .

وبلغ الغناء فى دار جميلة كل ما كان ينتظره من رقى وازدهار إذ عُرف الغناء المصحوب بالجوقات الكبيرة[٥] ، كما عُرف الغناء المصحوب بالرقص والضرب على الآلات الموسيقية الكثيرة[٦]. وكثيراً ما كانت جميلة تجمع سكان المدينة وتقوم باستعراض كبير يضم مشاهير المغنين والمغنيات ، لا فى المدينة فقط ، بل فى مكة أيضاً[٧] . وكأن جميلة أبت أن تترك بعدها للمغنين ما يحدثونه ، ولعله

---

(١) أغانى ٨/١٨٧ .
(٢) المصدر نفسه ٨/١٨٨ وما بعدها .
(٣) أغانى ٨/١٨٨ وما بعدها .
(٤) المصدر نفسه ٨/١٨٦ ، وانظر ٨/٢٠٩ حيث تجد ثبتاً بأسماء من كان عندها من المغنيات والمغنين .
(٥) أغانى ٨/٢١٨ وكذلك ٨/٢٢٧ .
(٦) المصدر نفسه ٨/٢٢٦ .
(٧) انظر المصدر نفسه ٨/١٨٨ وكذلك ٨/٢١١ – ٢١٢ .

من أجل ذلك كان معبد يقول أصل الغناء جميلة وفرعه نحن ، ولولا جميلة لم نكن نحن مغنين[١] . وعاشت حتى عصر يزيد[٢] بن عبد الملك .

سَلَّامة القَسِّ

مولَّدة من مولدات المدينة أخذت الغناء عن جميلة ومعبد وابن عائشة[٣] ، وإنما سميت سَلَّامة القَسِّ لأن أحد قرّاء أهل مكة وكان يسمى عبد الرحمن ابن أبى عَمَّار الجُشَمِيِّ ، ويلقب بالقَسِّ لعبادته سمعها ، فشُغِفَ بها وشُهر ، وفيها وفى أختها رَيَّا يقول ابن قيس الرُّقَيَّات :

لقد فتنتْ ريَّا وسَلَّامَةُ القَسَّا فلم تتركا للقَسِّ عقلاً ولا نَفْسَا

فتاتانِ أمَّا منهما فشبيهـــةُ الـ هلال وأخرى منهما تشبه الشَّمْسَا[٤]

وكانت سلامة جميلة ، وطارت شهرتها ، فطلبها يزيد بن عبد الملك واشتراها من مولاها بعشرين ألف دينـار . ويقال إن أهل المدينة جاءوا يشيِّعونها حين أرادت الخروج ، فملأوا رَحْبَة القصر ووراء ذلك ، فوقفت بينهم ، ومعها العود ، فغنتهم :

فارقونى وقد علمتُ يقيناً ما لمن ذاق مِيتةً من إيابِ

ولم تزل تردد هذا الصوت حتى راحت والناس وراءها ينتحبون ويبكون[٥] واستمرت عند يزيد حتى توفى فرثته بشعر من تأليفها وناحت به عليه[٦] . ويروى أبو الفرج أن الوليد بن يزيد طلب إليها أن تغنيه شعرها فى أبيه فغنته ، وهى تتنغَّص من ذلك وتدمع عيناها[٧] ، وعاشت بعد الوليد[٨] ، ولكن يظهر أنها لم تعمَّر طويلاً .

---

(١) أغانى ١٨٦/٨ .
(٢) أغانى ٦٧/٩ .
(٣) المصدر نفسه ٣٣٤/٨ .
(٤) أغانى ٣٣٧/٨ .
(٥) أغانى ٣٤٣/٨ .
(٦) أغانى طبع دار الكتب ٣٣٣/٨ وكذلك ٣٤٦/٨ .
(٧) المصدر نفسه ٣٤٨/٨ .
(٨) المصدر نفسه ٣٣٤/٨ .

سلامة الزرقاء

تلميذة جميلة(١) ، وكان يقال إنه لم يُرَ فى النساء بعد القيان الحجازيات مثل جميلة وعزة المَيْلاء وسَلاَّمة الزرقاء(٢) ، ويظهر أنها كانت بارعة الحسن ، قَضَتْ أول حياتها فى دار جميلة(٣) ، حيث كانت تعلِّم بعض الجوارى الغناء(٤) . واشتراها ابن رامين أكبر تاجر للقيان فى الكوفة ، ففتنت هناك كثيراً من الشبان والشعراء ، وعلى رأسهم محمد بن الأشعث وفيها يقول :

أمسى لسلامـةَ الزرقـاء فى كبِـدى　　صَدْعٌ مقيمٌ طوالَ الدهر والأبـدِ(٥)

واشترى ابن رامين من مغنيات المدينة أيضاً رُبَيْحة وسعدة ، وكان أهل الكوفة يغشون منزله يستمعون إليهما . وحج ابن رامين وأخذ جواريه معه فقال إسماعيل ابن عَمَّار الأسدى واصفاً كيف علتْ حينئذ الحسرات نفوس أهل الكوفة وأفئدتهم :

أيـةُ حـالٍ يا بن رامينِ　　حـالُ المحبينَ المساكينِ
تركتهمْ مـوتى ولم يتْلفـوا　　قد جرِّعوا منك الأمرِّين
وسرْتَ فى ركبٍ على طِيَّةٍ　　ركبٍ تهـامٍ ويمـانينِ
يا راعىَ الذَّوْدِ لقد رُعْتَهُمْ　　ويلك من روْع المحِبِّين(٦)
فرَّقتَ جمعاً لا يُرَى مثلهم　　بين دروب الروم والصِّينِ(٧)

وعادت الزرقاء إلى الكوفة مع صواحبها ، وعادت معها الفتنة والإغراء ؛ فكان يذهب إلى دار ابن رامين كثير من نبلاء القوم ، وعلى رأسهم مَعْن بن زائدة ، ورَوْح بن حاتم ، وابن المقفع . ويقال إنهم استمعوا إليها وإلى سعدة يوماً ثم خرجوا فأرسل معن إليها بَدْرة وكذلك روح ، ولم يكن مع ابن المقفع مال فأرسل إليها بصَكٍّ ضَيعة له(٨). ويقال إن أحد الصيارفة سمعها ، فأدخل يده فى ثوبه ،

---

(١) أغانى ٢٠٨/٨ وكذلك ٢٣٠/٨ .
(٢) أغانى ١٧٥/١٨ .
(٣) أغانى ٢٣٠/٨ .
(٤) المصدر نفسه ٢٥٥/٣ .
(٥) أغانى ١٣٥/١٠ .
(٦) الذود : الطائفة الصغيرة من الإبل
(٧) انظر أغانى ١٢٧/١٣ .
(٨) انظر أغانى ١٣٢/١٣ .

وأخرج لؤلؤتين قيمتهما أربعون ألف درهم وأعطاهما لها[١] . وأخيراً اشتراها جعفر بن سليمان وإلى المدينة بثمانين ألف درهم[٢] .

وأظن أننا لسنا فى حاجة هنا إلى أن نعيد ما قلناه فى خاتمة حديثنا عن المغنين من أن المدينة كان لها أكبر الفضل فى الحركة الغنائية التى ظهرت فى العراق فى أثناء العصر العباسى . وهذه سلامة الزرقاء ، وصاحبتاها رُبَيْحة وسعدة يذهبن إلى الكوفة ، وقد أخذن معهن فن الغناء الذى كان قد استوى له فى المدينة كل ما يمكن من رقى وازدهار . ولا ريب فى أن هناك أخريات ذهبن إلى العراق وأثَّرن فيه مع هؤلاء الجوارى واستطعن هن وتلميذاتهن كما استطاع معهن مَنْ ذهب إلى العراق من المغنين وتلاميذهم هناك أن ينهضوا بالغناء هذا النهوض الذى يقصُّه صاحب الأغانى عن إبراهيم الموصلى ، وابنه إسحق ، وإسماعيل بن جامع ، وفُلَيْح بن أبى العوراء ، وزَلْزل ، وعَلُّوية من المغنين ، وفريدة ، وبَذْل ، وذات الخال ، ومتيَّم ، وعَرِيب ، ودنانير ، من المغنيات .

والحق أن المدينة هى التى هيأت لنمو الغناء عند العرب هذا النمو الذى جعله يتحول من صناعة بسيطة إلى صناعة معقدة لها تقاليدها ورسومها ، وهى صناعة بلغت مبلغاً عظيماً من السحر والفتنة على أيدى وألسنة كثير ممن برعوا فى الغناء براعة هائلة .

---

(١) انظر أغانى ١٣/١٣٢ .

(٢) المصدر نفسه ١٣/١٣١ وانظر ١٠/١٣٦ .

الفصل الثالث

الشعر والأغانى فى المدينة

١

الشعر فى المدينة

من يرجع إلى المدينة منذ العصر الجاهلى يجد الشعر فيها كثيراً كثرة مفرطة . روى ابن عبد ربه عن أنس بن مالك أنه قال : « قدم علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما فى الأنصار بيت إلا وهو يقول الشعر ، قيل له : وأنت أبا حمزة ؟ قال : وأنا »[١]. ولعل مما يؤكد كثرة الشعر والشعراء فى المدينة حينئذ أن نجد ابن سلام يتحدث فى طبقاته عن شعراء القرى العربية مكة والمدينة والطائف واليمامة والبحرين ، فيقول : أشعر هذه القرى قرية المدينة ، ويذكر أن شعراءها الفحول فى الجاهلية خمسة ، ثلاثة من الخزرج ، واثنان من الأوس ، فأما شعراء الخزرج ، فهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رَوَاحة ، وأما شاعرا الأوس فهما قيس بن الخطيم وأبو قيس بن الأسلت[٢] وقد عقد لهم أبو الفرج – عدا عبد الله ابن رَوَاحة – فصولاً طويلة فى كتابه الأغانى[٣] .

كان الشعر إذن أهم فنون الأدب فى المرحلة الجاهلية بالمدينة ، واستمر له شيء غير قليل من أهميته فى ابتداء المرحلة الثانية التى مرت بها ، مرحلة الرسول والخلفاء الراشدين ، فإن قريشا أخذت تهجو رسول الله وأصحابه بعد هجرتهم منها إلى المدينة ، فرأى أن يستعين عليها بشعراء الأنصار . روى أبو الفرج فى أغانيه

(١) ابن عبد ربه ٣/١٢٣ .

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٥٢ .

(٣) انظر أغانى ٣/١ وكذلك ٤/١٣٤ وانظر أغانى ١٥/٢٦ وأيضاً ١٥/١٦٠ .

أنه كان يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة رهط من قريش:عبد الله بن الزِّبَعْرَى وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعمرو بن العاص ، فقال النبي للأنصار : « ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم » ، فتصدّى لهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رَوَاحة(١). وكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم : بالوقائع والأيام والمآثر ويعيِّرانهم بالمثالب ، وكان عبد الله ابن رَواحة يعيِّرهم بالكفر ، فكان فى ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب ، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة(٢) . واستمع النبي صلى الله عليه وسلم يوماً إلى حسان وهو ينشد بعض أشعاره فى هجاء قريش فقال : « لهذا عليهم أشد من وقع النبل »(٣).

واستمرت هذه النبال تصوَّب من المدينة إلى مكة طوال حربها مع النبي ، حتى إذا فُتحت مكة وقفت هذه الحرب اللسانية وأخذ المسلمون وشعراؤهم يهدءون ، بل لقد هجر بعض الشعراء نظم الشعر ، هجره حسان بن ثابت ، أو كاد ، وهجره كعب بن مالك وهجره غيرهما . وهذا طبيعى لأن وقود الشعر العربى فى المرحلة الجاهلية كما قدمنا الثأر ، والإسلام ينهى عن الثأر ، وأيضاً فإنه ينهى عن الثَّلْب والهجاء ، ويدعو المسلمين إلى أن يكونوا إخوة متحابين . ومعنى ذلك أن دواعى الشعر أخذت تضعف ، وساعد على هذا الضعف أن العرب شُغلوا بعد وفاة النبي بالفتوح وتمصير الأمصار ، وصرفهم ذلك عن الشعر إلا طائفة قليلة أخذت تقول الشعر كما كانت تقوله فى الجاهلية ، وكان على رأس هذه الطائفة الحطيئة .

وقصة الحطيئة مع الزِّبْرِقان ، واستعداؤه عليه عمر لما كان من هجائه إياه مشهورة ، فقد حبسه عمر ، واستعطفه الحطيئة بشعر ، ذكر فيه أفراخه بذى مَرْخ ، فعطف عليه عمر وأطلقه بعد أن أخذ عليه المواثيق ألا يعود إلى الهجاء ، ويقال إنه اشترى منه أعراض المسلمين بعطاء(٤). وفى الأغانى أن عمر نهى الناس أن ينشدوا شيئاً من مناقضة الأنصار ومشركى قريش ، وقال : فى ذلك شتم الحى بالميت

---

(١) أغانى ٤/١٣٧ .

(٢) المصدر نفسه ٤/١٣٨ .

(٣) المصدر نفسه ٤/١٤٣ .

(٤) أغانى ٢/١٨٩ .

وتجديد الضغائن[١]، ويقال إنه انتهر حسان بن ثابت إذ سمعه ينشد بعض هذا الشعر[٢] .

وكما كره عمر للشعراء أن يتعرضوا للمسلمين وأعراضهم بالهجاء ، كذلك كره لهم أن يتعرضوا لنسائهم وبناتهم بالتشبيب والغزل ، فتقدم لهم ألا يشبب أحد بامرأة إلا جلده ، مما اضطر حُمَيْد بن ثور أن يشبِّب بِسرْحَةٍ (شجرة) ، وأن يقول فى تشبيبه :

فهل أنا إن علَّلْتُ نفسى بسَرْحةٍ

من السّرْح موجودٌ علىّ طريقُ[٣]

ويذهب عمر ، ويأتى عثمان فيسير سيرة صاحبه من النهى عن التعرض للأعراض ، وقد حبس ضابئ بن الحارث البُرْجمى لإقذاعه فى الهجاء ، وبقى فى سجنه حتى مات[٤] .

وعلى هذا النحو أخذ فن الشعر يضعفُ بضعف دواعيه فى عصر الخلفاء الراشدين إلا ما كان فى حروب على ومعاوية ، فقد رجع الشعراء يعيدون السيرة القديمة من السب والتنابذ بالألقاب[٥]. لكن هذه الحركة لم تكن فى المدينة نفسها ، إنما كانت فى العراق مع الجيوش المقتتلة هناك .

وإذا انتقلنا إلى العصر الأموى وجدنا الشعر ينهض فى المدينة نهضة واسعة ، وكأن المدينة عادت فى هذا العصر إلى حال تشبه حالها فى الجاهلية إذ كان الشعر أهم فنون الأدب التى تمارسها ، وقد هجرته فى عصر الخلفاء الراشدين أو كادت ، ولكنها سرعان ما رجعت إليه وأوغلت فيه .

ونحن نعرف أن الإسلام نفى اليهود عن المدينة وقد سكنتها جماعة كبيرة من قريش هاجرت إليها قبل النبى صلى الله عليه وسلم وبعده ، كما نزحت إليها جماعة كبيرة من الموالى الأجانب الذين استرقَّهم أهلها فى فتوحهم وانتصاراتهم فى بلاد الفرس والشام ومصر .

---

(١) أغانى ٤/١٤٠ .

(٢) المصدر نفسه ٤/١٤٣ .

(٣) أغانى ٤/٣٥٧ .

(٤) ابن سلام ص ٤٠ ، وانظر الشعر والشعراء لابن قتيبة طبع ليدن ص ٢٠٢ وما بعدها .

(٥) المسعودى ٥/٤٦ .

وهذا الخليط من قريش والأنصار والموالى فى المدينة كان له نشاط واسع فى الشعر فى أثناء هذا العصر ، وآية ذلك كثرة التراجم التى عقدها أبو الفرج فى أغانيه لشعرائهم جميعاً ، وهى تراجم تتضمن أخبارهم ، كما تتضمن طرائف من أشعارهم ، وخاصة التى غَنَّى فيها المغنون . وأشهر من ترجم لهم من قريش عبد الرحمن ابن الحكم[١]، من بيت بنى أمية ، وعبد الله[٢]بن الحسن بن الحسن بن على من بيت العلويين ، وعبد الرحمن[٣]بن أبى بكر الصديق من بيت أبى قحافة ، وجعفر[٤] بن الزبير من بيت الزبيريين ، والحسين[٥]بن عبد الله بن عبيد الله ابن العباس بن عبد المطلب من بيت العباس[٦] ، وعروة بن أذينة من بنى لَيْث ابن بكر بن عبد مَنَاة بن كِنانة . وأشهر من ترجم لهم أبو الفرج من حلفاء قريش ابن أرْطاة[٧]، وعبيد الله[٨] بن عبد الله بن عُتْبة بن مسعود وهو من حلفاء بنى زُهْرة وعِداده فيهم ، ثم ابن هَرْمة[٩]، وهو من الخلُج ، ويقال إنهم من قريش ، وأدرك العصر العباسى .

وقد ترجم أبو الفرج بجانب هؤلاء القرشيين وحلفائهم لجماعة من شعراء الأنصار المهمين ، وكان شعراء الأنصار فى المدينة هذا العصر أكثر نفراً من شعراء قريش . وهذا طبيعى فقد كان فى الأنصار بيوت كثيرة تشتهر بالشعر منذ العصر الجاهلى ، كبيت حسان بن ثابت ، وقد ترجم صاحب الأغانى لشاعرين منه فى هذا العصر ، وهما عبد الرحمن بن حسان[١٠]وابنه سعيد[١١]. وبجوار بيت حسان نجد بيت كعب ابن مالك ، يقول صاحب الأغانى : لكعب أصل أصيل وفرع طويل فى الشعر ، ابنه عبد الرحمن شاعر ، وابن ابنه بشير بن عبد الرحمن شاعر ، ومعن بن عمر

---

(١) أغانى ٧٢/١٢ وكذلك ١٥٠/١٣ .
(٢) المصدر نفسه ٢٠٣/١٨ .
(٣) المصدر نفسه ٩٣/١٦ .
(٤) أغانى ١٠٤/١٣ .
(٥) المصدر نفسه ١٦٩/١٠ .
(٦) أغانى ١٦٢/٢١ .
(٧) انظر الأغانى ٢٤٢/٢ .
(٨) المصدر نفسه ١٣٩/٩ .
(٩) المصدر نفسه ٣٦٧/٤ .
(١٠) ترجم أبو الفرج لعبد الرحمن بن حسان ترجمة متداخلة مع عبد الرحمن بن الحكم ، انظر الأغانى ٧٢/١٢ وكذلك ١٥٠/١٣ .
(١١) انظر أغانى ٢٦٩/٨ .

ابن عبد الله بن كعب شاعر ، وعبد الرحمن بن عبد الله شاعر ، ومعن بن زهير بن كعب شاعر ، وكلهم مجيد مقدم[١]. ووراء هذين البيتين الكبيرين للشعر فى هذا العصر نجد كثيراً من شعراء الأنصار ترجم لهم صاحب الأغانى مثل النعمان بن بشير[٢] والسّرِىّ بن عبد الرحمن[٣] ، وعلى رأس هؤلاء جميعاً الأحْوَص شاعر المدينة فى هذا العصر غير مدافَع .

ويأتى فى إثر هؤلاء الشعراء من قريش وحلفائهم ومن الأنصار طائفة من شعراء الموالى مثل موسى شهوات وكان يلقب بشهوات لأنه كان سئولا مُلْحِفاً ، وقيل لأن امرأته كانت تقول ما يزال موسى يجيئنا بالشهوات ، فغلبت عليه[٤]. وأصله من أذربيجان ، وقيل ليس بالمدينة شاعر من الموالى إلا وأصله من أذربيجان[٥]، واشتهرت من هؤلاء الموالى أسرة بالشعر هى أسرة يسار النِّسائى ، فقد كان ابنه إسماعيل شاعراً مهماًّ ، ترجم له صاحب الأغانى ترجمة مستفيضة[٦]؛ وكذلك كان ابناه محمد وإبراهيم شاعرين[٧] ، وكانت فيهم جميعاً نزعة إلى الشعوبية ، وروى صاحب الأغانى شعراً لإسماعيل يُفْصح فى وضوح عن هذه النزعة[٨].

أرأيت إلى هذا الحشد الحاشد من الشعراء الذين عاشوا فى المدينة لهذا العصر وترجم لهم صاحب الأغانى ، وهو لم يترجم لكل شاعر نبت فى المدينة حينئذ ، إنما ترجم للمشهورين منهم . وليس من شك فى أن هذا الحشد يدلُّ دلالة قاطعة على مدى ما كان فى المدينة من نهضة للشعر ، وهى نهضة واسعة تجعل الإنسان يظن أن أهل المدينة كانوا جميعاً يصطنعون الشعر فى هذا العصر حتى الموالى منهم كانوا ينظمونه ويصنعونه .

---

(١) أغانى ٢٧/١٥ .
(٢) أغانى بولاق ١١٩/١٤ .
(٣) المصدر نفسه ٦٥/١٨ .
(٤) أغانى ٣٥١/٣ .
(٥) الشعر والشعراء ص ٣٦٦ .
(٦) أغانى ٤٠٨/٤ .
(٧) المصدر نفسه ٤١٢/٤ .
(٨) المصدر نفسه ٤١١/٤ وكذلك ٤٢٣/٤ .

٢

الشعر والأغانى

وإذا أخذنا نبحث الشعر العربى فى المدينة فى أثناء العصر الأموى وجدناه يتفرع إلى فرعين كبيرين : فرع تقليدى ، وفرع للغناء هو الأغانى ، ونقصد بالأول شعر الهجاء والمديح وما يتصل بهما ، وبالثانى شعر الغزل الذى كان يغنَّى فعلا ، يغنِّيه المغنون والمغنيات فى المدينة ، ويصحبون غناءهم بالضرب على الأدوات الموسيقية ، وكان موضوعه غالباً الحب وما يتصل به .

وإذا أخذنا نقارن بين هذين الفرعين الكبيرين للشعر فى المدينة فى أثناء العصر الأموى ، عصر الغناء والمغنين ، وجدنا الفرع الثانى يتفوق على الفرع الأول تفوقاً شديداً سواء فى كثرة من مارسوه ، أو فى كثرة ما جاء منه من نماذج فنية . وتحقيق هذه المسألة لا يحتاج إلى أكثر من قراءة تراجم الشعراء السابقين فى كتاب الأغانى واستعراض ما خلَّفوه من شعر . ولعل أول ما يلاحظه قارئ الأغانى على هؤلاء الشعراء أن أغلب القرشيين منهم لم يُعْنَوْا بالشعر التقليدى أى عناية ، فعبد الله بن الحسن إنما يروى له صاحب الأغانى غزلاً ، وكذلك هو يروى لعبد الرحمن بن أبى بكر ولجعفر بن الزبير وللحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس . وطبيعى ألا يُؤْثَرَ عن هؤلاء السادة مديح ، وفيمن يمدحون ؟ وهم يرون أنفسهم خليقين بالمدح ، وأنه كان أولى بالشعراء الذين يمدحون ملوك بنى أمية أن يمدحوهم ، وهم كذلك كانوا يرفعون أنفسهم عن الإسفاف وأن ينزلوا من سمائهم إلى السب والقذف ، لذلك كله لم يتركوا مديحاً ولا هجاء ، وإنما تركوا شعراً يعبِّر عن عواطفهم الخالصة ، وسرعان ما يسمع به المغنون والمغنيات أو يُسمِعونه لهم ، فيُقْبِلون على غنائه والترنم به .

ولم يتورط أحد من نبلاء قريش فى الشعر التقليدى سوى عبد الرحمن بن الحكم فقد أُغْرِم بهجاء عبد الرحمن بن حسان . ويظهر أنه اضطُرَّ إلى ذلك ؛ لأن عبد الرحمن كان يكثر من هجاء معاوية وبيته ، فردَّ عليه ، وسرعان ما استمر الهجاء بينهما[1].

(١) أغانى ١٣/١٥٠ .

ولعل من الطريف أن نلاحظ هنا أن عبد الرحمن بن حسان حين أراد أن يهاجم معاوية ابتكر طريقة سار عليها كثير من شعراء الحجاز وهى أن يهاجمه عن طريق الغزل بابنته . وهكذا تغزل فى رَمْلة بنت معاوية ، وغاظ ذلك أخاها يزيد فيما يقول الرواة[١] .

ويذهب عبد الرحمن بن حسان فلا يخلفه من يقوم على هجاء بنى أمية ، فقد أذعنت المدينة لهم منذ موقعة الحَرَّة ، ولعلها من أجل ذلك لم يظهر بها شعر سياسى مما ظهر فى هذا العصر عند شعراء الأمويين من مثل الأخطل ، أو شعراء الشيعة من مثل الكُمَيْت ، وحتى ابن الزبير لم يكن له شاعر بالمدينة ، بل حتى عبد الله بن حنظلة لا نجد فى المدينة من يرثيه لا هو ، ولا قتلى الحرَّة ، إنما يرثيه ويرثيهم ابن قيس الرقيات بقصيدته المشهورة :

ذهبَ الصِّبَا وتركت غِيَّتِيَهْ ... ورأى الغَوَانى شَيْبَ لِمَّتِيَهْ[٢]

لم يَنْمُ الشعر التقليدى فى المدينة هذا النمو الذى أتاح فى بيئات أخرى للشعر السياسى أن يظهر وأن يكثر ، لأن المدينة كانت تتخفف ، ولم ترد أن تتورط فى شغبٍ قد يؤذيها .

وقد أسلمت المدينة لعبد الملك ، ولم يعد يوجد فيها شاعر يُعْنى بهجاء بنى أمية ، بل إن سعيد بن عبد الرحمن بن حسان ينزع عن مذهب أبيه ، ويتخذ مذهب المدينة وما كان يشيع فيها من ملق للأمويين ، فيمدحهم ويصلونه[٣]. وكذلك كان الأحوص يمدح الأمويين وينال صلاتهم[٤]، وقد تخصص ابن هَرْمة فى مديح عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك عامل المدينة لمروان بن محمد ، وفيه يقول[٥] :

يكاد بابُك من جودٍ ومن كرمٍ ... من دون بَوَّابه للناس يَنْدلقُ

وربما كان المدح أكثر شيوعاً فى شعراء الموالى بحكم أنهم أجانب وأن مركزهم الاجتماعى يجعلهم فى حاجة إلى التكسب كما يجعلهم أكثر استعداداً للتذلل والتضرع . وكانوا يمدحون النبلاء الذين يجاورونهم من أهل المدينة ، ولم يكن هواهم

---

(١) أغانى ١٤/١٢٢ .
(٢) ديوان ابن قيس الرقيات (طبع فيينا) ص١٨٦ .
(٣) أغانى طبع دار الكتب ٨/٢٦٩ .
(٤) المصدر نفسه ٤/٢٤٨ وما بعدها .
(٥) أغانى ٦/١٠٣ .

على العموم مع بنى أمية ، لأن النبلاء الذين يعيشون معهم لم يكونوا من هوى بنى أمية ، ثم بنو أمية عُرِفوا بتعصبهم للعرب على الموالى ، فكان ذلك مدعاة لأن يكتفوا بمديح من يجاورونهم من الأشراف والسادة . ومع ذلك كله نجدهم يفدون على الأمويين يمدحونهم وينالون جوائزهم ، ففى الأغانى أن خلفاء بنى أمية كانوا يحسنون إلى موسى شهوات ويدرُّون عطاءه ، وتجيئه صلاتهم إلى الحجاز[١]. وكذلك كان إسماعيل بن يَسار يَفِدُ عليهم ويجيزونه ، مع أنه كان كالمنقطع إلى عروة ابن الزبير[٢].

على أننا إذا أخذنا نقيس مديح هؤلاء الشعراء إلى ما أنتجوه هم أنفسهم من شعر فى الحب والغزل غَنَّى فيه المغنون والمغنيات فى المدينة لم نجده شيئاً مذكوراً . والحق أن من يبحثون عن شعر المديح فى هذا العصر ينبغى ألا يبحثوا عنه فى المدينة ، إنما يبحثون عنه فى العراق عند جرير والفرزدق والأخطل شاعر البلاط الأموى المشهور ومن نهج نهجهم .

لم تكن المدينة متفوقة هذا العصر فى شعر المديح ، وهى كذلك لم تكن متفوقة فى شعر الهجاء ، وليس معنى ذلك أنه لم يوجد فيها هجاء ، فقد كان بعض هؤلاء الشعراء الذين سميناهم ومعهم الأحوص يعنون بالهجاء أحياناً ، ولكنهم لم يتخصصوا به على نحو ما نجد فى العراق التى أنتجت فى هذا العصر النقائض المعروفة بين جرير والفرزدق أو بين جرير والأخطل .

ولعل من الطبيعى ألا يسود الشعر التقليدى من هجاء وغير هجاء فى المدينة هذا العصر ، لأن المدينة لم تكن محافظة ، ولم تكن تسير فى حياتها على النهج الجاهلى ، كما سارت قبائل العراق ، بل لقد كانت مجدِّدة ، وقد أصابت حظوظاً من الترف والنعيم ، فكان من نتائج ذلك أن نفرت إلى حد ما ، مما يمثل حياة العرب القديمة وخاصة هذه الحياة التى تقوم على الصعوبة فى الخلق والخشونة ، فيكون الهجاء ، ثم هى كانت من الثروة والترف بحيث لا تحتاج إلى مال بنى أمية وبحيث يضطرها هذا المال إلى أن تسرف فى مديحها للأمويين ، ثم هى كانت معارضة

---

(١) أغانى ٣/٣٦٥ .

(٢) المصدر نفسه ٤/٤٠٨ .

لبنى أمية ، فلم يطلب منها الأمويون شعراء المدح الذين يباهون بهم الأقاليم الأخرى وشعراءها .

وبجانب ذلك كله كانت المدينة مكتظة بدور الغناء والمغنين والمغنيات ، وكانت هذه الدور تطلب دائماً غزلا يُغنَّى ، وكان هذا الغزل هو الذى يشيع ، لأن أشراف المدينة وسادتها كانوا يطلبونه لمغنيهم ومغنياتهم ، وكانوا إذا فقدوه فى المدينة طلبوه فى شعر البادية[١]، وهل تظن أن أحداً من الشعراء الذين سميناهم اشتهر فى المدينة هذا العصر وهو لا ينظم غزلا ؟ إنهم جميعاً كانوا أصحاب غزل ينظمونه ، وبهذا الغزل نالوا شهرتهم فى عصرهم ، بل إن كثيراً منهم لم يؤثر عنهم شعر تقليدى كأكثر شعراء قريش وبعض شعراء الأنصار من مثل السرىّ بن عبد الرحمن ، وفيه يقول صاحب الأغانى : « إنه كان أحد الغزلين »[٢] .

وعلى هذا النحو كان كثير من شعراء المدينة يقصر نفسه على الغزل وحكاية عواطف الحب ، إما لأنه من سادتها أو لأنه يريد أن يرضى دُور الغناء فيها . وكان من يكون شاعراً من هؤلاء السادة يتخصص بشعره بعض المغنين أو المغنيات ، يغنيه له ، فقد روى صاحب الأغانى أن مالك بن أبى السمح كان يتغنى[٣] فى أشعار الحسين ابن عبد الله بن العباس .

وكما كان يتخصص بعض المغنين بشعر بعض سادة المدينة كان يتخصص بعض آخر بشعر شاعر ممتاز ولو لم يكن من كبار الأشراف والسادة . وكانت المغنيات خاصة تتعلق بشعر الأحوص إذ كن يُعْجَبن به وبشعره . كانت تعجب به جميلة[٤] وسَلاَّمة[٥] وغيرهما .

وأخذ المغنون يشتهرون بمجموعات من هذه الغزليات التى كان ينتجها الشعراء ، وكانوا هم يغنون فيها ، فيونس الكاتب يشتهر بزينبيات ابن هَرْمة ، وهى قطع كلها فى زينب بنت عِكْرمة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام[٦] ، وحتى عمر بن عبد العزيز وهو وال على المدينة نجده يشتهر بسعادياته ، وهى سبعة ألحان تُذكر

---

(١) أغانى ٢١٣/٤ .
(٢) أغانى ٦٥/١٨ .
(٣) المصدر نفسه ١٧٠/١٠ .
(٤) أغانى ٢٠١/٨ .
(٥) المصدر نفسه ٢٣٧/٨ .
(٦) أغانى ٤٠٥/٤ .

فيها كلها سعاد(١).

ومهما يكن فإن الغـــزل كان هو الشغل الشاغل للمدينة فى هذا العصر ، وكان الشعراء يهتمون به اهتماماً شديداً ، وقد توفروا عليه من قرشيين وأنصار وموال كل يريد أن يحدث فيه ما يشتهر به بين أبناء عصره ، واستطاعوا أن ينهضوا به نهضة واسعة إذ حشدوا أنفسهم له ، وكادوا ألا يستبقوا من ملكاتهم شيئاً لفن آخر ، لا لخطابة ولا لكتابة ولا حتى لشعر تقليدى . ولعل من أطرف ما يُرْوَى فى هذا الصدد أن أحد أبناء المدينة سأل جريراً أن يُسْمعه بعض شعره ، وشعره كله على ما نعرف تقليدى : مدح وهجاء ، فأبى عليه أن يسمعه شيئاً قائلا : يا أهل المدينة إنما يعجبكم النسيب(٢).

كانت المدينة بلدة النسيب كما يقول جرير فى هذا العصر وكان يغنيه طُوَيْس وسائب خاثر ومعبد وجميلة وسَلاَّمة وغيرهم من المغنين والمغنيات . واستطاعت المدينة أن تظفر بطائفة كبيرة من الشعراء تجد عندها ما يغنيه هؤلاء المغنون الكثير ون ، بل قل ما يوقّعه هؤلاء المغنون الكثير ون على أدواتهم الموسيقية المختلفة . وسنقف قليلاً نتحدث عن هذا الشعر ونتعرض لأهم مميزاته .

٣

خصائص فى مضمون الغزل وأغانيه

لعل أول ما يلاحظ على الأغانى التى كان يغنيها المغنون والمغنيات فى المدينة أنها كانت مقطوعات قصيرة ، فهم لا يغنون قصائد ، وإنما يغنون بيتين أو ثلاثة أو أربعة ، ومهما أطالوا فلن يتجـاوزوا سبعة أبيات إلا فى النادر . على أن بعض المغنين كان يأبى أن يغنى فى أكثر من بيتين(٣) .

وهذه القطعة الصغيرة التى كانت تغنَّى كانت تُختار من الشعر التقليدى

---

(١) أغانى ٩/٢٥٤ .

(٢) أغانى ١/٧٦ .

(٣) انظر الأغانى ١/٣٧٩ .

أحياناً ، فقد تكون مديحاً أو تكون حماسة أو رثاء أو حكمة ، ولكن ليس هذا هو الغالب ، إنما الغالب أن تكون غزلاً ، بحيث إذا قلنا إن الغزل كان موضوع الأغانى فى المدينة لم نبعد . وهو غزل قصير لم يستطع الشعر القديم أن يمد المغنين والمغنيات منه إلا بقطع قليلة ، لأن الغزل لم يكن الموضوع الغالب على الشعر الجاهلى ، إنما كان يغلب عليه الحماسة والهجاء . ومن ثم كان من الضرورى أن يجد المغنون والمغنيات حاجتهم من شعر حديث يؤلَّف لهم ، شعر يكون موضوعه الحب : حياته وموته ووقائعه ، وليس من الضرورى أن يكون قصائد طويلة ، بل يكفى أن يؤلف الشاعر طائفة صغيرة مختارة من الأبيات فيغنيها المغنون والمغنيات ويجدوا فيها طَلِبَتهم .

وقد أقبل شعراء المدينة على هذا الغزل يؤلفونه ، وأقبل من ورائهم شعراء البادية وشعراء مكة . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق أحد فى المدينة إلا وهو ينظم من هذا الشعر الذى تطلبه دور اللهو وقصور النبلاء والأشراف من رجال ونساء كى يغنيه مواليهن من مغنيات ومغنين . وهكذا لم تعد المدينة تُعْنَى بالشعر الذى كان يقال فى حروبها القديمة ، حرب بُعاث وغيرها ، وكذلك لم تعد تعنى بالشعر القديم كله ، فقد صَبَّتْ عنايتها على هذا الشعر الجديد الذى كان يحكى قصة الحب ، ويصوِّر لواعجه وحوادثه . وقد يعنى شاعر المدينة بالمديح فلا يعنى به الناس ، ولا يعنى به المغنون إلا أن يكون فى خليفة أو أمير كبير ، ويذهبوا إليه يطلبون جائزته ، فيغنوا له بهذا الشعر الخاص[١] .

ونقول الخاص لأنه فقد الآذان التى تُعْنَى به فى المدينة ولم تعد هناك أذن تحب أن تسمع سوى الشعر الحديث الذى يغنِّى فيه طويس ومعبد وجميلة وَسلاَّمة ومن إليهم ، فهو الشعر العام الذى يستهوى جميع القلوب والأفئدة .

أصبحت المدينة لا تعنى إلا بهذا الغزل الجديد ، وقد كان يخالف – إلى حد كبير – نسيب القدماء ، الذين لم يكونوا يخصون نسيبهم بمقطوعات خاصة على نحو ما نعرف فى هذا العصر ، بل كانوا يسوقون النسيب فى مطلع قصائدهم كأنه ليس

---

(١) أغانى ١/٢٩٧ وكذلك ٤/٢٤٩ وما بعدها .

غايتهم من أشعارهم ، إنما هو يأتى تبعاً ، أما فى هذا العصر فقد أصبح الغاية كلها . وأيضاً فإنهم كانوا يعنون ببكاء الديار ووصف أثر ارتحال المرأة مع قومها ، أما فى هذا العصر فقد كان أهل المدينة مستقرين ، وكذلك كانت ديارهم ، فلم يعد لشعرائهم ولا لمغنيهم حاجة بهذه الصورة القديمة من النسيب إلا حين يريدون أن يقلدوا القدماء .

كان غزل المدينة يختلف فى صورته عن النسيب القديم لا مما قدمنا فقط . بل أيضاً من أن الشاعر كان يقصد فى القطعة التى يعالجها إلى تصوير حبه وما يَلْقَى فيه من وَصَب وعذاب . وبذلك كان غزله معنوياً أكثر من النسيب القديم ، فالشاعر يُعْنَى فيه بحكاية خواطره ، وقلما عُنِى فيه بوصف المرأة وصفاً حِسِّيًّا . وينبغى أن لا نفهم من ذلك أن أغلب غزل المدينة فى هذا العصر كان غزلاً عفيفاً ، ففرقٌ بين أن يكون الغزل معنويًّا وأن يكون عفيفاً ، ومرَّ بنا ما كانت تنغمس فيه المدينة من حضارة وترف ، وما كان يشعر به أهلها من حرية وهى حرية جعلت الغزلين منهم يعبِّرون فى صراحة عن خواطرهم إزاء المرأة فى شعرهم وماذا يمنعهم من هذا التعبير ؟ وهم قوم لا عمل لهم إلا الفراغ وإلا اللهو ، فتلك هى وظيفتهم حينئذ فى الحياة ، وهى وظيفة نعموا بها حيناً من الدهر ، وكان لا بد للغزل الذى يعبرون به عن خلجاتهم أن يفصح عن وظيفتهم ، بل قل عن حياتهم ، وهى حياة صريحة لا يتكلفون فيها ولا يتصنَّعون .

كانت صورة الغزل فى المدينة هذا العصر صورة صريحة لا التواء فيها ولا عوج ، بل يحكى فيها الشاعر كل ما يقع له مع صواحبه ، ومن هنا كنا إذا قلنا إن غزل المدينة فى هذا العصر غزل صريح لم نكن مخطئين .

وليس معنى ذلك أن المدينة انتفى منها الغزل العفيف ، وإنما معناه أن هذا هو الكثير الغالب ، وقد يوجد بجانب هذا الكثير الغالب شعر عفيف فيه تَسَامٍ وفيه طهر ، فقد كان من زهاد المدينة وفقهائها من تغزلوا وعبروا فى غزلهم عن مثالية من العفاف والنبل دون سقوط فى حكاية رغبات حسية أو لذائذ جسدية على نحو ما نعرف عند فقيه المدينة عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة .

وأيضاً ينبغى أن نعرف أن غزل الصريحين أنفسهم كان يختلف باختلاف

المرأة التى يتغزلون فيها ، فالمرأة العربية الكريمة من قريش أو من الأنصار لا يتغزلون بهـا فى حرية على نحو تغزلهم بالقيان من الجوارى المغنيات اللائى كن يُبَعْنَ فى الأسواق .

وليس من شك فى أن هؤلاء القيان كان لهن أثرهن فى شيوع الغزل الصريح بالمدينة وانتشاره ، وكذلك كان شأنهن بمكة فقد كانت البيئتان تتشابهان من حيث الحضارة والترف ومن حيث وجود دور اللهو وهؤلاء القيان .

ولعلنا نستطيع بذلك أن نفهم شيوع الغزل العفيف فى البادية عند جميل وكُثَيِّر وأصحابهما ، فقد كانت البيئة غير متحضرة ، ولم يكن هناك هؤلاء القيان ولا هؤلاء الشبان المترفون من أهل المدينة .

على كل حال كان غزل المدينة فى هذا العصر يتميز بألوان من الصراحة والحرية ، فالشاعر فيه مرسل طليق لا يعوقه شيء عن التصريح بمـــــــا يدور فى نفسه . وقد شاع بين الشعراء بِدْع جديد هو أن يقصّوا حوادثهم من غير تحفظ ولا تكلف ، واستمع إلى هذه القصة ينظمها إسماعيل بن يسار أحد الموالى هناك [١] :

كَلْثَـمُ أنتِ الهـمُّ يـا كلثـمُ ... وأنتمْ دائـى الـذى أكتمُ
أكـاتم النـاسَ هَـوًى شَفَّنى ... وبعضُ كتمـان الهوى أحزم
قـد لُمتِنى ظلمـاً بلا ظِنَّــةٍ ... وأنتِ فيمـا بيننـا ألــوَمُ
أَبْـدِى الـذى تُخفينـه ظاهراً ... أرتـدُّ عنـه فيك أو أَقْـدِم
إمـا بيأسٍ منـك أو مطمـعٍ ... يُسْدَى بحسن الود أو يُلْحَمُ [٢]
لا تتركينى هــكــذا مَيِّتــاً ... لا أُمْنَـح الـودَّ ولا أُصْرَمُ
أَوفى بمــا قلتِ ولا تنـدمــى ... إن الـوفىَّ القـول لا ينـدمُ
إيــهِ بمــا جئت على رِقْبَـةٍ ... بعد الكرَى والحىُّ قـد نوَّموا
أخافت المشىَ حِـذار العِـدا ... والليل داج حـالـكٌ مظـلم

---

(١) أغانى ٤/٤١٦ .

(٢) يسدى ويلحم : من سداة الثوب ولحمته أى ينسج إما ابتداء وإما انتهاء

ودون مـا حـاولتُ إذ زرتـكم — أخوك والخـالُ معـاً والحَـمُ
وليس إلا الله لى صـاحبٌ — إليـكمْ والصـارمُ اللَّهْـذَمُ
حتى دخلتَ البيتَ فاستذرفتْ — من شَفَقٍ عينـاك لى تَسْجُمُ
ثم انجلى الحـزن وروعاتـه — وغُيِّبَ الكـاشحُ والمُبْرِمُ(١)
فبتُّ فيمـا شئت من نعمـةٍ — يمنحُنيهـا نَحْرُهَـا والفـم
حتى إذا الصبح بـدا ضَوؤه — وغـارتِ الجَـوْزاء والمِرْزَمُ(٢)
خرجتُ والـوَطْءُ خَفِىٌّ كمـا — ينساب من مكمنـه الأَرْقَمُ(٣)

وواضح أن إسماعيل يبدأ قصته بمخاطبة صاحبته كلثم ، وهو يعلن أنه حاول أن يكتم هواها ، ويذكر ما كان من لومها إياه ويصف ما كان منه بعد ذلك ، فهو يتردد بين اليأس والطمع ، وما يزال بها يطالبها بما وعدته ، ثم يقص علينا وعداً معها ، فيروى كيف أنه زارها خلسة ذات ليلة وقد نام أهلها ورقباؤها ، ويصف كيف كان يخفِّف مشيه حتى لا يشعر به أحد ، وما يلبث أن يدخل بيتها فتبكى وتبلل خدودها بالدموع ، ثم ينجلى الحزن ، أو قل ينجلى إثر المفاجأة ، حتى إذا بدا ضوء الصباح انصرف إسماعيل كما أقبل ، يخفف من مشيه وسيره ، كأنه أرقم ينساب من مكمنه .

أرأيت إلى هذه القصة القصيرة وما تصف فى حرية وصراحة ؟ إنها مثال هذا الغزل الذى شاع فى المدينة والذى لم يكن إسماعيل بن يسار خير من يمثله ، وإنما كان الأحوص الشاعر الأنصارى خير من يمثله حقًّا ، فقد شاعت فى شعره الحرية والصراحة .

وسنعرض للأحوص بالتفصيل فى غير هذا الموضع . ومهما يكن فإن كثيراً من غزل المدينة لهذا العصر كان غزلاً صريحاً .

---

(١) المبرم : الجليس الثقيل .
(٢) المرزم : نجم .
(٣) الأرقم : أخبث الحيات .

٤

خصائص موسيقية

تحدثنا عن خصائص الأغانى فى المدينة من حيث الموضوعات والمعانى التى كانت تعالجها ، ولكن لم نتحدث عن موسيقاها ، ولعل الحديث فى هذا الجانب أوفر شُعباً ، وأكثر فروعاً ، فهذه الأغانى كانت مقطوعات تُغَنَّى ، أو قل – كما كانوا يقولون – كانت أصواتاً تغنَّى . ومعنى ذلك أن المغنين والمغنيات كانوا يُقطّعونها ويمدّونها أو يمطّطونها ويضربون عليها بآلاتهم الموسيقية ، وقد تضرب عليها جوقة ، وقد يرقصون عليها كما قدمنا فى حديثنا عن دار جميلة ، فقد كان غناء الشعر فى هذه الدار يُصْحَبُ بجوقة تضرب على الآلات الموسيقية فى حين يغنِّى المغنون وقد لا يكتفون بذلك ، فإذا هم يرقصون فى أثناء هذا الضرب .

وليس هذا كله ما مر بنا فى فصل الغناء السابق ، فقد مر بنا أيضاً أن هؤلاء المغنين والمغنيات نقلوا إلى العربية أنغاماً وألحاناً أجنبية عن نشيط وغيره ، وأنهم استطاعوا أن ينقلوا الغناء العربى من حال بسيطة ساذجة إلىغناء متقن ، أو قل إلى فن له مصطلحاته وتقاليده ، فإذا بنا نسمع عن ثقيل أول ، وثقيل ثان ، وخفيف ثقيل ، وَرَمل ، وخفيف رمل ، وَهَزَج ، وإذا بنا نسمع عن أصابع ، فهذا ثقيل بالبنصر أو بالخنصر فى مجرى البنصر ، ونحو ذلك مما عرضنا له فى غير هذا الموضع .

وإنما نذكر ذلك الآن لنتساءل هل أحدث هذا الفن الجديد من الغناء عند العرب تجديداً أو تغييراً فى موسيقى الأغانى فى أثناء هذا العصر الأموى . وأكبر الظن ، بل أكبر اليقين ، أن تجديداً أو تغييراً فى هذه الموسيقى قد حدث ، ويتضح ذلك لمن يقرن موسيقى هذه الأغانى التى كانت تُغنى فى المدينة لهذا العصر إلى موسيقى الشعر الجاهلى القديم ، ونقصد طبعاً موسيقى الأغانى التى كانت تؤلف حينئذ للمغنين والمغنيات ، لا ما كانوا يغنون فيه من الشعر كله ، فبعض ما كانوا يغنون فيه كان يُختار لهم من الشعر القديم نفسه .

ولعل أول ما يدركه قارئ كتاب الأغانى فى هذا الصدد أن موسيقى الأغانى الجديدة كانت أكثر صفاء من موسيقى الشعر القديم ، وكانت لغتها أكثر قرباً من لغة الشعر القديم ، فهى تُخْتار من اللغة المألوفة ، وكان ذلك من أهم الأسباب فى أن تصبح هذه الأغانى الجديدة شعراً شعبيًّا .

ويأتى الوزن بعد اللغة ، وهو الآخر طرأ عليه كثير من التعديل إذ كان المغنون والمغنيات يُضْطَرّون مع ألحانهم أن يطيلوا ويمدِّدوا فى بعض حروف تفعيلات البيت وأن يقصروا أو يهمسوا فى حروف أخرى من هذه التفعيلات . وذلك يجعلنا نؤمن بأن موسيقى الشعر القديم نفسها تطورت تحت تأثير هذا المدِّ والهمس فطالت المسافات الزمنية فى بعض الحروف وقصرت فى أخرى . وأتاحت هذه الصورة من الغناء للشعراء المعاصرين ، أو قل نبَّهتهم ، أن يحدثوا زحافات وعِلَلاً كثيرة فى شعرهم . ومن يدرس هذا الباب فى عروض الخليل يعرف إلى أى حد يتغير البحر عن صورته حين تدخل فيه هذه الزحافات والعلل ، فالرَّمَلُ مثلا ووزنه فاعلاتن ثلاث مرات ، حين يلم به الزحاف فى جزئه الأول ويصبح فَعِلاتن يتغير عن صورته القديمة ، ويصير سريعاً لسرعة حركاته ، ومن المعروف أن الحركات القصيرة تجعل البحر سريعاً ، بخلاف الطويلة فتجعله بطيئاً ، وتلائم الأولى الموضوعات العنيفة التى تعبِّر عن عواطف ملتهبة ، فى حين تلائم الثانية الموضوعات الهادئة التى تعبر عن عواطف فاترة أو محزنة . وعلى هذا النحو كان الشعراء فى المدينة فى أثناء هذا العصر يحرّفون فى صورة الوزن القديم تحت تأثير الغناء المعاصر لهم ، تحريفاً يضيق ويتسع فى تفعيلات الشعر . ومن يرجع إلى عروض الخليل يدرك مدى هذا التحريف ، فهو أكثر وأوسع من أن نلم به فى هذا المكان .

وليس هذا كل ما أثَّر به المغنون والمغنيات فى الأغانى وأوزانها ، فقد أثروا فيها من طريق آخر ، وذلك أنهم كانوا يقبلون على الأوزان الخفيفة ، ويطلبونها ، مما جعل أصحاب الأغانى فى عصرهم يهجرون ، إلى حد ما ، الأوزان الطويلة من مثل الطويل والكامل ويقبلون على الأوزان السهلة من مثل الوافر والخفيف والرمل والمتقارب والهزج ، ولم يكتفوا بذلك ، فقد توسعوا فى تلبية نداء المغنين والمغنيات ، فإذا هم يجزِّئون لهم الأوزان الطويلة المعقدة ، كما يجزِّئون لهم الأوزان

السهلة البسيطة ، حتى يخففوا عليهم ما وسعهم التخفيف ، وحتى يهيِّئوا لهم الفرصة لتطبيق ألحانهم وأنغامهم على ألفاظ الشعر كما يريدون . واستطاع المغنون حقًّا أن ينفذوا من ذلك إلى كل ما كانوا يتمنونه ويحلمون به من الوصول ببعض أصواتهم إلى أروع صورة ممكنة لفنهم وغنائهم . ولعل القارئ يذكر ما مرَّ بنا فى فصل الغناء عند معبد وأنه كان يقول : « لقد صنعت ألحاناً لا يقدر شبعان ممتلئ ولا سقَّاء يحمل قربة على الترنم بها ، ولقد صنعت ألحاناً لا يقدر المتكئ أن يترنم بها حتى يقعد مستوفزاً ، ولا القاعد حتى يقوم » وذكر أبو الفرج لحناً من هذه الألحان التى لا يستطيع أن يغنيها متكئ حتى يجثو ولا قاعد حتى يقوم وهو :

ولقـد قلتُ والضميـ ... ـر كثيرُ البلابـــــلِ
ليت شعرى تمنِّيـــاً ... والمنى غير طائـــلِ
هــل رســولٌ مبلّـغٌ ... فيـــؤدّى رســائلى

وكان لحن معبد فيه خفيفُ ثقيلٍ بالسَّبابة فى مجرى الوسطى[١] . وواضح أن هذا اللحن الذى توافرت فيه كل هذه القيم الموسيقية فى الغناء والذى كان يقيم الناس ويقعدهم ، وزنه مجزأ أو معدل ، فهو من مجزوء الخفيف . ومن يقرأ كتاب الأغانى يخيل إليـــه أن أصحاب الأغانى لم يتركوا فى هذا العصر وزناً قديماً معقداً أو بسيطاً إلا جزّءوه ، ابتغاء تحريف صورته بحيث تتعادل مع الغناء الحديث . ومر بنا فى فصل الغناء أن يونس الكاتب اشتهر بغنائه فى الزينبيات السبع ، وهى سبع مقطوعات لابن رُهَيْمة فى زينب بنت عكرمة على ما قدمنا . ومن ينظر[٢] فيها يجد ثلاثاً من الأوزان غير المجزأة ، وأربعاً من الأوزان المجزأة وهى قوله :

أقصـــدتْ زينبُ قلبى ... وسَبَتْ عقـــلى ولبِّى

وهو من مجزوء الرمل ، وقوله :

إنمـــا زينبُ همِّى ... بأبى تلـــك وأمّى

وهو أيضاً من مجزوء الرمل ، وقوله :

وجَـــدَ الفؤادُ بزينبا ... وَجْـداً شـــديداً مُتعِباً

(١) أغانى ٩/١٢٧ .
(٢) أغانى ٤/٤٠٢ وما بعدها .

وهو من مجزوء الكامل ، وقوله :

إنمـــا زينبُ المُنى وهىَ الهمُّ والهوَى

وهو من مجزوء الخفيف ، فكثرة زينبات ابن رهيمة من الأوزان المجزأة ، وفى هذا ما يرمز إلى العصر كله ، إذ كَثُر الشعر على الأوزان المجزَّأة ، وكان الشعراء يصنعون ذلك إرضاء للمغنين والمغنيات فإن تركوه فإلى أوزان تشبه هذه الأوزان المجزأة كالهزج والمتقارب ، وكان المغنون والمغنيات يطلبون ذلك بأنفسهم ويلحُّون فى طلبه . روى صاحب الأغانى أن ابن عائشة المغنى تعرض لعروة ابن أذينة ، وطلب منه قطعة من الهزج يغنى فيهـا ، وما زال به حتى صنع له قوله :

سُلَيْمَى أَزْمَعـــتْ بَيْنَا فأينَ بوصْلِها(١) أيْنـا(٢)

ولعل من الطريف أن نلاحظ هنا أن بعض المغنين والمغنيات كان ينظم الشعر ، ومعنى ذلك أن من المغنين والمغنيات أنفسهم من كان يقوم بإحداث الملاءمة بين الشعر وما يريد من نغم وتلحين . وربما كان أشهر من صنع الشعر منهم فى هذا العصر سَلاَّمة القس ، ورَوَى صاحب الأغانى من شعرها الذى غنت فيه قولها تندب يزيد بن عبد الملك مولاها ، وهو من مجزوء الرمل :

قد لعَمْرى بتُّ ليلى كأخى الدَّاءِ الوجيعِ(٣)

وبجانب سلامة نجد أبا سعيد مولى فائد ، وكان مغنياً وشاعراً(٤). وما من ريب فى أن أبا سعيد وسلامة ومن لَفَّ لفهما من شعراء المغنين أحدثوا تغييراً فى أوزان الشعر تحت تأثير ألحانهم وأنغامهم .

ونحن نلاحظ من طرف آخر أن الدورة تمت ، فكما أن بعض المغنين والمغنيات تعلم الشعر كى ينظمه حسب ما يريد للحنه ونغمه ، فكذلك تعلم بعض الشعراء الغناء ومصطلحاته ، كى يوفر لشعره ما يريد من نغم ولحن . وخير من يمثل ذلك عُرْوة بن أذيْنة أحد فقهاء المدينة ومحدِّثيها(٥)، فقد كان يصوغ الألحان والأنغام

---

(١) هكذا فى ابن عبدربه ٣/٢٣٣ ورواها أبو الفرج تقولها بمعنى تظنها — ، والبين : الفراق .

(٢) أغانى ٢/٢٣٧ وما بعدها .

(٣) أغانى ٨/٣٣٢ .

(٤) المصدر نفسه ٤/٣٣٠ .

(٥) أغانى ٢١/١٦٢ .

على شعره ، وقد روى له ابن عبد ربه صوتين مما يغنى فيه الحجازيون[١].

ولعل فى هذا كله ما يوضح كيف أن الغـــــزل فى المدينة لهذا العصر كان يمتاز بخصائص موسيقية كثيرة سواء فى لغته أو أوزانه فقد دخلها تعديل كثير ، تارة عن طريق الزحافات والعلل وتارة عن طريق اختيار الأوزان السهلة البسيطة ، وتارة ثالثة عن طريق تجزئتها بحيث تصبح خفيفة على الفم والسمع ، وبحيث يستطيع المغنون أن يحمّلوها من قيم الغناء وألحانه وأنغامه ما يريدون .

---

(١) ابن عبد ربه ٣/٢٣٣ .

الفصل الرابع

اتساع موجة الغزل وأغانيه

١

الغزل وأغانيه بين المدينة ومكة

رأينا المدينة تنهض بالغزل وأغانيه في هذا العصر نهضة واسعة ، وهي نهضة كانت تشاركها فيها مكة ، بل قل كانت تنافسها منافسة شديدة ، وطبيعي أن تنافس مكة المدينة ، فقد كان بها كثرة من الغَزِلين والمغنين . حقًّا هي تأخرت عن المدينة قليلاً في النهوض بفن الغناء ، ولكنها لم تلبث حين عرفته أن أسرفت فيه ، فكان لها مغنون ممتازون مثل ابن مِسْجح وهو أقدم مغنيها ، واشتهر بنقله إلى العربية ألحاناً وأنغاماً من الغناء الأجنبي : الفارسي والرومي[١] ، وكذلك صنع تلميذه ابن مُحرز[٢].

وينبغي أن لا نفهم من ذلك أن مكة استقلت عن المدينة في غنائها ، إذ كانت تستمد دائماً منها . وآية ذلك أن أشهر مغنيها بعد ابن مسجح وابن محرز وهو ابن سُريج ، تتلمذ على طويس في المدينة[٣] ، وهو أول من ضرب في مكة بالعود الفارسي على الغناء العربي[٤] ، وكان يغني في الثقيل والخفيف[٥]، فيستوفي النغم الطوال ويحسن النغم القصار . وليس ابن سريج فقط هو الذي كان يأخذ عن أصحاب الغناء في المدينة فقد كان ابن مِسْجح وابن مُحْرز يذهبان إليها لأخذ بعض الأصوات من المغنين والمغنيات هناك[٦].

على كل حال كانت مكة تتأثر المدينة في غنائها ، واشتهر فيها بجانب من قدمنا

---

(١) أغاني ٣/٢٧٦ .

(٢) المصدر نفسه ١/٣٧٨ .

(٣) ابن عبد ربه ٣/٢٤٢ .

(٤) أغاني ١/٢٥٠ .

(٥) أغاني طبع دار الكتب ١/٢٧٦ .

(٦) المصدر نفسه ٨/١٨٨ .

الغريض تلميذ ابن سريج ، وكان غناؤه أشجى من غناء أستاذه ، وهو مولى الثريا بنت على بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر المذكورة فى شعر عمر بن أبى ربيعة ، وكان من مواليها أيضاً يحيى قَيْل وسُميّة[١] وبجانب هؤلاء نجد مغنين آخرين مشهورين ، ترجم لهم صاحب الأغانى من مثل الهذلى[٢] وعَبادل[٣] وابن عباد[٤] ويحيى المكى[٥] وإسماعيل بن الهِرْبذ[٦] وعمر الوادى[٧]. وكما اكتظت مكة بالمغنين اكتظت بالمغنيات[٨]، وإن كانت لم تستطع أن تظفر بمثل جميلة وسلامة ، وغيرهما من مغنيات المدينة الممتازات .

ومكة إن لم تستطع أن تتفوق على المدينة تماماً فى فن الغناء فإنها نافستها فيه ، كما نافستها فى الغـزل ، فقد كان لها فيه شعراء كثيرون ، وأهم شعرائها عمر بن أبى ربيعة ، وعبيد الله بن قيس الرقيات والحارث بن خالد المخزومى ، والعَرْجى . وعمر هو أكبر شاعر غَزِل أنتجته حركة الغناء فى مكة لهذا العصر ، وساعدته ظروف مختلفة على أن ينبغ فى هذا الفن ويشتهر فيه ، فقد كان ثريًّا ثراء واسعاً ، فكان ابن سريج والغريض يعيشان فى كنفه ويغنيان فى أشعاره ، وكان له جاريتان فى بيته يغنيانه فى شعره يقال لإحداهما بَغوم وللأخرى أسماء[٩]. ولم يساعده ثراؤه على اتخاذ المغنين والمغنيات وعنايتهم بغناء شعره فقط ، بل ساعده على شىء آخر مهم وهو أن يقصر نفسه على الغزل وبذلك لم يتكلف مديحاً ولا فنًّا آخر من فنون الشعر التقليدى . روى صاحب الأغانى أن سليمان بن عبد الملك قال له : « ما يمنعك من مدحنا ، فقال إنى لا أمدح الرجال ، إنما أمدح النساء[١٠]» .

تخصص عمر فى فن الغزل وهو أهم موضوعات الأغانى فى عصره ، وشعره فى هذا الجانب يعتبر طُرفاً خالصة فى جمال موسيقاه وفى صراحته . ويخيل إلى الإنسان أن عمر لم يكد يترك فتاة جميلة فى مكة والمدينة إلا شبّب بها وذكرها ونوّه باسمها ، فهو

---

(١) انظر ترجمة الغريض فى الأغانى ٢/٣٥٩ .
(٢) الأغانى ٥/٦٥ .
(٣) المصدر نفسه ٦/٩٦ .
(٤) المصدر نفسه ٦/١٧١ .
(٥) المصدر نفسه ٦/١٧٣ .
(٦) المصدر نفسه ٧/١٠٤ .
(٧) المصدر نفسه ٧/٨٥ .
(٨) المصدر نفسه ١/٣١٣ وكذلك ٨/٢١٠ .
(٩) أغانى ١/١٦٥ .
(١٠) المصدر نفسه ١/٧٤ .

يشبب بزينب بنت موسى الجمحية [١] – ولعلها هى نفسها نُعْم [٢] – وبالثريا بنت على ابن عبد الله ، ويقول صاحب الأغانى إنه كان مشغوفاً بها ، وكانت عُرضة ذلك جمالاً وتماماً [٣]. ولم يكتف عمر بذلك فقد كان يتعرض للنساء الحواجّ فى الطواف وغيره من مشاعر الحج . ويشبب بهن [٤] . ومن أشهر من شَبَّبَ بهن ليلى بنت الحارث البكرية [٥] ، ورَمْلة [٦] بنت عبد الله بن خلف الخزاعية ، وفاطمة بنت محمد ابن الأشعث الكِنْدية [٧] زوجة [٨] شيخ النحو أبى الأسود الدؤلى . وهكذا لا يكاد يترك سيدة أو فتاة تشتهر بميسم جمال وتقصد إلى مكة حتى يتعرض لها وينظم فيها غزله .

ولم يكن عمر يتعرض للسيدات والفتيات فى مناسك الحج فقط بل كان يخرج لاستقبالهن فى طرقهن إلى مكة . روى صاحب الأغانى أنه خرج مع ابن سريج على نجيبين رحالتاهما ملبستان بالديباج . وقد خَضَبا النجيبين ، ولبسا حُلَّتين ، فجعلا يتلقَّيان الحاجَّ ويتعرضان للنساء إلى أن أظلم الليل [٩] . وروى صاحب الأغانى أيضاً أنه كان يعتمر فى ذى القعدة ، ويُحِلُّ ، ويلبس تلك الحُلَلَ والوَشْىَ ، ويركب النجائب المخضوبة بالحنَّاء عليها القطوعُ والديباج ويُسْبِل لِمَّتَهُ ، ويلقى العراقيات فيما بينه وبين ذات عِرْقٍ محرمات ، ويتلقى المدنيات إلى مَرٍّ ، ويتلقى الشاميات إلى الكَدِيد [١٠] . وكل حوادث عمر مع هؤلاء الحواج وكل وقائعه مع غيرهن من فتيات مكة ونسائها ، كل ذلك مصور فى شعره أجمل تصوير ، وهو ينساق كله فى التشبيب والغزل .

وكان يعاصر عمر عبيد الله بن قيس الرُّقَيَّات ، وهو « أشد قريش أَسْرَشعر فى الإسلام [١١]» . وإنما لُقِّبَ الرقيات لأنه شَبَّبَ بثلاث نسوة ، سُمِّين جميعاً رُقَيّة [١٢]. وكان زبيريَّ الهوى ، وله فى آل الزبير مدائح كثيرة . وقد مدح من بعدهم

---

(١) أغانى ٩١/١ وما بعدها .
(٢) أغانى ٢١٣/٤ .
(٣) أغانى ٢١٢/١ .
(٤) الشعر والشعراء ص ٣٤٩ .
(٥) أغانى ١٥٧/١ .
(٦) المصدر نفسه ٢١٤/١ وما بعدها .
(٧) المصدر نفسه ٨٤/١ .
(٨) المصدر نفسه ١٤٧/١ .
(٩) المصدر نفسه ٢٥٨/١ .
(١٠) المصدر نفسه ٢٢١/١ .
(١١) ابن سلام ص ١٣٧ .
(١٢) أغانى ٧٣/٥ .

عبد الملك بن مروان . ومعنى ذلك أنه لم يقصر نفسه مثل ابن أبى ربيعة على الغزل ، يقول ابن سلام : « كان غزلاً ، وأغزل من شعره شعر عمر بن أبى ربيعة ، وكان عمر يصرِّح بالغزل . . وكان عبيد الله يشبِّب ولا يصرِّح ، ولم يكن له معقود شعر وغزل كغزل عمر ، وكان انقطاعه إلى آل الزبير[١] ».

ويأتى بعد ابن قيس الحارث بن خالد المخزومى ، وهو أحد شعراء قريش الغزلين فى العصر ، « وكان يذهب مذهب عمر بن أبى ربيعة ، لا يتجاوز الغزل إلى مديح ولا هجاء ، وكان يهوى عائشة بنت طلحة ويشبِّب بها »[٢]، حين تلم بمكة فى حجها . وكان على طريقة عمر يشبب بالحواجِّ[٣]، وقد ولَّاه عبد الملك مكة فحج بالناس وحجت عائشة ، فأرسلت إليه : « أَخِّرِ الصلاة حتى أفرغ من طوافى فأخَّرها » وأنكر أهل الموسم ذلك منه ، وعلم عبد الملك فعزله[٤]. وغزل الحارث غزل طريف، لكنه لا يلحق غزل عمر فى صراحته ولا فى تأثمه وكثرة وقائعه .

وربما كان العَرْجِىّ أشبه الشعراء المكيين بعمر ، وهو من أبناء عثمان بن عفان ، فهو من بيت ثروة ويسار ؛ وسُمِّى العرجى لأنه كان ينزل عَرْج الطائف ، وقيل بل لمال كان له فى العَرْج[٥]. ونَحَا نحو عمر فى الغزل وتشبَّه به فأجاد ، وكان يعيش مثله معيشة لاهية ، وساعده على ذلك ثراء ضخم ، فقد روى الرواة أن مجاعةً حدثت فأمر بإطعام الناس وإعطائهم ، وبلغ ما أخرجه حينئذ عشرين ألف دينار ، كما رُوى أنه كان يلبس الحلتين قيمتهما خمسمائة دينار .

وكان من سوء حظ العرجى أن هجا محمد بن هشام هجاء مقذعاً ، وكان محمد خال هشام بن عبد الملك . فلما ولى الخلافة ولاه مكة ، فما زال يطلب سبيلاً إلى العرجى حتى وجده[٦]؛ فأخذه وقيَّده وضربه ، وأقامه للناس ثم حبسه ، ومكث فى حبسه نحواً من تسع سنين حتى مات[٧]. وفى حبسه يقول[٨]:

أضاعونى وأىَّ فتى أضاعوا ليوم كريهةٍ وسِدَادِ ثَغْرِ

---

(١) ابن سلام ص ١٣٧ .
(٢) أغانى ٣١٢/٣ .
(٣) المصدر نفسه ٣٢٩/٣ .
(٤) أغانى طبع دار الكتب ٣١٧/٣ .
(٥) أغانى ٣٨٥/١ .
(٦) المصدر نفسه ٤١٠/١ .
(٧) المصدر نفسه ٤٠٩/١ .
(٨) أغانى ٤١٣/١ .

وهؤلاء هم أهم شعراء مكة فى العصر ، وكلهم من قريش وكان وراءهم شعراء كثيرون مثل كثير بن كثير[١] السهمى ، والفضل بن العباس اللهبى[٢] ثم أبى العباس الأعمى[٣] ، وكان من الموالى

على كل حال أحدث الغناء فى مكة ، كما أحدث فى المدينة ، نشاطاً واسعاً فى الغـزل ؛ فقد كثر أصحابه وكثر ما يقدِّمون من أصوات أو كما نقول الآن من أدوار ، يغنى فيها المغنون والمغنيات فى مكة . وينبغى أن نلاحظ هنا شيئاً مهمًّا وهو أن هذه الأصوات أو الأدوار لم تكن تقدَّم إلى أصحاب الغناء فى مكة فقط ؛ بل كانت تقدَّم أيضاً إلى أصحاب الغناء فى المدينة ، وكان عمر نفسه يذهب بشعره إلى المدينة ويقدِّمه إلى المغنين ليغنوه فيه ، وكان يعطيهم فيكثر فى عطيته من أجل ذلك[٤] وكما كان يقصد المغنين بشعره كان يقصد دور المغنيات ، وخاصة دار جميلة[٥] ، وكان العَرْجى يصنع صنيعه[٦]. ومن يرجع إلى ترجمة ابن قيس الرقيات فى الأغانى يجد أكثر من غنى فى شعره كانوا مدنيين ؛ وعلى رأسهم مالك ابن أبى السمح الطائى ، ولذلك ترجم له أبو الفرج بعده مباشرة . وغير ابن قيس مثل عمر والعرجى كانوا شركة بين المغنين فى مكة والمدينة .

ويحسن أن نلاحظ هنا أيضاً ملاحظة ثانية بجانب الملاحظة السابقة ، وهى أن شعر عمر وغيره من شعراء الغزل فى مكة كان فى فتيات بلدتهم ونسائها من الأحرار وإن تركوهن فإلى الحواج من شريفات العرب ونبيلاتهن ، وقلما تغزلوا فى أمة من الإماء . ومهما يكن فإن مكة شاركت المدينة فى الغـزل والأغانى لهذا العصر ، وقد افتنَّ فيهما أصحابهما على صور مختلفة .

---

(١) انظر أغانى ٢٤٦/١ وكذلك ٣١٩/١ وأيضاً ١٧٧/٩ .

(٢) أغانى طبع بولاق ٢/١٥ .

(٣) المصدر نفسه ٥٩/١٥ .

(٤) أغانى طبع دار الكتب ٢٩٢/٤ .

(٥) المصدر نفسه ٢٠٦/٨ .

(٦) المصدر نفسه ٢٣٠/٨ وما بعدها .

٢

شغف أهل المدينة بالغزل وأغانيه

قدمنا فى الفصل الثانى من هذا البحث مدى تعلق أهل المدينة بالغناء ومدى تقديرهم له وإعجابهم به ، وكان الغناء يقترن بالغـزل الذى يُغَنَّى فيه ، فكان طبيعياً أن ينسحب إعجاب أهل المدينة بالغناء على الغـزل الذى يصحبه . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق أحد فى المدينة إلا وهو يروى هذا الغزل ويرفع صوته به إن كان له صوت ممتاز ، ومن يرجع إلى كتاب الأغانى لأبى الفرج يرى هذا الغزل يُرْوَى فى كل مكان بالمدينة ، حتى فى المسجد ، وعلى لسان أشهر الفقهاء فى العصر ، وأكثرهم تحرجاً ، فقد روى صاحب الأغانى أن سعيد بن المسيِّب كان ينشد الغزل فى مسجد رسول الله ، وقال أبو الفرج : إنه كان كثير الإنشاد والاستنشاد للشعر[١]

وإذا كان ابن المسيِّب يروى الشعر فى المسجد فقد كان أهل المدينة شبابهم وكهولهم ينشدونه فى الطرقات ، وفى ضواحى المدينة ، يدفعهم فى ذلك إعجاب شديد بهذا الشعر ، بل قل شغف شديد . روى أبو الفرج أن إنساناً أنشد عند إبراهيم بن هشام ، وهو والى المدينة قول الأحوص :

إذ أنتِ فينا لمن ينهاك عاصيــة ۞ وإذ أجرُّ إليكم سادراً رَسَنِى

فوثب أبو عبيدة بن عمار بن ياسر قائماً ، ثم أرخى رداءه ، ومضى يمشى على تلك الحال ، ويجرُّه ، حتى بلغ العِرض[٢] ، ثم رجع فقال له إبراهيم بن هشام حين جلس ما شأنك ، فقال : أيها الأمير إنى سمعت هذا البيت مرة فأعجبنى فحلفت لا أسمعه إلا جَرَرْتُ رَسَنِى[٣] . ولعل خير من يمثل شغف أهل المدينة بالغـزل أبو السائب المخزومى ، وكان من عُبَّادها ، وكان يصلِّى فى كل يوم وليلة ألف ركعة[٤] ، ومع ذلك كان إذا استمع إلى مقطوعات الغزل طرب طرباً شديداً .

---

(١) أغانى ٩٣/٥ .
(٢) واد من وديان المدينة فيه زروع ونخيل .
(٣) أغانى ٢٦١/٤ .
(٤) أغانى ٢٧٧/١ .

روى أبو الفرج أنه سمع رجلاً ينشد قول أبي دَهْبَل الجمحي :

أليس عجيباً أن تكون ببلدةٍ   كلانا بهـا ثاوٍ ولا نتكلمُ

فقال له أبو السائب : قِفْ يا حبيبي ، فوقف ، فصاح بجارية : يا سلامة اخرجي ، فخرجت ، فقال له : أعِدْ ، بأبي أنت ، البيت ، فأعاده ، فقال : بلى والله إنه لعجيب عظيم ، وإلا فسلامة حرة لوجه الله ، اذهبْ فديتك مصاحباً(١) . وروى أبو الفرج أن رجلاً كان يثقل عليه أنشد أمامه غزلاً فأقبل عليه يقول : « بأبي أنت ! كنت والله لا أحبك وتثقل علي ، فأنا الآن أحبك وتخف(٢) عليَّ » وأنشده يوماً إسماعيل بن أبي أوَيْس لقيس :

تعلَّق رُوحي روحَهَا قبل خَلْقِنا   ومن بعد ما كنَّا نِطافاً وفي المَهْدِ
فـزاد كما زِدْنا وأصبح نامـيـاً   وليس إذا مِتْنا بمنتقِضِ العهدِ
ولكنَّـه باقٍ على كل حـادثٍ   وزائرُنا في ظلمة القبر واللّحْدِ

فحلف لا يزال يقوم ويقعد حتى يحفظها ويرويها(٣). وروى ابن عبد ربه أنه خرج يوماً هو وابن أبي عتيق يتنزهان ، فمال أبو السائب لبعض حاجته وعليه طويلته فانصرف دونها ، فقال له ابن أبي عتيق : ما فعلت طويلتك ؟ قال : ذكرت قول كثيِّر :

أرى الإزار على لُبْنَى فأحسدهُ   إن الإزار على مـاضَمَّ محسودُ

فتصدقتُ بها على الشيطان الذي أجرى هذا البيت على لسانه ، فأخذ ابن أبي عتيق طويلته ، فرمى بها وقال له : أتسبقني أنت إلى بِرِّ الشيطان(٤). وروى ابن أبي الزِّناد قال : « كنت ليلة عند الحسن بن زيد ببطحاء(٥) ابن أزهر نصفَ الليل جلوساً في القمر ، وأبو السائب المخزومي معنا ، وكان ذا فضل ، وكان مشغوفاً بالسماع والتغزل ، وبين أيدينا طبق عليه فريك ، فنحن نصيب منه ، فأنشد الحسن قول داود بن سلم :

---

(١) أغاني ١٢٠/٧ .
(٢) أغاني طبع دار الكتب ١٤٣/٧ .
(٣) المصدر نفسه ١٩٦/٩ .
(٤) ابن عبد ربه ٢٣٩/٣ .
(٥) موضع على ستة أميال من المدينة .

ومن يُطِعِ الهوى يُعرَفْ هـواهُ وقـد يُنْبيك بالأمـر الخبيرُ

وجعل يمدُّ به صوته ويطرِّبه ، فأخذ أبو السائب الطبق ، فرمى به إلى السماء فوقع الفريك على رأس الحسن بن زيد فقال لهْ : مالك ويحك أجُنِنْتَ ؟ فقال له أبو السائب : أسألك بالله وبقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ما أعدت إنشاد هذا الصوت ومددته كما فعلت ! فما ملك الحسن نفسه ضحكاً (١).

وروى أبو الفرج أنه مضى مع بعض أصحابه إلى العقيق فتناشدا وتحدثا ولم يلبث صاحبه أن أنشده للعرجى :

باتا بأنعَمِ ليـلةٍ حتى بـدا صُبحٌ تلوَّح كالأغرّ الأَشْقَرِ

فتلازمـا عنـد الفِراق صبابةً أخْـذَ الغَريم بفضلِ ثوبِ المُعسِرِ

فقال لصاحبه : أعدْه على ، فأعاده ، فقال : أحسن والله ! امرأتى طالق إن نطقتُ بحرف غيره حتى أرجع إلى بيتى ، ومضى مع صاحبه فلقيهما عبد الله ابن حسن بن حسن فسلَّم ، ثم قال : كيف يا أبا السائب ، فقال له :

فتلازمـا عنـد الفراق صبابةً أخـذَ الغريم بِفَضْلِ ثوبِ المعسرِ

فالتفت عبد الله إلى صاحبه ، وقال له : متى أنكرت صاحبك ؟ فقال منذ الليلة ، فقال إنا لله ! وأى كهل أصيبت منه قريش ! ثم مضى هو وصاحبه فلقيهما محمد بن عمران التَّيْمى قاضى المدينة . . . فسلَّم ثم قال كيف أنت يا أبا السائب ؟ فقال :

فتلازمـا عنـد الفراق صبابةً أخْـذَ الغريم بفضل ثوبِ المعسرِ

فالتفت محمد بن عمران إلى صاحبه ، فقال له : متى أنكرت صاحبك؟قال : آنفاً ، فلما أراد المضىّ قال له صاحب أبى السائب : أفتدعه هكذا ؟ والله ما آمن أن يتهوّر فى بعض آبار العقيق ، قال : صدقت ، يا غلام قيدَ البغلة فأخذ القيد ، ووضعه فى رجله ، وهو ينشد البيت ويشير بيده إليه ، يُرى أنه يفهم عنه قصته ، ثم نزل الشيخ وقال : يا غلام احمله على بغلتى ، وألحقْه بأهله (٢).

ويقول أبو الفرج : « كان أبو السائب رجلاً صالحاً زاهداً متقللاً يصوم

---

(١) أغانى ٦/١٦ . (٢) أغانى ١/٣٩٧ .

الدهر ، وكان أرقَّ خلق الله وأشدهم غزلاً ، توجه ابنه يوماً يأتيه بما يفطر عليه فأبطأ الغلام إلى العتمة ، فلما جاء ، قال له : يا عدو نفسه ، ما أخَّرك إلى هذا الوقت ؟ قال : جُزْت باب بنى فلان فسمعت منه غناء فوقفت حتى أخذته ، فقال : هات يا بنى ، ، فوالله لئن كنت أحسنت لأحبُونَّك ولئن كنت أسأت لأضربنك ، فاندفع يغنى بشعر كثيِّر :

ولما علَوْا شَغْباً[١] تبيَّنْتُ أنه تقطَّع من أهل الحجاز علائقى

فلا زِلنَ حَسْرَى ظُلَّعاً لِمْ حَمَلْنها إلى بلدٍ نـاءٍ قليل الأصادقِ

فلم يزل يغنيه إلى نصف الليل ، فقالت له زوجته : يا هذا قد انتصف الليل وما أفطرنا ، فقال لها : أنت طالق إن كان فطورنا غيره ، فلم يزل يغنيه إلى السحر ، فلما كان السحر ، قالت له زوجته : هذا السحر وما أفطرنا ، فقال : أنت طالق إن كان سحورنا غيره ، فلما أصبح قال لابنه : خذ جُبَّتى هذه وأعطنى خَلَقك ليكون الحِباء فضل ما بينهما ، فقال له : يا أبت ! أنت شيخ وأنا شاب ، وأنا أقوى على البرد منك ، قال : يا بنى ما ترك صوتك هذا للبرد علىّ سبيلاً ما حييت »[٢] .

وإذا كان أبو السائب على صلاحه وزهده وصومه الدهر يطرب للشعر هذا الطرب ، فغيره ممن لم تكن حياتهم تقوم على الزهد والمبالغة فى الصوم والصلاة كان يطرب طرباً ، لعله أشد من طربه ، حين يستمع إلى ما كان يحدثه الأحوص وغيره من شعراء المدينة ومكة ، وما كان يحدثه كثيِّر وغيره من شعراء البادية ، ويغنى فيه المغنون .

وكما كان شباب المدينة وشيوخها يعجبون بهذه الأغانى كان نساء المدينة أيضاً يعجبن بها إعجاباً واسعاً ، وبلغ من إعجابهن بها أنهن كن يروينها ، وكانت السيدة سُكَيْنة بنت الحسين من أهم النساء اللائى تعلقن بها وبروايتها ، وكان يفد عليها فى دارها المسماة بالبريدى بالعقيق كبار الشعراء المعاصرين لها ، فينشدونها ومن معها من نساء المدينة غزلهم[٣] ، وكانت تجيزهم ، وتعلق عليهم بنقد يدل على ارتفاع ذوق

---

(١) شغب : منهل بين طريق مصر والشام .

(٢) أغانى ٢٩٠/٧ .

(٣) انظر أغانى ١٥٠/١ و ٣٧٦/٢ وانظر (طبعة بولاق) ١٧٣/١٤ وما بعدها .

المرأة فى المدينة لهذا العصر(١). وكانت عائشة بنت طلحة مثل سكينة تعجب بهذه الأغانى(٢) التى شغلت عصرها وأهل بلدتها .

وكانت المرأة الشريفة فى المدينة لا تجد حرجاً فى أن تُذْكَرَ فى الشعر ، وأن يتغنَّى الشعراء بها ، لأن فى هـذا اعترافـاً بجمـالهـا ، وكمـا قيـل الغوانى يغرهن الثناء ، وأى ثناء أوقع فى روع المرأة من الثناء على جمالها وحسنها البارع . وكأن المرأة فى المدينة كانت ترى فى ذكر الشعراء لها ما يعبر عن هذا الثناء ، وعما تحظى به من جمال ، ولم تكن ترفض ذلك إلا أن يخرج الشاعر عن وقاره إلى نوع من الحرية والإباحية(٣) .

ولعل فى هذا ما يفسر رِضا فضليات النساء فى المدينة لهذا العصر عن الشعراء حين يذكرون أسماءهن فى غزلهم ، وكأنما كان هذا الغزل حينئذ يشبه صحافتنا الحديثة ، فكما أنك قلما تجد الآن سيدة ترفض أن تظهر صورتها فى صحيفة يومية أو أسبوعية ، فكذلك كان هذا الغزل فى العصر الأموى صحافة العصر ، فهو الذى يسجل أخبار النساء الحواجّ ، وهو الذى تظهر فى مرآته صورهن العديدة وما من ريب فى أن ذلك هو الذى جعل المرأة العربية الشريفة تطلبه ، حتى نساء الخلفاء وشريفات بيت بنى أمية كن يطلبنه ، فقد روى صاحب الأغانى أن أم محمد بنت مروان بن الحكم حجت فأرسلت إلى عمر بن أبى ربيعة ألف دينار كى يذكرها فى شعره(٤)، وروى أيضاً أن أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك حجت فطلبت إلى الشعراء الغزلين أن ينظموا فيها شعراً ، فبعضهم تشجع ونظم فيها ، وبعضهم جَبُنَ فاكتفى بالنظم فى بعض جواريها(٥).

وأشاع إعجاب نساء المدينة وفتياتها بهذا الشعر رقة شعور عامة ، كما أشاع ظرفاً ودماثة ؛ ولعل مما يصور ذلك أدق تصوير ما رواه صاحب الأغانى من أن تاجراً من أهل الكوفة قدم المدينة بخُمُر فباعها كلها ، وبقيت السود منها ، فلم تنفق ، وكان صديقاً للدارمى أحد(٦) شعراء مكة ومغنيها ، فشكا ذلك إليه وكان

(١) أغانى ١٧٤/١٤ وما بعدها .
(٢) انظر الأغانى ٣٢٠/٣ وما بعدها .
(٣) أغانى ٢٥٤/٦ وما بعدها .
(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ١٦٦/١ .
(٥) أغانى (طبع بولاق) ٤٩/١١ .
(٦) أغانى ٤٥/٣ .

قد نسك ، وترك الغناء وقول الشعْر ، فقال له لا تهتم بذلك فإنى سأنفقها لك حتى تبيعها أجمع ، ثم قال :

قل للمليحة فى الخمار الأسودِ   ماذا صنعتِ براهبٍ متعبدِ
قد كان شَمَّر للصلاة ثيابه   حتى وقفتِ له بباب المسجدِ

وغَنَّى فيه ، أيضاً سنان الكاتب ، وشاع فى الناس ، وقالوا قد فتك الدارمى ورجع عن نسكه ، فلم تبق فى المدينة ظريفة إلا ابتاعت خماراً أسود حتى نفد ما كان مع العراقى منها(١) . وليس من شك فى أن هذا حادث بالغ الدلالة على مدى ما كان للأغانى فى هذا العصر من تأثير فى أهل المدينة . والحق أنهم كانوا يُشْغَفُون بها شغفاً شديداً ، وكان شغفهم بها يزداد حين تُغَنَّى فى دور النبلاء والأشراف ودور المغنين والمغنيات ، ومن أجل ذلك لم يكن غريباً أن يعجب بها الزهاد والنساك ، وأن يطلبها الرجال والنساء ، وأن يغرقوا فى إعجابهم وطلبهم .

٣

بعض الفقهاء ينظمون فى الغزل العفيف

رأينا الناس فى المدينة يُشْغَفون بالغزل ويعجبون به إعجاباً شديداً ، وعلى رأسهم الناسك المشهور أبو السائب المخزومى . وكان من مظاهر هذا الإعجاب وذلك الشغف أن كَثُرَ من ينظمون الغزل فى المدينة كثرة مفرطة ، كما قدمنا فى غير هذا الموضع ، وحتى بعض فقهاء المدينة أخذوا يشتركون فى هذا النظم ، فكان منهم شاعران فى هذا العصر ، هما عروة بن أُذَيْنة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة .

أما عروة فقد كان معدوداً فى الفقهاء والمحدِّثين ، روى عنه مالك بن أنس وعبيد الله بن عمر العدوى(٢) . وقد تحدثنا عنه فى غير موضع ، وقلنا إنه كان يغنى شعره ، وله فيه أصوات معروفة ، وهو شعر كله ينساق فى الغزل العفيف ، فهو شاعر

---

(١) أغانى ٣/٤٦ .
(٢) أغانى ٢١/١٦٢ .

من شعراء المدينة وهو شاعر يغنِّى شعره ويوقِّعه ، ويُحْدث فيه ما يريد من تقطيعات وتمديدات ، وكان هٰذا كله أثر فى غزله ، فهو غزل يكتظ بالموسيقى ، وتتوافر له منها قيم صوتية كثيرة . واستمع إلى هذه القطعة :

إن التى زعمتْ فؤادك ملَّها ... جُعِلَتْ هواك كما جُعِلْتَ هَوًى لها
فبِكَ الذى زعمتْ بها وكلاكما ... يُبْدى لصاحبه الصَّبابةَ كلَّها
ويبيتُ بين جوانحى حبٌّ لها ... لو كان تحت فراشها لأقلَّها(١)
ولعمرها لو كان حبُّك فوقها ... يوماً وقد ضَحِيَتْ إذن لأظلَّها
وإذا وجدتَ لها وساوِسَ سلوةٍ ... شَفَع الفؤادُ إلى الضمير فسلَّها
بيضاءُ باكرها النعيمُ فصاغها ... بلباقـــةٍ فأدقَّها وأجلَّها
لمـا عرضتُ مسلِّماً لىَ حاجة ... أرجو معونتهـا وأخشى دَلَّها
منعتْ تحيتها فقلت لصاحبى ... ما كان أكثرها لنا وأقلَّهـا
فدنَا فقال لعلها معذورةٌ ... من أجل رِقْبتها فقلت لعلَّها

كان غزل عروة يزخر بالموسيقى على هذا النحو ، فهو غزل مهيأ للغناء ، يغنِّى فيه صاحبه ، ويغنى فيه غيره . وليس هذا كل ما يميز غزل عروة ، بل هناك ميزة تتصل بمعانيه ، وقد تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع وقلنا إن الأغانى كانت تنصبّ على الغزل غالباً ، وإن الغزل فى المدينة كان على ضربين : غزل صريح فيه حرية ، وغزل عفيف فيه طهر ، وفيه مثالية . وما من ريب فى أن غزل عروة كان من الضرب الثانى ، وتعليل ذلك واضح ، فهو فقيه ، وله من تدينه رادع يقيه أن يكون آثماً فى حبه ، أو صريحاً صراحة تؤدى بغزله إلى أن يكون مادياً مكشوفاً .

وكان يذهب هذا المذهب نفسه فى الغزل العفيف عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة ، وعداده فى قريش مثل ابن أُذَيْنَة ، وجده عتبة أخو عبد الله بن مسعود له صحبة بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وليس من البدريين ، وأبوه عبد الله كان رجلاً صالحاً استعمله عمر بن الخطاب فأحمده(٢). وعبيد الله أحد وجوه الفقهاء الذين رُوِىَ عنهم الفقه والحديث ، وهو أحد السبعة الفقهاء المقدَّمين من أهل المدينة ، وهم

(١) أقلها : حملها .

(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ٩/١٣٩ .

القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ، وعروة بن الزبير ، وأبو بكر بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام ، وسعيد بن المسيِّب ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وخارجة بن زيد بن ثابت ، وسليمان بن يسار .

وكان عبيد الله ضريراً ، وقد رَوَى عن جماعة من وجوه الصحابة مثل ابن عباس وعمه عبد الله بن مسعود ، وأبى هريرة ، وروى عنه الزُّهْرى وابن أبى الزِّناد وغيرهما من نظرائهما . وكان عبد الله بن عباس يقدِّمه ويؤثره(١)، ويقول الزهرى : « أدركت أربعة بحور ، عبيد الله بن عبد الله أحدهم » . ويقول أيضاً : سمعت من العلم شيئاً كثيراً ، فلما لقيت عبيد الله بن عبد الله كأنى كنت فى شِعْب من الشِّعاب فوقعت فى الوادى ، وقال مرة : « صرت كأنى لم أسمع من العلم شيئاً » ، وقد أثنى عليه عمر بن عبد العزيز وهو خليفة ، فقال : « لو كان عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة حيًّا ما صدرت إلا عن رأيه ، ولوددت أن لى بيوم من عبيد الله غُرْماً »(٢)

كان عبيد الله بن عبد الله فقيهاً ممتازاً فى عصره ، ويكفى أنه كان أحد فقهاء المدينة السبعة الذين حُمِلَ عنهم الدين والعلم ، وكان إلى ذلك موضع إجلال من الخلفاء والأمراء . ومن يرجع إلى ترجمته فى الأغانى يجده رقيقاً ، شديد الحساسية جدًّا ، فقد روى هشام بن عروة أنه استأذن على عمر بن عبد العزيز وهو والٍ على المدينة فردَّه الحاجب وقال له : عنده عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، وهو مُختَلٍ به ، فانصرف غضبان وأرسل إلى عمر :

أبِنْ لى فكُنْ مثلى أو ابْتَغِ صاحباً
كمثلكَ إنى تابعٌ صاحباً مثلى
عزيزٌ إخائى لا ينـــال مودَّتى
من الناس إلا مسلمٌ كاملُ العقلِ
ومـــا يلبث الفتيانُ أن يتفرقوا
إذا لم يؤلَّف روحُ شكلٍ إلى شكْلِ

فبعث عمر إليه من يعذره عنده ويقول : إن عمر يقسم باللهما عَلم بأبياتك

---

(١) أغانى طبع دار الكتب ١٤٠/٩ . (٢) المصدر نفسه ١٤١/٩ .

ولا بردّ الحاجب إياك فاعذره (١). ويقال إن أبا بكر بن حزم مرَّ عليه وهو وال على المدينة فلم يسلم عليه ، فتلوَّمه(٢).

كان عبيد الله رقيقاً مرهف الإحساس ، وهيَّأه ذلك لأن يصبح من شعراء عصره الغزلين . وقصة غزله قصة طريفة ، فقد روى الرواة أنه تزوج امرأة تسمى عَثْمة ، فعتب عليها فى بعض الأمر فطلَّقها ثم ندم على طلاقها إذ كان يحبها حبًّا شديداً ، ولكن ماذا يصنع ، لقد قُضى الأمر وخرجت من يده ، ويظهر أنه لم يستطع إرجاعها ، فتولَّع بها وهام ، وأسف أسفاً شديداً على ما فاته منها ، وتكلف فى ذلك ألواناً من الخطوب وتعرض لضروب من الألم .

والرواة يمرون بهذا الحادث فى حياة عبيد الله مرًّا سريعاً ، فلا يذكرون لنا شيئاً بعد ذلك ، لا يذكرون لنا كيف كانت علاقة عبيد الله بزوجه فى أثناء زواجهما ، ولا كيف تم هذا الزواج ، وحتى ما رووا من أشعار عبيد الله رووه عارياً من حوادثه وأخباره ، فأصبحنا لا نستطيع أن نفصل فى غزله ، فنرجع بعضاً منه إلى ما قبل زواج عثمة وبعضاً إلى أيام زواجهما ، وبعضاً ثالثاً إلى أيام فراقهما .

ومهما يكن فإن عبيد الله كان شاعراً بارعاً أقيمت حواجز بينه وبين مَنْ أحبَّها ، فتولَّع بها وأغْرِمَ غراماً شديداً ، وحاول ، فيما يظهر ، السَّلْوَى فلم يجد إلى ذلك سبيلًا ، ماذا يصنع ؟ لم يجد إلا الغزل ينفِّس به عما فى نفسه ، واستمع إليه يقول(٣):

كتمتَ الهوى حتى أضرَّ بك الكَتْمُ	ولامك أقوامٌ ولومهمُ ظُـلْمُ
فيا مَنْ لنفس لا تموت فينقضى	عَناها ولا تحيا حياةً لها طَعْمُ
أأترك إتيـانَ الحبيب تأثُّماً	ألا إن هجـرانَ الحبيب هو الإثْمُ
فذقْ هجرَها قد كنت تزعم أنه	رشادٌ ألا يا ربما كذب الزَّعْمُ

كتم عبيد الله الهوى ، ولم ينفعه كتمانه ، فقد أضرَّ به ضرراً بليغاً فأعلن حبه ، فلامه الناس ، حينئذ تمنى الموت حتى يخلص من تلك الحياة التى لم يكن يعرف لها لوناً ، والتى أصبح لا يجد لها طعماً ، وهو يعود إلى نفسه فيجده لا يزال حيًّا ،

---

(١) أغانى ٩/١٤٣ .

(٢) المصدر نفسه ٩/١٤٤ .

(٣) أغانى ٩/١٤٩ وما بعدها وانظر ابن عبد ربه ٣/١٢٦ .

وقد هجر صاحبته ، بل هى التى هجرته ، وهو يذوق الآن هجرها وما قدَّمت يداه من طلاقها ، فحياته كلها أحزان وهموم أو كما يقول هو عن نفسه (١):

أروحُ بهمٍّ ثم أغدو بمثله ويُحسَبُ أنى فى الثياب صحيحُ

وأى صحة ؟ إنها صحة تشبه المرض ، بل قل إنها مرض خالص ، فقد تركته صاحبته ولم تحاول أن ترجع إليه ، وهو ينتظر أن تلمَّ به فلا تلم ، فيتحرق حسرة ولوعة ، وسرعان ما تجيش نفسه بالشعر فيقول(٢) :

تغلغلَ حُبُّ عَثْمَةَ فى فؤادى فباديه مع الخافى يسيرُ
تغلغل حيث لم يبلغ شرابٌ ولا حُزْنٌ ولم يبلغ سرورُ
صدعتِ القلب ثم ذَرَرْتِ فيه هواكِ فَلِيمَ فالتأم الفُطورُ(٣)
أكاد إذا ذكرتُ العهد منها أطير لو انَّ إنساناً يطير
غنىّ النفس أن أزداد حُبًّا ولكنى إلى صلة فقيرُ

وعلى هذا النحو كان عبيد الله يتغزل بصاحبته هذا الغزل الرقيق الذى يعبِّر به عن لواعج حبه ، وكان يُسأل أتقول الشعر فى فضلك ونسكك ؟ فيقول : إن المصدور إذا نفث بَرأ . وقد كان برؤه دائماً إلى حين ، ثم يُصدر ، فيعمد إلى هذا الشعر يصف فيه ما يعانى من الحب وما يلقى من آلامه .

وواضح فى هذا الغزل الذى رويناه لعبيد الله أنه يخلو من الرغبات واللذائذ الحسية ، وهذا طبيعى ، فهو فقيه ، بل هو من كبار الفقهاء فى عصره ، وهو من أجل ذلك لا تلمُّ به نزوات الجسد ، إذ هو فى سريرته متمسك بدينه وطهارة خلقه ، لذلك كنا نشعر عنده - كما شعرنا من قبل عند عروة - بسمو فى عاطفته ، بل لعله يتفوق على عروة فى ذلك ، إذ لم يُعْرَفْ عروة بعشق على نحو ما عُرف صاحبه ، ولعل ذلك ما يجعلنا نحس فى شعره بحرارة ولهفة أكثر من إحساسنا إزاء شعر عروة على الرغم مما فيه من توفر الموسيقى وجمال الأصوات .

ونحن إنما نسجل هذا كله لننفذ منه إلى أن موجة الغزل لهذا العصر

(١) أغانى ٩/١٣٨ .
(٢) أغانى ٩/١٥١ .
(٣) الفطور : الشقوق .

كانت حادَّة وأنه لم يسلم من الإعجاب بها أحد ، بل لقد ساهم فيها الفقهاء ولم يجدوا فيها حرجاً ، بل لقد توسعوا فى مساهمتهم ، فلم يكن منهم أصحاب غزل فقط كعبيد الله ، بل كان منهم من ينظمون هذا الغزل ويضعون له الأصوات كما رأينا عند عروة فى غير هذا الموضع .

٤

أغانى الغزل تصبح شعراً شعبيًّا عامًّا

لعل من الظواهر المهمة فى أغانى الغزل لهذا العصر أنها أصبحت شعراً شعبيًّا عامًّا تتردد مقطوعاته فى جوانب العالم العربى ، إذ لم يكن للعرب حينئذ صحف يقرءونها سوى الشعر ، فهو صحفهم التى يقرءون فيها حوادثهم وأخبارهم ، ويرون فيها عواطفهم وشعورهم . وكلنا نعرف قصة جرير حين أساء إليه الراعى وابنه فى البصرة فنظم فيه قصيدة طويلة ختمها بقوله :

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنك من نُمَيْرٍ فلا كَعْباً بلغتَ ولا كِلابا

وغدا فى المربد فأنشدها ، فثبت الراعى ساعة ، ثم رحل إلى الشُّرَيف وهو أعلى دار بنى نمير بنجد ، فوجد القصيدة قد سبقته[١]. ويُرْوَى أيضاً أن الحكَم ابن عبدل الأسدى كلم محمد بن حسان بن سعد التميمى ، وكان على خراج الكوفة ، أن يترك لرجل ثلاثين درهماً من خراجه ، فقال : أماتنى الله إن كنت أقدر أن أضع من خراج أمير المؤمنين شيئاً ، فانصرف ابن عبدل غاضباً ، وهجاه بقصيدة جاء فيها :

يقول أماتنِى ربى خِداعاً أماتَ اللهُ حسانَ بن سعدِ

فاشتهرت القصيدة حتى إن كان المكارى ليسوق بغله أو حماره فيقول : عَدْ (كلمة لزجر الدواب) ثم يقول بعدها أمات الله حسان بن سعد . وكان أبوه يسمع ذلك فيقول : بل أمات الله ابنى محمداً ، فهو عرَّضنى لهذا البلاء فى ثلاثين درهماً[٢]

---

(١) أغانى طبع دار الكتب ٢٩/٨ وما بعدها . (٢) المصدر نفسه ٤١٢/٢ .

وهذان الحادثان اللذان يرويهما صاحب الأغانى يدلان على شدة شيوع الشعر عند العرب ، ومع ذلك فقصيدة جرير وقصيدة ابن عبدل لم تكونا من أغانى الغزل التى تُغَنَّى فى العصر ، بل كان يتناقلهما الناس والرواة . وإنما سقنا ذلك لندل على قابلية العرب لرواية الشعر وتداوله وإنشاده .

وقد توافر لأغانى الغزل مع هذه القابلية العامة عند العرب شيء مهم ، بل لعله كان أكثر أهمية من هذه القابلية فى حد ذاتها ونقصد أنها كانت تُغَنَّى وعمل هذا الغناء على إشاعتها بين الناس بوسيلتين : الأولى غناؤها فى موسم الحج ، فنحن نقرأ دائماً فى أخبار المغنين أنهم حبسوا الناس فى الموسم ، فهذا الغريض بالمُزْدَلِفة يغنِّى الناس ويحبسهم عن مناسكهم(١) ، وهذا ابن سُرَيْج يغنى فيجعل الحاجَّ يركب بعضهم بعضاً(٢). وكذلك كان يصنع ابن عائشة(٣) وغيره . وهذه كانت الوسيلة الأولى إلى إذاعة الأغانى بين الناس . والوسيلة الثانية كانت انتقال الأصوات نفسها من المدينة ومكة إلى الحواضر والبوادى المجاورة فى الحجاز ، ثم الحواضر البعيدة فى العراق والشام . ولنتخذ الطائف مثلاً لحواضر الحجاز ، فإنها كانت تُتَّخَذُ مصيفاً لنبلاء المدينة ومكة ، فكان المغنون فى البلدتين ينزلون فيها ، ومن أمثلة ذلك الثريا بنت على بن عبد الله الأموية مولاة الغريض وقَيْل وسُمَيَّة ، فإنها كانت تصيف هناك(٤) ، وأيضاً فإن العَرْجى كان ينزل فى عَرْج الطائف ، وكان يصحبه بعض المغنين وعلى رأسهم فِنْد ، مولى عائشة بنت سعد ، وذكر ذلك فى شعره(٥). وليس من شك فى أن هؤلاء المغنين جميعاً كانوا يذيعون هناك غزل الأحوص وعمر ابن أبى ربيعة وغيرهما ممن يُغَنَّى فى شعره بالبلدتين الكبيرتين . ومن الأدلة التى توضح ذلك عمر الوادى مغنى الوليد بن يزيد فقد كان من أهل وادى القرى بالحجاز ، ويقول صاحب الأغانى إنه ذهب إلى الحرَم فتعلم الغناء ، ثم رجع إلى وادى القرى ، فأخـــذ عنه حكم وذووه من أهل الوادى(٦) ومعنى ذلك أننا نجد فى وادى القرى ما نجده فى الطائف من أن المغنين ينقلون الغناء من المدينة ومكة بما فيه من

---

(١) أغانى طبع دار الكتب ٣٦٢/٢
(٢) المصدر نفسه ٣١٧/١ .
(٣) المصدر نفسه ٢٠٨/٢ .
(٤) المصدر نفسه ٢١٢/١ .
(٥) أغانى ٣٩٣/١ .
(٦) أغانى ٨٥/٧ .

غزل وما فيه من موسيقى . وليس ذلك كل ما نلاحظه فى الحجاز ، فقد كانت هذه الأغانى لا تشيع فى الحواضر فقط ، بل كانت تشيع أيضاً فى البوادى ، فقد روى عمر الوادى أنه كان يسير ليلة بين الرَّوْحاء والعَرْج ، فسمع إنساناً يغنى صوتاً لم يسمع قط أحسن منه ، وهو :

وكنتُ إذا ما جئتُ سُعْدَى بأرضها أرى الأرض تُطوى لى ويدنو بعيدُها

من الخَفِراتِ البيضِ ودَّ جليسُها إذا ما انقضت أُحدوثةٌ لو تُعيدها

وكاد يسقط عمر من راحلته طرباً وتبع الصوت ، فإذا هو برجل يرعى غنماً ، وإذا هو صاحب الصوت ، فأعلمه الذى أقصده إليه ، وسأله إعادته عليه ، فأعاده عليه مراراً حتى أخذه ، وهو من خفيف الرمل . وقال الراعى فى بعض حديثه لعمر الوادى إنى ربما ترنمت به وأنا جائع فأشبع ، وكسلان فأنشط ، ومستوحش فآنس ، ويروى الرواة أن عمر كان يشعر إزاء الصوت الشعور نفسه(١).

وعلى هذا النحو كانت أصوات المغنين فى المدينة ومكة تُنْقَل لا إلى الحواضر فى الحجاز ، بل إلى البوادى وبين الرعاة . ولم يكن هذا كل ما اتُّخذ فى نقلها ، فقد نُقلت بعيداً حيث المغنون فى العراق والشام ، ولعل مما يدل على ذلك أننا نجد حنيناً الحيرى يغنى فى العراق بشعر للأحوص(٢)، كما يغنى بشعر لكثير بن كثير السهمى(٣)الشاعر المكى . وأمضى الغريض أيامه الأخيرة باليمن(٤) وغنى هناك فيما كان يغنى به فى مكة من شعر الغزلين فى الحجاز . وكثير من المغنين والمغنيات فى المدينة – كما مرَّ بنا – وكذلك فى مكة قصدوا إلى دار الخلافة فى دمشق حيث غنوا الخلفاء ، ولا بد أنهم كانوا فى طريقهم وفى القوافل التى ركبوها يتغنون أغانيهم .

وليس من شك فى أن القوافل لعبت دوراً مهمّاً فى إشاعة هذه الأغانى وذيوعها ، فبعد أن كانت هذه القوافل فى الجاهلية تستخدم الحُداء فى أثناء سُراها ، أخذت فى هذا العصر تستخدم الغناء ، فابن مسجح يقص علينا أنه ذهب إلى دمشق وكان فى القافلة التى ذهب فيها جوار مغنيات(٥). وأوضح من ذلك أننا نجد من

---

(١) أغانى ٨٦/٧ وما بعدها .

(٢) أغانى ٣٤٢/٢ .

(٣) المصدر نفسه ٣٤٣/٢ .

(٤) المصدر نفسه ٣٩٩/٢ .

(٥) المصدر نفسه ٢٨٢/٣ .

أصحاب هذه القوافل مغنياً من مغنى المدينة اشتهر فى العصر وهو دَحْمان وكان يُكْرِى إلى المواضع ويتجر ، وليس من شك فى أنه كان يغنى فى قافلته ، بل كان يشركه بعض الجوارى . وقد استمع الوليد بن يزيد إلى جارية تغنى فى إحدى قوافله فاشتراها منه بعشرة آلاف دينار[١].

وهذا كله أحدثَ ما نريد أن نصل إليه وندل عليه من أن الغزل أصبح فى هذا العصر شعراً شعبيًّا عامًّا ، فالمغنون يرددونه فى مواسم الحج وفى حواضر الحجاز وبواديها ، وفى حواضر العراق والشام ، وفى القوافل ، والناس من ورائهم يصنعون صنيعهم .

وساعد على شعبية هذا الغزل وأغانيه أن الشعراء أخذوا يهذبون ألفاظه وموسيقاه على نحو ما قدمنا فى غير هذا الموضع ، وقد جعلوا لغته أكثر قرباً للناس من لغة الشعر القديم ، وحتى من لغة الشعر التقليدى المعاصر عند الفرزدق وجرير . ولم تكن لغته هى القريبة من نفوس الناس فقط ، بل كانت معانيه أيضاً ، فهى تدور حول الحب ووقائعه ، فى حين يدور الشعر التقليدى حول وقائع قديمة حيث نجد الشعراء يفتخرون بوقائع آبائهم فى الجاهلية وحروبهم . ومن الغريب أنهم تركوا وقائع الإسلام وفتوحاته واستمروا يتحدثون عن أيام الجاهلية وحروبها ووقائعها ، وكان ذلك كله لا يقرب من نفوس الناس قُربَ معانى الأغانى التى دارت فى أكثر أحوالها على الحب ووقائعه . على كل حال كانت أغانى الغزل فى هذا العصر تدور على ألسنة الناس فقد أشاعها المغنون وأشاعتها سهولتها وقرب لغتها ومعانيها . وليس من شك فى أن ذلك كان إيذاناً بأن تقتحم على الشعر التقليدى عُقر داره فى العراق ، وتظفر به ظَفراً محققاً على ما سنرى .

---

(١) أغانى ٦/٢٥ وما بعدها .

٥

تفوق الغزل وأغانيه على الشعر التقليدى

رأينا الغزل يصبح شعراً شعبيًّا عامًّا ، وكان من آثار ذلك أن أخذت موجته تتسع ، بل قل أخذت تعلو وترتفع وتسير قدماً إلى الأمام ، فإذا هى تكتسح كل الموجات التى تقابلها من موجات الشعر التقليدى ، وتقصد موجات الهجاء والمديح وما يتصل بهما ، وهو اكتساح بدأ فى الحجاز ثم أخذ يمتد إلى الشام ثم العراق عقر الشعر التقليدى .

وأكبر الظن أن القارئ لم ينس ما قدمناه من أن الشعر العربى كان صحف العرب فى العصر ، وهى صحف مختلفة ، تارة تكون رجزاً وتارة تكون شعراً ، وتارة تكون غزلاً وتارة تكون مديحاً أو هجاء ، وقد أخذت تتركز هذه الصحف المختلفة فى دارين كبيرتين : دار الحجاز ودار العراق ، وكانت الدار الأولى مركز الغزل وأغانيه فى حين كانت الثانية مركز الشعر التقليدى . فأما الدار الأولى فقد كانت تُصدر صحيفتها منذ أوائل العصر الأموى ، وكان يوجد بجانبها صحف صغيرة للشعر التقليدى فى الحجاز ، غير أنها لم تلبث أن ابتلعتها أو كادت ، وحوَّلتها جميعاً — إلا فى القليل — إلى أغان .

وعلى هذا النحو أخذت صحف الشعر التقليدى فى الحجاز تختفى واحدة وراء الأخرى ، فكانت لا تظهر إلا فى فترات قليلة ثم ما تلبث أن تنقطع ، وقد تعود إلى الظهور ، ولكنها سرعان ما تعود إلى الانقطاع . أما صحيفة الغزل وأغانيه فكانت هى الصحيفة الكبرى ، وآية ذلك أن الشعراء لم يكونوا يشتهرون فى هذه البيئة إلا بغزلهم ، فكثيِّر ، مع أن له مدائح فى الأمويين والهاشميين ، إنما يشتهر بشعره فى عَزّة ، وابن قيس الرُّقَيَّات ، مع أن له مدائح فى الأمويين والزبيريين ، إنما يشتهر بغزله فى الرقيات ، وهكذا الأحوص إنما يُعْرَفُ بغزله فى أم جعفر أو فى جميلة أو سلَّامة . وليس هذا كل أدلتنا على ما نزعمه فهناك دليل ثان وهو أن الشعراء فى الحجاز أخذ بعضهم يقصر نفسه على الغزل الذى كانت تطلبه بيئته ، فلا

يتركه إلى غيره من فنون الشعر التقليدى ، على نحو ما هو معروف عن عمر ابن أبى ربيعة .

وبينما كانت هذه الدار الأولى تُعْنَى بإصدار صحيفة الغزل وأغانيه وقد أخذت تنتصر على ما حولها من صحف الشعر التقليدى حتى اكتسحتها جميعاً ، كانت الدار الثانية ، دار العراق ، لا تُصْدر إلا صحيفة واحدة هى صحيفة الشعر التقليدى ، وخير ما يمثلها نقائض جرير والفرزدق التى كانا ينشدانها فى المربد بالبصرة ، فتذيع على ألسنة العامة والخاصة هناك لسبب بسيط وهو أنها صحيفتهم اليومية .

ونحن نلاحظ أن أخبار هذه الصحيفة الثانية ، صحيفة الشعر التقليدى فى العراق ، لم يكن لها طرافة أخبار الصحيفة الأولى ، صحيفة الأغانى بالحجاز ، لأنها انصبَّت فى الغالب على ذكر وقائع وأحداث وأيام كانت للقوم فى الجاهلية ، وقلما عرضت لشىء من حياتهم الجارية ، أو حياتهم اليومية الحاضرة . أما صحيفة الأغانى فقد كانت صحيفة يومية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، فيها يقرأ الناس ما يقع فى مواسم الحج بين شعراء الحجاز والحواجِّ ، وفيها يقرءون ما يقع بين هؤلاء الشعراء وصواحبهم فى المدينة ومكة .

كانت الصحيفتان تختلفان : صحيفة تاريخية ، تتحدث عن الماضى البعيد غالباً ولا تكاد تلم بالحاضر إلا فى النادر ، وصحيفة إخبارية كل أحاديثها عن الحاضر ، أو قل بعبارة أدق ، إنها مرآة الحاضر بكل ما فيه من أحداث ووقائع . وليس هذا كل ما بين الصحيفتين من خلاف ، فقد كانت الصحيفة التقليدية تخلو من الصور ، فهى جافة ، وإن أتت بصور فهى غالبا صور جاهلية ، صور حرب ومتحاربين قدماء ، أما الصحيفة الغنائية فصحيفة حية تمتلئ بالصور وأى صور : صور العذارى والجوارى والنساء اللائى كنَّ حديث أهل الحجاز ، واسْتَصْبَيْنَ شعراء المدينة ومكة .

وخلاف ثالث بين الصحيفتين عرضنا له قبل ذلك وهو أن إحداهما كانت تعتمد على التلوين ، فهى تعتمد على التصوير من جهة ، وتعتمد على التلوين

من جهة ثانية ، بخلاف الصحيفة الثانية ، ونقصد بالتلوين ما كان يصحب صحيفة الغزل من موسيقى وغناء .

كانت صحيفة الغزل تتميز بخصائص كثيرة تتيح لها الانتصار والظفر على الصحيفة التقليدية وكل ما يمثلها ، وقد بدأ هذا الانتصار فى الحجاز نفسه فأصبحت هى الصحيفة التى تُتْلَى هناك ، ولم تعد تظهر صحف للشعر التقليدى إلا لماماً . ولم يقف انتشار هذه الصحيفة وتغلبها على الصحيفة الثانية صحيفة الشعر التقليدى عند الحجاز ، فقد أخذت دمشق تسمع بها وكذلك العراق . ولم تطلبها العراق تَوًّا لأنها كانت محافظة مغرقة فى المحافظة وكانت تجد لذتها فى الاستماع إلى ما يُتْلَى فى صحيفتها التقليدية ، ومع ذلك فإن أصحاب هذه الصحيفة نفسها أخذوا يشعرون بما للصحيفة الأولى ، صحيفة الأغانى ، من خطر . ولعل ذلك ما جعل الفرزدق ، وهو أحد أصحاب هذه الصحيفة يقول حين استمع إلى بعض الشعر الذى سجلته صحيفة الغزل : هذا الذى كانت الشعراء تطلبه ، فأخطأته ، وبكت الديار[١] ، وكذلك قال صاحبه جرير : « إن هذا الذى كنا ندور عليه فأخطأناه[٢] » . ومع ذلك فالفرزدق وجرير لم يُعدِّلا شيئاً فى صحيفتهما التقليدية ، بل استمرا يُصدرانها على النمط القديم .

لم تسرع العراق إذن إلى التعديل فى صحيفتها التقليدية القديمة ، ولعل الشام كانت أكثر منها إسراعاً ، وأتاح لها ذلك اتصالها بالمغنين والمغنيات منذ أوائل هذا العصر الأموى ، فإن يزيد بن معاوية كان له ذوق موسيقى ، وهو ابن مَيْسون بنت بَحْدل الكلبية ، وكانت تنظم الشعر ، وقد رفضت معيشة دمشق كما يقول الرواة ، وآثرت عليها البادية ، ونشأ ابنها على غرارها يحب الشعر ، وكان يحب الغناء ويطرب للموسيقى وقد طلب المغنين من المدينة فذهبت إليه عَزَّة المَيْلاء[٣]. ومن ذلك الوقت نجد الخلفاء يستقبلون كثيراً من المغنيات والمغنين فى دمشق . ومعروف أنه تلا عصر يزيد عصر مضطرب ، فلا نسمع عن مغنين ومغنيات ذهبوا من المدينة إلى الشام ، حتى تهدأ الأمور ، ويعتلى عرش الخلافة عبد الملك بن مروان فنجده يستقبل

(١) أغانى ٧٥/١ .
(٢) المصدر نفسه ١٠٦/١ .
(٣) خزانة الأدب للبغدادى طبع بولاق ٥٩٢/٣ .

ابن مِسْجح مغنى مكة ويسأله أن يغنيه الغناء المتقن(١) وكذلك استقبل بُدَيْح المليح مولى عبد الله بن جعفر ، واستمَع إليه وأثابه(٢). وقد أقام الوليد ابنه برغم اشتغال جيوشه فى فتوح الهند بقيادة محمد بن القاسم والأندلس بقيادة موسى بن نصير حفلَ استقبال فى دمشق لابن سُرَيْج ، مغنى مكة(٣)..ولم يكن سليمان بن عبد الملك يعجب بالغناء وكذلك عمر بن عبد العزيز ولكن لا يلبث يزيد بن عبد الملك أن يتولى الخلافة فيرسل فى طلب المغنين من المدينة ويفد عليه معبد ومالك وابن عائشة(٤)، وقد اشترى سَلَّامة القس وحبابة .

وهذه الصلة بين الخلفاء فى دمشق وبين المغنين والمغنيات فى الحجاز كانت تؤذن بانتصار صحيفة الغزل فى هذا الإقليم الذى دخلته ، إقليم الشام ، وهو إقليم لم يكن يشارك مشاركة ذات قيمة فى الأغانى حتى عصر يزيد بن عبد الملك ، إذ كان يكتفى بقراءة ما يصله من صحيفة الأغانى الحجازية على أيدى الناشرين من المغنين والمغنيات .

وسرعان ما تحدث المفاجأة فإذا الوليد بن يزيد يُخرج ، أو يحاول أن يخرج ، صحيفة للغزل وأغانيه فى دمشق نفسها ، كأنه يريد لها أن تكتفى بهذه الصحيفة الجديدة ، وأن تجد فيها ما تريده من غذاء للشعر .

وكان الوليد شاعراً ممتازاً ، وفى كتاب الأغانى ترجمة مطولة له عرض فيها أبو الفرج لشعره وما غَنَّى فيه المغنون والمغنيات(٥)، وفى موضع آخر حيث يتحدث عن الخلفاء وأولادهم الذين تركوا أصواتاً ، نراه يضع فى أعلى طبقاتهم الوليد إذ كان يضرب بالعود ويُوَقِّع بالطبل ويمشى بالدُّفِّ على مذهب أهل الحجاز(٦) .

وإذن فالوليد كان من أصحاب الأغانى ، وكان أيضاً من المغنين الذين يؤلفون الأصوات ، لم يكن يغنى للناس ، ولكن الناس تناقلوا غناءه . وما من ريب فى أن هذا يعطى صحيفة الأغانى عنده طرافة ومن يرجع إليه فى كتاب الأغانى يجده يتعلق بالأوزان القصيرة المعدلة والمجزوءة ، وليس ذلك فقط ، فقد روى له صاحب

---

(١) أغانى ٣/٢٨٤ .
(٢) أغانى ١٤/١٠ وما بعدها .
(٣) أغانى ١/٢٩٧ .
(٤) أغانى ٥/١٠٩ .
(٥) انظر ترجمته فى الأغانى ٧/١ وما بعدها .
(٦) أغانى (طبع دار الكتب) ٩/٢٧٤ .

كتاب الأغانى قطعة من وزن المجتث[١] ، وهو وزن قصير حديث نظن أنه كان أول من نظم فيه .

واستمرت هذه الصحيفة الغنائية فى الشام تصدر طوال حياة الوليد قبل خلافته ، وفى أثناء خلافته ، ويظهر أنه لم يكن لها أنصار كثيرون ، فنحن لا نجد شاعر غزل فى الشام بجانب الوليد بن يزيد ، وكان من نتائج ذلك أن صحيفته التى كان يُصْدرها هناك انقطعت بمجرد قتله ولم تعد للظهور ، إنما تظهر هذه الصحيفة فى إقليم جديد يتناولها من أيدى شعراء الحجاز والوليد بن يزيد ، ويحقق لها من النجاح كل ما كان يحلم به أصحابها سواء فى الشام أو فى الحجاز ، ونقصد إقليم العراق الذى أخذ يتصل بحركة الغناء والمغنين فى الحجاز على نحو ما بينا ذلك فى الفصل الثانى .

ونحن لا نصل إلى العصر العباسى حتى نجد كثيرين من أهل العراق عرباً وموالى يتعاونون على إصدار صحيفة الغزل وأغانيه هناك ، وساعد على ذلك أن الدولة اهتمت بهذه الحركة ، وأصبحت لا تجد مغنياً مشهوراً فى الحجاز إلا وهو يفزع إلى العراق . وقد تكونت هناك مدارس للغناء والموسيقى ، وكثر فيها الأساتذة والتلامذة كثرة مفرطة ، بحيث غطت هذه المدارس على حركة الغناء القديمة فى الحجاز .

ولم يعد للحجاز شأن فى الغناء والموسيقى حينئذ ، فقد تركهما للعراق كما ترك معهما صحيفة الغزل التى كان يصدرها ، فلم نعد نسمع عن شاعر لها كبير يظهر هناك مثل عمر بن أبى ربيعة والأحوص ، بل اقتصر ذلك على العراق وشعرائه من مثل بشار ومطيع بن إياس وأبى نواس والعباس بن الأحنف وهلم جرا .

ولا نستطيع أن نعرض ببيان واضح لمدى ما كان للصحيفة الغنائية فى العراق من شيوع وانتشار ، ونشاط وازدهار ، لأن ذلك يخرج عن موضوعنا ، لكن يكفى أن نقول إننا لا نجد فى العراق شاعراً مشهوراً فى القرن الثانى إلا وتؤسَّس شهرته على ما يخرج من غزل . ومعنى ذلك أن صحيفة الغزل انتصرت أخيراً فى العراق على الشعر التقليدى ، وقد جدد الشعراء ، تحت تأثير الغناء والموسيقى ، كثيراً من

---

(١) أغانى ١٧/٧ .

الأوزان ، كما جددوا فى اللغة والأساليب ، وليس هنا مكان الإفاضة فى ذلك . عـلى أنه ينبغى ألا نظن أن صحيفة الشعر التقليدى انقطعت تماماً فى العراق ، فقد بقى منها بقايا ، أهمها ما يتصل بالمديح وكانت تصدر هذه الصحيفة أعداداً ممتازة حين يقف الشعراء بأبواب الخلفاء والوزراء والأمراء فيمدحونهم ويأخذون جوائزهم .

ونرى من كل ما سبق أن صحيفة الغزل وأغانيه انتصرت انتصاراً واسعاً على صحف الشعر التقليدى ، سواء فى الحجاز أو فى العراق أخيراً ، فقد أصبحنا لا نكاد نسمع عن نقائص جرير والفرزدق ، إذ هجرها الناس والشعراء إلى هذا الشعر الجديد الذى يخف على الأسماع والأفواه .

الفصل الخامس

الأحوص

١

نسب الأحوص وحياته وصفاته

هو عبد الله بن محمد بن عبد الله[١] بن عاصم بن ثابت من بنى ضُبَيْعة بن عمرو، ابن عَوف من الأوس[٢]. وكان يقال لبنى ضبيعة فى الجاهلية بنو كِسَرِ الذهب[٣].
ولسنا نعرف شيئاً واضحاً عن حياة الأحوص إلا ما يُرْوَى عن جده عاصم من أن النبى صلّى الله عليه وسلم بعثه بعثاً فقتله المشركون ، وأرادوا أن يصلبوه فحمته الدَّبْرُ ، وهى النَّحْل ، فلم يقدروا عليه ، حتى بعث الله عز وجل الوادى فى الليل ، فاحتمله السَّيْلُ فذهب به ، ولذلك يقال له حَمِىُّ الدَّبْر[٤] ، وافتخر الأحوص بذلك فقال :

وأنا ابنُ الذى حمَتْ لحمَه الدَّبْـ ... ـرُ قتيلِ اللِّحْيان[٥] يوم الرَّجيعِ

وليس فى كتب التاريخ ما يُرْوَى بعد ذلك عن جد الأحوص الأدنى عبد الله ولا عن أبيه . أما أمه فهى أُثَيْلة بنت عُمَيْر بن مخشىّ ، وليس بين أيدينا ما يوضح شخصيتها ولا شخصية أسرتها . وافتخر الأحوص بخال له فقال :

غسَّلَتْ خالىَ الملائكةُ الأبْـ ... ـرارُ مَيْتاً طُوبَى له من صريعِ[٦]

---

(١) هكذا نسب الأحوص فى الأغانى طبع دار الكتب ٤/٢٢٤ ، وفى طبقات ابن سلام ص ١٣٧ أنه ابن عبد الله بن محمد بن عاصم ، وانظر ابن سعد القسم الثانى من الجزء الثالث ص ٣٣ .
(٢) يقول ابن سلام إنه خزرجى ، انظر الطبقات ص ١٣٧ .
(٣) أغانى ٤/٢٢٤ .
(٤) انظر ابن سعد فى الجزء السابق ص ٣٣ .
(٥) أغانى ٤/٢٢٤ وكذلك ٤/٢٣٤ واللحيان: حى من هذيل .
(٦) أغانى ٤/٢٣٤ .

وغسيل الملائكة هو حنظلة بن عامر من بنى ضُبَيْعة(١) بن عمرو بن عوف من الأوس ، قُتل فى وقعة أُحُد ، فقال عنه النبي إن حنظلة لتغسله الملائكة(٢). وإذا صح أنه خال أدنى للأحوص وأن أمه من أسرته يكون أوسيًّا أباً وأمًّا .

واسم الأحوص – كما رأينا – عبد الله ، وإنما لقب بالأحوص لحَوَصٍ كان فى عينيه وهو ضيق يعترى مُؤْخِر العين . وكان الأحوص – إلى ذلك – أحمر شديد الحمرة ، ووصفه الفرزدق فقال : كأنه وَحَرَة(٣)، والوحرة يَعْسُوب أحمر ينزل الأنبار .

ومن يقرأ أخبار الأحوص فى كتاب الأغانى يحس أنه كان فيه نزق ، بل حمق وطيش ، فقد روى الرواة أن السيدة سُكَيْنَة بنت الحسين ذكرت النبى صلى الله عليه وسلم وافتخرت به ، فافتخر هو عليها بأبيه حَمِيِّ الدَّبْر وخاله غسيل الملائكة(٤). وبفضلِ جدِّ السيدة سُكَيْنَة حمت أباه الدَّبْر وغسلت خاله الملائكة ! . ويروى الرواة أنه قدم البصرة فتزوج ابنة رجل من تميم ، وخرج بها إلى المدينة ، وكانت أختها عند رجل فى طريقها ، فقالت له : اعدل بى إلى أختى ، ففعل ، فذبحت لهما وأكرمتهما ، ثم جاء زوجها ، وكان فى إبله ، فلما رآه الأحوص اقتحمته عينه وازدراه لقبحه ، وقال تَوًّا(٥) :

سـلامُ الله يا مَطَرٌ عليها ... وليس عليك يا مطرُ السلامُ
فطلّقْها فلست لهـا بكفءٍ ... وإلا عَضَّ مَفْرقك الحسامُ

وليس كل ما يلاحظ على الأحوص الطيش والحمق ، فنحن نلاحظ عليه أيضاً ميلاً إلى الخصومة والشر مما يدل على أنه كان حادّ الشعور ، وهى حدة تحولت إلى هجاء كل من حوله ، وبذلك ملأ قومه شرًّا . روى صـاحب الأغانى أنه أقبل يوماً حتى وقف على معن بن حُميد الأنصارى أحد بنى عمرو بن عوف بن جَحْجَبى فقال :

---

(١) طبقات ابن سعد ٤٦/٥ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٧٩/٣ .
(٣) أغانى ٢٣٢/٤ .
(٤) أغانى ٢٣٤/٤ .
(٥) أغانى طبع بولاق ٦٤/١٤ .

رأيتك مزهوًّا كأن أباكمُ ... صُهَيْبَةَ أمسى خيرَ عوفٍ مُركَّبا
تُقرّبكم كُوثَى[١]إذا ما نُسبتُمُ ... وتُنكركم عمرو بن عوف بن جَحْجَبى
عليك بأدنى الخَطْب إن أنت نلته ... وأَقْصِرْ فلا يذهب بك التِّيهُ مذهبا

فقام إليه بنوه ومواليه ، فقال : دعوا الكلب ، خَلُّوا عنه ، لا يمسه أحد منكم ، فانصرف ، حتى إذا كان عند أحجار المِراء بقُباء لقيه ابن أبى جرير أحد بنى العَجْلان ، وكان سَيِّداً ، فقال له الأحوص :

وإنَّ بقومٍ سوَّدوك لحاجةً ... إلى سيّدٍ لو يظفرون بسيدِ

فألقى ثيابه ، وأخذ بحلق الأحوص ، ومع الأحوص راويته ، وجاء الناس ليخلصوه ، فحلف لئن خلصه أحد من يديه ليأخذنه ، وليدعن الأحوص ، فخنقه حتى استرخى ، وتركه حتى أفاق ، ثم قال له : كل مملوك لى حر ، لئن سُمع أو سمعت هذا البيت من الناس لأضربنَّك ضربة بسيفى أريد بها نفسك ، ولو كنت تحت أستار الكعبة ، فأقبل الأحوص على راويته فقال : إن هذا مجنون ، ولم يسمع هذا البيت غيرك ، فإياك أن يسمعه منك أحد[٢]

وعلى هذا النحو كان الأحوص يسير مع الأنصار هذه السيرة من هجائهم ، وكانوا يسيرون معه هذه السيرة من إهانته وازدرائه ، ولم يكونوا وحدهم الذين يزدرونه ، فقد كان بعض القرشيين يزدرونه أيضاً ، روى صاحب الأغانى أنه مرَّ بعبَّاد بن حمزة ابن عبد الله بن الزبير ومحمد بن مصعب بن الزبير بخيمتى[٣]أم معبد ، وهما يريدان الحج وكان آيباً من عند يزيد بن عبد الملك ، وهو على نجيب له فاره ورحلٍ فاخر وبِزَّة مرتفعة ، فحدثهما أنه قدم على يزيد بن عبد الملك ، فأجازه وكساه وأخدمه[٤]، فلم يرهما يهشان لذلك ، فجعل يقول : خيمتى أم معبد ، عباد ومحمد ، كأنه يروض القوافى للشعر يريد قوله ، فقال له محمد بن مصعب : إنى أراك فى تهيئة شعر وقواف ، وأراك تريد أن تهجونا ، وكل مملوك لى حر لئن هجوتنا بشىء

---

(١) كوثى : محلة بمكة لبنى عبد الدار .
(٢) أغانى ٤/٢٤١ .
(٣) موضع بين مكة والمدينة .
(٤) أعطاه خادماً .

إن لم أضربك بالسيف مجتهداً على نفسك ، فقال الأحوص : جعلنى الله فداك ! إنى أخاف أن تُسمع هذا فىّ عدوًّا ، فيقول شعراً يهجوكما به فينحلنيه وأنا أبرئكما الساعة ، كل مملوك لى حر إن هجوتكما ببيت شعر أبدا(١)

ولعل فى هذا كله ما يدل على أنه كان ذا عاطفة جامحة ، وأن هذه العاطفة تحولت إلى هجاء مَنْ حوله من قرشيين وأنصار ، حتى أصدقائه . روى صاحب الأغانى أنه لما أراد الخروج إلى يزيد بن عبد الملك نهض صديق له كان هو صديقه الوحيد من بنى جَحْجبى ، فجهَّزه وقام بحوائجه وشيَّعه ، فلما ركب الأحوص أقبل عليه فقال : لا أخلف الله عليك بخير ، فقال مَهْ غفر الله لك ! فقال الأحوص : لا والله أو أعلّقها حرباً(٢)

وطبيعى أن يكون الأحوص بسبب هذا الشر كله منبوذاً من قومه فى المدينة ، وأيضاً فإنه كان ضعيف الخلق لا يبالى أحداً(٣) ، فتحاماه الناس وابتعدوا عنه لسفاهة لسانه وسفاهة خُلقه جميعاً .

وأحس الأحوص أنه غريب فى قومه ، فهم يزورُّون عنه كلما لقوه ، فماذا يصنع ؟ لقد رأى أن يولِّى وجهه نحو دمشق وأن يتصل ببنى أمية ، فهم الذين يستطيعون إذا قرَّبوه أن يفرضوه على قومه فرضاً . وهكذا ذهب يستعين بهم ، ودفعه إلى ذلك أنه لم يكن مُثرياً ، وأنه أراد أن يدفع بهم شر الحاجة . وقد قربوه منهم ، وأجزلوا له فى مكافآتهم ، حتى لنراه يقول(٤) :

وما كان مالى طارفاً من تجارةٍ ... وما كان ميراثاً من المال مُتْلَدَا
ولكن عطايا من إمامٍ مباركٍ ... مَلا الأرضَ معروفاً وجُوداً وسُؤْدُدَا

فبنو أمية هم ثروة الأحوص وتجارته التى يستمد منها ما ينفقه . ويظهر أنها كانت ثروة وتجارة ممتازة ، فقد روى صاحب الأغانى أنهم أعطوه فى إحدى قصائده لهم عشرة آلاف دينار(٥) وأعطوه فى أخرى مائة ألف درهم(٦) ، ومن هنا كان الأحوص

(١) أغانى ٢٤٢/٤ .
(٢) أغانى ٢٤٠/٤ .
(٣) أغانى ٢٣٣/٤ .
(٤) أغانى ٨/٩ .
(٥) المصدر نفسه ٨/٩ .
(٦) المصدر نفسه ١٧٢/٩ .

يكثر من مديحهم . ولعل ذلك كان من أسباب كراهية أهل المدينة له ، فقد عرفنا قبلا أنهم لم يكونوا من هوى بنى أمية ، بل إن بنى أمية كانوا يستأجرون الشعراء من أمثال الأخطل لهجائهم . وكان شعراء المدينة من أمثال عبد الرحمن بن حسان يردون على الأخطل وأمثاله هجاءهم ، ويهجون معهم معاوية وابنه يزيد .

أما اليوم ، فقد ظهر الأحوص ، ودفعه قومه ، فاندفع إلى الأمويين يتقرب إليهم بقصائده ومدائحه ، التى يبالغ فيها ما شاءت له المبالغة ، حتى ليمكن أن نعده من شعراء البيت الأموى فى العصر ، ولو أن ديوانه بين أيدينا لاستطعنا أن نفهم فى وضوح هذا الجانب من شعره ولكنه مفقود ، ولم يبق منه إلا قطع فى كتب الأدب ، وأهمها الأغانى ، ومع ذلك فقد رُوِىَ له شعر فى الوليد بن عبد الملك وفى يزيد أخيه ، وهو فى هذا الشعر لا يقف عند وصفهما بأنهما كريمان شجاعان من بيت شريف ، بل ينفذ إلى إمامتهما الدينية فى الناس ، واستمع إليه يقول فى الوليد(١) :

إمامٌ أتاه الملكُ عفواً ولم يُثِبْ ... على مُلْكه مالًا حراماً ولا دَما
تخيَّره ربُّ العباد لخلقـــــه ... وليًّا وكان الله بالناس أعلما
فلمـا ارتضاه الله لم يَدْعُ مسلما ... لبيعته إلا أجاب وسلَّما
ينال الغنى والعزَّ من نال وُدَّه ... ويرهب موتاً عاجلاً من تشأَّما
وإنَّ بِكَفَّيه مفاتيحَ رحمـــةٍ ... وغَيْثَ حَياً يحيا به الناس مُرْهِما (٢)

وهذه نغمة لا شك فى أن الوليد وغيره من بنى أمية كانوا يعجبون بها ، وكان المغنون ما يفتأون يغنونهم فيها . والحق أن الأحوص كان يغلو فى مدحهم ، إذ كان يمدحهم على نحو ما يمدح الشيعة أئمتهم ؛ لا يمدحهم بالسياسة والحزم ، كما يمدحهم الأخطل مثلاً ، وإنما يمدحهم بأنهم أئمة الله ، اختارهم لخلقه ، وكأنه يردُّ بذلك على الشيعة الذين يزعمون أن النبى أوصى لعلى ، واستمرت الوصية تتابع فى أبنائه . وهو أيضا يرد عليهم ما يدَّعونه على الأمويين من سفك الدماء والظلم على نحو ما نجد عند الكميت فى هاشمياته ، فهذا الوليد لم يسفح دماً ولم يُثِبْ

---

(١) أغانى ١/٢٩٨ .

(٢) الحيا : الخصب والمطر . مرهماً : لا يكف .

مالاً حراماً ، وإن بكفيه مفاتيح رحمة يفتح بها على الناس أبوابها ، وسُحب كرمٍ يرسل بها على الناس غَيْثها .

ويمثل هذا الشعر كان الأحوص يأخذ من بنى أمية الألوف وكانوا يرسلون فى طلبه(١) . وتروى كتب(٢) الأدب أنه مدح عبد العزيز بن مروان ، ويظهر أنه طلبه وهو فى مصر ، كغيره من شعراء الحجاز ، فذهب إليه . وتدل أخباره أنه كان كثير التقلب فى البلاد وأنه كان يذهب إلى العراق ، وأكبر الظن أنه كان يذهب لمديح بشر بن مروان كعبة الشعراء ومقصدهم هناك . وليس بين أيدينا ما يدل على أنه قصد عبد الملك بن مروان ، ولكن المعقول أن لا يمدح أخاه عبد العزيز والى مصر ويترك الخليفة وراءه .

وليس من شك فى أن هذه الصلة التى عقدها بينه وبين بنى أمية كانت تتيح له أن يسير سيرته المعوجة التى عُرف بها فى المدينة ، فليس هناك والٍ يستطيع أن ينال منه لأنه شاعر سادته الذين يولُّونه ، وما زال هذا شأنه حتى تولى سليمان ابن عبد الملك ، وكانت فيه شدة ، فولَّى على المدينة أبا بكر بن حزم ، وكان هو الآخر لا يقل عن مولاه شدة . ويُرْوَى أن سليمان أرسل إليه أن يَخْصى المخنَّثين فى المدينة لما سمع من إفسادهم لنسائها فخصاهم(٣)

ولما رأى أشراف المدينة شدة الخليفة الجديد وشدة ابن حزم واليه ، تقدموا إلى هذا الوالى يشكون الأحوص وسيرته ، وقيل بل تقدموا إلى سليمان نفسه ، فشكوا إليه الأحوص وأنه يشبب بنسائهم(٤) فكتب إلى ابن حزم يأمره أن يضربه مائة سوط ويقيمه على البُلُس(٥) للناس ، وصدع ابن حزم بما أمره ، فجلد الأحوص مائة ، وأقامه على البلس ، فكان يصيح :

ما مِن مصيبةِ نكبةٍ أُمْنَى بها ... إلا تُعَظِّمنى وترفع شانى
وتزول حين تزول عن مُتخمِّطٍ(٦) ... تُخْشَى بَوادرُه على الأقرانِ

---

(١) أغانى ٤/٢٥١ .
(٢) ابن سلام ص ١٣٨ .
(٣) أغانى ٤/٢٧١ وما بعدها .
(٤) المصدر نفسه ٤/٢٣٣ وكذلك ٤/٢٣٩ وانظر ٤/٢٤٦ .
(٥) البلس : جمع بلاس وهى غرائر كبار يجعل فيها التبن ويشهر عليها من ينكل به .
(٦) متخمط : متكبر .

إنى إذا خفىَ اللئامُ رأيتنى كالشمس لا تخفى بكل مكانِ
إنى على ما قد ترون مُحسَّدٌ أَنْمى على البغضاء والشنآن
أصبحتُ للأنصار فيما نابهم خَلفاً وللشعراء من حَسَّان(١)

وما زال الأحوص واقفاً على البلس حتى جاءه بنو زُرَيق من الخزرج فدفعوه عنها واحتملوه(٢). والأحوص يأسى فى هذه الأبيات على نفسه ، ويقول إنه أصبح خلفاً للأنصار فيما نابهم . ولكن لا يظن القارئ أنه استشعر بعد ذلك أو قبل ذلك مأساة الأنصار فيما حلَّ بهم فى أثناء العصر الأموى ، فإنه لم يكن يستشعر شيئاً من هذا أبداً ، أما البيت فهو لا يعدو فكرة طارئة لم يكن لها أى ظل وراءها . وآية ذلك أنه أخذ يهجو ابن حزم جزاء لما صنع به ، ولكنه كان يفرِّق دائماً بينه وبين بنى أمية ، حتى يُنحِّيهم بعيداً عن خصومته معه ، واستمع إليه يقول(٣) :

أَهْوَى أمية إن شَطَّتْ وإن قربتْ يوماً وأهدى لها نُصحى وأشعارى
لا تَرْثِينَّ لحزمىّ رأيتَ به ضُرًّا ولو أُلقِىَ الحزمىُّ فى النارِ
الناخسين بمروان بذى خُشُبٍ والمُقْحِمِين على عثمان فى الدَّار

لم يحاول الأحوص أن يهجو سليمان بن عبد الملك لجلده إياه ، بل لقد استمر ، كما يقول ، يهدى إليه وإلى غيره من بنى أمية أشعاره . وفى هذه الأبيات ما يكشف عن ضعف خلقه ، فهو يحاول أن يوقع بين ابن حزم ومن ولَّوه من بنى أمية ، إذ يرميه بأن آباءه أعانوا على قتل عثمان يوم الدار ، كما أعانوا على إزعاج الأمويين وعلى رأسهم مروان من وادى ذى خُشب القريب من المدينة قبل واقعة الحرَّة . ولعل فى ذلك ما يكشف ، من بعض الوجوه ، عن موقف الأحوص من خصومة أهل المدينة لبنى أمية ، وأنه لم يكن يحس شيئاً من هذه الخصومة .

وقد رجع الأحوص بعد جلد ابن حزم له وتشهيره به يعلن محبته للأمويين وأنه يهواهم ، كما رجع يهدى إليهم أشعاره . روى الرواة أنه لما توفى سليمان بن عبد الملك وخلفه عمر بن عبد العزيز وفد عليه مع كثيِّر ونُصَيْب ، وامتنع عليهم عمر ، لأنه كان يكره أن يجيز على الشعر ، ولكنه عاد فأذن لهم ، وأنشده الأحوص قصيدة بديعة يقول فيها :

---

(١) أغانى ٤/٢٣٦ وكذلك ٤/٢٤٠ .
(٢) أغانى ٤/٢٣٩ .
(٣) المصدر نفسه ٤/٢٣٨ .

رأيناك لم تعدل عن الحق يَمْنَةً ... ولا يَسْرةً فعلَ الظَّلوم المجادلِ
ولكن أخذتَ القصدَ جَهْدك كله ... وتَقْفُو مثالَ الصالحين الأوائل
فقلنا ولم نكذب بما قد بدا لنا ... ومن ذا يردُّ الحقَّ من قول عادلِ
ولولا الذى قد عوّدَتْنا خلائفٌ ... غطاريفُ كانتْ كالليوث البواسلِ
لما وَخَدَتْ[١] شهرا بِرَحْلِيَ جَسْرَةٌ[٢] ... تفُلُّ مُتونَ البِيد بين الرَّواحل
ولكن رجونا منك مثل الذى به ... صُرِفنا قديماً من ذَويك الأفاضل
فإن لم يكن للشعر عندك موضعٌ ... وإن كان مثل الدُّرِّ من قول قائل
وكان مصيباً صادقاً لا يعيبه ... سوى أنه يُبْنَى بناءَ المنازل
فإن لنا قُربى ومَحْضَ مودَّةٍ ... وميراثَ آباءٍ مشـوا بالمناصلِ[٣]
فذادوا عدُوَّ السِّلْم عن عُقْر دارهم ... وأَرْسَوْا عمودَ الدين بعد تمايلِ

ويقول الرواة إن عمر أعطاه ثَلثمائة درهم[٤]. وعاد الأحوص إلى المدينة ، وكان ابن حزم لا يزال عليها . ويظهر أن الأحوص أخذ يسير سيرته القديمة ، فرفع الناس أمره إلى ابن حزم ، وكان صدره مُوغراً عليه لكثرة أهاجيه فيه ، فكتب إلى عمر بأمره فبعث إليه أن ينفيه إلى دَهْلك[٥]. ونفاه ابن حزم واستمر هناك طوال خلافة عمر ، ولم تنفعه قصائده الكثيرة التى يترضاه بها ويستعطفه ، واستمع إليه يقول فى إحدى هذه القصائد[٦] :

أيا راكباً إمّا عرضتَ فبلِّغَنْ ... هُدِيتَ أميرَ المؤمنين رسائلى
وقل لأبى حفص إذا ما لقيته ... لقد كنت نفَّاعاً قليلَ الغَوائلِ
أفى الله أن تُدْنُوا ابنَ حزمٍ وتقطعوا ... عُرَى حُرُماتٍ بيننا ووصائل[٧]

(١) وخدت : أسرعت .
(٢) الجسرة : الناقة السريعة .
(٣) المناصل : السيوف والرماح
(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣١٧ وما بعدها ، وانظر الأغانى طبع دار الكتب ٢٥٦/٩ وما بعدها .
(٥) دهلك : جزيرة فى بحر القلزم بينها وبين بر اليمن نحو ثلاثين ميلاً . وانظر فى الخبر هنا الأغانى طبع دار الكتب ٦٤/٩ . ويلاحظ أن الروايات مضطربة فيمن نفى الأحوص إلى دهلك هل هو عمر أو سليمان بن عبد الملك كما فى الأغانى ٢٤٦/٤ ، ووفقنا بينهما معتمدين فى ذلك على شعر الأحوص نفسه ، فجعلنا لسليمان أمراً بالجلد وجعلنا النفى لعمر بن عبد العزيز .
(٦) أغانى ٦٥/٩ .
(٧) الوصائل : جمع وصيلة وهى ما يوصل به الشىء.

وكيف ترى للعيش طِيباً ولذة … وخالُك أمسى مُوثَقاً فى الحبائلِ(١)
وما طمع الحزمىُّ فى الجاه قبلها … إلى أحدٍ من آل مروان عادلِ
وشَىَ وأطاعوه بنا وأعانــــه … على أمرنا من ليس عنا بغافلِ

وتحوَّل فى بقية القصيدة يهجو ابن حزم ، ويعلن أنه رجا منه الصلح . حتى إذا بلغ منه ما يريد التفت إلى الشامتين به ، يعلن أن مثل هذه النكبة لا تفلّ من قوته وعزيمته . وهذه معان فيها شىء من القوة والصبر على البلاء الذى نزل به ، ولكن بجانبها أبيات وأشعار أخرى فيها تخاذل وتضرع إلى عمر أن ينقض ما أبرم فيه ، كأن يقول(٢):

هل انت أميرَ المؤمنين فإننى … بودّك من ودِّ العباد لقانعُ
متمِّمُ أجرٍ قد مضى وصنيعةٍ … لكم عندنا أو ما تُعَدُّ الصنائعُ
فكم من عدوٍّ سائلٍ ذى كَشَاحَةٍ … ومنتظرٍ بالغيب ما أنت صانعُ

ولم يغنه مثل هذا التضرع عند عمر ، ولا ما أرسل إليه من أشعار أخرى ، وهى كلها تنحو هذا النحو من التوسل والتزلف بالرحم والقرابة ، واستمع إليه يقول فى قصيدة أخرى(٣) :

ألا صِلةُ الأرحام أدنى إلى التُّقَى … وأظهرُ فى أَكْفائه لو تكرَّما
فما ترك الصُّنْعُ الذى قد صنعتَه … ولا الغيظُ منى ليس جِلْداً وأَعْظُما
وكنا ذوى قُرْبَى لديك فأصبحتْ … قرابتُنا ثَدْياً أجَدَّ مُصَرَّما(٤)
وكنتَ وما أملتُ منك كبارقٍ … لَوَى قَطْرَه من بعد ما كان غَمَّا
وقد كنتَ أرجى الناس عندى مودةً … ليالىَ كان الظنُّ غَيْباً مُرجَّما
أعدّك حِرْزاً إن جنيتُ ظُلامةً … ومالاً ثريًّا حين أحملُ مَغْرما
تدارَكْ بِعُتْبَى عاتباً ذا قرابةٍ … طوى الغيظَ لم يفتحْ بسخطٍ له فما

ولم ينفعه ذلك شيئاً ، ولم يخل سبيله عمر . ويقال إن رجالاً من الأنصار أتوا

(١) يشير إلى رحم بينهما .
(٢) أغانى ٩/٦٦ .
(٣) أغانى ٤/٢٤٩ ، وقد ذكر أبو الفرج سبباً آخر للقصيدة .
(٤) الثدى الأجد : اليابس لا غذاء فيه . والمصرم : منقطع اللبن .

عمر فكلموه فيه ، وسألوه أن يعفو عنه ، فلم يقبل شفاعتهم ، وقال والله لا أرده ما كان لى سلطان[١]. فمكث فى منفاه بقية ولاية عمر وصدراً من ولاية يزيد ابن عبد الملك ، إذ كانت عنده جارية مغنية من صواحب الأحوص القديمات فى المدينة ، وهى حَبابة ، فأرسل إليها الأحوص بشعر يمدح فيه يزيد ، وتوسل إليها أن تغنيه به ، حتى يعفو عنه ، فصنعت ، وغنَّته هذا الصوت :

أيهذا المخبِّرى عن يزيدٍ بصلاحٍ فِداك أهلى ومالى
ما أبالى إذا يزيدُ بَقِى لى من تولَّتْ بهصُروفُ الليالى

وواضح أنه يعرّض فى البيت الثانى بعمر ، ويستبشر بولاية يزيد ، ولما سمع يزيد من جاريته الصوت قال : من يقول هذا ؟ قالت : الأحوص وهوّنت أمره ، وكلمته فى أمانه ، فأمّنه[٢]. وكتب بردِّه وحَمْله إليه ، وأنفذ إليه صلات سنية ، فلما قدم إليه أدناه وقرَّبه وأكرمه . ويروى الرواة أنه قال له يوماً فى مجلس حافل : والله لو لم تَمُتّ إلينا بحقّ ولا صِهْر ولا رَحِم إلا بقولك :

وإنى لأستحييكمُ أن يقــودنى إلى غيركم من سائر الناس مَطْمَعُ

لكفاك ذلك عندنا ولم يزل ينادمه وينافس به حتى مات[٣].

أصبح الأحوص شاعر يزيد المقرب منه ، وقد أخذ يردّ له جميله وحسن صنيعه بقصائد عذبة بديعة ، لم تبق منها إلا بقايا ، احتفظ بها كتاب الأغانى . وهى تدل على إخلاصه ليزيد الذى رد إليه حريته . ولم يكتف الأحوص بهذه المدائح وما قدَّم لمولاه ، فقد تعرض لخصومه يهجوهم ويُقذِع فى هجائهم ، وورَّطه هذا الهجاء فى بلاء كثير . روى صاحب الأغانى أن يزيد بن عبد الملك بعث ، حين قُتل يزيد ابن المهلب ، فى الشعراء ، يأمر بهجاء يزيد بن المهلب ، منهم الفرزدق وكثيِّر والأحوص . فقال الفرزدق : لقد امتدحت بنى المهلب بمدائح ما امتدحت بمثلها أحداً ، وإنه لقبيح بمثلى أن يكذب نفسه على كبر السن ، فليعفنى أمير المؤمنين ، فأعفاه ، وقال كثير : إنى أكره أن أعرِّض نفسى لشعراء أهل العراق إن هجوت

---

(١) أغانى ٤/٢٤٧ وما بعدها .
(٢) أغانى ٤/٢٤٩ .
(٣) أغانى ٩/٦٧ .

بنى المهلب . وأما الأحوص فإنه هجاهم . ثم حدث أن بعث به يزيد بن عبد الملك إلى الجراح الحكمى وهو بأذربيجان ، وكان بلغ الجراح هجاء الأحوص بنى المهلب ، فبعث إليه بزقّ من خمر ، فأُدْخِلَ منزل الأحوص ، ثم بعث إليه خَيْلا فدخلت منزله ، فصبوا الخمر على رأسه ، ثم أخرجوه على رؤوس الناس ، فأتوا به الجراح ، فأمر بحلق رأسه ولحيته ، وضَرْبه الحدَّ بين أوجه الرجال ، والأحوص يقول : ليس هكذا تُضْرَبُ الحدود ! فجعل الجرَّاح يقول : أجل ولكن لما تعلم . ثم كتب إلى يزيد بن عبد الملك يعتذر ، فأغضى له عليها(١) ، لما كان له من قوة العصبية هناك .

وعاد الأحوص إلى دمشق يجرّ أذياله . ويظهر أن حياته لم تطل بعد هذا الحادث كثيراً ، فنحن لا نجد له أخباراً مع من جاء بعد يزيد من الخلفاء ، ويقول الرواة إنه توفى بدمشق بعد مرض ألَمَّ به(٢).

٢

غزل الأحوص

ليس من شك فى أن شعر الأحوص يعتبر صورة طريفة للشعر والفن فى المدينة فى أثناء العصر الأموى . والغزل هو أهم خطوط هذه الصورة وأكثرها بهجة ورُواء . وطبيعى أن يبرع الأحوص فى الغزل لأنه كان متعة نفسه ومتعة أهل المدينة من حوله . وقد تحدثنا عن هذا الجانب قبلاً ، وصورنا كيف كان أهل المدينة أصحاب صبابة وغزل ، وكيف كانوا يشغفون بالأغانى التى تقصُّ خواطر العشاق والمحبين شغفاً شديداً ، حتى عُبَّادهم وزهادهم لم يبرءوا من هذا الشغف .

واستطاع الأحوص أن يمدهم فى هذا الجانب بفيض لا ينضب من حكاية العشق والصبابة بالمرأة والإفصاح عن لواعج الحب وما يصيب به أصحابه من عذاب ووَصَب ، بل قل ما يصيب به أصحابه من سقم ، كلما أرادوا أن يشتفوا منه زادوا سقماً على سقم ، ولعل ذلك ما جعله يردِّد(٣):

---

(١) أغانى ٤/٢٥٥ وما بعدها .

(٢) أنظر الأغانى ٤/٢٦٨ وخزانة الأدب للبغدادى ١/٢٣٢ .

(٣) أغانى ٤/٢٦٦ وما بعدها .

إذا قلتُ إنى مُشْتفٍ بلقائها　　　فحُمَّ التلاقى بيننا زادنى سُقْما

فاللقاء والقرب من صاحبته كل ذلك ينشر حوله جَوًّا مريض الأنفاس ، ولكنه مع ذلك جو فيه لذة لا توصف . وكان الأحوص يشعر بذلك شعوراً متأصلًا فى ذات نفسه ، ولعله من أجل ذلك كان يقول(١) :

إذا أنت لم تعشقْ ولم تَدْرِ ما الهوى　　　فكُنْ حَجَراً من يابسِ الصَّخْرِ جَلْمَدَا

فالحياة فى رأى الأحوص هى العشق ، ومن لم يعشق ينبغى ألا يَعُدَّ نفسه حيًّا ، لأن الشعور بالحياة ينقصه ، وما الحياة بدون عشق ؟ إنها تصبح ، فى رأيه ، ظلاماً خالصاً ، بل إنها تفقد الإنسان حسه ، وتجعله حيواناً شديد الغباوة ، بل حجراً من الصخر شديد القساوة :

الأحوص إذن من الشعراء الغزلين الذين يتعمق العشق أفئدتهم لأنهم يؤمنون بأنه نعيم الدنيا إن خلت من أشعته انطفأت فيها بهجتها الحقيقية ، وأطبق الظلام من كل جانب . ليست الحياة فى رأى الأحوص شيئاً مذكوراً إن هى خلت من العشق ، ولقد كان يقول ذلك فى إيمان عميق ، ولذلك كان يعلن دائماً أنه لن ينسى حبه حتى يوم الحشر يوم تُبْلَى السَّرائر(٢) :

ستَبْقى لها فى مُضْمَرَ القلب والحَشَا　　　سَرِيرةُ حُبٍّ يوم تُبْلَى السَّرائرُ

حبه إذن لن ينتهى بموته ، بل سيحشر معه ، ولن ينساه فى هذا اليوم يوم الروع والفزع الأكبر ! واستمع إلى هذا البيت الذى يصور حقيقة العاشق وما يعتريه من كرْب الوجوم حين يلقى صاحبته(٣) :

فما هو إلا أنْ أراها فُجَاءةً　　　فأُبْهَتَ حتى ما أكادُ أجيبُ

فهو يعبِّر تعبيراً دقيقاً عن لحظة المفاجأة وما يصحبها من حيرة فى نفس العاشق حتى لينعقد لسانه . ولعل أجمل ما نظمه فى هذا الباب تلك المقطوعات التى ناجى بها صاحبته أم جعفر ، وهى سيدة من بنى خَطْمة من الأوس ، وكان يكثر فيها من

---

(١) أغانى طبع بولاق ١٣/١٥٨ .

(٢) أغانى ٤/٢٤٨ وخزانة الأدب ١/٢٣٣ .

(٣) أغانى ٤/٢٤٧ .

التشبيب والغزل ، ومن شعره البديع فيها[١]:

لقد منعتْ معروفَها أُمُّ جعفرٍ وإنى إلى معروفها لفقيرُ
وقد أنكرتْ بعد اعترافٍ زيارتى وقد وَغِرَتْ فيها علىَّ صدورُ
أدورُ ولولا أن أرى أمَّ جعفرٍ بأبياتكم ما دُرْتُ حيث أدورُ
أزورُ البيوتَ اللاصقاتِ ببيتها وقلبى إلى البيتِ الذى لا أزور
وما كنت زوّاراً ولكنَّ ذا الهوى إذا لم يُزُرْ لا بد أن سيزور
أزور على أن لست أنفكُّ كلما أتيت عدوًّا بالبنان يشيرُ

وهو يستهل هذه القطعة بأن أم جعفر تتدلل عليه وتتمنع ، ويقول الرواة إن أخاها « أيمن » كان يتوعده ويتهدده ، وإنه استعدى عليه والى المدينة فى خبر طويل ذكره صاحب الأغانى[٢]. ولعل ذلك ما جعل الأحوص يتعلق بها ويشتد تعلقه ، فيضع فيها شعراً كثيراً ، إذ أحس فى حبها شيئاً من الحرمان ، وكان يحبها من أعماق نفسه ، ولم يستطع لقاءها فاشتعل قلبه حبًّا . وزاده اشتعالاً أنه كان لا يجد سبيلاً إلى رؤيتها ، فكان يزور البيوت اللاصقات ببيتها ، وكان يكثر من الدوران حول دارها ، لعله يشفى ما به من سقم وعشق ، ولكن أنّى له الشفاء ، وأيمن يبادره العداء ، وتبادره هى بالجفاء ، بل بالتنكر والاستخفاء . ولقد تجالد يوماً هو وأيمن بسببها فأصلاه سياطاً حامية[٣] ، وكان ذلك سبباً — على ما يظهر — فى أنه ابتعد عن الدوران حول بيتها ، وقد ذهب يعبِّر عن ذلك فى تذلل لها وضراعة ، يقول[٤] :

وإنى لآتى البيْتَ ما إن أحبُّه وأُكثر هَجْرَ البيت وهْو حبيبُ
وأُغضى على أشياءَ منكم تسوءنى وأُدْعَى إلى ما سَرَّكم فأُجيبُ
أبثُّكِ ما ألقى وفى النفس حاجةٌ لها بين جِلْدى والعظامِ دَبيبُ
لك اللهُ إنى واصلٌ ما وصَلْتِنِى ومُثْنٍ بما أوليتِنِى ومُثيبُ
وآخذ ما أعطيتِ عفواً وإننى لأَزْوَرُ عما تكرهين هَيوب
فلا تتركى نفسى شَعاعاً فإنها من الحزن قد كادت عليك تذوبُ

---

(١) أغانى طبع دار الكتب ٦/٢٥٥ .
(٢) أغانى ٦/٢٥٤ .
(٣) أغانى ٦/٢٥٤ .
(٤) أغانى ٦/٢٥٧ .

فقد تعوّد أن يهجر بيتها ، أو بعبارة أدق ، البيوت اللاصقات ببيتها ، عوّده ذلك أيمن وسياطه ، ومع ذلك فهو لا يزال يذكرها ، ويغضى على ما تصنعه هى وما يصنعه أيمن ، رجاء أن تمنّ عليه بلقاء أو نظرة . وكانت امرأة عفيفة وسيدة شريفة ، وكان ذلك حريًّا أن يدفع الأحوص عنها ، ولكنه استمر فى غزله واستمر يطلب إليها كما نرى هنا أن تصله وأن تعطيه ولو عفواً ، وما كانت تعطيه شيئاً ، بل لقد جعلته يوماً يشهد أمام الناس أنه لا يعرفها . روى صاحب الأغانى أنه لما أكثر الأحوص من ذكرها جاءت منتقبة ، فوقفت عليه فى مجلس قومه ، وهو لا يعرفها فقالت له : اقضِ ثمن الغنم التى ابتعتها منى ، فقال : ما ابتعت منك شيئاً ، فأظهرت كتاباً قد وضعته عليه ، وبكتْ وشكت حاجة وضُرًّا وفاقة ، وقالت : يا قوم كلّموه ، فلامه قومه ، وقالوا اقضِ المرأة حقها ، فجعل يحلف أنه ما رآها قط ولا يعرفها ، فكشفت وجهها وقالتْ ويحك ! أما تعرفنى فجعل يحلف مجتهداً أنه ما يعرفها ولا رآها قط ، حتى إذا استفاض قولها وقوله ، واجتمع الناس وكثروا وسمعوا ما دار ، وكثر لغطهم وأقوالهم ، قامت ، ثم قالت : أيها الناس ، اسكنوا .. ثم أقبلت عليه ، وقالت : يا عدو الله صدقت ! والله ما لى عليك حق ولا تعرفنى ، وقد حلفت على ذلك ، وأنت صادق ، وأنا أم جعفر ، وأنت تقول : قلت لأم جعفر وقالت لى أم جعفر فى شعرك ، فخجل الأحوص وانكسر عند ذلك[١].

وأكبر الظن أن الأحوص لم يكن محظوظاً عند حرائر المدينة ، لا عند أم جعفر ولا عند غيرها ، ولعل ذلك ما جعله يعرض عن الحرائر جملة فيقول[٢] :

ثِنْتان لا أدنو لِوصْلهما ... عِرْسُ الخليل وجارةُ الجَنْبِ[٣]
أما الخليلُ فلست فاجعَه ... والجارُ أوصانى به رَبِّى

ولسنا ندرى أكان يقول الأحوص ذلك عن إخلاص ونية صادقة ، أو كان يقوله عن غير إخلاص .

ولكن إذا كان الأحوص مكروهاً أو منبوذاً عند حرائر المدينة فقد كان محبوباً

---

(١) انظر أغانى ٦/٢٥٨.

(٢) أغانى ٤/٢٦٤ .

(٣) جار الجنب : اللاصق بك إلى جنبك .

عند الإماء من مغنيات المدينة اللائى يغنين فى نواديها الموسيقية ، وكان ذا حُظْوة ممتازة فى دار جميلة ، إذ كان هو الشاعر الذى يعطى هذه الدار ما تغنى فيه من شعر وغزل . وليس ذلك فقط ، بل لقد كان يعشق ما فى الدار من مغنيات ويتخذ منهن خدينات له ، وكأنه كان عاشقاً للجمال أين حلّ أو تصوَّر ، لا يهمه أن تكون المرأة التى بها عربية ، إنما يهمه أن تكون جميلة بارعة الحسن ، ولا يعنيه بعد ذلك شىء منها ولاَ من تاريخها وأصلها . وهنا يفترق الأحوص فى غزله من شعراء الحجاز الذين نعرفهم ، سواء شعراء البادية أو شعراء الحاضرة ، أما شعراء البادية فقد كانوا يتغزلون بنساء بدويات من مثل عَزّة وبثينة وليلى ، وأما شعراء الحاضرة فقد كانوا يتغزلون بالنساء الجميلات من الحاضرة ، وكانوا يختارونهن من العرب ، وقلما نجد شاعراً يتغنى بقينة أو أمة ، ولنضرب لذلك مثلاً عمر بن أبى ربيعة زعيم الغزلين فى مكة ، فإنه كان يتغزل فى الحواج من العربيات ، وكانت صواحبه اللائى أكثر من الغزل فيهن قرشيات من مكة ، فالثريّا ونُعْم وزينب كلهن قرشيات مكيات ، ولكن ارجع إلى ما روى صاحب الأغانى للأحوص من غزل فستجد أكثره فى هؤلاء المغنيات من الإماء الأجنبيات اللائى كن يغنين فى المدينة من أمثال جميلة والذّلْفاء وسلاّمة وعَقِيلة العقيقية .

والأحوص حين يتغزل فى هؤلاء المغنيات لا يتغزل عابثاً على نحو ما يتغزل عمر بن أبى ربيعة ، ولكنه يتغزل فى صدق ، فهو يحبهن حبًّا عميقاً يتغلغل إلى ذات نفسه . ويظهر أنه تعلق أول الأمر بجميلة ، إذ يقول صاحب الأغانى إنه كان معجباً بها ، وكان لا يكاد يفارق منزلها إذا جلست[١] ، ومن شعره فيها وقد غنت فيه[٢] :

وإن يَقُلِ الناسُ لى عاشقٌ ... فأين الذى هو لم يَعشَقِ
ولم يَبكِ نُؤْيــاً على عَبْرةٍ ... بـــداء الصّبابةِ والمَعْلَقِ[٣]

فهو يعلن عشقه لجميلة وأنه مريض منها بداء الصبابة ، وجميلة تعجب به وبشعره وتغنيه فيه ، ويغنيها فيه معبد[٤] وغيره من المغنين والمغنيات الذين يغنون فى دارها . ومن شعره فيها أيضاً قوله[٥] :

---

(١) أغانى طبع دار الكتب ٨/٢٣١ .
(٢) المصدر نفسه ٨/١٨٤
(٣) المعلق : المحبه .
(٤) المصدر نفسه ٨/٢٠١ .
(٥) أغانى ٨/٢٣٣ .

وبالقفر دارٌ من جميلةَ هَيّجَتْ سوالفَ حُبٍّ فى فؤادك مُنْصِبِ[١]
ترى العينُ ما تهوَى وفيها زيادةٌ من الحسنِ إذ تبدو ومَلْهًى لمُلْعِبِ

وقد قال يونس : ما لها صوت أحسن من صوتها فى هذا الشعر ، وقال : أنا أغنيه فتعجبنى نفسى ، ويدخلنى شىء لا أعرفه من النخوة والتيه[٢] وهذا نفسه ما كانت تشعر به جميلة صاحبة الصوت وصانعته ، وهل من ريب فى أنها كانت تشعر فى أثناء أدائها له بمودتها للأحوص ، كما كانت تشعر بشىء من التيه ، فهذا أهم شعراء المدينة يتعلق بها وينظم فيها كما ينظم ابن أبى ربيعة بمكة فى الشريفات من النساء والفتيات الغَزِلات .

ولم يتعلق الأحوص فى دار جميلة بصاحبة الدار وحدها ، بل لقد تعلق بكثير من المغنيات عندها . وقد تحدثنا فى غير هذا الموضع عن كثرة من كان عندها من الإماء المغنيات ، وكان الأحوص يتنقل بينهن جميعاً ، يتغزل فيهن ، ويعلن عشقه لهذه اليومَ ، ولتلك غداً ، واستقر عشقه ، على ما يظهر عند ثلاث ، هن : الذّلْفاء وعقيلة وسَلّامة ، وفى الذلفاء يقول[٣] :

إنما الذّلْفاءُ هَمِّى فلْيَدَعْنِى مَنْ يَلومُ
أحسنُ الناسِ جميعاً حين تمشى وتقومُ
حبّبَ الذّلْفاءَ عندى منطقٌ منها رَخِيمُ
أصِلُ الحَبْلَ لترضى وهْى للحَبْلِ صَرُوم
حبُّها فى القلب داءٌ مُسْتَكِنٌّ لا يَرِيمُ[٤]

وهكذا كان الأحوص يحب المغنية من المغنيات ، فيرى أنها كل همه فى الحياة ، وأنها أحسن الناس جميعاً حين تمشى ، وحين تقوم ، وحين تنطق ، وحين تغنى . ونحن لا نرتاب فى أن دار جميلة أتاحت له أكبر حظ ممكن من الاتصال بهؤلاء النساء ، يبتغى عندهن ما يملأ حسه ونفسه من متعة بالجمال والحسن ، إذ كان هؤلاء المغنيات من أجناس مختلفة . وإنَّ تغنى الأحوص بهن ليكشف عن ناحية

---

(١) منصب : متعب .
(٢) أغانى ٨/٢٣٣ .
(٣) أغانى ٨/٢٠٠ .
(٤) يريم : يبرح .

مهمة فى نفسه ، وهى أنه كان أكثر شعراء المدينة أو قل شعراء الحواضر الحجازية شجاعة فى الإفصاح عن دخائله وما يُطْوَى فى فؤاده ، وهو لذلك يتغزل فى هؤلاء الإماء ، ولعله كان يفضلهن على النساء الحرائر ، فذهب يفصح عن ذلك فى حرية وصراحة .

وأكبر الظن أن الأحوص اندفع فى ذلك أيضاً بعامل رغباته فى الشذوذ على أذواق معاصريه ، فإذا هو يختار لغزله هذا الموضوع الجديد من الإماء والقيان ، وهو يختاره محبًّا له مؤثراً ، إذ كان يجد فى هؤلاء القيان والإماء من الصبابة والهوى والغزل ما لا يجده فى النساء الحرائر المتحفظات ، وكان يتغزل فيهن كما يريد ويهوى غزلاً عفيفاً وغزلاً صريحاً ، لا حرج عليه فى ذلك ، ولا لائم يلومه ، لا أيمن ولا غير أيمن ، واستمع إليه يقول فى عَقِيلة العقيقية[١] :

يا للرِّجال لوَجْدِك المتجدِّدِ ... ولما تُؤَمِّل من عَقِيلةَ فى غَدِ
ترجو مواعِدَ ، بَعْثُ آدمَ دونَها ... كانت خبَالاً للفؤاد المُقْصَدِ[٢]
هل تَذْكرين عَقِيلُ أو أنساكِهِ ... بَعْدى تَقَلُّبُ ذا الزمانِ المُفْسِدِ
يومى ويومَك بالعَقِيق إذِ الهوى ... منّا جميعُ الشملِ لم يتبدّدِ
لى ليلتان فليـــلةٌ معسولةٌ ... أَلْقى الحبيبَ بها بنجم الأسْعُدِ
ومريحةٌ همِّى عـــلىّ كأَنّنى ... حتى الصباحِ معلّق بالفَرْقَد[٣]

وليس غريباً أن يكون الأحوص صريحاً فى غزله على هذا النحو فعهدنا به أنه لا يخفى شيئاً فى دخيلة نفسه .

وأهم مغنية تعلق بها الأحوص وشُغف بها حُبًّا سَلَّامة القَسِّ ، وقد فُتن بها الناس على ما يظهر فى المدينة ، بل فى مكة أيضاً حيث هام بها عبد الرحمن بن أبى عمَّار الجُشَمىّ الذى لُقِّبَ بالقَسّ لعبادته ، ولذلك سميت سلامة القَسِّ ، وله فيها أشعار طريفة[٤]. وقد تحدثنا عنها فى فصل الغناء ، وكانت إحدى الجوارى اللائى تعلق بهن

---

(١) أغانى ٢٥٩/٤ .
(٢) المقصد : المجروح بالسهام
(٣) تريح همه عليه : تسوقه إليه .
(٤) أغانى ٣٣٤/٨ .

الأحوص ، بل اللائى أحبهن حبًّا مفرطاً ، وكانت تبادله حبًّا بحب ، وفيها يقول(١):

أسَلَامُ هل لمتيَّمٍ تَنْوِيلُ ... أم هل صرَمْتِ وغال وُدَّكِ غُولُ
لا تصرفى عنِّى دلالَكِ إنه ... حَسنٌ لدىَّ وإن بخلتِ جميلُ
أزعمتِ أَنَّ صبابتى أكذوبةٌ ... يوماً وأن زيارتى تعليلُ

وفى البيت الأخير ما يدل على أنها كانت تقول له إنك محب غير صادق فأنت رجلٍ تحب كل من فى الدار ، دار جميلة ، تحب صاحبة الدار وقد أحببت الذّلْفاء وعَقيلة العقيقية ، وأحببت غيرهما ، فأنت لست محبًّا صادقاً ولا صاحب صبابة صادقة ، إنما أنت رجل غَزِلُ تغازل النساء والإماء جميعاً ، لا تفرق بين واحدة وأخرى . ويظهر أنها كانت تكثر عليه من الدلّ ، فقلما أتاحت له ما يريد من بهجة اللقاء ، ومن أجل ذلك كان يكثر من توددها واستعطافها والتذلل لها كأن يقول(٢):

أسَلَامُ إنكِ قد ملكْتِ فَأَسْجِحِى ... قد يملك الحرُّ الكريم فيُسْجِحُ(٣)
مُنِّى على عانٍ أطلتِ عَناءه ... فى الغُلِّ عندك والعُناةُ تُسرَّحُ(٤)
وإذا شكوتُ إلى سَلَامة حبَّها ... قالت أجِدٌّ منك ذا أَم تمزح

فهى دائماً تتشكك فى حبه ، وتتهمه بأنه إنما يريد اللعب والعبث ، بل لعله يريد المزاح وتزجية الفراغ ، ومن ثم كان يعلن لها دائماً فى شعره أنه لا يستطيع سلوا عنها ، بل إنه ليبلل يديها بدموعه ، واستمع إليه يقول(٥):

يا دِينُ(٦) قلبك منها لستَ ذاكرها ... إلا ترقرق ماءُ العين أو دَمَعَا
أدعو إلى هجرها قلبى فيتبعنى ... حتى إذا قلت هذا صادقٌ نزَعا
لا أستطيع نزوعاً عن محبتها ... أو يصنعَ الحبُّ بى فوق الذى صنعا
كم من دَنِىٍّ(٧) لها قد صرتُ أتبعه ... ولو سَلا القلب عنها صار لى تَبَعا

---

(١) أغانى ٨/٣٣٧ .
(٢) المصدر نفسه ٨/٣٣٨
(٣) الإسجاح : حسن العفو .
(٤) عان : مقيد بالأغلال .
(٥) أغانى ٤/٢٩٩ وما بعدها .
(٦) الدين هنا : الداء
(٧) الدنى : التافه الوضيع .

وزادنى كلفاً فى الحب أنْ منعتْ　　　وحَبٌّ شىءٍ إلى الإنسان ما مُنِعا

وهكذا كانت سلامة تكثر من التمنع على الأحوص ، فيزداد شغفه بها وتعلقه ، ويكثر من شعره فيها ، وكانت تغنى بنفسها هذا الشعر فتحسن فيه إحساناً شديداً . وقد روى صاحب الأغانى أنه هو وابن قيس الرقيات الشاعر المكى اجتمعا عندها ، فغنتهما على البديهة بشعر لهما جميعاً فيها ، فأحسنت فى شعر الأحوص بأكثر مما أحسنت فى شعر ابن قيس الرقيات ، فقال ابن قيس الرقيات : أحسنت يا سلامة والله ، وأظنك عاشقة للأحوص ، فقال له الأحوص : ما الذى أخرجك إلى هذا ؟ قال : حسن غنائها بشعرك ، فلولا أن لك فى قلبها محبة مفرطة ما جاء صوتها هكذا حسناً على هذه البديهة ، فقال له الأحوص : على قدر حسن شعرى على شعرك هكذا حسُن الغناء به ، وما هذا منك إلا حسد ، فقالت سلامة : لولا أن الدخول بينكما يوجب بِغضة لحكمت بينكما ، فقال الأحوص : أنت من ذلك آمنة ، فقال ابن قيس الرقيات : كلا ! قد أمنت أن تكون الحكومة عليك ، فلذلك سبقت بالأمان لها (١)

وطبيعى أن تحسن سلامة فى غنائها بشعر الأحوص لأنها من جهة تغنى فى شعر عاشق لها ، ومن جهة أخرى تريد أن تثبت تفوقها فى غنائها بشعره على زميلاتها الأخريات اللائى يتغزل بهن ويتغنَّيْن فى غزله . وحدث أن اشترى يزيد بن عبد الملك سَلَّامة فازداد شغف الأحوص بها وأخذ يرسل لها بأشعار ، ويروى الرواة أنها كانت تغنى فيها يزيد مولاها ، ومما غنته فيه(٢) :

عاودَ القلبَ من سَلَامَةَ نَصْبُ　　　فلعينىَّ من جَوَى الحبِّ غَرْبُ

ولقد قلتُ أيها القلبُ ذو الشو　　　قِ الذى لا يحبُّ حُبَّك حِبُّ

إنه قد دنا فِراقُ سُلَيْمى　　　وغدا مطلبٌ عن الوصل صَعب

فهو يبكى سلامة على البعد ، وهو يحس لها بين جوانحه بحب لا يماثله حب ، وهو يشعر أنها فرَّت من يده هذه المرة ، ولن يستطيع لقاء لها ولا وصلاً . والطريف

---

(١) أغانى ٨/ ٣٣٧ .　　(٢) أغانى ٨/ ٣٤٠ . والنصب : العناء . والغرب : الدمع .

أنه يعلن هنا أنه لا يوجد محب يحب كما يحب هو ، فهو إذا أحب ازداد كلفه وولعه وبالغ فى حبه إلى أقصى غاية ممكنة ، فهو يحب جميلة ، ويحب أم جعفر ، ويحب الذلفاء ، ويحب عقيلة،ويحب سلامة ، ومن يدرى لعله كان يحب أخريات وراءهن لم تسجلهن أشعاره فى كتاب الأغانى . ونحن نظن أنه كان يحب حبابة أيضاً التى اشتراها يزيد هى الأخرى من المدينة ، وقد سَعَت قبل صاحبته سلامة إلى إصدار العفو عنه من سيدها يزيد كما مر آنفاً . غير أن سلامة – على ما يظهر – هى التى شغفته حبًّا ، فقد أكثر من الشعر فيها ، وأكثر من تدلهه ، كما أكثر من تحسره على فراقها ، ومن أجمل ما يُرْوَى له فى بيان لهفته عليها بعد خروجها من المدينة قوله[١] :

ضوءُ نارٍ بـــدا لعينك أم شبَّـ ... ـتْ بذى الأَثْلِ[٢] من سلامةَ نارُ
تلك بين الرياض والأَثْل والبَا ... ناتِ منّا ومن سلامةَ دار
وكذاك الزمانُ يذهب بالنّا ... سِ وتبقى الرسومُ والآثارُ

وعلى هذا النحو لم يبق للأحوص من سلامة ما يتحسسه ويرفع الطرف فيه ويخفضه سوى الرسوم والآثار ، فهى كل ما بقى له .

وأكبر الظن أنه انطبعت فى أنفسنا الآن صورة غزل الأحوص فهو يتغزل فى الإماء والجوارى من مغنيات المدينة ، وهو يحسن فى ذلك ، ويأتى بالطريف البديع الذى يعجب معاصريه ، ويروقهم ، وقد تخصص بهذا الموضوع وأشاعه . وإذن فالغزل بالإماء والجوارى ليس ظاهرة عباسية محدثة فى الشعر العباسى عند بشار وأصحابه كما ظن بعض المعاصرين ، وإنما هو ظاهرة أقدم من ذلك ، هو ظاهرة أموية قبل أن يكون ظاهرة عباسية ، أو قل هو ظاهرة حجازية قبل أن يكون ظاهرة عراقية .

---

(١) أغانى ٩/١٣٢ .

(٢) موضع قرب المدينة .

٣

مدائح الأحوص وأهاجيه

من يقرن مدائح الأحوص فى بنى أمية إلى مدائح جرير والفرزدق والأخطل يشعر بفروق أساسية بين النوعين من المدائح ، فمدائح الأحوص أسهل وأقرب إلى اللغة المألوفة من مدائح الفرزدق وصاحبيه ، وهو من هذه الناحية يتميز تميزاً واضحاً.

ليست مدائح الأحوص فى بنى أمية مدائح طنانة ، وهو حتى إن استطاع أن يصنع بعض المدائح الطنانة ، فإنه لا يستطيع أن يعمِّم ذلك فى كل مدائحه ، إذ كثيراً ما تخرج بعض نماذجه فيها عن الصورة العراقية التى تعتمد على البناء الضخم ، إلى صورة حجازية متحضرة ، فيها أثر الغناء والموسيقى الجديدة . فالأحوص شاعر من نوع آخر غير الذى نعهده عند جرير والفرزدق والأخطل ، شاعر يعتمد فى حياته على أن يعيش فى دور الغناء بالمدينة ، وهو يصنع الشعر لهذه الدور من لغة مألوفة ، وقد تسرب ذلك إلى مدائحه ، فإن من يقرؤها يلاحظ أن لغتها قريبة إلى اللغة المألوفة . وهى ظاهرة يلاحظها كل من يقرأ شعر هذا العصر فى الحجاز ، ويقرنه إلى شعر العراق عند جرير والفرزدق وأمثالهما ، فهو أقرب لغةً وخواطر ومعانى إلى نفوس الناس . ولسنا أول من يلاحظ هذه الظاهرة على شعر الأحوص فقد لاحظها من قبل شاعر عاصره ، وهو الفضل بن العباس اللهبى ، إذ تعرض له يوماً ، وهو ينشد شعره ، ولامه بأنه لا يحسن استخدام الغريب فى الشعر[١] ، وفات الفضل أنّ عصر الغريب انتهى على الأقل عند الأحوص وغيره من الغزلين فى الحجاز ، وهو لم ينته عند الأحوص فى غزله فقط ، بل انتهى أيضاً فى ضروب شعره الأخرى من مديح وغير مديح ، واستمع إلى هذه الأبيات يقولها فى يزيد ابن عبد الملك[٢]:

كريمُ قريشٍ حينَ يُنْسَبُ والذى أقرّتْ له بالملك كَهْلاً وأَمْرَدَا

---

(١) أغانى (طبع بولاق) ٣/١٥ .

(٢) المصدر نفسه ٤/٢٥٠ .

وليس وإن أعطاك فى اليوم مانعاً إذا عدتَ من أضعافِ أضعافِه غدَا
أهان تِلادَ المال فى الحمد إنه إمامُ هُدًى يجرى على ما تعوّدا
تشرّف مجداً من أبيه وجَدّه وقد ورثا بُنْيانَ مجدٍ تشيَّدا

لم يكن الأحوص يستخدم اللغة الغريبة فى مدائحه ، بل كان يستخدم لغة عادية قريبة إلى لغة الغزل الذى يصنعه ، وكأنه كان يريد لهذه المدائح أن تشيع على ألسنة الناس فى عصره ، وأن تصبح شبيهة بهذا الغزل الذى يغنَّى فى دور اللهو والموسيقى بالمدينة ، حتى تذيع ، بل حتى تكون صالحة لأن يغنيها المغنون ، وكانوا يغنون فعلا مدائحه فى بنى أمية(١) .

ونحن نحسُّ فى الواقع عند الأحوص بتطور واسع يصيب قصيدة المديح ، فقد أخذ أصحابها فى الحجاز يحاولون أن يقتربوا فى لغتها من الناس حتى تصلح للغناء ، فتستقبلها آذان الجماهير كما تستقبل مقطوعات الغزل ، وهم من أجل ذلك يستخدمون فيها اللغة الشعبية نفسها التى يستخدمونها فى الغزل حتى يمكنوا لها فى نفوس الناس . واستمع إلى هذا الشعر يقوله الأحوص أيضاً فى يزيد بن عبد الملك(٢) :

من يكن سائلاً فإن يزيداً مَلِكٌ من عطائِهِ الإكثارُ
عمّ معروفُهُ فعزّ به الدّ ينُ وذلّت لمُلْكِه الكفار
وأقام الصِّراطَ فابتهج الحـــقّ منيراً كما أنار النهار

وليس من ريب فى أن هذا شعر خفيف على اللسان والأذن جميعاً ، وهو من أجل ذلك أقرب إلى ذوق من يستمعون إلى غزليات الأحوص وغيره من شعراء الحجاز ، وهو أيضاً أقرب إلى ذوق من يغنون فى أشعارهم من المغنين والمغنيات .

لم تكن قصيدة المديح عند الأحوص يراد بها أن تنشَد بين أيدى الخلفاء ، بل كان يراد بها أن تغنَّى فى سمرهم ، يغنِّى فيها المغنون والمغنيات عندهم ، كما يغنى فيها المغنون والمغنيات عند الشعب نفسه . ومن هنا كنا لا نعجب حين نجد هذه

---

(١) انظر الأغانى ١/٢٩٧ وكذلك ٤/٢٥١ .   (٢) أغانى ٤/٢٥١ .

القصائد تختلف فى لغتها عن لغة القصائد الأخرى عند جرير والفرزدق والأخطل ، فهؤلاء لم يصنعوا شعرهم وهم يفكرون أن يطلبوا إلى المغنين والمغنيات مثل حَبابة أو مَعْبد أن يغنّوا فيه فى أثناء سمر الخلفاء على نحو ما كان يطلب الأحوص[١] .

كانت قصيدة المديح عند الأحوص قصيدة غنائية بالمعنى الدقيق فهى قصيدة يراد بها أن تُصْحَبَ بالضرب على الآلات الموسيقية ولعل هذه الغاية عند الأحوص هى التى أعدت قصيدة المديح لتطور واسع فى موسيقاها ، فإن من يدرس موسيقى الأغانى وتطورها فى الحجاز يلاحظ أنها تعدلت ، وتجزأت ، كما لاحظنا فى غير هذا الموضع ، وقد أخذ ذلك يتسرب فيما بعد إلى قصيدة المديح وغيرها من الشعر التقليدى بحكم أن من كانوا يصنعونه كانوا يساهمون فى صنع الأغانى على نحو ما نلاحظ الآن عند الأحوص .

على كل حال كانت مدائح الأحوص تخالف – من بعض الوجوه – مدائح جرير والفرزدق فى لغتها ، وفى موسيقاها ، إذ كانت موسـيقاه أكثر صفاء بحكم اندماجه فى الأوساط الموسيقية بالمدينة ، وأعدَّه ذلك ، كما أعد غيره من أصحاب الأغانى ، أن يستخدموا فى شعرهم التقليدى الأوزان السهلة كالخفيف والرمل وما إلى ذلك ، بل لقد أخذوا يستخدمون الأوزان المجزأة والمعدلة . ولم يظهر أثر ذلك واضحاً فى العصر الأموى ولكنه ظهر فى وضوح فى أثناء العصر العباسى .

وإذا كانت مدائح الأحوص تخالف إلى حد ما مدائح جرير والفرزدق والأخطل فى لغتها وصفاء موسيقاها وما يَقْتَرِح أحياناً على نفسه من أوزان ينظم فيها ، فكذلك كانت أهاجيه تخالف أهاجيهم إذ لم تكن تعتمد على أيام العرب القديمة وحروبهم تَقُصّها على نحو ما نعرف فى نقائض جرير والفرزدق أو نقائض جرير والأخطل ، إنما كانت تعتمد على هجو الشخْص نفسه وتقبيحه بصورة تتصل به .

لم تكن قصيدة الهجاء عند الأحوص تستمد موضوعها من التاريخ ومن سيرة القبائل القديمة ، إنما كانت تستمد موضوعها من الشخص المهجو نفسه . ونحن نغلو حين نسميها قصيدة ، فلم يترك الأحوص فى الهجاء قصيدة بالمعنى المعروف إلا نادراً ، إنما كثرة ما تركه مقطوعات قصيرة وأبيات مفردة .

(١) أغانى ٤/٢٥٠ .

وهجاء الأحوص من هذه الناحية شبيه بهجاء العصر العباسى الذى نقرؤه عند بشار وحماد عَجْرد مثلاً ، فهو لا يستعين على هجاء خصمه بقصيدة محبوكة الأطراف ، وإنما يعمد إلى البيت والبيتين أو الأبيات القليلة فيهجوه بها هجاء مقذعاً .

ولعل فى هذا النوع من الهجاء ما يلفتنا إلى ما حدث فى شعر الحجاز وأنه كان شعراً شعبيًّا فى جميع جوانبه ، فالشاعر حين يصنع غزلاً لا يعمد إلى القصائد الطويلة التى لا يأتى الإنسان إلى آخرها حتى ينسى أولها . وهو كذلك حين يهجو لا يهجو بقصيدة طويلة قلما تحفظ ، إنما يهجو ببيت أو بيتين أو أبيات قليلة ، حتى تحفظ ، وتدور على جميع الألسنة .

ولم يتعلق الأحوص بهجاء شخص فى المدينة كهجاء ابن حزم الذى جلده ونفاه إلى دهلك ، ولكن يكاد هجاؤه فيه يعد مفقوداً ، لولا بعض أبيات رواها صاحب الأغانى ، وربما كان من أسباب ذلك أن المغنين أبوا أن يغنوا للأحوص فى أهاجيه فيه ؛ لأنه كان يلى المدينة ، وكان قاسياً فى ولايته لها ، شديداً حازماً ، فخافوه ، ومن شعره فيه(١):

أقول وأبصرتُ ابنَ حزمٍ ابنَ فَرْتَنَى ... وقوفاً له بالمَأْزِمَيْنِ(٢) القبائلُ
تُرى فَرْتَنَى كانت بما بلغ ابنُها ... مُصدِّقةً لو قال ذلك قائل

والفرتنى الأمة بنت الأمة . وإن فيما بقى من أهاجيه فى غير ابن حزم ما يدل على شدة لذعه ، وبعد كيده فى الهجاء ؛ فمن ذلك أنه لما تعرض له الفضل ابن العباس اللهبى يقول إنه لا يحسن الغريب ، فكَّر ماذا يردُّ عليه ، ثم ذكر أن جده أبو لهب وأن جدته حمَّالة الحطب فى جيدها حَبْلٌ من مَسَد ، فقال توًّا(٣):

ما ذات حَبْلٍ يراها الناس كلهمُ ... وَسْطَ الجحيم ولا تخفى على أحدِ
كلُّ الحبال حبال الناس من شَعَرٍ ... وحَبْلُها وسْط أهلِ النار من مَسَدِ

وعلى هذا النحو كان الأحوص يبلغ أحياناً بأبياته القليلة فى الهجاء مبلغ أصحاب

---

(١) أغانى ٤/٢٣٧ .
(٢) المأزمان : جبلا مكة .
(٣) أغانى ١٥/٣ .

القصائد الطويلة ، قصائد النقائض . ويقول الرواة إنه هجا رجلاً من الأنصار ، فاستعدى عليه الفرزدق يهجوه له ، ويرد عليه هجاءه ، فأبى ، وكذلك أبى جرير ؛ لما كانا يعلمان من مقدرته فى الشعر والهجاء[١].

وكما يمتاز هجاء الأحوص بقصره يمتاز أيضاً بقرب لغته وأنه أدنى إلى اللغة العادية ، فتلك صفة عامة فى شعره ، وكان يعمّمها فى هجائه ، حتى يبلغ ما يريد من العنت بمن يهجوه ، والتشهير به .

٤

منزلة الأحوص بين شعراء عصره

إذا أخذنا ننظر فى الشعراء الذين عاصروا الأحوص وجدناهم ينقسمون قسمين كبيرين : أصحاب الشعر التقليدى من مديح وهجاء ، وكان موطنهم العراق ، وأصحاب الأغانى من غزل ونسيب وما يتصل بهما ، وكان موطنهم الحجاز . وإذا حاولنا أن نوازن بين القسمين وجدنا من الناحية التاريخية ، كما قدمنا فى غير هذا الموضع ، أن أصحاب الغزل يأخذون فى التفوق فى أثناء هذا العصر على أصحاب الشعر التقليدى ، بحيث لا نصل إلى أواخر العصر ، حتى يتم لهم التفوق نهائيًّا .

ولكن هل يتيح لنا ذلك أن نضع أصحاب الأغانى جميعاً من مثل الأحوص فى منزلة تعلو منزلة أصحاب الشعر التقليدى ؟ وبعبارة أخرى ، هل يتيح لنا ذلك إن حاولنا أن نضع طبقات للشعر فى العصر الأموى أن نجعل فى أعلى هذه الطبقات أصحاب الأغانى ؟

إن من يرجع إلى طبقات ابن سلام التى وضعها لشعراء هذا العصر والتى يسميها طبقات الإسلاميين[٢] يجده يضع فى الطبقة الأولى من هذه الطبقات جريراً والفرزدق والأخطل . ومعنى ذلك أنه هو وغيره من اللغويين فى عصره كانوا يرون

---

(١) أغانى ٤/٢٦٣ .

(٢) ابن سلام ص ٧٥ .

تقديم أصحاب الشعر التقليدى على أصحاب الغزل وأغانيه . ونحن نخالفهم فى هذا الحكم من جميع الوجوه ، بل لعلنا نعكسه عكساً تاماً ، فنذهب إلى قصر الطبقة الأولى على شعراء الحجاز من أصحاب الغزل ، فهؤلاء هم الشعراء الممتازون حقًّا الذين كانوا يعبِّرون أولاً عن روح عصرهم وحياتهم التى يحيونها ، ثم هم الذين جددوا فى موسيقى الشعر العربى ، وفى لغته ، وأيضاً فإن شعرهم كاد أن يكون شعراً شعبيًّا يجرى على جميع الأفواه والألسنة .

نحن إذن نخالف ابن سلام وغيره من اللغويين فى تقديم أصحاب الشعر التقليدى على أصحاب الغزل وأغانيه ، ولعلهم إنما اضطروا إلى ذلك لأنهم كانوا لغويين ولم يكونوا يبحثون فى الشعر عن القيم الفنية من حيث هى ، وإنما كانوا يبحثون عن الشاهد والمثل ، وكانوا يجدون فى نماذج الشعر التقليدى مدداً لا ينضب من الأمثال والشواهد على اللغة وغريبها فى اللفظ والتعبير ، فانساقوا من ذلك إلى تفضيل أصحاب الشعر التقليدى ، ووضعوا أشهرهم فى الطبقة الأولى من الشعر الإسلامى .

وينبغى ألا ننساق معهم فى هذا التفضيل لأن الحاجة اللغوية لا تهمنا ، وإنما تهمنا الحاجة الفنية من حيث هى . ومن أجل ذلك كنا نخص الطبقة الأولى من الشعر الإسلامى أو الأموى بأهم من نظموا فى الأغانى من أهل الحجاز ، ولا نصنع صنيع ابن سلام حين أخرهم فى طبقاته ، وهل تدرى أين وضعهم ؟ لقد وضعهم – أو قل وضع كثرتهم – فى طبقة متأخرة هى الطبقة السادسة[١] بين طبقاته العشر ، ولم يقدم أحداً منهم سوى كُثَيِّر فقد وضعه فى الطبقة الثانية[٢].

ونحن لا نستطيع أيضاً أن نجعل كثيِّراً خير شعراء الحجاز من الغزلين ، أو قل أصحاب الأغانى ، ولعل ابن سلام ، إنما قدمه ، لأنه بدوى يجد عنده من غريب اللغة ما لا يجده عند شعراء الحواضر أمثال الأحوص وابن أبى ربيعة .

وقد وضع ابن سلام الأحوص فى الطبقة السادسة وقرنه بابن قيس الرقيات وجميل ونُصَيْب ، وتأخَّر به فى مكانه بعد ابن قيس ونُصَيْب ، ويظهر أنه تأثر فى تأخره به أيضاً مسائل لغوية ، لأنه كان عالماً لغويًّا ، ولم يكن يهمه أن يقدم

(١) ابن سلام ص ١٣٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٢١ .

الشاعر من جهة معنوية أو وجهة موسيقية . وعلل أبو الفرج لتأخر ابن سلام به تعليلاً آخر ، فقال : « والأحوص لولا ما وضع به نفسه من دنىء الأخلاق والأفعال أشد تقدماً من ابن قيس ونُصَيْب عند جماعة أهل الحجاز وأكثر الرواة[١]» . وكأن أبا الفرج لم يقبل حكم ابن سلام على الأحوص ، فهو فى رأيه ينبغى أن يتقدم كل زملائه الذين ذكرهم ابن سلام فى الطبقة السادسة .

ولعل فى ذلك ما يدل على أن خلق الأحوص شوَّهه عند بعض النقاد وإنه لينبغى أن نفرق دائماً بين خلق الشاعر وشعره ، لأن الشعراء ليس من وظيفتهم أن يحققوا مثلنا الأخلاقية العليا فى الحياة ، فالشعر شىء ، والخلق شىء آخر .

الأحوص إذن ينبغى أن يوضَع فى المكان الأول من شعراء الطبقة السادسة التى خص بها ابن سلام شعراء الحجاز ، ولكن هل يتأخر عن كُثيِّر أو يتقدم عليه ، أما ابن سلام فقدم كُثيراً على شعراء الحجاز عامة ، وهو حكمُ بنىَ على أسباب لغوية فيما نظن ، أما إذا تركنا اللغة ولم نحتكم إلى ذوق اللغويين فإننا نقدِّم على كثيِّر عمر بن أبى ربيعة شاعر مكة ، كما نقدم عليه الأحوص شاعر المدينة من حيث ما أنتجاه لهذا العصر من الغزل الذى أمدّا به المغنين والمغنيات فى الحجاز .

أما عمر فقد كان يقول فيه جرير إن أنسب الناس المخزومى[٢] ، ولم يتجاوز عمر بشعره الغزل والنسيب إلى موضوع آخر ، فهو من هذه الناحية يُعَدُّ أهم شاعر فى الحجاز وقف نفسه على الأغانى التى كان يغنيها ابن سُرَيْج وابن مِسْجح وابن مُحْرِز والغَريض فى مكة ، كما كان يغنيها المغنون فى المدينة من مثل مَعْبد وجميلة .

وأما الأحوص فكان شاعر المدينة فى النسيب والغزل غير مدافَع ، وكان يحقق لنفسه فى هذا الجانب تفوقاً ممتازاً حاولنا أن نصفه آنفاً ، ويكفى لبيان تفوقه على كثيِّر فى غزله أن عَزَّة نفسها كانت تفضله عليه وتقول له : الأحوص ألين جانباً منك فى شعره وأَصْعَرُ خَدًّا للنساء وأشعر منك[٣] .

وأكبر الظن أننا نستطيع أن نصل من ذلك إلى أن الأحوص كان من أصحاب المنزلة الأولى للشعر والفن فى عصره ، وهو إذا قُرِنَ حَقًّا فينبغى أن يُقْرَنَ إلى

(١) أغانى ٤/٢٣٣ .

(٢) أغانى ١/٧٦ .

(٣) أغانى (طبع بولاق) ١١/٢٣ .

عمر بن أبى ربيعة ، فهما أهم من نظم الغــزل فى العصر ، وكان عمر شديد الصلة بالمغنين فى مكة فى حين كان الأحوص شديد الصلة بالمغنين والمغنيات فى المدينة . ومن يقرأ الأغانى يحس أن عمر كان له قَصَبُ السَّبْق فى تأليف الغزل وأغانيه . على أنه ينبغى أن نحتاط فى الحكم لأن ديوان الأحوص مفقود ، ولأن ما قدمناه عنه يدل على أنه كان أكثر حرية من عمر ، إذ كان يتغزل فى الإماء فى حين كان يتغزل عمر فى الحرائر .

ومهما يكن فإن عمر والأحوص يُعَدَّان فى الطبقة العليا من شعراء العصر الأموى ، ولسنا نستطيع أن نحكم بتفوق أحدهما على صاحبه حكماً واضحاً لأن أدوات هذا الحكم ناقصة ، على الأقل فيما يتصل بالأحوص .

ولعلنا لا نتجاوز الحق حين نضعهما جميعاً فى الطبقة الأولى من شعراء الأغانى ، ثم نعمم فنجعل هذه الطبقة أولى طبقات كل الشعراء الذين أنتجهم العصر الأموى من تقليديين وغير تقليديين .

نحن إذن نخالف ابن سلام فى تقديم أصحاب الشعر التقليدى على أصحاب الغزل ، لأننا نحكِّم الفن نفسه . وليس من شك فى أن الشعر العربى أثرى عند أصحاب الغزل ثروة فنية عريضة ، فقد أثرى من حيث الخواطر والمعانى ، وأثرى من حيث اللغة والأسلوب ، وأثرى أخيراً من حيث صحيفة الألحان ، فإن أصحابه هم الذين غيَّروا فى طبقات الأوزان الشعرية تبعاً للتغيير فى طبقات الغناء وما عاصرهم من موسيقى .

الكتاب الثانى
فى مكة



الفصل الأول

مكة

١

موقع مكة

مكة أهم مدن الحجاز ، وهى تقع فى منتصف الطريق بين الشام واليمن ، وتقوم فى بطن وادٍ شقته الطبيعة فى جبال السَّراة ، ذلك الحاجز الطبيعى الذى يفصل بين نجد فى الشرق وتهامة فى الغرب . وتأخذ مكة فى هذا الوادى شكل هلال ، طوله ضعف عرضه(١) ، ويتخلل هذا الهلال مرتفعات كثيرة تنتهى شرقاً بجبل أبى قُبَيْس وغرباً بجبل قُعَيْقِعان . ويسمى قاع هذا الهلال باسم البِطاح ، وفيه بئر زمزم والكعبة المقدسة . وما وراء البطاح إلى الجبال يسمى باسم الظواهر(٢) .

والشقة بين مكة والبحر الأحمر تبلغ نحو سبعين كيلومتراً ، ومرفؤها عليه فى الإسلام جُدَّة ، وكان فى الجاهلية الشُّعَيْبة(٣) . وبرغم ارتفاع سطحها عن البحر بنحو ٢٨٠ متراً جوّها حار فى الصيف حرارة شديدة(٤) حتى ليقول ابن بطوطة إن حَصْباءها تشبه صفحات محمّاة(٥) . وشتاؤها أيضاً قاس فى برودته . ومن هنا يقول شاعر قديم فيها(٦) :

وليس بها مَشْتًى ولا متصيَّفٌ ... ولا كجُواثَى ماؤها يتفجَّرُ

وجواثى : بلدة بالبحرين . وواضح أن الشاعر يعيبها أيضاً بقلة مائها . ومعروف

---

(١) انظر مرآة الحرمين لإبراهيم رفعت ١/١٨٧ .
(٢) معجم البكرى (طبعة أوربا) ١/١٥٥ .
(٣) أخبار مكة للأزرقى (طبع أوربا) ص ١٠٧ .
(٤) أحسن التقاسيم (طبع ليدن) ص ٩٥ .
(٥) رحلة ابن بطوطة (طبع أوربا) ١/٢٨٠ .
(٦) رسائل الجاحظ (طبع فان فلوتن) ص ٦١ .

أنه ليس بها آبار مهمة سوى زمزم[١] ، فهى أطيب آبارها . ويقول ياقوت إنه لا يمكن الإدمان على شربها[٢] ، ولعل ذلك ما جعل الخلفاء يعنون بتوفير المياه للحجاج . وليس من ريب فى أن مكة فى أثناء العصر الجاهلى عانت كثيراً فى هذا الجانب ، ولذلك كان من الوظائف المقدسة فيها حينئذ سقاية الحجيج .

وندرة المياه بمكة تدل بوضوح على أن المملكة النباتية ليس لها هناك مكان سوى بعض أشجار البادية من مثل الثُّمام والسَّلَم والإذخِر[٣] . وفى القرآن الكريم على لسان إبراهيم (رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) . وفى السيرة النبوية أن قريشاً قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : إنه ليس من الناس أحدٌ أضيق بلداً ، ولا أقل ماء ، ولا أشد عيشاً منا ، فسل لنا ربَّك الذى بعثك بما بعثك به ، فليسيِّر عنا هذه الجبال التى ضيّقت علينا ، وليبسط لنا بلدنا ، وليفجّر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق[٤] . وفى سورة الإسراء (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً أو تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً) .

مكة إذن بلد قاحل تحيط به الجبال من كل جانب إلا نوافذ أربعة تصل بينها وبين ما حولها . وقد قامت – على ما يظهر – فى الزمن الأقدم حول بئر زمزم ، لتكون محطة للقوافل التجارية المصعدة إلى الشام والمنحدرة إلى اليمن . وسميت فى العصر الجاهلى أسماء مختلفة ، سميت مكة وبكة وأم القرى وناسّة ، كما سميت باسم صلاح . وسماها القرآن الكريم « البلد الأمين » .

---

(١) انظر فى حفائر مكة وآبارها فتوح البلدان للبلاذرى (طبع دى جويه) ص ٤٨ والأرزقى ص ٤٣٦ .

(٢) معجم ياقوت (طبع مطبعة السعادة) ١٤٢/٨ .

(٣) البيان والتبيين للجاحظ (طبع لجنة التأليف والنشر) ١٥٦/٢ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (طبع الحلبى) ٣١٦/١

٢

مكة فى العصر الجاهلى

تاريخ مكة فى العصر الجاهلى غامض ، ولذلك كانت تحف به الأسطورة . ويزعم مؤرخو العرب أنه كان يسكنها فى قديم الدهر قبائل من جُرْهم وبقايا من الأمم البائدة[١] ، ثم نزلتها خُزاعة حين نزحت مع من نزح من قبائل اليمن إلى الشمال . ويمكن أن نؤرخ لهذا النزوح بأواخر القرن الثالث للميلاد ، أو أوائل القرن الرابع حين أخذت آخر الدول اليمنية ، وهى الدولة الحميرية ، فى الاضمحلال[٢] فنزحت هذه القبيلة من هناك لتسيطر على هذه المحطة التجارية التى كانت تمرُّ بها القوافل اليمنية إلى الشام محملةً ببضائع اليمن والهند[٣] .

وما زالت خُزاعة قائمة على هذه المحطة التجارية حتى انفجر سَدُّ مأرب حوالى سنة ٤٥٠ للميلاد[٤] ، فضعفت الدولة الحميرية فى اليمن ضعفاً تامًّا . وحول هذا التاريخ يظهر قُصَىّ مع قبيلة قريش فى مكة ، فيستولى عليها ، ويطرد خزاعة منها[٥] :

وازدهرت التجارة فى مكة فى أثناء هذا العهد القرشى ، إذ أصبحت تحتكر التجارة فى بلاد العرب ، وأصبحت محطة كبيرة للتجارة الآتية من الجنوب ، تجارة اليمن وما يأتيها من الهند ومن الحبشة . وكانت أيضاً تأتيها من الشرق قوافل محمَّلة بتوابل الهند التى تهبط على الخليج الفارسى . وكانت الحقبة الأخيرة من العصر الجاهلى حقبة ذهبية لتجارة مكة بسبب ما كان بين الروم والفرس من تصادم ، فكانت مكة مركز كل القوافل والتجارة الذاهبة إلى الشمال والمنحدرة إلى الجنوب أو الشرق ، وكانت قوافلها تذهب إلى غزة[٦] ومنها إلى مصر[٧] ،

---

(١) ابن هشام ١/١١٦ وانظر الحيوان طبع الحلبى ٧/٢١٤ .

(٢) O'Leary, Arabia Before Muhammad (London, 1927) p. 17.

(٣) المصدر نفسه ص ١٨١ وما بعدها .

(٤) المصدر نفسه ص ٨٩ وانظر تاريخ العرب المطول لفيليب حتى (الترجمة العربية) ص ٨٤ .

(٥) الطبرى ١/١٠٩٢ وانظر مروج الذهب للمسعودى (طبع باريس) ٣/١١٩ .

(٦) المغازى للواقدى ص ١٩٨ .

(٧) الولاة والقضاة للكندى ص ٧

كما تذهب إلى بُصْرَى فى سوريا(١) .

ومن يقرأ أخبار هذه القوافل يخيَّل إليه أن مكة نفسها كانت قافلة كبيرة مقيمة ، تخرج منها هذه القوافل المتتابعة إلى الشمال والجنوب . وفى القرآن الكريم : (لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ إيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ والصَّيْفِ) . أما رحلة الشتاء فكانت إلى اليمن ، وأما رحلة الصيف فكانت إلى الشام . الإيلاف : المعاهدة مع الملوك(٢) . وطبيعى أن يعقد زعماء قريش مع الملوك الذين يتاجرون وينزلون فى بلادهم معاهدات ، ويقال إن هاشماً جد الرسول عقد مع قيصر معاهدة(٣) ، وعقد عبد شمس أخرى مع النجاشى ، فى حين عقد نوفل معاهدة مع الأكاسرة(٤).

وفى هذا ما يشير إلى حركة هذه القوافل الدائبة . وطبيعى أن هؤلاء الزعماء كما تعاقدوا مع ذوى الشأن فى البلاد الأجنبية حتى ينظموا قواعد هذه التجارة ، كذلك تعاقدوا مع أشراف العرب وقبائلهم التى يمرون بها فى طرقهم حتى لا يقربوا قوافلهم نظير إتاوات وهدايا خصَّصوها لهم(٥) .

ونحن لا نستطيع أن نقف على مدى ما كانت تضطلع به مكة فى هذا العمل الشاق إلا إذا تصورنا الطرق الوعثة الطويلة التى كانت تمر بها هذه القوافل ، ويقال إن إحداها بلغت ٢٥٠٠ بعير(٦) . وتدل الأخبار المختلفة أنه كان يتقدم القافلة روَّاد مستطلعون يتعرفون على أخبار الطريق كما حدث فى غزوة بدر ، فإن هؤلاء الرواد عرفوا أن الرسول سيهجم على القافلة التى وراءهم ، فذهبوا إلى مكة واستنفروا أهلها لإنقاذ القافلة(٧) . وكان يوجد مع القافلة أيضاً أدلَّاء يرشدونها فى طريق سيرها حتى لا تضلَّ فى شعاب الصحراء(٨) ، وأيضاً كانت توجد معها حامية لحراستها ، وكانت أخلاطاً من قريش وعبيدها ، ثم شذاذ العرب وصعاليكها(٩) .

---

(١) ابن سعد المجلد الأول القسم الأول من الطبقات (طبعة أوربا) ص ٤٣ .

(٢) المسعودى ١٢١/٣ .

(٣) اليعقوبى (طبع أوربا) ٢٨٠/١ والطبرى ١٠٨٩/١ .

(٤) اليعقوبى ٢٨٢/١ والطبرى ١٧٨٩/١ .

(٥) اليعقوبى ٢٨٠/١ .

(٦) الطبرى ١٢٧١/١ .

(٧) ابن هشام ٢٦٠/٢ .

(٨) الأغانى طبع بولاق ٧٤/١٩ وانظر ابن هشام ١٢٩/٢ .

(٩) الأزرقى ص ٤٦٢ ورسائل الجاحظ السابقة ٦٥ – ٦٦ وأغانى طبع بولاق ٢٨/١٠ ، ٣٢/١٠ ، ٤٩/١٢ ، ٧٥/١٩ .

وهكذا كانت قوافل قريش تجوب بلاد العرب شمالاً وجنوباً وشرقاً ، تنقل تجارة المحيط الهندى والبحر الأحمر إلى سواحل البحر المتوسط . فمن إفريقية عن طريق اليمن كانت تنقل التبر والرقيق والصمغ والعاج ، ومن اليمن نفسها كانت تنقل الجلود والعطور والبخور وثياب عدن النفيسة . ومن العراق كانت تنقل توابل الهند ، وأيضاً كانت تنقل الزبيب من الطائف والذهب من مناجم بنى سُليم . كل ذلك تنقله إلى الشام ومصر ، ثم تعود محملة بالأسلحة والغلال والزيوت والخمر والأقمشة القطنية والكتانية والحريرية[١] .

ولعل فى هذا كله ما يرينا أهمية مكة فى العصر الجاهلى ، وقد جعلت هذه الأهمية أبرهة والى الحبشة على اليمن يغزوها سنة ٦٧٠ أو ٦٧١ للميلاد ابتغاء الاستيلاء على ما فيها من ثروة ، والمصادر الإسلامية تجعل حملته دينية وأنه كان يريد هدم الكعبة . وباءت حملته بالفشل الذريع ففشت الأوبئة فى جيشه ولم ينج أبرهة نفسه من المرض والموت[٢] .

لم ينجح غزو أبرهة لمكة ، بل زاد فى تقديسها وإعظامها لما شاع من أخبار هذا الجيش المنهزم عنها ، وقد جمعت هذه الهزيمة قلوب العرب حولها ، وجعلتهم يحسون شيئاً من القومية والاعتداد بأنفسهم وأمتهم . ولم يحاول ولاة الحبشة على اليمن بعد ذلك غزو مكة ، ولا حاولته أمة أخرى . فكانت مكة خالصة للعرب ، وكانت بكعبتها المقدسة رمزاً لاستقلالها وقوتهم ومن هنا سميت أمَّ القرى . وفى القرآن الكريم : (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً) فكان البيت آمناً ، وكانت مكة آمنة ، لا تدخلها أمَّة ، ولا تدين لأمة .

ويقول الجاحظ : « لم تزل مكة أَمْناً ولَقَاحاً[٣] ، لا تؤدى إتاوة ، ولا تدين للملوك . . . » وقال حرب بن أمية فى ذلك :

أبا مطرٍ[٤] هَلُمَّ إلى صَلاحٍ ... فتكفيك النَّدامى من قريشِ
فتأمن وسْطهُم وتعيش فيهم ... أبا مطرٍ هُدِيتَ لخير عيشِ

(١) الأزرقى ص ٥٥ ومكة فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) ابن هشام ١/٥٤ وما بعدها .

(٣) اللقاح : البلد الذى ليس فى سلطان أحد .

(٤) أبو مطر هو أبو الحضرمى يدعوه حرب لحلفه . وصلاح : اسم مكة كما تقدم .

وتنزل بلدةً عَزَّتْ قديمـــاً وتأمن أن يزورك رَبُّ جَيْشِ[١]

ويقول ابن الفقيه : « إن أهل مكة لم يؤدوا فى الجاهلية إتاوة قط ، ودانت لهم خُزاعة وثقيف وعامر بن صعصعة ، وفرضوا على العرب قاطبة أن يطرحوا أزواد الحِلِّ إذا دخلوا الحرم ... وهم بعد أعز العرب ، يتأمَّرون على العرب قاطبة »[٢] . ويقول ابن دريد : إنهم كانوا يأخذون من العرب إتاوة تسمى الحريم ، كان يدفعها كل من نزل مكة فى الجاهلية[٣] .

ولم تكن مكة تأخذ إتاوة من العرب فحسب ، بل كانت تأخذها أيضاً من التجار الأجانب الذين ينزلون بها ، وكانت تسمِّى ذلك العشور . ويذهب أوليرى إلى أنه كان بها وكلاء بيزنطيون ، وكانت مهمتهم تجارية أكثر منها سياسية[٤] ، ولعل صُهَيْباً الرومى الذى أسلم فيما بعد كان واحداً منهم . وأيضاً كان ينزلها بعض الفرس[٥] ، وكان بها جالية[٦] حبشية كبيرة .

وفى كل ما قدمنا ما يدل على عِظم شأن مكة فى الجاهلية ، وقد ذهب لامنس فى كتابه عنها إلى أنها كانت جمهورية وأنه يمكن مقارنتها بالبندقية[٧] ، وذهب أوليرى إلى أنها لم تَعْدُ اتحاد قبائل ارتبط بعضها ببعض فى حلف ، هدفه نقل التجارة[٨] . ولعل من الطريف أنه كان بها مَلأ ، وهو مجلس شيوخ مصغر ، وكان لا يدخله إلا من بلغ أربعين سنة[٩] . ولم يكن هناك انتخاب لاختيار شيوخ مكة فى الملأ ، إنما كانوا يختارون ، على ما يظهر ، حسب غناهم وخدماتهم التى يؤدونها . وكل ما فى الأمر أنهم كانوا يختارون من بطون قريشِ البِطاح ، وهم : هاشم وأمية ومخزوم وجُمَح وسهم وتَيْم وعدىّ وأسد ونوفل وزهرة[١٠] . وكان هؤلاء الشيوخ ينظرون فى شؤون مكة الدينية والتجارية ، ولم يكن لأحد منهم امتيازات

---

(١) الحيوان للجاحظ ٣/١٤١ .

(٢) كتاب البلدان لابن الفقيه طبع أوربا ص ١٨ .

(٣) الاشتقاق لابن دريد ص ١٧٢ وانظر الأزرقى ص ١٧٥ .

(٤) كتاب أوليرى السابق ص ١٨٤ .

(٥) المسعودى ٢/١٤٨ إذ يزعم أن الفرس كانت تقصد البيت الحرام وتطوف به .

(٦) كتاب أوليرى ص ١٨٤ وانظر مجلة كلية الآداب (جامعة القاهرة) سنة ١٩٣٣ .

(٧) Lammens, La Mecque (Beyrouth, 1924) p. 175.

(٨) كتاب أوليرى ص ١٨٣ .

(٩) الاشتقاق ص ٩٧ وابن هشام ٢/٢٩٨ .

(١٠) المحبر لابن حبيب طبع الهند ص ١٦٧ والمسعودى ٣/١١٩ .

على نظرائه وأقرانه ، وإنما كانوا جميعاً متساوين بتراض منهم .

ومن غير شك كان ينمو فى هذه الجمهورية أو فى هذا الاتحاد للقبائل القرشية نظام تجارى معقد ، فكانت هناك المكاييل والموازين[١] ، وكان هناك البيع الحاضر وبيع النَّسِيئة أو البيع المؤجَّل[٢] ، كما كانت هناك المضاربة ، وهى أن يأخذ الشخص مالاً من غيره فيتجر فيه ، ويكون له حظ معلوم من الربح على نحو ما صنعت السيدة خديجة مع الرسول صلى الله عليه وسلم قبل زواجه منها[٣] ، وكانوا يتعاملون على أساس دنانير الروم ودراهم الساسانيين[٤] . ويقول لامنس إن مكة كانت تشبه مصرفاً كبيراً ، وكان الربح فى المصرف عظيما[٥] ، ومن هنا كان الربا فيه فاحشاً ، حتى لقد يخرج أهله الدينار بدينارين . وفى القرآن الكريم : (يَٰأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تأْكُلُوا الرِّبا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً) .

وكان يساهم فى هذه التجارة كل فرد من أفراد قريش فى مكة حتى النساء كان لهن سهم فيهـا ، واشتهر الرسول صلى الله عليه وسلم بتجارته فى أموال السيدة خديجة ، ويَرْوى الرواة أن هنداً زوجة أبى سفيان وأم معاوية كانت تتجر فى قبيلة كلب بالشام .

واشتهر فى مكة قبل الإسلام بيتان بالثراء : بيت الأمويين وبيت المخزوميين . ويقال إن أكثر قافلة بدر كان للأمويين[٦] ولعل ذلك ما جعل أبا سفيان يرأس هذه القافلة . وفى الاشتقاق لابن دريد معلومات طريفة عن ثروات المخزوميين ، حتى كان منهم من يسمى رَبَّ مكة[٧] . ويظهر أن الثراء لم يكن خاصاً بهذين البيتين ، فنحن نجد من قبيلة أبى بكر الصديق عبد الله بن جُدْعان وكان يتجر فى الرقيق ، وقد شبهه بعض الشعراء بقيصر إذ يقول[٨] :

يومَ ابنُ جُدْعان بِجَنْبِ الحَزْوَرَهْ ... كأنه قَيْصَرُ أو ذو الدَّسْكَرَه

---

(١) كتاب مكة للامنس ص ٢٢٤ وفتوح البلدان ص ٤٦٦ .

(٢) مسند ابن حنبل ١/٣٩٨ .

(٣) الطبرى ١/١١٢٧ والأزرقى ص ٤٧١ .

(٤) كتاب مكة ص ٢٢٦ وانظر مكة فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٥) كتاب مكة ص ٣٠٥ وانظر الطبرى ١/١٤٦٠ والواقدى ص ١٩٨ .

(٦) انظر مكة فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٧) الاشتقاق ص ٦٠ وكذلك ٩٢ .

(٨) معجم البكرى ١/٤ . والحزورة : موضع يلى البيت الحرام كانت به سوق مكة .

وفى اليعقوبى أن سادات قريش فوق آل جَفْنة[١] . وفى الحيوان للجاحظ أنهم فوق كِسْرَى[٢] .

وهذه البلدة التاجرة استلزمت تجارتها كما استلزمت الحياة فيها أن توجد بعض الصناعات بها ، وفى أخبارها أن منها من كان حدّاداً أو نجاراً أوخياطاً أو جَزَّاراً أو صانع بُرمَ[٣]. ومعنى ذلك أن مكة فى الجاهلية كانت أشبه بمدينة ، ففيها الملأ أو مجلس الشيوخ ، وفيها البطون الممتازة بطون النبلاء التى تنزل فى البِطاح . ووراءهم قريش الظواهر ومعهم الحلفاء والنازلة[٤] والموالى والرقيق . ويروى الرواة عن بعض المخزوميين أنه كان له رقيق أو عبيد من الحبشة يحترفون جميع المهن ، وكان عددهم كثيراً[٥] .

وتكوين مجتمع مكة على هذا النمط من أحرار وعبيد أو أشراف ورقيق ، كثير الشبه بمجتمع أثينا القديمة . ويقال إن هنداً بنت عبد المطلب عمة الرسول أعتقت فى يوم واحد أربعين رجلا من عبيدها[٦] . وهذا معناه أن العبيد كانوا كثيرين جداً فى مكة قبل الإسلام .

وليس عندنا نصوص كثيرة تصوِّر مدى ترف أشراف مكة ، ولكن لا بد أنهم بلغوا من ذلك حدًّا واسعاً بحكم ما تمتعوا به من ثراء حتى ليقال إنهم كانوا يصيِّفون فى الطائف ويشتون فى جُدَّة . ويقال إنه كان لأبى سفيان ضيعة فى سوريا ينزل فيها فى أثناء تجارته . ونجد فى سورة الزخرف استهزاء بمن ينشَّأ فى الحلية والزينة[٧] ، ويقال إن عبد المطلب دُفن فى حُلَّتين قيمتهما ألف مثقال من الذهب[٨] . وكان بينهم من يلبس الثوب بخمسين[٩] ديناراً أو نحو ثلاثين جنيهاً . وكما تأنقوا فى ملابسهم تأنقوا شيئاً فى طعامهم فعرفوا أنواعاً من طعام الأمم الأجنبية

---

(١) اليعقوبى ١/٢٨١ .

(٢) الحيوان ١/١٦٥ ، وفى الحيوان ٢/٢٤٦ : إذا قالوا سيد قريش فقد قالوا سيد العرب .

(٣) الأعلاق النفيسة لابن رستة طبع ليدن ص ٢١٥ ، والمحاسن والأضداد للجاحظ طبع فان فلوتن ص ١٦٥ .

(٤) الطبرى ١/١٢٠٣ والحيوان ٧/٢١٤ .

(٥) أغانى طبع دار الكتب ١/٦٥ وفى الأجزاء التسعة الأولى دائماً ترجع إلى طبعة دار الكتب .

(٦) المحاسن والأضداد ص ٧٧ .

(٧) سورة الزخرف آية ١٨ .

(٨) اليعقوبى ٢/١٣ .

(٩) مسند ابن حنبل ٣/٤٠٣ .

من مثل الفالوذج[١] .

وكانت مكة فى الجاهلية وثنية ، بل كانت حارسة الوثنية فى الجزيرة العربية ، فقد كان بها الكعبة بيت الأوثان والأصنام . ويستطيع من يتتبع أخبارها فى هذا الجانب ويقف عند الآلهة التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم وما جاء فيه من وصف عبادتها أن يعرف أنها كانت تقدِّس بعض الأجرام السماوية . وفى القرآن : (أَفَرَأَيْتُم اللاَّتَ والعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى) .

ويذهب أوليرى إلى أن العُزَّى تطابق كوكب الزهرة ، فى حين تمثل اللات الشمس[٢] ، ونجد فى أسمائهم كثيراً عبد شمس . أما مناة فكانت صخرة لهذيل وخزاعة ، وفيها ما يشير إلى أنهم قدَّسوا بعض الأحجار . وفى القرآن الكريم : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إنَّما الخَمْرُ والمَيْسِرُ والأَنْصَابُ والأَزْلاَمُ[٣] رِجْسٌ مِنْ عَمَل الشَّيْطَانِ فاجْتَنِبُوهُ لَعلَّكُم تُفْلِحُون) . والأنصاب : حجارة تُنْصَب وتُصَبُّ عليها دماء الذبائح وتُعبَد باعتبارها مقرًّا للروح . وكما قدسوا الحجر قدسوا الشجر مثل ذات أنواط التى كان يحج إليها المكيون سنويًّا .

ويذكر القرآن الكريم بجانب مناة واللات والعُزَّى آلهة أخرى ، إذ يقول جَلَّ وعَزَّ فى سورة نوح : (وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعَاً وَلاَ يَغُوثَ ويَعُوقَ وَنَسْراً) وربما كانت كلمة نسر تشير إلى الطائر المعروف ، وقد يكون فى هذا ما يدل على أنهم قَدَّسوا بعض الحيوان والطير ، وربما أشارت كلمة وَد إلى الصداقة ومعنى يغوث يعين ، ومعنى يعوق يحافظ ، وهى صفات قد تشير إلى أرواح حافظة .

وكان العرب فى الجاهلية يحجون إلى الكعبة بيت هذه الآلهة وأصنامها وأوثانها ، وتزعم الرواية العربية أن عمرو بن لُحَى الخزاعى هو الذى أدخل الأصنام مكة[٤] ، ويقال إنه كان فى الكعبة عند فتح الرسول صلى الله عليه وسلم لمكة ثلثمائة صنم وستون[٥] أشهرها اللات والعزى ومَناة ، ثم هُبَل ، وهو كبير

---

(١) أغانى ٨/٣٢٩ .
(٢) انظر كتاب أوليرى ص ١٩٤ .
(٣) الأزلام : القداح .
(٤) ابن هشام ١/٧٨ والمسعودى ٣/١١٤ والأزرقى ص ١٣٣ .
(٥) الأزرقى ص ٧٦ .

آلهتهم ، ويظهر أنهم كانوا يرمزون به لربهم . وفى القرآن الكريم ما يدل على أنهم كانوا يؤمنون بالله ، قال تعالى على لسانهم : (مَا نَعْبُدُهُم إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى) ولكنهم على كل حال كانوا وثنيين يعبدون ويقدّسون أشياء كثيرة من نجوم وأحجار وأشجار .

على أن هذه الوثنية فى مكة لم تمنعها من الاتصال بالمسيحية واليهودية عن طريق الرقيق الحبشى وغير الحبشى الكثير فيها ، وأيضاً عن طريق يثرب وغيرها من القرى التى كان ينزل فيها اليهود، والتى كانت منبثَّة فى الحجاز ، ثم ما كان من اختلاط أهلها أنفسهم فى أثناء تجارتهم فى الشام وغير الشام بالمسيحيين ، حتى ليقال إن بعضاً من أهلها تنصروا قبل الإسلام ، فاليعقوبى يقول : « أما من تنصّر من أحياء العرب فقوم من قريش[١] » ويقال إن منهم ورقة بن نوفل ، وأيضاً عتبة بن أبى لهب وعثمان بن الحويرث الأسدى[٢] . وفى السيرة النبوية أن حليمة السعدية حين رجعت بالرسول من البادية بعد فطامه لقيها نفر من الحبشة نصارى[٣] ، وفى ابن سعد أنهم كانوا يهوداً[٤] . ونجد فى أسد الغابة شخصاً يسمى شمعون[٥] ، وفى السيرة النبوية شخصاً يسمى جبراً كان عبداً لبنى الحضرمى ، وكان مسيحياً[٦] . ويذكر الواحدى عبدين نصرانيين نزلا فى مكة وأصلهما من عين التمر[٧] . ولا بد أن بعض مسيحيي الجزيرة فى نجران وفى الحيرة وبعض يهودها المنبثين فى الحجاز كانوا يفدون على سوق عكاظ وسوق ذى المجاز اللتين كانتا تقومان بجوار مكة ، وقد وفد قُسّ بن ساعدة على سوق عكاظ وخطب فيها قبيل الإسلام[٨] .

ويقال إن شماساً زار مكة فى الجاهلية[٩] وكان يعيش فى مَرّ الظَّهْران راهب

---

(١) اليعقوبى ١/٢٩٨ .
(٢) المحبر ص ١٧١ وابن هشام ١/٢٣٩ .
(٣) ابن هشام ١/١٧٧ .
(٤) القسم الأول من المجلد الأول ص ٧١
(٥) أسد الغابة ٣/٤ .
(٦) ابن هشام ٢/٣٣ .
(٧) أسباب النزول ص ٢١٢ .
(٨) البيان والتبين ١/٣٠٨ .
(٩) ابن هشام ١/٣٤٩ وأسد الغابة ٣/٣٧٥ .

مسيحى[١] . ومن طريف ما يذكره ابن الأثير فى أسد الغابة أنه كان بمكة جوار روميات[٢] .

ومع ذلك فإن هذا كله لم يكن له قيمة بالنسبة لوثنيّى مكة ، فقد كانوا محافظين على دين آبائهم ، وكانوا حُرَّاساً على الوثنية الجاهلية ، فهم سَدَنة الكعبة وأصنامها ، وحقًّا أن جماعة منهم تشككت فى دينها وتحنَّفت [٣]، ولكن هؤلاء كانوا شذوذاً فى قومهم ، وكانوا يعدّونهم مارقين من دينهم .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على ارتفاع شأن مكة فى الجاهلية ، فقد كانت تُعَدُّ عاصمة الجزيرة العربية ، وقد اتخذت من عكاظ سوقاً يلتقى فيه الخطباء والشعراء ، وبذلك كانت قطب الدائرة الأدبية فى الجزيرة ، فضلاً عن ثرائها ومكانتها التجارية والدينية .

٣

فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين

ما زالت مكة قائمة بوظيفتها التجارية والدينية حتى بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم حين استكمل أربعين عاماً يدعو الناس إلى هدى الإسلام . وأسرع إلى تلبية دعوته زوجه السيدة خديجة ، ومولاه زيد بن حارثة ، وابن عمه على بن أبى طالب ، وأبو بكر الصديق ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة[٤] . وعلى يد أبى بكر أسلم عثمان والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص ، ثم أسلم أبو عبيدة وأبو سَلمة والأرقم وعثمان بن مظعون وسعيد بن زيد وزوجه[٥] أخت عمر بن الخطاب .

---

(١) السيرة الحلبية ١/٧٥ .

(٢) أسد الغابة ١/٣٨٧ وانظر ٤/٢٣٢ ، ٥/١٩٤ ، ٥/٤٦٢ .

(٣) ابن هشام ١/٢٣٧ وانظر المحبر ص ١٧١ .

(٤) ابن هشام ١/٢٦٩ .

(٥) المصدر نفسه السابق وانظر اليعقوبى ٢/٢٢ .

وأقام رسول الله بمكة ثلاث سنين يدعو سرًّا إلى الإسلام[١] ، ثم أمره ربه أن يصدع بما أرسله ، فأخذ يدعو قومه جهراً بالحكمة والموعظة ، ويجادلهم بالتى هى أحسن فى آلهتهم وعبادتهم . وفزعت قريش إذ كانت تعدّ نفسها حارسة للوثنية فى الجـــزيرة ، وغضبت غضباً شديداً حين رأت الرسول الكريم يسفِّه آلهتها وأحلامها ، فناكروه وأجمعوا على خلافه وعداوته ، وراجعوا عمه أبا طالب ، وقالوا له : اعرض عليه أن يترك دعوته وأن يحتكم فى أموالنا بما يشاء[٢] ، فأجابه : يا عم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ما تركته[٣] .

ومضى الرسول يجهر بدعوته ومضت قريش تحادُّه وتعانده ، بل لقد ذهبت تعذب من أسلموا وتحاول أن تفتنهم عن دينهم الجديد ، فلم يكن ذلك يردهم ، بل كان يزيدهم إيماناً[٤] . وقد أخذ سفهاء قريش يتعرضون للرسول بالإيذاء ويرمونه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، ومن أهم من آذوه ونصبوا له العداوة أبو جهل[٥] . وعدَّد ابن حبيب المؤذين من قريش للنبى وأصحابه ، فذكر منهم أبا لهب والحكم بن أبى العاص وعقبة بن أبى مُعَيْط وعدى بن حمراء الثقفى وعمرو ابن الطُّلاطِلة الخزاعى[٦] . وبجانب هؤلاء الذين آذوه كانت طائفة تتعمد الاستهزاء به وبدعوته وعلى رأسها العاص بن وائل السَّهْمى والحارث بن قيس الكَعْبى ، وهو صاحب الأوثان ، وكان إذا مرَّ بحجر أحسن من الذى عنده أخذه وألقى الذى عنده ، وفيه نزلت الآية : ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ﴾ ومنهم أيضاً الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى والوليد بن المغيرة المخزومى والأسود بن عبد يغوث ابن وهب بن عبد مناف بن زهرة[٧] .

ووثبت كل قبيلة تعذب من أسلم منها ، وخاصة الموالى ، بالضرب والجوع والعطش وبِرَمْضاء[٨] مكة إذا اشتد الحر . وكان أبو جهل إذا سمع بالرجل قد

---

(١) اليعقوبى ٢٣/٢ .
(٢) نفس المصدر ٢٣/٢ .
(٣) انظر ابن هشام ٢٨٠/١ – ٢٨٥ .
(٤) ابن هشام ٢٧٨/١ .
(٥) ابن هشام ٣١١/١ .
(٦) المحبر ص ١٥٧ وانظر اليعقوبى ٢٣/٢
(٧) المحبر ص ١٥٨ .
(٨) ابن هشام ٣٣٩/١ وما بعدها .

أسلم له شرفٌ ومنعة أنَّبه ، وقال : تركت دين أبيك ، وهو خير منك ، لنسفِّهن حلمك ولنضعنَّ شرفك ، وإن كان تاجراً قال والله لنكسدنَّ تجارتك ، ولنهلكن مالك ، وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به(١).

ولما رأى رسول الله ما يصيب أصحابه من العذاب والجهد الشديد أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة ، وكان ذلك فى السنة الخامسة للبعثة ، حتى يجعل الله لهم مخرجاً مما هم فيه ، فخرج أولاً اثنا عشر رجلاً ثم خرج سبعون(٢) سوى أبنائهم ونسائهم ، فأكرم النجاشى وفادتهم ، وتبعتهم قريش هناك إذ نراها توجِّه بعمرو بن العاص وعُمارة بن الوليد المخزومى إلى النجاشى ومعهما الهدايا ، يطلبان منه أن يخرج هذه الجماعة المسلمة من بلاده ، وأن يكف عنهم حمايته(٣) ، ولكن النجاشى لم يُصغ إلى قريش وردَّ رسوليها ردًّا قبيحاً(٤). وفى هذه الأثناء أسلم حمزة وعمر بن الخطاب ، فقويت شوكة المسلمين بهما . غير أن ذلك لم يفتّ فى عضد قريش ، فنرى مَلأها أو مجلس شيوخها يجتمع ويقرِّر كتابة صحيفة ظالمة ، تتعاقد فيها قبائل قريش ضد بنى هاشم وبنى المطلب على ألا يصهروا إليهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم . فكتبوا ذلك وعلقوا صحيفته فى جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم(٥) .

ثم حصرت قريش رسول الله وأهل بيته من بنى هاشم وبنى المطلب فى شِعْبٍ يسمى شعب بنى هاشم ، وكان ذلك فى السنة السادسة من البعثة ، واستمر الحصار ثلاث سنين(٦) . ولما سمع من هاجروا إلى الحبشة بإسلام حمزة وعمر وآخرين معهما ظنوا أن مركز المسلمين قوى فى مكة فعادت كثرتهم(٧) وتصادف أن الصحيفة التى علقتها قريش فى الكعبة أكلتها الأرضة ، ولعل قريشاً نفسها رأت أن تعود فيما أبرمته ضد آل المطلب وهاشم ، فمزقت الصحيفة(٨) ، وعادت بذلك للمحصورين

---

(١) ابن هشام ٣٤٢/١ .
(٢) اليعقوبى ٢٨/٢ وانظر ابن هشام ٣٥٣/١ .
(٣) اليعقوبى ٢٨/٢ وابن هشام ٣٥٦/١ .
(٤) أنظر القصة فى ابن هشام ٣٥٦/١ وما بعدها
(٥) ابن هشام ٣٧٥/١ .
(٦) اليعقوبى ٣٠/٢ .
(٧) بن هشام ٣/٢ .
(٨) ابن هشام ١٤/٢ وما بعدها وانظر اليعقوبى ٣١/٢ .

حريتهم أو على الأقل عاد شيء من حريتهم .

وأخذت أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته قريشاً تُنقل من مكة إلى القبائل المجاورة وغير المجاورة ، فإن مكة كانت مركزاً تجارياً يلتقى العرب إما فيها وإما فى أسواقها ، فطبيعى أن تسمع القبائل بهذه الدعوة الجديدة ، وكان الرسول يسعى إلى رؤساء العرب الذين يتجمعون هناك يعرض عليهم الإسلام . ويقال إن قريشاً رصدت له سبعة عشر نفراً اقتسموا طرق مكة يصدون الناس عنه[١] . وروى اليعقوبى أن رسول الله قام بسوق عكاظ عليه جبة حمراء ، فقال : أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتنجحوا ، وإذا رجل يتبعه له غديرتان كأن وجهه الذهب ، وهو يقول : يا أيها الناس إن هذا ابن أخى وهو كذاب فاحذروه . ولم يكن هذا الرجل سوى أبى لهب عم الرسول[٢] ، وكان يكثر من إيذائه هو وزوجه ، وفيهما نزلت السورة الكريمة (تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ وامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ) .

ولم تلبث السيدة خديجة أن توفيت فى السنة العاشرة من البعثة[٣] وتوفى على أثرها أبو طالب ، فأثَّر ذلك فى نفس الرسول واجترأت عليه قريش ، إذ كان أبو طالب يحميه ، وهمّوا به غير مرة ، فرأى رسول الله أن يولِّى وجهه نحو الطائف وأن يدعو أشرافها إلى الإسلام ، لعلهم يأوونه وينصرونه ، غير أنهم هزئوا به ، ورماه سفهاؤهم بالحجارة ، فعاد محزوناً إلى بلده[٤] .

وفى أثناء ذلك لقى الرسول صلى الله عليه وسلم جماعة من أهل المدينة ، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا[٥] . ولما دار العام أقبل عليه وفد يضم عشرة من الخزرج واثنين من الأوس فبايعوه بيعة العقبة الأولى ، وبعث معهم مصعب بن عُمَيْر يعلمهم فروض الإسلام ويفقِّههم فى الدين[٦] ، حتى إذا استدار العام أتاه وفد

---

(١) المحبر ص ١٦٠ .
(٢) اليعقوبى ٢/٢٣ وما بعدها .
(٣) اليعقوبى ٢/٣٤ .
(٤) ابن هشام ٢/٦١ واليعقوبى ٢/٣٦ .
(٥) ابن هشام ٢/٧٠
(٦) ابن هشام ٢/٧٥ وما بعدها .

ثان يضم سبعين رجلاً وامرأتين ، فسألوه الخروج إليهم وبايعوه بيعة العقبة الكبرى[١] . وعاهدوه أن ينصروه على القريب والبعيد والأسود والأحمر وأن يمنعوه مما يمنعان منه أنفسهم وأهليهم وأولادهم .

وكانت هذه البيعة إيذاناً بانتقال النبي وأصحابه إلى المدينة فأمرهم أن يسبقوه إليها ، فلم تمض بضعة أشهر حتى نزلوها جميعاً . ثم هاجر الرسول فى إثرهم ، فدقت البشائر عند هجرته فى المدينة وخرج أهلها فاستقبلوه استقبالاً كريماً ، وكلٌّ وَدَّ لو ينزل فى داره ، فنزل فى دار أبى أيوب الأنصارى ، حتى بنى له داراً وبنى بجوار الدار مسجداً[٢] .

ولم تقف هجرة الرسول وأصحابه الصراع بينه وبين قريش ، فإنها خشيت من وجوده فى المدينة ، وهى فى طريقها إلى الشام ، تلك الطريق التجارية التى هى عماد ثروتها وحياتها . ولم تلبث الفرصة من قريش أن تعرضت للرسول فإن أبا سفيان قدم من الشام بِعيرٍ لقريش تحمل أقواتاً وأموالاً ، فخرج رسول الله يطلبه ، وعرف أبو سفيان ، فأرسل إلى مكة بضمضم بن عمرو الغِفارى يستصرخ أهلها[٣] ، فخرجوا لقتال رسول الله وصحبه ، وكانوا ألف رجل أو يزيدون ، وخرج رسول الله فى ثلثمائة فالتقى الجمعان فى بدر ، وكان ذلك فى السنة الثانية من الهجرة ، ودارت الدائرة على المشركين ، وقُتل كثير من رؤساء قريش وسادتها ، ولم يبق إلا القليل الأقل من مَلَئِها أو مجلس شيوخها ، فقد قُتل أبو جهل وَعُتْبة وشيبة ابنا ربيعة والعاص بن هشام بن المغيرة وزَمْعة بن الأسود والحارث ابنه والنَّضْر ابن الحارث وعقبة بن أبى مُعَيْط . وبلغ من قُتل من سادات قريش سبعين رجلا[٤] ، وتوفى أبو لهب بعد وقعة بدر بأيام كمداً وغيظاً . ويقول اليعقوبى إن العرب حين رأت من قُتل من قريش فى وقعة بدر أوفدت وفودها إلى الرسول[٥] ، فقد أخذت كلمة الحق تعلو كلمة الباطل علوًّا عظيما .

على أن قريشاً لم تقبل الاستكانة لهذه الهزيمة المنكرة ، فجمعت جموعها

---

(١) ابن هشام ٢/٨٤ وكذلك ٢/٩٧ وانظر اليعقوبى ٢/٣٨ .

(٢) ابن هشام ٢/١٤١ .

(٣) اليعقوبى ٢/٤٥ .

(٤) اليعقوبى ٢/٤٦ .

(٥) المصدر نفسه ٢/٤٧ .

فى العام التالى مستعينة بكل ما قدم به أبو سفيان فى قافلته من مال(١) ، وخرجت من مكة فى ثلاثة آلاف . والتقى الفريقان فى أُحُدٍ شمالىّ المدينة ، وكادت الدائرة أن تكون على المشركين لولا مخالفة النبَّالة لأوامر الرسول ، فإنهم تركوا أماكنهم حين ولىَّ المشركون الأدبار ، غير أنهم لم يلبثوا أن أتوهم من خلفهم وأعملوا السلاح فى ظهورهم ، وقُتل حمزة بن عبد المطلب ، وهُزم المسلمون(٢) .

ورجعت قريش إلى مكة وقد غرَّها ما أصابت من النبى وأصحابه ، فأخذت تجمع الأحزاب والقبائل ضده ، حتى إذا تم لها ما أرادت خرجت فى العام الخامس للهجرة يناصرها فى ذلك بنو النَّضير الذين أجلاهم الرسول عن المدينة (٣) ، كما يناصرها غطفان وقبائل كثيرة . ولما رأى الرسول أن لا قبل له بأعدائه حَفَر الخندق حول المدينة ، وبذلك سُمِّيت الغزوة غزوة الخندق ، وتسمى غزوة الأحزاب . ولما طالت محاصرة المدينة ولم تستطع هذه الأحزاب أن تصل إليها دبَّ الشقاق بينها ، وأرسل الله عليها ريحاً صَرْصَراً عاتية ، عجَّلت برحيلهم دون أن يصيبوا من المدينة شيئاً(٤) .

وفى السنة السادسة للهجرة خرج الرسول صلى الله عليه وسلم يريد العُمرة ، وساق من الهدى سبعين بَدنةً وساق أصحابه أيضاً وكان معهم السلاح ، أو كانوا مسلحين ، وقد بايعوا النبى بيعة الرضوان على القتال . ولما علمت قريش بذلك رأت أن تدخل مع الرسول فى معاهدة على ألا يعتمر هذا العام ، ويؤجل ذلك إلى العام القابل فيخلُّوها له ثلاثة أيام وعلى أن الهدنة بينهم ثلاث سنين ، لا يؤذون فيها أحداً من أصحاب رسول الله ، ولا يمنعونه من دخول مكة ، وأيضاً لا يؤذى أحد من أصحاب رسول الله أحداً منهم . ورجع رسول الله إلى المدينة ثم خرج فى العام القابل فأدى العُمْرة ، وهى عمرة القضاء(٥) .

وكانت خُزاعة قد دخلت فى عَقْد رسول الله فى حين دخلت كنانة فى عقد قريش ، فشجر الخلاف بينهما ، وأعانت قريش كنانة ، إذ أرسلوا مواليهم إليهم ،

---

(١) اليعقوبى ٢/٤٧ وابن هشام ٣/٦٤ .
(٢) اليعقوبى ٢/٤٨ .
(٣) ابن هشام ٣/١٩٩ .
(٤) اليعقوبى ٢/٥٠ .
(٥) اليعقوبى ٢/٥٤ .

فقتلوا فى خُزاعة . حينئذ استنجدت خزاعة بالرسول وبما بينها وبينه من عقد ، فصمم على غزو مكة ، وجمع لها كثيراً من القبائل التى دخلت فى الإسلام . وأقبل بهذا الجيش الضخم إلى مكة ، ورأت مكة أن لا طاقة لها به وبمن معه ، فأرسلت أبا سفيان وحكيم بن حزام وبُدَيْل بن وَرْقاء ليأخذوا لها الأمان . وفتح الله على نبيه وكفاه القتال ، ودخل الجيش مكة من أربع جهات ، ودخل رسول الله الكعبة وأزيلت الأصنام ، ومحيت الصور ، وخطب فى القوم ، فقال : « ألا كل دم ومال ومأثرة فى الجاهلية فإنه موضوع تحت قدمىَّ هاتين إلا سِدانةَ الكعبة وسِقايةَ الحاج فإنهما مردودان إلى أهليهما ، ألا وإن مكة محرمة بحرمة الله لم تحلّ لأحد من قبلى ولا تحل لأحد من بعدى . . . فهى محرمة إلى يوم القيامة ، لا يُختَلى[١] خَلاها ولا يُعَضَدُ[٢] شجرها ولا ينفرَّ صيدها ولا تحلّ لُقْطتها إلا لمنشد[٣] » . واستسلمت كنانة كما استسلمت قريش .

وبذلك انتهى الصراع بين الرسول ومكة ولكن بعد أن دوّخها وزعزع مركزها التجارى ، فإن الطريق إلى الشام قطعه الرسول والمسلمون من حوله وكان لذلك شأنه فى تدهور التجارة بمكة . وأخذت الأموال تُسْتخدم لا فى البيع والشراء ، ولكن فى حرب الرسول والمهاجرين وأهل المدينة ، وأخذت الحرب تأكل هذه الأموال فلا تُبْقى ولا تذر .

ومعنى ذلك أن التجارة أخذت تكسد فى مكة ، وكان بعض المهاجرين من كبار التجار كعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ، فخسرت مكة بعض رؤوس الأموال ، وأيضاً هؤلاء أنفسهم أخذوا يرسلون بالعِير إلى الشام ، فنافست المدينة مكة فى قوافل التجارة . ولما فتحت مكة انتقل كثير من الأسر المهمة إلى المدينة ، وازداد هذا الميل إلى المهاجرة فى أثناء حكم الخلفاء الثلاثة الأول ، وقليل هم الذين عادوا بعد هجرتهم[٤] ، وانتقلت بطون بأكملها[٥] . وضاع سلطان مكة القديم على العرب ، إذ تحول هذا السلطان إلى المدينة ، وأصبحنا لا نسمع عن قوافل

---

(١) يختلى : يقطع ، والخلا : الكلأ .
(٢) يعضد : يقطع .
(٣) اليعقوبى ٢/٥٨ وما بعدها .
(٤) أنظر ابن سعد ٥/٣٢٨ .
(٥) المصدر نفسه ٥/٣٣٦ .

مكّية كبيرة تقطع بلاد العرب صيفاً أو شتاء ، وحتى أسواقها كعُكاظ وذى المجاز لم يعد لها أخبار تذكر . وكان الاستيلاء على العراق والشام فى عهد أبى بكر وعمر ورجوع الطريق التجارى القديم من خليج فارس إلى بلاد الموصل فالشام الضَّرْبةَ القاضيةَ على مركز مكة التجارى .

ولعل فى ذلك كله ما يوضح كيف أن مكة أخذت تضعف بعد الفتح ، فلم تعد البلدة الأولى فى الحجاز ، بل سبقتها ونافستها المدينة ، وقد أصبحت تابعة لها ، وولَّى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم عتـــــاب[١] بن أَسِيد واستمر عليها فى عهد أبى بكر ، وولى عليها عمر ولاة مختلفين أهمهم نافع[٢] بن عبد الحارث الخزاعى ، أما عثمان فولى عليها خالد بن العاص بن هشام ، ثم ولاة آخرين ، ولما خلفه علىّ ولى عليها قُثَم بن العباس بن عبد المطلب .

٤

فى العصر الأموى

لعل أهم ما يلاحظ على مكة فى أوائل هذا العصر أنها ، أو قُل إن كثرتها ، لم تكن مغاضبة لمعاوية ، إذ نهض للأخذ بثأر شيخها المقتول : عثمان . غير أن الظروف أخذت تتطور بعد ذلك ، فإن أهل مكة والحجاز جميعاً أخذوا ينقمون على الأمويين نقلهم عاصمة الدولة الإسلامية إلى دمشق فى الشام ، حتى إذا ولى الأمر يزيد بن معاوية رأينا المدينة تثور عليه ، وقد قُتل الحسين فى وقعة كَرْبلاء على ما هو معروف ، وخرج عبد الله بن الزبير إلى مكة ، وعاذ بالبيت وسمى نفسه العائذ ، وأعلن هناك العصيان ، وطرد والى يزيد ، ومكث ينظر[٣] .

وأرسل يزيد جيشاً كبيراً بقيادة مسلم بن عقبة ليُديل من الثائرين فى المدينة ومكة ، وهاجم هذا الجيش المدينة فى وقعة[٤] الحرَّة ، ثم خرج منها يريد مكة

---

(١) ابن هشام ١٤٣/٤ .

(٢) ابن سعد ٣٣٩/٥ .

(٣) طبرى ٢٢٢/٢ .

(٤) طبرى ٤٠٥/٢ .

وابن الزبير . واحتضر قائده فى الطريق فاستخلف الحُصَين بن نُمَيْر ، وقدم بالجيش مكة ، فحاصرها ورماها بالنيران فاحترقت الكعبة[١] . وفى هذه الأثناء توفِّى يزيد ، فرُفع الحصار عن مكة ، ويقال إن الحصين قال لابن الزبير « هل لك أن أحملك إلى الشام ، فليس بالشام أحد فأبايع لك ، فليس يختلف عليك اثنان ؟ فقال ابن الزبير رافعاً صوته : لا والله الذى لا إله إلا هو أو نقتلَ بأهل الحَرَّة أمثالهم من أهل الشام ، فقال له الحصين : من زعم أنك داهية فهو أحمق ، أقول لك مالك سراً وتقول لى ما عليك علانية[٢] » ثم انصرف إلى الشام .

وأعلن ابن الزبير أنه خليفة المسلمين وتبعه كثير من البلدان ، تبعه الحجاز ، وتبعته مصر وبعض بلدان الشام ، كما تبعه العراق وخراسان ، ولم تبق ناحية خارجة عليه سوى الأردن وصاحبها يومئذ حسان بن بَحْدل الكلبى[٣] . وأخطأ ابن الزبير خطأً شنيعاً ، إذ أمر بطرد بنى أمية من المدينة إلى الشام ، فساروا إليها وعلى رأسهم مروان بن الحكم[٤] . وهناك دعا مروان لنفسه ، وعُقِد مؤتمر فى الجابية عُقِدَتْ فيه الخلافة لمروان[٥] . واتجه مروان مع أصحابه إلى دمشق حيث التقوا بالضحاك بن قيس فى مرج راهط[٦] ، فكانت الدائرة عليه . وبذلك خلصت الشام لمروان ، وولىَّ وجهه نحو مصر فدخلها وصالح أهلها وأعطوه الطاعة[٧] . وفى هذه الأثناء اضطرب حبل الأمور فى العراق ، وسرعان ما توفِّى مروان ، وولى الأمر من بعده ابنه عبد الملك .

وكان عبد الملك داهية من دواهى قريش ، ولعل من أهم ما يدل على دهائه أنه لما رأى ابن الزبير يتصل بأهل الشام وخاف أن يفسدهم عليه منعهم من الحج ، فقالوا له أتمنعنا من حج بيت الله الحرام ، وهو فريضة فرضها الله ، فقال : بل هذا ابن شهاب الزُّهْرى يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تُشَدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى ، ومسجد بيت المقدس .

---

(١) طبرى ٤٢٦/٢ وما بعدها .
(٢) اليعقوبى ٣٠١/٢ وما بعدها وانظر المسعودى ١٩١/٥ .
(٣) اليعقوبى ٣٠٤/٢ .
(٤) طبرى ٤٦٧/٢ .
(٥) اليعقوبى ٣٠٤/٢ .
(٦) اليعقوبى ٣٠٥/٢ .
(٧) اليعقوبى ٣٠٦/٢

وبذلك صرفهم مؤقتاً عن المسجد الحرام إلى مسجد بيت المقدس ، واستغلَّ الصخرة فيه التى يُرْوَى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع قدمه عليها حين صعوده إلى السماء ، فأقامها لهم مقام الكعبة ، فبنى عليها قُبَّةً ، وعلَّق فوقها ستور الديباج ، وأقام لها سَدَنَةً ، وأمر الناس أن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة(١) .

وأخذت الأمور تتطور فى جانب عبد الملك ، فإن العراق كثرت فيه الفتن ، فتن الخوارج بقيادة نافع بن الأزرق وقد غلبوا على البصرة ، وفتن الشيعة بقيادة المختار الثقفى وقد غلبوا على الكوفة . فأرسل ابن الزبير أخاه مصعباً ، وكان بطلاً من أبطال قريش وسيداً من سادتها ، فاستقام له العراق ، وقضى على المختار كما قضى – أو كاد يقضى – على الخوارج(٢) .

وكان من أهم الأمور التى أساءت إلى ابن الزبير أنه تحامل على بنى هاشم فأخرجهم من مكة ، ويقول اليعقوبى – إن صَحَّ ما يقول – إنه ترك الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فى خطبته فقيل له : « لِمَ تركت الصلاة على النبى ؟ فقال ؟ إن له أهل سوء ، يشرئبُّون لذكره ، ويرفعون رءوسهم إذا سمعوا به(٣) » . وعلى كل حال كانت الأحوال مضطربة ، ولعل من أوضح ما يدل على اضطرابها أن نجد فى سنة ٦٨ هـ أربعة ألوية بعرفات ، لواء مع محمد بن الحنفية وأصحابه ، وثان مع ابن الزبير ، وثالث مع نجدة بن عامر الحَرورى الخارجى ، ورابع مع بنى أمية(٤) .

وأخيراً سار عبد الملك إلى مصعب بن الزبير ، فلقيه بموضع يقال له دَيْر الجاثَليق على فرسخين من الأنبار ، فاقتتلا هناك قتالاً شديداً ، ولم يلبث أصحاب مصعب أن انحازوا عنه ، واستمرَّ يقاتل حتى قُتل(٥) فى ذى القعدة سنة ٧٢ للهجرة .

وندب عبد الملك الناس لحرب ابن الزبير فى مكة فتقدم إليه الحجاج وكثيرون معه ، فوجهه إليه فى عشرين ألفاً من أهل الشام وغيرهم . وقدم الحجاج ابن يوسف ، فقاتل ابن الزبير قتالاً عنيفاً ، ولم يُغْنِ ابن الزبير تحصنه بالبيت ،

---

(١) اليعقوبى ٢/٣١١ .

(٢) انظر اليعقوبى ٢/٣١٤ وما بعدها .

(٣) اليعقوبى ٢/٣١١ .

(٤) اليعقوبى ٢/٣١٤ وطبرى ٢/٤٥٢ وانظر ٢/٧٨١ .

(٥) انظر الطبرى ٢/٨٤٤ .

فقد رماه الحجاج بالمجانيق من كل جانب ، حتى هدمه[١] ، بعد أن بناه ابن الزبير وأنفق كثيراً فى بنائه[٢] .

ولما رأى ابن الزبير أنه لا طاقة له بحرب الحجاج دخل على أمه أسماء بنت أبى بكر فقال لها : كيف أصبحت يا أمى ؟ فقالت له : إن فى الموت لراحة ، ثم قال لها : إنى أخاف إن قتلنى هؤلاء القوم أن يمثِّلوا بى ، فقالت : يا بنىَّ إن الشاة لا تألم للسَّلخ إذا ذُبحت ، فخرج وقاتل حتى قُتل[٣] سنة ٧٣ للهجرة .

ولا ريب فى أن هذه الحوادث التى ألمت بمكة من عام ٦٣ إلى عام ٧٣ للهجرة جعلتها تقف فى صفوف المعارضة من بنى أمية ، ونحن نعرف أن هذه المعارضة كان موطنها العراق حيث الخوارج والشيعة ، واشتركت فيها الحجاز ومكة فى أثناء خلافة ابن الزبير . وأخذت حدة هذه المعارضة تضعف مع مر الزمن ، ولكن استمرت النفوس مطوية على الإحن .

وإذا رجعنا إلى ولاة مكة فى هذا العصر الأموى وجدنا بينهم خالد[٤] بن العاص ابن هشام والى عثمان ثم والى معاوية ، ويظهر أنها لم تدم معه طويلا ، فقد أخذت تتبع والى المدينة وممن ولاَّه عليها معاوية الوليدُ بن عقبة ، ونزعه يزيد وولىَّ عمرو[٥] ابن سعيد بن العاص ، ثم عزله وأعاد الوليد[٦] ، ثم عزله وولىَّ عثمان بن محمد ابن أبى سفيان وكان فتى حدثاً لم يجرِّب الأمور ولم تجرِّبه ، فكان لا ينظر فى شىء من سلطانه وعمله[٧] .

ثم غرقت مكة فى حوادث ابن الزبير ، وكانت إذ ذاك عاصمة لخلافته ومقراً لإدارة سياسته ، ثم عادت إلى الأمويين . وكانت تُمْنَحُ فى العادة لقرشى ، وإن كان قد تولاها عقب قتل ابن الزبير الحجاج بن يوسف فأقام فيها سنة ثم تركها إلى العراق ، وفى أثناء حكمه لها وللحجاز بَنَى الكعبة وأدخل فيها الحِجْر وجعل

---

(١) الطبرى ٨٤٤/٢ .
(٢) اليعقوبى ٣٠٩/٢ وما بعدها .
(٣) الطبرى ٨٤٤/٢ واليعقوبى ٣١٩/٢ .
(٤) طبرى ١٦/٢ وكذلك ص ٧١ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ .
(٥) طبرى ٢٥٥/٢ .
(٦) طبرى ٣٩٩/٢ .
(٧) طبرى ٤٠٢/٢ .

لها بابين[١] . ثم تعاقب عليها ولاة مختلفون أشهرهم نافع بن علقمة الكنانى وقد شدد فى النبيذ والغناء والمغنين[٢]. ومن أهم ولاتها خالد القسرى وليها فى عهد الوليد ابن عبد الملك سنة ٨٩ للهجرة وفى ولايته كتب الحجاج إلى الوليد : « إن أهل النفاق والشقاق قد لجأوا إلى مكة ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فيهم » . فكتب الوليد إلى خالد بن عبد الله القسرى ، فأخذ عطاء وسعيد بن جبير ومجاهداً وطلق بن حبيب وعمرو بن دينار ، فأما عمرو بن دينار وعطاء فأُرْسلا لأنهما مكيان ، وأما الآخرون فبعث بهم إلى الحجاج[٣] » . وكانت فى خالد شدة ، وخطب فى أهل مكة يوماً فقال :

« يا أيها الناس ! إنكم بأعظم بلاد الله حرمة ، وهى التى اختار الله من البلدان ، فوضع بها بيته ، ثم كتب على عباده حَجَّه من استطاع إليه سبيلا . أيها الناس ! فعليكم بالطاعة ولزوم الجماعة وإياكم والشبهات فإنى والله ما أوتَى بأحد يطعن على إمامه إلا وصلبته فى الحرم ، إن الله جعل الخلافة منه بالموضع الذى جعلها ، فسلِّموا وأطيعوا ، ولا تقولوا كيت وكيت ، إنه لا رأى فيما كتب به الخليفة إلا إمضاؤه ، واعلموا أنه بلغنى أن قوماً من أهل الخلاف يقدمون عليكم ويقيمون فى بلادكم ، فإياكم أن تُنْزلوا أحداً ممن تعلمون أنه زائغ عن الجماعة ، فإنى لا أجد أحداً منهم فى منزل أحد منكم إلا هدمت منزله ، فانظروا من تُنْزلون فى منازلكم ، وعليكم بالجماعة والطاعة فإن الفرقة هى البلاء العظيم[٤] » .

ويُرْوَى أنه كان يقول : « والله لو أعلم أن هذه الوحش التى تأمن فى الحرم لو نطقت لم تقر بالطاعة لأخرجتها من الحرم ، إنه لا يسكن حرم الله وأَمنه مخالف للجماعة[٥] » . وأقر سليمان بن عبد الملك خالداً على مكة وأحدث فيها أحداثاً ، منها أنه أدار الصفوف حول الكعبة وكانت صفوف الناس فى الصلاة بخلاف ذلك[٦] .

ولعل فى هذا ما يدل على أن مكة انصرفت عن بنى أمية ، فقد أصبحت

---

(١) طبرى ٨٥٤/٢ .
(٢) أغانى طبع بولاق ٢٠/١١ .
(٣) طبرى ١٢٦٢/٢ .
(٤) طبرى ١٢٣١/٢ .
(٥) طبرى ١٢٣٢/٢ .
(٦) المسعودى ٣٩٩/٥ .

بينها وبينهم دماء منذ قام فيها ابن الزبير ، وحج الوليد سنة ٩٤ للهجرة فخطب بها خطبة بتراء ، توعَّد فيها أهلها ، وتهددهم[١] وينتهى القرن الأول وندخل فى القرن الثانى ولا توجد حوادث واضحة فى هذا القرن سوى ما كان من استيلاء الإباضية برياسة أبى حمزة الخارجى على مكة سنة ١٢٧ للهجرة ، واستولوا أيضاً على المدينة ، ثم ولَّوا وجوههم نحو الشام ، فلقيتهم جيوش مروان بن محمد ، وهزمتهم هزيمة نكراء ، وتبعتهم حتى اليمن حيث قُتل زعيمهم عبد الله بن يحيى الكندى الذى يسمى طالب الحق[٢] .

٥

ثراء وحضارة

من أهم ما يميز مكة فى العصر الجاهلى أنها كانت بلد ثراء شديد ، فقد كانت تتجر كما قدمنا ، وكانت قوافلها تجوب بلاد العرب ، وكان فيها بيوت ثرية كبيرة ، أهمها بيت بنى أمية وبيت بنى مخزوم . ولا بد أن عبد الله بن جُدْعان كان ثريًّا ثراء عظيماً ، فقد قرنه بعض الشعراء – كما تقدم – إلى قيصر ، ويبالغ الرواة فى كرمه وما كان يبذل للناس[٣]. ويقال إن الأرباح بلغت فى قافلة بدر خمسة وعشرين ألف دينار ، وقد تنازل عنها أصحابها لحرب النبى[٤]، وفى هذا التنازل ما يدل على أن أصحاب هذه الأموال كانوا من ذوى الألوف . ومن أشهر الأثرياء حينئذ أسرة سعيد بن العاص وكان لها فى قافلة بدر ثلاثون ألف دينار ، ولبقية الأمويين عشرة آلاف. وأكثر مال القافلة كان للأمويين ، ولعل ذلك ما جعل أبا سفيان – كما مر بنا – يرأس القافلة . ومن أثرياء مكة من بنى مخزوم الوليد بن المغيرة وعبد الله والد عمر بن أبى ربيعة . وقد دفع المخزوميون للرسول فى فداء بعض أسراهم أربعة آلاف

---

(١) اليعقوبى ٢/٣٤١ .

(٢) اليعقوبى ٢/٤٠٦ .

(٣) أغانى طبع دار الكتب ٨/٣٢٧ وانظر المحبر ص ١٣٧ .

(٤) اليعقوبى ٢/٤٧ .

درهم[١] ، وافتدوا رفات قتيل يوم الخندق بعشرة آلاف درهم[٢]. ومن أثرياء بنى هاشم المعدودين العباس بن عبد المطلب ، وقد افتدى نفسه يوم بدر وابنى أخيه عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث بمائة وأربعين أوقية[٣]

وفى كل مكان نسمع أخبار هذا الثراء الفاحش وما يتبعه من كرم وضيافة . عن أبى ذرّ قال : « قدمت مكة معتمراً فقلت أما من مضيف ؟ قالوا : بلى كثير وأقربهم منزلا الحارث بن هشام المخزومى ، فأتيت بابه ، فقلت : أما من قِرًى ، فقالت لى الجارية : بلى ، فأخرجت إلىَّ زبيباً فى يدها ، فقلت : ولمَ لم تجعليه فى طبق ؟ فعلمت أنى ضيف ، فقالت : ادخل ، فدخلت ، فإذا أنا بالحارث على كرسى وبين يديه جِفان فيها خبز ولحم وأَنْطاع عليها زبيب فقال : أَصِبْ ، فأكلت ، ثم قال هذا لك ، فأقمت ثلاثاً ، ثم رجعت إلى المدينة فأخبرت النبى صلى الله عليه وسلم خبره ، فقال : إنه لسَرِى ابن سرى ، ووددت أنه أسلم[٤] » . وأخبر الكلبى فى إسناده عن رجلين من بنى سُلَيم أخوين قالا – إن صح ما قالاه – : « دخلنا مكة معتمرين فى سنة ، فما وجدنا بها شواء ولا قِرًى ، فبينا نحن كذلك إذ رأينا قوماً يمضون ، فقلنا أين يريد هؤلاء القوم ؟ فقيل لنا يريدون الطعام ، فمضينا فى جملتهم حتى أتينا داراً ، فولجناها ، فإذا رجل آدم أحول على سرير وعليه حلة سوداء ، وإذا جفان مملوءة خبزاً ولحماً فقعدنا فأكلنا ، فشبعت قبل أخى ، فقلت له : كم تأكل ؟ أما شبعت ؟ وسألنا عن صاحب الطعام ، فإذا هو أبو جهل بن هشام[٥] » وفى أبيه هشام يقول بُجَيْر ابن عبد الله[٦] :

فأصبح بطنُ مكةَ مقشعراًّ كأن الأرضَ ليس بها هشامُ

ومن هؤلاء المخزوميين من كان يقال له ربّ مكة كما قدمنا . والحق أن قريشاً

---

(١) الواقدى ص ١٣٦ .
(٢) ابن هشام ٣/٢٦٥ .
(٣) اليعقوبى ٢/٤٦ .
(٤) المحبر ص ١٣٩ .
(٥) المحبر ص ١٤٠ .
(٦) المحبر ص ١٣٩ ومقشعرا : أصابته قشعريرة أى رعدة

بلغت مبلغاً عظيماً من الثراء فى أثناء العصر الجاهلى ، حتى اشتهر أشرافها بأنهم كانوا يملكون دوراً ليصيّفوا فيها بالطائف .

وليس من ريب فى أن هذا كله يؤكد أنه كانت هناك ثروات ضخمة فى الجاهلية . وقد أخذت هذه الثروات تتأثر –كما مرَّ بنا– فى أثناء الحروب بين النبى صلى الله عليه وسلم و بين مكة ، كما أخذت تتأثر أكثر بمهاجرة كثير من أصحابها إلى المدينة . بل لقد أغلقت طرق القوافل المكية حينما فتح طريق العراق إلى الشام بعد فتح البلدين ، فحُملت فيه تجارة الهند . غير أن مكة فُتح لها طريق آخر ، لم يكن فى هذه المرة طريق قوافل ، ولا كان خاصاً بها ، بل كان عاماً لها ولأهل المدينة والعرب جميعاً وهو هذا الطريق ، بل الطرق الحربية ، التى انتهت بالعرب إلى كنوز بلاد فارس ومصر والشام . وكان القرشيون مميَّزين فى هذه الفتوح ، فكان كثير منهم يرأس الجيوش والحملات ، وكان كثير منهم يتولى على المقاطعات والولايات . وانصبَّت كنوز الأرض فى حجورهم وحجور العرب ، يقول ابن خلدون : « إن بحار الرَّفَه زخرتْ لديهم حتى كان يُقْسَمُ للفارس الواحد فى بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب[١] » ومرَّ بنا فى حديثنا عن الثراء والحضارة فى المدينة أن الأسلاب قُسمت بعد موقعة القادسية فبلغ سهم الفارس أربعة عشر ألفاً وسهم الراجل سبعة آلاف ومائة . وأن عمر خطب فى الناس مرة ، فقال : « إنه قدم علينا مال كثير إن شئتم أن نعدَّه لكم عداً ، وإن شئتم أن نكيله لكم كيلاً » كما مر بنا أنه بلغ خراج سواد الكوفة وحدها فى عهد عمر عشرين ومائة ألف ألف ، وأنه لما كانت سنة خمس عشرة من الهجرة رأى عمر أن الفتوح قد توالت وأن كنوز الأكاسرة قد مُلكت ، وأن الحمول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تتابعت ، فدوّن الدواوين وفرض العطاء وجعل لكل واحد من المسلمين نوعاً مقرراً تراوح بين ألف وخمسة آلاف فى العام

وهذا كله كان يصبُّ فى بلاد العرب وخاصة فى البلدتين الكبيرتين اللتين كانت تقيم فيهما قريش ، وهما مكة والمدينة . وأخذ القرشيون يُثْرون ثراء لا نكاد

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٧ .

نتصوره الآن ، ومرَّ بنا فى الحديث عن الثراء والحضارة فى المدينة كيف وقف المسعودى عند ثروات بعض كبار الصحابة وقفة طويلة ، واستعرض ما صار إليهم وعجَّب منه ، ولا عجب ، فقد ملك العرب الأرض ، وأصبحوا من ذوى الألوف المؤلفة .

ومهما يكن فقد أثرى كثيرون من أهل مكة ثراء واسعاً ،ومن أهم أثريائها وأجوادها فى العصر الإسلامى الأول عبد الله بن عامر والى عثمان على البصرة ، وقد اشترى سوق البصرة من ماله ووهبها لأهلها ، فلم يكونوا يؤدون عنها خراجاً[١] ، واتخذ فى مكة حياضاً ونخلاً بعرفات ، وأقام النِّباج ، وهى قرية على الطريق بين مكة والبصرة ، واتخذ قريتين أخريين وغرس بهما نخلاً وأَنْبَطَ عيوناً[٢] . ويعرض ابن حبيب لجود القرشيين فى أوائل العصر الإسلامى عرضاً يشبه الآن أن يكون قصصاً ، فمنهم من كان يهب البستان قيمته ستمائة ألف درهم ، ومنهم من كان يهب الجارية ابتاعها بمائة ألف درهم[٣] .

ولما صار الأمر إلى معاوية اهتم ببلدته القديمة ، فأجرى فيها عشرة عيون ، واتخذ فيها بساتين[٤] ، وما زال الأمويون يعنون بها ، فكانوا يستنبتون بها الأشجار ويحفرون الخزانات والآبار[٥] . وروى اليعقوبى أن سليمان بن عبد الملك أراد الحج فكتب إلى عامله خالد القسرى والى مكة يأمره أن يجرى له عيناً من الماء العذب ، فعمل خالد بركة فى أصل « ثَبير » بحجارة منقوشة ، واستنبط ماءها من ذلك الموضع ، ثم شَقَّ من هذه البركة عيناً تجرى إلى المسجد الحرام فى قصب من رصاص ، حتى أظهرها فى فوارة تسكب فى فسقية رخام بين الركن وزمزم[٦] .

وليس من شك فى أن هذه مظاهر حضارة ، ولعل من أهم مظاهرها حينئذ اتخاذ الدور والقصور وبناءها بالآجرّ والجصّ واتخاذ أبوابها من الساج . ولم يكن يبنيها العرب ، وإنما كان يبنيها أجانب من الفرس والروم جلبوهم لهـــذا الغرض .

---

(١) المحبر ص ١٥٠ .
(٢) المعارف لابن قتيبة (طبع جوتنجن) ص ١٦٤ وانظر الأزرقى ١/٤٤١ .
(٣) المحبر ص ١٤٦ وما بعدها .
(٤) الأزرقى ١/٤٤٣ .
(٥) انظر مكة فى دائرة المعارف الإسلامية .
(٦) اليعقوبى ٢/٣٥١ .

وبنى معاوية لنفسه بمكة دوراً يقال لها الرُّقْط لاختلاف ألوانها ، بناها فُرس من العراق بالجِصّ والآجُرّ[١] ، ويُرْوَى أنه اشترى من حُوَيْطِب بن عبد العُزَّى داراً بأربعين ألف دينار[٢] . وباع آل عقبة بن الأزرق قسماً من دارهم قرب المسجد الحرام بثمانية عشر ألف دينار[٣] . واتسع بناء القصور فى مكة فى أثناء حكم ابن الزبير ، فقد انجلبت إليها الأموال من العراق ومصر ، ومن هذه الأموال بنى الكعبة[٤] . ويروى الأزرقى أن ابن عباس قال لابن صفوان صاحب ابن الزبير : هيهات ! هيهات ! تركت والله سنة عمر . . قضى عمر أن أسفل الوادى وأعلاه مناخ للحجاج ، وأن أجياداً وقُعَيْقعان للمريحين والذاهبين ، واتخذتها وصاحبك دوراً وقصوراً[٥] .

ويظهر أنهم بالغوا فى العناية ببناء هذه الدور والقصور حتى أصبحت تنافس دور دمشق وقصورها . روى الرواة أن معاوية حج ذات مرة فوقف أمام دار عبد الله بن الحارث جد الثريا صاحبة عمر بن أبى ربيعة يتعجب من حسن بنائها ، فخرج إليه عبد الله يقول : لا أشبع الله بطنك ! أما تكفيك الخلافة حتى تطلب هذه الدار[٦] .

ولم يكن كل ما أصاب الناس فى مكة من تغير تحت تأثير الحضارات الأجنبية التى أخذوا ينقلونها هناك هو بناء الدور والقصور فحسب ، فقد أخذت معيشة القوم تتغير – ونقصد طريقة أكلهم وحياتهم – إذ دخل مكة كثير من الرقيق والجوارى الفارسيات والروميات . دخلوا فى عصر الخلفاء الراشدين مع الفاتحين الذين جلبوهم ، وكان القوّاد أنفسهم يرسلون بهم ، فقد أرسل معاوية – كما مر بنا فى كتاب المدينة – إلى عمر بأربعة آلاف من سَبْى قَيْسارِّية ، واستمرت هذه السيول الأجنبية فيما بعد ، وساعد عليها ثراء الناس وأسواق الرقيق .

ولا ريب فى أن هذا الرقيق الفارسى والرومى غيَّر كثيراً فى معيشة القوم إذ

---

(١) الأزرقى ٤٤٩/١ وانظر الأغانى طبع دار الكتب ٢٨١/٣ .
(٢) المعارف ص ١٥٩ .
(٣) الأزرقى ٤٥٩/١ .
(٤) الأخبار الطوال للدينورى ص ٢٨١ .
(٥) الأزرقى ٣٩٢/١ .
(٦) أغانى طبع دار الكتب ٢١١/١ .

كانوا يقومون على خدمتهم وكانوا يعدّون لهم حياتهم إعداداً وصوَّر ذلك تصويراً دقيقاً ابن خلدون فى النص الطويل الذى نقلناه عنه فى الحديث عن الثراء والحضارة فى المدينة .

والحق أن أهل مكة والعرب جميعاً اقتحمتهم الحضارات الأجنبية اقتحاماً ، وأخذت تغزوهم فى عُقْر دورهم وفى حياتهم وطريقة معيشتهم ، فإذا كانوا قد فتحوا فارس وبلاد الروم (مصر والشام) حربيًّا فإن هذه البلدان فتحتهم حضاريًّا . وأقبلوا على ذلك أول الأمر حذرين على نحو ما أقبل عمر فى الأخذ بنظام الدواوين الفارسى ، فاقتصر على ديوان العطاء(١) ، ولكن لا نصل إلى معاوية حتى نجده يأخذ نظم الدواوين الفارسية كلها(٢). وهذا ما نلاحظه فى الحياة نفسها ، فقد كان الصحابة إلى عصر عمر لا يتعمقون الحضارات الأجنبية ولا يأخذون إلا بظاهر منها ، ولكنهم أخذوا يتعمقونها فى أثناء عصر عثمان(٣) ، وكلما تقدموا فى الزمن تقدم بهم التأثر بهذه الحضارات .

وساعد أهل مكة على الاستمرار فى هذا التأثر ما ورثوه عن آبائهم فى الجاهلية من أموال ، وما جلبه لهم هؤلاء الآباء فى الفتوح الإسلامية من ثروات ، وكان ديوان العطاء الذى استحدثه عمر مدداً مستمراً طوال العصر الأموى لا ينقطع . ومن المعروف أن الأمويين كانوا يغدقون أموالهم على شباب مكة والمدينة ليلهوهم عن طلب الملك والخلافة(٤). فكان لذلك كله أثره فى استمرار البذخ الذى عرفته مكة عقب الفتوح . يدلّ على ذلك من بعض الوجوه ما كانوا يتخذونه فى الكسوة التى كانت توضع على الكعبة ، ومعاوية هو أول من كسا الكعبة الديباج واشترى لها العبيد(٥). ولما فرغ ابن الزبير من بنائها كساها القباطىَّ ، ومسح بالخَلُوق داخلها وخارجها ، فكان أول من خَلَّقها(٦). وبعث الوليد إلى خالد بن عبد الله القسرى وهو على مكة بثلاثين ألف دينار ، فضُربت صفائح ، وجُعلت على باب الكعبة وعلى

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى طبع الحلبى ص ١٧ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٤ .
(٣) المسعودى ٤/٢٥٣ .
(٤) انظر الفخرى ص ١٢٧ وابن عبد ربه ١/١٤٥ .
(٥) اليعقوبى ٢/٢٨٣ .
(٦) اليعقوبى ١/٣١١ .

الأساطين التى داخلها وعلى الأركان والميزاب ، فكان أول من ذهَّب البيت فى الإسلام[١] .

وهذه كلها صور من الحضارة التى أخذت تغزو مكة بل الكعبة نفسها ، ولا ريب فى أن البيوت خلف الكعبة كانت تأخذ بحظ بل بحظوظ مختلفة من هذه الحضارة .

٦

ترف وبعض فنون اللهو :

وهذا الثراء وتلك الحضارة سرعان ما تحوّلا إلى ضروب من الترف والنعيم ، وماذا ينقص أهل مكة لكى يترفوا ؟ إن المال مِلْءُ حجورهم والجوارى الفارسيات والروميات مِلء قصورهم . وليس من ريب فى أن هؤلاء الجوارى كنّ يفهمن الحياة فى صورة أخرى غير الصورة العربية ، وأنهن أخذن يدخلن هذه الصورة فى دور مكة وقصورها ، يساعدهن فى ذلك الموالى والرقيق الذى حُشد هناك من كل مكان .

وبون بعيد بين حياة المكيين فى العصر الإسلامى وحياتهم فى العصر الجاهلى ، فقد كانت حياتهم حينذاك خشنة إلى حد ما ، أما فى هذا العصر فقد بُدِّلوا حياة أخرى عرفوا فيها كل ضروب النعيم والترف فى المطعم والملبس وفنون الزينة المختلفة ، إذ أتيح لهم أن يأخذوا بحظوظ وافرة فى كل جانب من جوانب الحياة ، فطعموا الألوان المختلفة المترفة من الطعام[٢] ، وأكلوا وشربوا فى أوانى الذهب والفضة[٣]، ولبسوا السُّنْدُس والديباج والإِسْتَبْرق ومقطَّعات الخزِّ[٤] والحرير والحلل الموشَّاة[٥] ، وحتى إبلهم كانوا يضعون فوقها القطوع والديباج[٦] ، وكانوا يضعون فى أعناق

---

(١) اليعقوبى ١/٣٤٠ .

(٢) المستطرف للإبشيهى طبع المطبعة العثمانية بمصر ١/١٦٢ .

(٣) ابن عبد ربه ١/١١١ وابن سعد ٤/١٢٦

(٤) أغانى طبع دار الكتب ٥/٦٦ .

(٥) أغانى طبع دار الكتب ١/٢٢١ وأنظر ١/٢٧٨ .

(٦) المصدر نفسه ١/٢٢١ .

خيولهم أطواقاًمن الذهب(١) . ويروى صاحب الأغانى فى أخبار الهُذَلى أحد مغنيهم أنه كان إذا أمسى أشرف على المسجد وغنّى وهو فى الجبل ، فلا يلبث أن يُرى الجبل كقرص الخَبيص صفرة وحمرة من أردية قريش(٢) . وكان العَرْجى الشاعر يلبس الحلتين بخمسمائة دينار(٣) أو بنحو ثلثمائة جنيه .

وإذا كان الرجال يصنعون ذلك كله أو يغرقون فى ذلك كله ، فإن النساء هن الأخريات غرقن فى فنون الزينة المختلفة ، سواء فى ملابسهن أو فى حليِّهن . وقد تفنَّنَّ فى اتخاذ الثياب الرقيقة الشفافة(٤) ، كما تفنن فى اتخاذ الحلى والجواهر(٥) . ولمعت أسماء جماعة من الفتيات والسيدات على نحو ما تلمع أسماؤهن فى البيئات المتحضرة من مثل السيدة عائشة بنت طلحة ، وكانت تقيم فى المدينة سنة وفى مكة أخرى ، وكانت تصيِّف بالطائف (٦) ، وكان لها ماشطتها الخاصة(٧) التى تعنى بطيبها وعطرها (٨). وعلى مثالها كانت الثريا بنت على بن عبد الله(٩) بن الحارث بن أمية الأصغر ، وكان أبوها من أثرياء مكة ، وكان لها قصر عظيم(١٠)، وكانت مثل عائشة تصيف بالطائف (١١). ويظهر أن دارها بمكة كانت تكتظ بالرقيق والجوارى ، فقد تخرَّج فيها اثنان من أشهر المغنين هما الغريض ويحيى قَيْل ، كما تخرجت فيها سُمَيَّة ، المغنية . وكانت الثريا جميلة وكان فيها دَلٌّ وإعجاب بنفسها(١٣) على عادة الفتيات والسيدات المترفات .

وليس بين أيدينا أخبار واضحة عن هؤلاء السيدات وما كنَّ ينفقن فى زينتهن ،

---

(١) أغانى ٢٥٩/١ .

(٢) أغانى طبع دار الكتب ٦٥/٥ والخبيص : نوع من الحلواء يتخذ من التمر والسمن .

(٣) أغانى طبع دار الكتب ٣٩٥/١ وفى حديث أبى بكر حين حضرته الوفاة : والله لتألمن النوم على الأذربىّ كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان .

(٤) انظر ديوان عمر بن أبى ربيعة ص ٧٤ ، ٢١١ ، ٢٨٣ وانظر الأغانى ٤٠٤/١ .

(٥) ابن سعد ٣٤٣/٨ وأغانى ٢٧٣/٨ وانظر ٢٧٨/٨ .

(٦) أغانى طبع بولاق ٦١/١٠ .

(٧) أغانى ٦٠/١٠ .

(٨) أغانى ٥٤/١٠ .

(٩) انظر فى نسبها الأغانى ٢١٠/١ .

(١٠) أغانى ٢١١/١ .

(١١) أغانى ٢١٢/١ .

(١٢) أغانى ٣٥٩/٢ .

(١٣) أغانى ٢١٤/١ وما بعدها .

ولكن لا بد أنهن كن يُسْرفن فى ذلك ، فالمال كثير وحوانيت العطر والطيب حولهن(١) ، وكذلك حوانيت الثياب العدنية واليمنية(٢)والهروية(٣) . والمرأة من عادتها إن وجدت المال أنفقته على ملابسها وهيئتها وزينتها وعطرها .

ولعل أهم ما يلاحظ على هذه البيئة المترفة أن جمهرة من كانوا فيها من شباب كانوا فارغين من عمل ، فليس هناك ما يشغلهم ، وخاصة أن بنى أمية انصرفوا عنهم بعد ثورتهم مع ابن الزبير ، فلم يتخذوهم على الولايات ، ومع ذلك لم يمنعوهم عطاء ، بل كانوا يزيدون فيه من حين إلى حين ، فهم أهلهم وعشيرتهم الأقربون . وورثوا عن آبائهم فى الجاهلية والإسلام أموالاً ضخمة كما قدمنا ، فكان ذلك كله سبباً فى أن تتكوّن بمكة طبقة من الشباب المترف العاطل الذى نُشِّىء فى الحِلْيَة والزينة .

ومثل هذا الشباب فى المدن المترفة إن لم يُوَجَّه لدراسات فكرية ، تَوَجَّه تواً إلى اللهو وبعض الملاهى حتى يقطع وقته فى المتعات الممكنة . وأهم متعة عُنيت بها مكة فى هذا العصر هى متعة الغناء ، وسنعرض لها بالتفصيل فى الفصل التالى . ومن أخبارهم فى هذا الباب أنهم تعلقوا بلعب الشطرنج والنَّرْد والقَرْق أو ما يسمى فى مصر بالسِّيجة(٤) . روى أبو الفرج أن « عبد الحكم الجمحى اتخذ بيتاً فيه شطرنجات ونرْدات وقرقات ودفاتر فيها من كل عِلم ، وجعل فى الجدار أوتاداً ، فمن جاء علَّق ثيابه على وتد منها ، ثم جَرَّ دفتراً فقرأه ، أو بعض ما يلعب به ، فلعب به مع بعضهم(٥) » .

وعلى هذا النحو انتشرت بعض الملاهى فى مكة ، وانتشر معها المرح ، وربما كان من أهم ما يصوره أن نجد لمكة فى هذا العصر مضحكاً مشهوراً ، كانوا يتخذونه للتندر والدعابة . وهذه عادة من عادات الجماعة حين تتمدين وتتحضر ، فإنها تميل إلى الدعابة والنادرة ، ويوجد لها من يضحكها وينشر فى جوها المرح . ومضحك مكة حينئذ شاعر خفيف الروح يسمى الدَّارمىّ ، ترجم له أبو الفرج

---

(١) أغانى ٣٩٩/٢ وانظر ٤٧/٣ .
(٢) أغانى ٣٦٨/٢ وانظر ٢٥٩/١ .
(٣) أغانى ٢٥٩/١ .
(٤) انظر لعب العرب لتيمور ص ٤٩ .
(٥) أغانى ٢٥٣/٤ .

ترجمة طريفة ذكر فيها مجموعة من نوادره ، فمن ذلك أنه كان عند بعض الولاة يحدثه ، فأغفى الوالى ، فعطس الدارمى عطسة هائلة ، ففزع الوالى فزعاً شديداً ، ثم استوى جالساً وقال له : أتفزعنى ؟ قال : كلا ! ولكن هكذا عُطاسى ، فقال ائتنى ببيّنة على ذلك . فخرج فأتاه برجل ، فسأله الوالى : بم تشهد لهذا ؟ قال : أشهد أنى رأيته مرة عطس عطسة ، فسقط ضرسه ، فأغرق الوالى فى الضحك[1] .

وكما كان الدارمى يُضحك الأمراء والرجال فى مكة ، كان يُضحك النساء ، فكان لا يطيب لهن متنزّه إلا به[2] ، وهو فى ذلك يشبه أشعبَ مضحك المدينة . وطلبت منه جارية طيباً ، وكان فيه بخل وحرص ، فوعدها بإحضاره ، ثم ثاب إلى رشده فقال :

أنا بالله ذى العِزِّ وبالرُّكن وبالصَّخْره
من اللائى يُردنَ الطيـ ـبَ فى اليُسْر وفى العُسْرَه
وما أقوى على هـذا ولو كنتُ على البَصْره

وتصادف أن التقيا ، فعاتبته إلى أن قالت له : يا دارمى أتحبنى ، فقال : نعم ، أفتحبيننى ؟ قالت : نعم . قال : فيا لكِ الخير ! فأنت تحبينى وأنا أحبك فما مدخل الدراهم بيننا[3] . وكانت له بديهة حاضرة ، قال له محمد بن إبراهيم الإمام : لو صلحت عليك ثيابى لكسوتك ، قال : فديتك ! إن لم تصلح علىَّ ثيابك صلحَت علىَّ دنانيرك[4] .

وهذا المجتمع المرح الضاحك الذى كان يأخذ بحظوظ من الفكاهة ، كان يأخذ أيضاً بحظوظ من الحرية ، وهى حرية ينبغى أن لا نُسىء فهمها ، فمن طبيعة المجتمعات المتحضرة أن يكثر فيها لقاء الرجال للنساء . وهذا ما نلاحظه فى مكة فى أثناء هذا العصر ، فأبو الفرج يروى أن عائشة بنت طلحة كانت

---

(١) أغانى ٣/٤٨ .
(٢) أغانى ٣/٤٧ .
(٣) أغانى ٣/٤٧ .
(٤) أغانى ٣/٤٨ .

تسفر ولا تستر وجهها من أحد[١]، وكذلك كانت عَمْرة[٢] الجُمَحِيَّة صاحبة أبي دَهْبل الشاعر المكى المعروف .

ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم لقاء عمر بن أبى ربيعة بالثريا[٣] وبغيرها من شريفات[٤] مكة . وليس فى هذا غرابة ما دام المجتمع كان يبيح اللقاء الشريف بين الرجال والنساء ، وكل ما فى المسألة من غرابة أننا نأبى أن نقيس الماضى على الحاضر ، وننظر إلى بعض جوانب الحياة فى المدن القديمة نظرة ضيقة .

---

(١) أغانى ٥٤/١٠ .

(٢) أغانى طبع دار الكتب ١٣٥/٧ .

(٣) أغانى طبع دار الكتب ٢١٥/١ وما بعدها .

(٤) أغانى ٩١/١ وانظر أغانى ١٠٥/١ .

الفصل الثانى

الغناء فى مكة

١

فى العصر الجاهلى

مَنْ يُعنى بدرس الحياة العربية فى العصر الجاهلى يلاحظ كثرة النصوص التى تدل على انتشار الغناء وذيوعه فى كل مكان من الجزيرة العربية . يقول المسعودى : « لم تكن أمة من الأمم بعد فارس والروم أولَع بالملاهى والطرب من العرب[١] » . ويكاد الإنسان لا يقرأ ديوان شعر جاهلى لشاعر مهمّ إلا ويجد فيه ذكر الشراب والغناء[٢] ، ويظهر أن الشعراء أنفسهم كانوا يغنون أشعارهم ، وفى الأغانى أن المهلهل تغنى ببعض شعره[٣] وكذلك السُلَيك[٤] بن السُّلَكة . ولعل مما يدل على ذلك أن نجدهم يعبّرون عن إنشاد الشعر بالغناء والتغنى . ففى حديث عمر بن الخطاب للنابغة الجَعدى أنه قال له : « أسمعنى بعض ما عفا الله لك عنه من غنائك ، يريد من شعرك[٥] » .

فالشعر والغناء كانا مرتبطين فى العصر الجاهلى ، وكانا يتخللان حياة العرب فى سلمهم وحربهم . ومما يشهد لذلك من بعض الوجوه ما يقوله ابن رشيق من أن القبيلة من العرب كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك ، وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن فى الأعراس[٦] . فالشاعر كان

---

(١) المسعودى ٨/٩٣ .

(٢) انظر على سبيل المثال معلقة الأعشى ومعلقة طرفة وميمية علقمة بن عبدة الفحل .

(٣) أغانى طبع دار الكتب ٥/٥١ .

(٤) أغانى طبع بولاق ١٨/١٣٤ .

(٥) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة الثامنة) ص ٤٣ .

(٦) ابن رشيق ١/٣٧ وانظر المزهر طبع بولاق ٢/٢٣٦ .

يُستَقبل بالغناء ، وأكبر الظن أنه كان يشارك فيه .

ولم تكن مكة شاذة على هذا الذوق العام عند العرب ، بل لعلها كانت مبرِّزة فى هذا الجانب بحكم ما فيها من مال وثراء . وكان بجوارها سوق عكاظ ، وفيها كانت تُلقى قصائد الشعر الكبيرة المسماة بالمطوَّلات أو المعلقات . ومن يدرى لعلها كانت تغنَّى(١) أيضاً ، إذ كانت أسواق العرب مجتمع الشعراء والمغنين والمغنيات(٢).

وكانت مكة من جهة أخرى مركز الوثنية الجاهلية ، ولا بد أنهم كانوا يرتِّلون وينشدون بعض الأناشيد فى أثناء حجهم وإفاضتهم . ومما يُرْوَى أنهم كانوا يرتِّلون : « أشرق ثَبير كيما نُغير(٣)» . وفى القرآن الكريم : (وَمَا كَانَ صَلَاتُهم عِنْد البَيْتِ إلاَّ مُكاءً وتَصْدِيَةً) . والمكاء : الصفير ،والتصدية : التصفيق . وفى المحبّر لابن حبيب صورٌ لتلبياتهم وتهليلاتهم فى الجاهلية(٤). ويقول المسعودى : « لم تكن قريش تعرف من الغناء إلا النَّصْب(٥) » . وربما كان فى اشتقاق هذه الكلمة ما يدل على أن هذا ضرب من النشيد الدينى حول الأوثان ، وفى الحديث : « كلهم كان يَنْصِب » أى يغنى غناء النَّصْب(٦).

وفى هذا العصر لم تكن فكرة الحريم قد ظهرت ، فكان النساء يتمتعن بما يتمتع به الرجال ، وكن يشتركن فى الغناء على شكل جوقات وخاصة فى الأعراس إذ كن يعزفن على الدفوف والمزامير(٧) ، وفى الحروب إذ كن ينشدن أناشيد حربية لتحميس الجيش . ومما يُرْوَى فى هذا الصدد أن هنداً بنت عتبة وجماعة من نساء قريش كن يضربن على الدفوف فى غزوة أحد ، وكانت هند تنشد الشعر ، وكن يَرْدُدْن عليها(٨). وكان من الفنون الخاصة بالنساء فى الجاهلية واشتهرت فيها هند بنت عتبة النواحُ وندب الموتى(٩).

وبجانب هند وصواحبها القرشيات نجد أحاديث كثيرة عن القيان فى مكة ،

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١/٤٠٣ .
(٢) طبرى ١/١٣٠٧ .
(٣) دائرة المعارف الإسلامية ٢/٢٠٠ .
(٤) المحبر ص ٣١١ .
(٥) المسعودى ٨/٩٣ .
(٦) أنظر مادة نصب فى لسان العرب .
(٧) الطبرى ١/١١٢٦ .
(٨) الطبرى ١/١٤٠٠ .
(٩) أغانى طبع دار الكتب ٤/٢١٠ . وانظر أيضاً أغانى طبع بولاق ١٩/٨٨ وما بعدها والمفضليات ص ٢١٥ .

ويتعمق ذكرهن فى تاريخها القديم ، حتى ليزعم الرواة أن عاداً وفّدت فى أيام العماليق وفداً يستقى لها من مكة ، فلما وصل الوفد إلى مكة أقبل على الشراب واللهو والسماع إلى غناء الجرادتين ، وكانتا قينتين لمعاوية بن بكر[١] . وكان عند عبد الله بن جُدْعان قبيل الإسلام قينتان سماهما الجَرادتين ، وكانتا تغنِّيان الناس ، وقد وهبهما لأمية ابن أبى الصلت الثقفى ، وكان امتدحه[٢]. وفى الأغانى أن أبا سفيان « نصح قريشاً أن ترجع فى غزوة بدر ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرى بدراً ، فنقيم عليه ثلاثاً وننحر الجزر ونطعم الطعام ونُسْقَى الخمور ، وتعزفَ علينا القيان ، وتسمع بنا العرب[٣] » .

وكل هذه النصوص تدل على أن القيان كنّ كثيرات فى مكة فى أثناء العصر الجاهلى . ويروى الزمخشرى فى الكشاف أن النضر بن الحارث كان يشترى المغنيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته ، فيقول : « أطعميه واسقيه وغنِّيه ، ويقول هذا خير مما يدعوك إليه محمد[٤] » .

وهنا يختلف الباحثون فيقول ليال إن هؤلاء القَينات كن إما فارسيات وإما يونانيات من سوريا ، وكن يتغنين أشعاراً عربية ولكن بألحان أجنبية ، ويزعم فون كريمر أن هؤلاء القيان كن يغنين بلسانهنّ الفارسى أو اليونانى[٥] ، ولعله ذهب هذا المذهب لقول حسان بن ثابت إنه رأى عند جَبلة بن الأيهم « عشر قيان : خمساً روميات يغنين بالرومية بالبرابط ، وخمساً يغنين غناء أهل الحيرة[٦] » . ولكن هذا إن صدق فى بلاط جبَلة فإنه لا يَصدق على مكة وغيرها من قرى الجزيرة وبواديها ، بل إن الأخبار كلها التى تدور حول هؤلاء القيان تدل على أنهن كن يتغنين باللسان العربى ، وقد غنت إحداهن شعراً للنابغة فيه إقواء ، ودلَّته بصوتها على موضعه[٧] وكانت جرادتا عبد الله بن جدعان تغنيانه بشعر أمية بن أبى الصلت فيه[٨].

---

(١) الطبرى ١/٢٣٣ والمسعودى ٣/٢٩٦ حيث يزعم أن اسم إحداهما ثماد والثانية قعاد .

(٢) أغانى طبع دار الكتب ٨/٣٢٧ .

(٣) أغانى ٤/١٨٣ ، وانظر الطبرى ١/١٣٠٧

(٤) انظر تفسير الكشاف فى سورة لقمان وتعليقه على الآية الكريمة : « ومن الناس من يشترى لهو الحديث » .

(٥) أنظر هنا Farmer, A Hist. of Arabian Music (London 1929) p. 12

(٦) أغانى طبع بولاق ١٦/١٥ .

(٧) أغانى طبع بولاق ٩/١٦٤ .

(٨) أغانى طبع دار الكتب ٨/٣٢٨ وما بعدها .

ومهما يكن فقد كان الغناء منتشراً فى مكة فى أثناء العصر الجاهلى ، وكان يشترك فيه نساء قريش وهذه العناصر الأجنبية من القيان . ويظهر أن الرجال كانوا يشتركون فيه أيضاً ، فحسّان بن ثابت يروى أنه كان يفد على جبلة بن الأيهم من يغنيه من مكة[١]، ويروى المسعودى أن النضر بن الحارث قدم العراق فتعلم ضرب العود والغناء عليه ، ثم قدم مكة فعلّم أهلها فاتخذوا القينات[٢]. واتخاذ القينات هنا معناه المبالغة فيه .

ونرى من ذلك كله أن موجة حادة من الغناء اكتسحت مكة فى العصر الجاهلى ، حتى بلغ من بعض القوم هناك أن يرتحل إلى العراق فيطلب تعلم الغناء ثم يعود فيعلمه قومه . وهذا دليل نهضته ، وإن كنا لا نستطيع أن نتحقق منها ، إذ ليست عندنا صور من غناء القوم ، تدل على مدى ما اتخذوه من رسوم فى غنائهم .

على أنا نميل إلى أن الغناء بمكة فى هذا العصر الجاهلى لم تُرْسَمْ له قواعد ، إنما كان المغنون والمغنيات والقيان ، كل يغنى حسب ذوقه وميوله وعواطفه ، إذ كان العرب لا يزالون أقرب إلى الفطرة فى كل فنونهم .

٢

فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين

لا تكاد الحوادث والشخصيات تتضح فى مكة فى أثناء عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، ومن أجل ذلك تقلّ النصوص عن حركة الغناء حينئذ . غير أن المعقول أن أدواته ومعازفه لم تحطم بعد الفتح لسبب بسيط ، وهو أن الإسلام لم يحرم الغناء ، فلم يرد فى القرآن الكريم نص صريح ضده . وذهب بعض المفسرين[٣] إلى أن قوله تعالى فى سورة فاطر : (يَزِيدُ فى الخلْقِ مَا يَشَاءُ) ، إنما يشير إلى الصوت الحسن ، وفى سورة لقمان : (إِنَّ أَنْكَرَ الأصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ) .

---

(١) أغانى ١٦/١٥ .

(٢) المسعودى ٨/٩٣ .

(٣) انظر تفسير البيضاوى للآية الكريمة .

وإذا تركنا القرآن الكريم إلى الحديث الشريف وجدنا الغزالى كما مرَّ بنا فى حديثنا عن الغناء فى المدينة لعصر الرسول والخلفاء الراشدين يعقد فصلاً طويلاً فى إحيائه للسماع والغناء ، وقد برهن بأحاديث كثيرة على إباحته ، وقال إنه لا يدعو إلى تحريمه نص ولا قياس.

وأكبر الظن أن الغناء ظل بمكة فى أثناء عصر الرسول واستمرَّ ونما فى عصر الخلفاء الراشدين ، فقد أقبلت أسلاب الفتوح الإسلامية ومغانمها على الحجاز فى عهد أبى بكر وعمر ، وأقبل معها كثير من الرقيق الأجنبى . ولا نصل إلى عصر عثمان حتى نشعر أن حياة العرب على وشك التحول إلى الترف وما يتبع الترف من لهو وملاهٍ ، فقد فُتحت البلدان ، ومُصِّرت الأمصار ، وعاد كثير إلى ديارهم فى الحجاز : مكة وغيرها ، ولم يعودوا فارغين ، وإنما عادوا وحجورهم مملوءة بالمال ، فبنوا القصور على مثال ما رأوا فى الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية ، وحشدوا فيها الأسرى من فرس وروم ، وأخذوا يستبدلون بحياتهم القديمة حياة جديدة ، فيها تأثر واضح بألوان الحضارة الأجنبية ، كما أخذوا ينمّون الفن القديم فى بيئتهم ، فن الغناء ، وكان كثير منهم يجلب معه بعض المغنين أو بعض المغنيات ، ومن طريف ما يُرْوَى أن عبد الله بن عامر والى البصرة لعثمان اشترى جوقة من الإماء الصنَّاجات (١).

وكما قدمنا ليست حوادث مكة وشخصياتها واضحة فى هذا العصر ، عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، ولذلك لا تتضح لنا فى سهولة حركة الغناء فيها حينئذ وما نالته من رقى وحظيت به من تقدم تحت تأثير العناصر الأجنبية الجديدة المجلوبة من الفتوحات ، إذ تختفى ظروف الحياة وشخصياتها فى هذه الحقبة بمكة وراء ظروف الحياة وشخصياتها فى المدينة العاصمة . غير أن ما كثر فى المدينة حينئذ من مغنين ومغنيـات جُلبوا من الخارج يـدل على أن مكـة هى الأخرى شاركتها فى هذا الجانب ، وخاصة منذ عصر عثمان ، إذ أخذ المسلمون يخطون خطوات واسعة نحو الترف والمتاع ببعض الملاهى .

---

(١) أغانى طبع دار الكتب ٨/٣٢١ .

٣

فى العصر الأموى

لعلنا لا نغلو إذا قلنا إن الغناء كان أهم شيء فى الحياة بمكة وغيرها من مدن الحجاز فى أثناء العصر الأموى ، فقد أقبل الناس عليه إقبالاً شديداً ويخيل إلى الإنسان أن أيام الناس ولياليهم كلها أصبحت غناء ، ففى كل مكان وفى كل زمان لا نسمع إلا أحاديث الغناء والمغنين .

ويزعم المسعودى أن الغناء لم يَنْمُ فى مكة والمدينة إلا منذ عصر يزيد بن معاوية (١). وهذا غير صحيح إلا إذا سلمنا بأن يزيد هو الذى أشاع الغناء هناك ، وقد رأينا الغناء منذ العصر الجاهلى ، ووجدناه مستمراً فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين . والصحيح أن الغناء أخذ فى النمو بمكة والمدينة جميعاً تحت تأثير العناصر الأجنبية التى جلبها الفاتحون هناك ، منذ عصر عثمان . ويؤكد ذلك أننا لا نصل إلى مفتتح العصر الأموى حتى نجد مغنين مشهورين ، يتقنون الغناء على أصول نظرية عربية حديثة ، وهى نظرية لم تتم فجأة ، بل أخذ تكوّنها مدة طويلة من الزمن . ولذلك كنا نظن ظنًّا أن الغناء بدأ فى النمو منذ عصر عثمان ، لا عصر يزيد ابن معاوية كما يقول المسعودى .

ونحن لا نكاد نتقدم فى العصر الأموى حتى نجد لمكة مغنين مشهورين من مثل ابن مسْجَح وابن مُحْرِز وابن سُرَيْج والغَرِيض ويحيى قَيْل والأبْجَر ، وغيرهم كثير . ومن يقرأ فى الأغانى لأبى الفرج لا يزال يجد من حين لآخر اسم مغنٍّ مكى أو مغنية مكية من مثل بَغوم وأسماء وكانتا أَمَتين عند عمر بن أبى ربيعة(٢)، ومثل سُمَيَّة وكانت أمة فى دار الثريا بنت على الأموية (٣) ومكة لا تشتهر هذا العصر بدور كبيرة للمغنيات مثل دار عَـــزّة الميْلاء فى المدينة ، وكذلك دار جميلة التى

---

(١) المسعودى ٥/١٥٧ .

(٢) أغانى طبع دارالكتب ١/١٦٥ .

(٣) أغانى ٢/٣٥٩ .

خرّجت كثيراً من المغنيات . وينبغى أن نلاحظ أن أكثر المغنيات اللائى اشتهرن فى دار جميلة كن يزرن مكة وخاصة فى مواسم حجها ، وذهبت جميلة فى أحد المواسم –كما مرَّ بنا فى حديثنا عن المدينة وأنها أهم مراكز الغناء فى العصر الأموى– وكان معها الفَرِهَة وعَزَّة الميلاء وحبَابة وسَلَّامة وخُليدة وعُقيلة والشماسيّة وفَرْعه وبلبلة ولذَّة العيش وسُعَيْدة والزرقاء ، ثم خمسون قينة لأهل المدينة خرجن معها لكى يأخذن عنها بعض الغناء .

وقد يكون من المبالغة أن نفصل فى هذا العصر بين المغنين والمغنيات فى مكة والمدينة ، فدائماً كان هناك اتصال ، ودائماً كان مغنى مكة يذهب إلى المدينة ، ومغنى المدينة يذهب إلى مكة . فطويس وسائب خاثر ومعبد وابن عائشة ومالك الطائى وعطرَّد ، كل هؤلاء كانوا يزورون مكة ويغنون فيها ، وكذلك كان يزور المدينة ويغنى فيها ابن مِسْجح وابن محرز وابن سُرَيْج والغريض والأبجر ويحيى قَيْل ، وغيرهم . ولم يكن هذا شأن المغنين وحدهم ، فقد كان أيضاً شأن المغنيات بل كان شأن الناس أنفسهم ، فكل شاعر مكى مشهور نجد فى أخباره أنه زار المدينة ، وكل شاعر مشهور فى المدينة نجد كذلك فى أخباره أنه زار مكة . ويخيل إلى الإنسان كأنما كانت إحدى البلدتين ضاحية للأخرى ، أو كأنما كانت بينهما مرحلة واحدة . وكان هذا سبباً فى اختلاط النصوص على بعض الباحثين ، فلم يكادوا يميزون فى شاعر مثل عمر بن أبى ربيعة بلدته التى كان يعيش فيها أهى مكة أو المدينة لكثرة أخباره فى البلدتين جميعاً . ومن الطُّرَف التى تصوّر ذلك من بعض الوجوه أن نجد سَلَّامة المغنية المشهورة التى خرَّجتها جميلة ، والتى ابتاعها يزيد بن عبد الملك بعشرين ألف دينار لا يشتهر بها وبحبها أَحدُ سكان المدينة ، وإنما يشتهر بذلك أحد قُرَّاء مكة ويسمى عبد الرحمن بن أبى عَمَّار الجُشَمِيّ ، وكان يلقب بالقسّ لعبادته ، سمعها فى المدينة ، وربما فى مكة ، فتعلق بها وشُغف حبًّا ، وراح ينظم – كما مرَّ بنا – فيها أشعاره .

ولا يستطيع أن يفهم مدى ما كان من نهضة فى الغناء واتساع به فى مكة والمدينة جميعاً إلا مَن يرجع إلى كتاب الأغانى ويقرأ فيه أخبار المغنين والمغنيات هناك ومواكبهم ودورهم ونواديهم . ومن الدور والنوادى الشهيرة فى مكة دار كانت ببعض

أطرافها ، وكان يأتيها ابن سُرَيج والغريض فى كل جمعة ، ويجتمع لهما ناس كثير من مكة ، ويوضع لكل منهما كرسى يجلس عليه ، ثم يغنى كل منهما صوتاً ، أو كما نقول الآن دوراً[١]. وكانت كل دار لمغنّ تعدّ نادياً من نوادى الغناء ، فهو يستقبل فيها من يريدون سماعه[٢]، وكذلك كانت بعض دور الأشراف والشريفات تعدّ كأنها نواد ، كدار ابن أبى ربيعة الذى كان يلزمه المغنون وعلى رأسهم ابن سُرَيْج وكان هو نفسه يشترى القيان والإماء المغنيات ، ومثل دار الثريا بنت على بن عبد الله بن الحارث الأموية ، وقد تخرج فيها الغريض ويحيى قَيل وسُمَيَّة[٣]. وكان المغنون يقصدون إلى بعض دور الأشراف فيغنونهم ، كما كانوا يقصدون إلى بعض نواديهم ، وكانوا يظهرون فى الأعراس وفى حفلات الختان[٤]. وكانوا يكثرون من الوقوف فى طريق الحاج[٥] وعلى أبى قُبَيس[٦] وأخشَب[٧] مِنى وعند بستان[٨] ابن عامر ، فيركب الحاجُّ بعضهم بعضاً ، ويُحْبَسُون عن مناسك الحج ومشاعره ، وكانوا يقفون أحياناً بين المأزِمين[٩] وعلى كَثَب من التنعيم[١٠] وكانت تضطرب المحامل وتمدّ الإبل أعناقها .

واندفع الناس فى مكة يعجبون بهذا الغناء ، ومعهم الفقهاء ، وعلى رأسهم عطاء بن أبى رباح تلميذ ابن عباس ، ويَرْوِى الرواة أنه ختَن ابنه واستدعى فى ختانه الغَرِيض وابن سُرَيْج[١١] ، كما يروون أنه لقى ابن سُرَيْج بذى طُوًى فأسمعه صوتاً ، فلما سمعــــــه « اضطرب اضطراباً شديداً ودخلته أريحية ، فحلف ألا يكلم أحداً بقية يومه إلا بالشعر الذى غنَّى فيه ابن سريج ، وصار إلى مكانه من المسجد الحرام ، فكان كل من يأتيه سائلا عن حلال أو حرام أو خبر من الأخبار لا يجيبه إلا

---

(١) أغانى طبع دار الكتب ١/٢٧٦ .
(٢) أغانى ٢/٣٦٨ .
(٣) أغانى ٢/٣٥٩ .
(٤) أغانى ١/٢٧٨ .
(٥) أغانى ١/٢٥٩ .
(٦) أغانى ٢/٣٦٢ .
(٧) أغانى ١/٢٩٣وأخشب منى إما أبو قبيس أو قعيقعان أو الجبل الأحمر المشرف هناك .
(٨) أغانى ١/٣١٦ .
(٩) أغانى ٣/٣٤٥ والمأزمان : مضيقا جبلين بمكة .
(١٠) أغانى ٣/٣٤٦ والتنعيم : موضع على فرسخين ، من مكة .
(١١) أغانى ١/٢٧٨ وانظر ٢/٣٤٨ .

بأن يضرب إحدى يديه على الأخرى وينشد هذا الشعر حتى صَلَّى المغرب[١]» .
ومثل عطاء فى الإعجاب بهذا الغناء واستر واحه ابنُ جريج ، قال داود المكى :
«كنا فى حفلة ابن جريج وهو يحدثنا وعنده جماعة فيهم عبد الله بن المبارك وعدّة من العراقيين إذ مرَّ به ابن تَيْزَن المغنى وقد ائتزر بِمئْزر على صدره ، وهى إِزْرَةُ الشطَّار عندنا ، فدعاه ابن جريج فقال له : أحب أن تسمعنى ، قال : إنى مستعجل ، فألح عليه ، فقال له : امرأتى طالق إن غنيتك أكثر من ثلاثة أصوات ، فقال له : ويحك ! ما أعجلك إلى اليمين ! غنِّنى الصوت الذى غناه ابن سريج فى اليوم الثانى من أيام منى على جمرة العقبة ، فغنى ، فقطَع طريق الذاهب والجائى حتى انكسرت المحامل ، فغناه : [عوجى علىَّ فسلِّمى جَبْرُ] فقال له ابن جريج : أحسنت والله ! ثلاث مرات ، ويحك ! أَعِدْه ، قال ، من الثلاثة فإنى قد حلفت ، قال : أعده فأعاده ، فقال : أحسنت ، فأعده من الثلاثة ، فأعاده وقام ومضى ... والتفت ابن جريج إلى أصحابه ، فقال : لعلكم أنكرتم ما فعلت ؟ فقالوا : إنا لننكره عندنا بالعراق ونكرهه ، قال : فما تقولون فى الرجز يعنى الحُداء ؟ قالوا : لا بأس به عندنا ، قال : فما الفرق بينه وبين الغناء[٢]؟ » .
والفرق فى الواقع كان فرق ذوق ، إذ كان أهل العراق فى هذا العصر ينبذون الغناء ويطرحونه[٣]، ولم يُعْرَف لهم مغنّ مشهور فى العصر الأموى سوى حُنَيْن[٤] ، وكان ذوقه محافظاً ، فكان لا يغنِّى إلا النَّصْب[٥].

وكما كان فقهاء مكة يُعْجبون بالغناء كان يعجب به كذلك قضاتها وعلى رأسهم الأوقص المخزومى ، ويظهر أنه التحق بدور المغنين فى أول حياته ، فقد حكى عن أمه أنها قالت له : « إنك خُلقت فى صورة لا تصلح معها لمجامعة الفتيان فى بيوت القيان ، فعليك بالدين فإن الله يرفع به الخسيسة ، ويُتم به النقيصة[٦]» . فكان ذلك سبب انصرافه عن الغناء . ويقول أبو الفرج : «وَلِىَ قضاء مكة الأوقص المخزومى ، فما رأى الناس مثله فى عفافه ونبله ، فإنه لنائم فى جناح له إذ مرّ به

---

(١) أغانى ٢٥٧/١ .
(٢) أغانى ٤٠٨/١ .
(٣) ابن عبد ربه ٢٣٢/٣ .
(٤) أغانى ٣٤١/٢ .
(٥) أغانى ٣٥٢/٢ .
(٦) ابن عبد ربه ٢٣٤/٣ .

سكران يتغنى [عوجى علينا ربَّة الهودج] فأشرف عليه فقال : يا هذا شربت حراماً ! وأيقظت نياماً وغنيت خطأ ! خذه عنى ! فأصلحه له ، وانصرف[١] » .

ولعل فى هذا ما يدل على أنه لم يبق أحد فى مكة إلا وكان يُعْجَبُ بالغناء ، وأخذ هذا الإعجاب يتزايد مع مر الزمن ، إذ كان المغنون أو قل كانت جمهرتهم فى أول الأمر من فئة المخنَّثين ، وهى فئة كانت تخضب أيديها وتلبس ملابس النساء[٢] ، وشدَّد نافع بن علقمة والى مكة لعبد الملك وابنه الوليد فى طلب هؤلاء المخنَّثين[٣]. غير أنا لا نمضى فى العصر الأموى حتى نجد هذه الفئة تضعف تدريجاً ، وحتى نجد الغناء يصبح عملاً ممتازاً وحتى نرى بعض العرب يشتركون فيه بجانب الموالى الذين استبدوا به فى أول الأمر .

ولسنا ندرى أكان للمغنين بمكة فى هذا العصر ما يشبه النقابة أولا ؟ ولكن على كل حال كانت بينهم زمالة يحترمونها وأخذوا ينشرون فى جو مكة المرح والدعابة . روى أبو الفرج أن ابن أبى عتيق خرج على نجيب له من المدينة حمَّله من طُرَف المشارب[٤] وغير ذلك ، فلقى فتى من بنى مخزوم مقبلاً من بعض ضياعه ، فقال : يا ابن أخى أتصحبنى ؟ قال : نعم ، قال المخزومى : فمضينا حتى إذا اقتربنا من مكةَ جَنَبَنَا عنها حتى جُزْناها ، فصرنا إلى قصر ، فاستأذن ابن أبى عتيق ، فأذن له ، فدخلناه ، فإذا رجل جالس كأنه عجوز بربرية مختضبة ، لا أشـــك فى ذلك ، وإذا هو الغَريض وقد كبر ، فقال له ابن أبى عتيق تشوَّقنا إليك ، وأهدى له ما كان معه ، ثم قال له : نُحب أن نسمع ، قال : ادعُ فلانة — جارية له — فجاءت فغنت ، فقال ما صنعتِ شيئاً ، ثم حلّ خضابه وغنّى « عوجى علينا رَبَّةَ الهودج » فما سمعت أحسن منه قط ، فأقمنا عنده أياماً كثيرة ، وخبَّازه قائم وطعامه كثير . ثم قال له ابن أبى عتيق إنى أريد الشخوص ، فلم يبق بمكة تحفة عدنىٍّ ولا يمانٍ ولا عودٌ إلا حمله على راحلته ، فلما ارتحلنا وبرزنا صاح به الغريض ، فرجعنا

---

(١) اغانى ٣٦٧/٢ . أغانى ٢٧٣/٤ .
(٢) انظر أغانى ٢٤٩/١ وكذلك ص ٢٥٢ ، ٢٥٦ وانظر أغانى ٣٦٠/٢ وكذلك ٣٦٨/٢ وكذلك
(٣) أغانى طبع بولاق ٢٠/١١ .
(٤) المشارب : مايشرب فيه من آنية .

إليه ، فقال : ألم ترووا أنه « يحشر من بقيعنا هذا سبعون ألفاً على صورة القمر ليلة البدر » ؟ فقال له ابن أبى عتيق : بلى ، فقال : هذه سن لى انتزعت ، فأحب أن تدفنها بالبقيع ، فخرجنا والله أخسر اثنين لم نعتمر ولم ندخل مكة ، حاملين سِنَّ الغريض حتى دفناها بالبقيع (١) . وعلى هذا النحو كان الغناء يُشيع فى مكة فى أثناء العصر الأموى جوًّا ، كله مرح ودُعابة .

٤

الغناء المتقن

ليس كل ما يلاَحظ على الغناء لهذا العصر كثرة العاملين فيه من الموالى ، فنحن نلاحظ أنه ارتقى ضروباً من الرقى ، بل لقد استطاع المغنون أن يحدثوا نظرية الغناء العربى المعروفة التى نقرؤها فى كتاب الأغانى . وبذلك أصبح – كما مر بنا فى حديثنا عن الغناء بالمدينة – فى ستة ضروب ، وهى : ثقيل أول ، وثقيل ثان ، وخفيف الثقيل ، ورَمَل ، وخفيف الرمل ، وهَزَج . ومرجع هذه الضروب إلى نوع النقرات فقد تكون ثقيلة ، وقد تكون خفيفة ، وقد تكون مزيجاً من الثقل والخفة . وميَّزوا بجانب ذلك مجرى الصوت بحسب الأصابع ، فقالوا ثقيل أول بالبِنصر ، أو من خفيف الثقيل الأول بإطلاق الوتر فى مجرى البنصر ، أو يقولون رَمَلٌ بالسبَّابة فى مجرى البنصر ، ونحو ذلك مما يزخر به كتاب الأغانى .

وكان للمغنين فى مكة أثر بعيد فى نشوء هذه النظرية الغنائية . يقول ابن رشيق وقد عرض للغناء عند العرب فى الجاهلية والإسلام : « وغناء العرب قديماً على ثلاثة أوجه : النَّصْب والسِّناد والهَزَج ... حتى جاء الله بالإسلام ، وفُتحت العراق ، وجُلب الغناء والرقيق من فارس والروم ، وتغنوا الغناء المجزَّأ المؤلف بالفارسية والرومية ،

---

(١) أغانى ٢/٣٦٨ .

وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير[١] » . وابن رشيق يريد أن يقول : إن النظرية الغنائية عند العرب حدثت تحت تأثير الموالى الذين جُلبوا من الخارج ، وأتوا معهم بالغناء المجزأ الفارسى والرومى . ويقول أبو الفرج فى ترجمة ابن مِسْجح شيخ المغنين فى مكة وأستاذهم : « أول من نقل الغناء الفارسى من الفارسى إلى الغناء العربى سعيد بن مِسْجح مولى بنى مخزوم . وذلك أن معاوية بن أبى سفيان لما بنى دوره التى يقال لها الرُّقْط حمَل لها بنَّائين فرساً من العراق فكانوا يبنونها بالجِصّ والآجرّ ، وكان سعيد بن مِسْجح يأتيهم ، فيسمع من غنائهم على بُنْيانهم ، فما استحسن من ألحانهم أخذه ونقله إلى الشعر العربى ، ثم صاغ على نحو ذلك[٢] » وقال أبو الفرج فى موضع آخر : « إن أول من غنى هذا الغناء العربى (يقصد الغناء المتقن) بمكة ابن مِسْجح ، مولى بنى مخزوم ، وذلك أنه مر بالفرس وهم يبنون المسجد الحرام ، فسمع غناءهم بالفارسية ، فقلبه فى شعر عربى وهو الذى علَّم ابن سُرَيْج والغَرِيض[٣] » وقال أبو الفرج أيضاً : « سعيد بنِ مِسْجح مكى أسود مغن متقدم من فحول المغنين وأكابرهم ، وأول من صنع الغناء منهم ، ونقل غناء الفرس إلى غناء العرب ، ثم رحل إلى الشام وأخذ ألحان الروم والبرْبَطِيّة والأسطوخوسية ، وانقلب إلى فارس ، فأخذ بها غناء كثيراً ، وتعلم الضرب ، ثم قدم إلى الحجاز ، وقد أخذ محاسن تلك النغم ، وألقى منها ما استقبحه من النبرات والنغم التى هى موجودة فى نغم غناء الفرس والروم خارجة عن غناء العرب ، وغنى على هذا المذهب ، فكانْ أول من أثبت ذلك ولحَّنه ، وتبعه الناس بعدُ[٤] » .

وهذه نصوص صريحة فى أن الغناء المتقن الذى ظهر فى العصر الأموى لم يتم له هذا التحول بمؤثرات عربية خالصة ، وإنما تم له بمؤثرات أجنبية ، فهذا ابنِ مِسْجح أستاذ المغنين فى مكة يأخذ عن الغناء الفارسى الذى كان يغنيه البناءون الذين جلبهم معاوية لبناء دوره والآخرون الذين جلبهم ابن الزبير لبناء الكعبة .

---

(١) ابن رشيق ٢٤١/٢ .
(٢) أغانى ٢٨١/٣ .
(٣) أغانى ٢٧٦/٣ .
(٤) أغانى ٢٧٦/٣ .

ولا يكتفى بذلك ، بل نراه يرحل إلى الشام ليتتلمذ على المغنين هناك ويأخذ عنهم ألحانهم وإيقاعاتهم ، كما يرحل إلى بلاد فارس فيتتلمذ هناك أيضاً على المغنين ويتعلم الضرب والإيقاع على الأدوات الموسيقية المختلفة . ثم يعود إلى مكة ، فينهض بالغناء العربى نهضة واسعة ، يخرجه من دور البساطة القديم إلى دور جديد هو دور الغناء المتقن . ويظهر أن مغنين مختلفين ارتحلوا ، مثل ابن مسجح ، إلى بلاد الروم وفارس فى طلب الغناء الأجنبى ، فقد روى أبو الفرج فى ترجمة ابن مُحرز أنه «كان يسكن المدينة مرة ومكة مرة ، فإذا أتى المدينة أقام بها ثلاثة أشهر يتعلم الضرب من عَزَّة المَيْلاء ، ثم يرجع إلى مكة فيقيم بها ثلاثة أشهر ، ثم شخص إلى فارس فتعلم ألحان الفرس وأخذ غناءهم ، ثم صار إلى الشام فتعلم ألحان الروم وأخذ غناءهم . فأسقط من ذلك ما لا يستحسن من نغم الفريقين ، وأخذ محاسنها ، فمزج بعضها ببعض ، وألَّف منها الأغانى التى صنعها فى أشعار العرب ، فأتى بما لم يُسمع مثله ، وكان يقال له صَنَّاج العرب[١]» .

وأظن فى هذا كله ما يدل دلالة قاطعة على أن الغناء المتقن إنما تم تحت تأثيرات أجنبيـة . وينبغى أن لا نبالغ فى ذلك ، فإن ابن مِسْجح وابن محرز ، ومن لفَّ لَفَّهما من المغنين لم ينقلوا نقلاً النظريات الغنائية عند الأمم الأجنبية وإنما نقلوا بعض ألحان وبعض إيقاعات . وهذا هو معنى قول أبى الفرج عن ابن مِسْجح : إنه ألقى ما استقبحه من النبرات والنغمات الفارسية والرومية مما يُعَدُّ خارجاً عن غناء العرب ، وكذلك قوله فى ابن مُحرز : إنه أسقط ما لا يستحسن من نغم الفرس والروم .

ومعنى ذلك أننا نزعم أن ابن مِسْجح وابن مُحْرز فى مكة استطاعا أن ينفذا مع زملائهما من المغنين فى المدينة إلى نظرية جديدة هى من تأليفهم جميعاً ، وهى تلك النظرية التى أشرنا إليها آنفاً والتى تحكمت فى تاريخ الغناء العربى على مر العصور ، إذ نجد كتاب الأغانى يطفح بكلمات ثقيل أول وثقيل ثان وخفيف الرَّمَل وهلم جراً . وهذا هو معنى قول أبى الفرج إن ابن مِسْجح أول من غنَّى على المذهب ،

---

(١) أغانى ١/٣٧٨ .

يريد مذهب هذه النقرات ، أو نظرية هذه النقرات التى سجلها فى كتابه ، وما يُطْوَى فيها من أصابع .

وإذن فنظرية الغناء العربى التى نقرؤها فى الأغانى ليست أجنبية ولا مجلوبة من الخارج ، إنما هى عربية صُنعت فى الحجاز ، صنعها هؤلاء الموالى تحت تأثيرات أجنبية ، ولم ينقلوها نقلاً من لدن الأجانب . ولعل من أهم ما يدل على ذلك أن الأسماء التى تشيع فيها من رَمَل وهَزَج وثقيل وسبَّابة وبنصر وخنصر ونحو ذلك عربية . والذين استحدثوها على الرغم من أنهم من الموالى وُلدوا ونشأوا فى جزيرة العرب ، وغَنَّوا أولاً بالغناء العربى ، ثم تأثروا بالغناء الأجنبى : الفارسى أو الرومى . أما ما يقوله ابن خُرْداذَبه من أن العرب نقلوا الإيقاع فى غنائهم من الفرس نقلاً[١] فليس عليه دليل ، وخاصة إذا لاحظنا أن الفرس لم يكونوا يعرفون نظرية الوزن فى الشعر ، فقد نقلوها هم عن العرب . ويقول صاحب الأغانى فى أول كتابه : « إنه سيذكر اللحن وعروضه ، فإن معرفة أعاريض الشعر توصل إلى معرفة تجزئته وقسمة ألحانه[٢] » وفى هذا ما يدل على أن نظرية الغناء التى استحدثها المغنون فى مكة والمدينة لهذا العصر أسست إلى حد ما على عروض الشعر العربى نفسه ، وهذه العروض لم تنقل من الخارج . وقد كتب أبو العلاء فصلاً طريفاً عن الألحان فى الغناء تحدث فيه عن ضروب الإيقاع السابقة التى سميناها وهى : الثقيل الأول والثقيل الثانى وخفيف الثقيل والرمل والهزج ، وضبط الثقيل الأول بثلاث نقرات متساويات الأوزان ، وقاسه على مثال مفعولن ، فى حين قاس الثقيل الثانى على مثال مفعولان ، وقاس خفيف الثقيل على مثال مفعولانْ أيضاً ولكن بسكون النون ، أما الرَّمَل فقاسه على مثال لان مفعو أو كما يقول العروضيون فاعلاتن ، وأما الهزج فقاسه على مثال قال لى أو كما يقول العرضيون فاعلن[٣].

ويوضح هذا الفصل الصلة بين عروض الشعر العربى والغناء الجديد الذى استحدثه المغنون فى مكة والمدينة والذى كان يوقَّع على هذا الشعر . ولعل فى ذلك ما يدل دلالة قاطعة على أن نظرية الغناء الجديدة فى مكة لم تنقل نقلاً من لدن

---

(١) المسعودى ٨/٩٠ .

(٢) أغانى ١/١

(٣) الفصول والغايات ص ٨٨ .

الأجانب ، وليس معنى ذلك أننا ننكر التأثير الأجنبى ، فالتأثير شيء والنقل شيء آخر.

على أن فى هذا الرأى نفسه ما يرفع من شأن المغنين حينئذ ، وأنهم استطاعوا حقًّا بفضل ذكائهم وقدرة أيديهم وآذانهم وأذهانهم أن يحدثوا للعرب هذه النظرية الدقيقة التى تحكَّمت فيمن بعدهم قروناً طويلة . ومن يرجع إلى كتاب الأغانى يلاحظ أن ابن مِسْجح كان يُغْنَى فى غنائه بالضروب الثقيلة[١] ، فى حين عُنِىَ ابن محرز بالضروب الخفيفة[٢] . وينقل أبو الفرج عن إسحق الموصلى أن أباه قال له : « أول من غَنَّى الرملَ ابنُ محرز وما غُنِّىَ قبله ، فقلت له : ولا بالفارسية؟ قال : ولا بالفارسية . وأول من غنَّى رملا بالفارسية سلمك فى أيام الرشيد ، استحسن لحناً من ألحان ابن محرز فنقل لحنه إلى الفارسية وغَنَّى فيه[٣]» . وواضح من هذا النص أن ابن محرز أول من غنى هذا الضرب الخفيف المسمى بالرمل ، وواضح فيه أيضاً أنه ضرب عربى خالص لم يكن للفرس ضرب على مثاله ، بل لقد نقلوه فى وقت متأخر عن العرب . وهذا نفسه يمكن أن يقال عن الضروب الأخرى السابقة .

ومهما يكن فإن التأثير الأجنبى فى الغناء المكى لهذا العصر إنما وقف عند النغم فى الأصوات وعند بعض الألحان والإيقاعات . أما بعد ذلك فنظرية الغناء العربى جديدة ، وهى من عمل هؤلاء المغنين الذين برعوا فى فنهم براعة هائلة . واستمعْ إلى ابن سُرَيْج تلميذ ابن مِسْجح ، وقد سأله مالك الطائى المغنى عن قول الناس : « فلان يُصيب ، وفلان يخطئ ، وفلان يحسن ؟ فقال : المصيب المحسن من المغنين هو الذى يُشْبع الألحان ، ويملأ الأنفاس ، ويعدِّل الأوزان ، ويفخِّم الألفاظ ، ويعرف الصواب ، ويقيم الإعراب ، ويستوفى النغم الطويل ، ويحسِّن مقاطع النغم القصار ، ويصيب أجناس الإيقاع ، ويختلس مواقع النبرات ، ويستوفى ما يشاكلها فى الضرب من النقرات[٤]» .

وهذا تصوير بديع لوصف ما أصابوا من إحسان فى غنائهم . ولعل هذا ما جعل

---

(١) أغانى ٢٦٨/٣ ، ٢٨٢ .
(٢) أغانى ٣٨١/١ .
(٣) أغانى ٣٧٩/١ .
(٤) أغانى ٣١٥/١ .

الناس يتعلقون بهم وبفنهم ، فقد أحسنوه إحساناً بلغ الغاية ، حتى لنرى الناس يتأثرون به تأثراً ، ينسيهم أنفسهم ووقارهم . روى صاحب الأغانى أن ابن سُرَيْج مرّ به عطاء وابن جُرَيْج ، فاستوقفهما ، فوقفا ، وغنّاهما . « إخوتى لا تبعدوا أبداً » فغُشى على ابن جريج وقام عطاء يرقص(١). وإذا بلغ ابن سُرَيج من تأثيره فى عطاء وابن جُرَيْج الشيخين المحدثين هذا المبلغ ، فماذا كان مبلغ تأثيره فى الآخرين؟ لا بد أنه كان شديداً جدًّا . ونحن نسمع طرفاً كثيرة عن تأثر الناس بهؤلاء المغنين ، فمنهم من كان ينتف لحيته أو يحرقها ، أو يعلق نعله فى أذنيه ، أو يشقُّ ثوبه من شدة التأثر وروعة الغناء . واستمع جرير يوماً صوتاً من ابن سريج ، فقال : « لله دَرُّكُم يا أهل مكة ، ماذا أُعطيتم ! والله لو أن نازعاً نزع إليكم ليقيم بين أظهركم ، فيسمع هذا صباح مساء لكان أعظم الناس حظًّا ونصيباً(٢)» . واستمع الحارث ابن خالد المخزومى والى مكة لعبد الملك يوما إلى الغريض تلميذ ابن سريج فقال له : « يا غَريض ! لا لوم فى حبك ، ولا عذر فى هجرك ، ولا لذة لمن لا يروّح قلبه بك ، يا غريض ! لو لم يكن فى ولايتى مكةَ حظٌّ إلا أنت لكان حظًّا كافياً وافياً ، يا غريض ! إنما الدنيا زينة ، وأزين الزينة ما فرَّح النفس ، ولقد فهم قدر الدنيا على حقيقته من فهم قدر الغناء(٣)» . ومن طريف ما يرويه أبو الفرج أن « الهذلى أحد المغنين فى مكة كان نقّاشاً يعمل البُرَم من حجارة الجبل ، فكان إذا أمسى غنّى ، فلا يلبث الجبل أن يُرَى كقُرْص الخَبيص صفرة وحمرة من أردية قريش ، فيقولون أعِدْ ، فيقول : أما والله وهاهنا حجر أحتاج إليه لم يَرِدِالأبطح، فلا ، فيضعون أيديهم فى الحجارة حتى يقطعوها له ويَحْدِرُوها إلى الأبطح(٤)» . ويقول أيضاً إنه كان يقول لهم : أنزلوا أحجارى ، فيلقون ثيابهم ويأتزرون بأُزُرهم وينقلون الحجارة وينزلونها(٥)» . وهكذا كان الهذلى بفضل غنائه يحوّل شباب قريش إلى حَمَّالين وحجّارين ! وحدّث صاحب الأغانى عن ابن سُرَيْج أنه غنَّى فى فتية من بنى مروان فطربوا ، وعظموه ، وتواضعوا له ، حتى صار فى نفسه كأنه بمنزلتهم ،

---

(١) أغانى ٣١٦/١ .
(٢) أغانى ٢٩٧/١ .
(٣) أغانى ٣٢٧/٣ .
(٤) أغانى ٦٥/٥ .
(٥) أغانى ٦٧/٥ .

ثم غنّاهم ثانية فطربوا ومثلوا بين يديه ، ورموا بحُللهم كلها عليه ، حتى غطوه بها ، فمثَّلت له نفسه أنه الخليفة وأنهم له خدم ، ويقول : إنه لم يرفع طرفه إليهم بعد ذلك تِيهاً(١).

وأخذت الدولة تعترف بهؤلاء المغنين وخاصة منذ الوليد بن عبد الملك الذى استقبل ابن سريج فى دمشق استقبالاً حافلاً ، ولما غناه غطاه بالخلع وأهداه كيساً من الدنانير وبِدَراً من الدراهم(٢).

ويقال إن يزيد أخاه حج بالناس وسمع غناء ابن سريج فأعطاه حُلَّته وخاتمه(٣). ويروى أبو الفرج أن سليمان أخاهما حج فسبَّق بين المغنين بِدْرة ، والبدرة : كيس فيه ألف درهم أو عشرة آلاف دينار أو سبعة آلاف دينار ، ونال الجائزة ابن سُرَيْج(٤). ولعل فى هذا كله ما يدل على أن الدولة أخذت تُعْنَى بهؤلاء المغنين وتشجعهم لإحسانهم فى فنهم ، فهى تستقدمهم تارة ، وتحج فتستمع إليهم تارة أخرى ، ممثَّلة فى الخلفاء والأمراء. وكان بلاط الوليد بن يزيد مكتظًّا بمغنِّى الحجاز وعلى رأسهم مغنو مكة مثل يحيى قَيْل(٥) والهذلى والأبجر ، ويقال إنه حَجَّ ؛ وبينما هو يسير ليلة فى عسكره ، وإذا بصوت جميل ، فأشار لبعض من معه أن يقول : أعِد الصوت ، فقال المغنى : لا والله إلا بالفرس الأدهم بسرجه ولجامه وأربعمائة دينار ، فنودى أين منزلك ؟ ومن أنت ؟ فقال : أنا الأبجر ومنزلى على باب زقاق الخرَّازين . فغدا عليه رسول الوليد بذلك الفرس وأربعمائة وتخت من ثياب ووَشْى وغير ذلك(٦). وقد لزم الوليد حتى قُتل .

ولا يرتاب كلٌّ من يقرأ أخبار هؤلاء المغنين فى أن منزلتهم أخذت ترتفع فى بلاط الخلفاء المروانيين حتى لَيُظَنُّ أنهم سبقوا الشعراء ، فقد كانوا يغنون هؤلاء الخلفاء وينادمونهم ويعودون من عندهم وقد ملأوا حجورهم ذهباً وفضة . وهذا كله كان نتيجة تفوّقهم فى فنهم وثمرة نبوغهم فى غنائهم .

---

(١) أغانى ٣١٠/١ .
(٢) أغانى ٣٠١/١ .
(٣) أغانى ٢٥٨/١ .
(٤) أغانى ٣١٧/١ .
(٥) أغانى ٣٤/٧ وكذلك ٩٢/٧ .
(٦) أغانى ٣٤٦/٣ .

٥

أشهر المغنين

نبغ بمكة فى هذا العصر كثير من المغنين ، وكتاب الأغانى يطفح بأسمائهم . وقد ترجم أبو الفرج لنفر منهم ، وسنقتصر فى الحديث عنهم على مشهوريهم إذ أثَّروا فى الشعر الذى عاصرهم آثاراً عميقة . وأشهرهم حينئذ ابن مِسْجَح وابن مُحْرِز وابن سُرَيْج والغَرِيض والأَبْجَر.

ابن مِسْجَح

هو أبو عثمان سعيد بن مِسْجح ، وُلد فى مكة ، وكان أسود مولداً ، وكان مولى بنى جُمَح ، وقيل إنه مولى بنى نوفل بن الحارث بن عبد المطلب[١]. وهو أستاذ المغنين فى مكة ، فعنه أخذ ابن مُحْرِز[٢] وابن سُرَيْج[٣] . وهو أول من نقل الغناء الفارسى إلى الغناء العربى[٤] وبذلك كان أول من أعدّ للنظرية العربية فى الغناء . وبدأ ذلك فى عصر معاوية[٥]. وفى الأغانى أن « مولاه سمعه يتغنَّى ، فدعا به ، وقال له : يا بُنيَّ أَعِدْ ما سمعته منك علىّ ، فأعاده ، فإذا هو أحسن مما ابتدأ به . فقال : أنَّى لك هذا ؟ قال : سمعت هذه الأعاجم تتغنى بالفارسية ، فثقفتها ، وقلبتها فى هذا الشعر . قال له : فأنت حُرٌّ لوجه الله ، فلزم مولاه ، واتسع فى غنائه ، ومَهَر بمكة ، وأُعْجبوا به لظرفه وحسن ما سمعوه منه[٦]» .

وسبق أن قلنا إنه نقل هذا الغناء الفارسى إلى العربية ممن بنوا دورَ معاوية الرُّقْط والكعبةَ لابن الزبير ، وقلنا إنه كان يذهب إلى البلاد الأجنبية ليتعلم الغناء فذهب إلى سوريا وفارس ، ثم عاد إلى الحجاز وقد تشبعت نفسه بضرورة التجديد فى الغناء

---

(١) أغانى ٢٧٦/٣ .

(٢) أغانى ٣٧٩/١ .

(٣) أغانى ٢٥١/١ .

(٤) أغانى ٢٧٦/٣ وانظر ٢٨١/٣ .

(٥) أغانى ٣٨١/٣ .

(٦) أغانى ٢٧٨/٣ وما بعدها .

العربى القديم . واستطاع أن ينفذ مع تلميذه ابن محرز من جهة ومغنى المدينة من جهة أخرى إلى هذه النظرية الجديدة التى نقرؤها فى الأغانى ، والتى تنتهى أسانيدها إلى هذا العصر .

وكان ذلك سبباً فى شهرته . ويظهر أن جماعة من المتشددين رفعوا أمره إلى عبد الملك فأرسل إلى عامله على مكة أن يقبض ماله ويسيّره إليه ، فتوجه ابن مسجح إلى الشام . ويقول أبو الفرج : إن رجلاً له جوار مغنيات صحبه فى طريقه[١] ، ولعله أراد لهن أن يأخذن عنه ويتعلمن فنه فى أثناء رحلته . وما زال حتى انتهى إلى دمشق ، وهناك تعرّف على أحد أقرباء عبد الملك فغنّاه ، وأُعْجب به إعجاباً شديداً ، وحينئذ أفضى إليه ابن مِسْجح بما جاء به فقال له : « إنى أسمر الليلة مع أمير المؤمنين فهل تحسن أن تَحْدُوَ ؟ قال : لا ، ولكنى أستعمل حُداءً ، قال : فإن منزلى بحذاء منزل أمير المؤمنين ، فإن وافقت منه طيب نفس أرسلت إليك ، ومضى إلى عبد الملك ، فلما رآه طيِّب النفس أرسل إلى ابن مِسْجح ، فأخرج رأسه من وراء شُرَف القصر ثم حَدَا .. فقال عبد الملك للقرشي من هذا ؟ قال رجل حجازى قدم علىّ ، قال : أَحْضره . فأحضره له ، وقال له : احْدُ مجدًّا . ثم قال له : تُغَنِّى غناء الرُّكْبان ؟ قال نعم . فقال : غنِّه ، فتغنى ، فقال له : فهل تغنى الغناء المتقن ؟ قال : نعم ، قال : غنِّه ، فتغنى . فاهتز عبد الملك طرباً . ثم قال له : من أنت ؟ ويلك ! قال له : أنا المظلوم المقبوض ماله المسيّر عن وطنه سعيد بن مِسْجح ، قبض مالى عامل الحجاز ، ونفانى . فتبسم عبد الملك ، ثم قال له : قد وضح عذر فتيان قريش فى أن ينفقوا عليك أموالهم ، وأمّنه ووصله وكتب إلى عامله بردِّ ماله عليه وأن لا يعرض له بسوء[٢]. » . ورجع ابن مِسْجح إلى مكة ، وأمضى فيها بقية حياته آمناً . ولا نجد له أخباراً مع أحد من خلفاء عبد الملك . ويقول صاحب الأغانى إنه عاش حتى لقيه مَعْبَد مغنى المدينة ، وأخذ عنه فى أيام الوليد بن عبد الملك[٣].

---

(١) أغانى ٣/٢٨٢ .

(٢) أغانى ٣/٢٨٢ .

(٣) انظر أغانى ٣/٢٨٢ وما بعدها .

ابن مُحْرِز

هو أبو الخطاب مسلم (أو سلم أو عبد الله) بن مُحْرِز مولى بني عبد الدار ، وأصل أبيه من الفرس وكان من سَدَنة الكعبة[١] . وقد تتلمذ ابن محرز لابن مِسْجح[٢]، ولعَزَّة المَيْلاء[٣] ، فكان يذهب إليها فى المدينة ، حيث يمضى هناك ثلاثة أشهر يأخذ عن مغنيها . وحياته الفنية طريفة ، فقد شخص مثل أستاذه ابن مِسْجح إلى الشام وفارس ، فتعلم ألحان الروم والفرس جميعاً ، ثم أخضع الغناء العربى لبعض هذه الألحان ، على نحو ما كان يصنع أستاذه .

وكان لا يكتفى مثل ابن مِسْجح بما كان يقوم به فى هذا الجانب ، بل كان يذهب إلى المدينة ، ليستمع إلى ما يُحْدث المغنون هناك . ومعنى ذلك أنه كانت لديه رغبة شديدة فى النهوض بفنه ، فكان يقيم بمكة ثلاثة أشهر ، ثم يبرحها إلى المدينة فيقيم بها ثلاثة أخرى ، ثم يمضى بقية عامه فى الشام وفارس .

واشتهر بأنه أول من غَنَّى الرَّمَل ، وكذلك اشتهر بأنه لم يكن يغنى إلا بزوج من الشعر[٤] ، وغنَّى فى إحدى حفلات جميلة مغنية المدينة المشهورة صوتاً مؤلفاً من ثلاثة أبيات ، فقالت له : يا أبا الخطاب كيف بدا لك فى ثلاثة وأنت لا ترى ذلك ؟ فقال أحببت أن أواسى مَعْبداً[٥]، وكان معبد سبقه إلى غناء ثلاثة أبيات ، فأحبَّ أن يوافقه فى ذوقه . وهذا يدل على رهافة حسٍّ فيه .

وكان يقال له صنّاج العرب لإحسانه وجمال غنائه ، قال إسحق الموصلى قلت ليونس الكاتب : من أحسن الناس غناء ؟ قال : ابن محرز ، قلت : وكيف قلت ذاك ؟ قال إن شئت فسَّرت ، وإن شئت أجملت ، قلت : أجمِل ، قال : كأنه خُلق من كل قلب ، فهو يغنى لكل إنسان بما يشتهى ، وكان يُعَدُّ أحد الفحول الخمسة الذين ظهروا فى الحجاز[٦].

---

(١) أغانى ١/٣٧٨ .
(٢) أغانى ١/٣٧٩ .
(٣) أغانى ١/٣٧٨ .
(٤) أغانى ١/٣٧٩ .
(٥) أغانى ٨/٢١٣ .
(٦) أغانى ١/٣٨٠ .

ويقول أبو الفرج كانت العلة التى مات بها الجذام ، فلم يعاشر الخلفاء ولا خالط الناس ، ثم يروى أن غناءه لم يأخذه الناس عنه مباشرة ، وإنما أخذوه عن جارية لصديق له من أهل مكة كانت تألفه ، فأخذه الناس عنها[١]. ومع ذلك فنحن نجده يبرح مكة إلى الشام وفارس ودور المغنين والمغنيات فى المدينة . ويروى أبو الفرج نفسه فى موضع آخر من كتابه أنه كان يفد مع ابن مِسْجح وابن سُرَيْج والغريض على المدينة ، فينزلون بدار جميلة ويتغنون فيها[٢]. وربما أصابه هذا الجذام فى أخريات حياته ، ولكن على كل حال لا نجد له أخباراً مع الخلفاء والأمراء .

ابن سُرَيْج

هو أبو يحيى عُبَيْد بن سُرَيْج مولى بنى نوفل بن عبد مناف ، وقيل بل مولى بنى الحارث بن عبد المطلب ، وقيل بل مولى بنى لَيْث وقيل بل مولى بنى مخزوم[٣]. وكان آدم أحمر ظاهر الدم خفيف العارضين فى عينيه قبل[٤]، وُلد فى خلافة عمر ، وأدرك يزيد بن عبد الملك وناح عليه ، ومات فى خلافة هشام[٥]، وقيل بل مات بعد قتل الوليد بن يزيد[٦]. أخذ الغناء عن ابن مسجح[٧]، ورحل إلى المدينة فأخذ عن طُويس[٨] ، وكذلك أخذ عن نشيط الفارسى[٩] مولى عبد الله بن جعفر ، وهو الذى أخذ عنه أهل المدينة الغناء الفارسى . ومعنى ذلك أن ابن سريج وإن لم يرتحل إلى بلاد فارس لأخذ الغناء الفارسى كما صنع أستاذه ابن مسجح ، فإنه ارتحل إلى المدينة لأخذه عن نشيط ، وإذن فهو أحد من تأثروا بالغناء الفارسى فى ألحانه .

وظلَّ – على ما يظهر – خاملاً حتى كانت وقعة الحرَّة سنة ٦٢ للهجرة ، فعَلا على أبى قُبيس ، وناح ، فاستحسن الناس نواحه . ويقال إن سُكينة بنت الحسين

---

(١) أغانى ١/ ٣٧٩ .
(٢) أغانى ٨/ ١٨٨ .
(٣) أغانى ١/ ٢٤٨ .
(٤) أغانى ١/ ٢٤٩ والقبل : إقبال إحدى الحدقتين على الأخرى .
(٥) أغانى ١/ ٢٥٤ .
(٦) أغانى ١/ ٢٥٠ .
(٧) أغانى ١/ ٢٥١ .
(٨) ابن عبد ربه ٣/ ٢٤٢ .
(٩) أغانى ٨/ ٣٢١ .

بعثت إليه بشعر ، أمرته أن يصوغ فيه لحناً يناح به ، فصاغ فيه لحناً ، قدَّمه على جميع ناحة مكة والمدينة والطائف[١] .

وما زال ابن سريج يقتصر على النياحة حتى ظهر الغريض وتفوق عليه فى هذا الفن ، فتركه وعدل إلى الغناء[٢]، فبرع فيه ومهر ، وارتفع نجمه لا فى مكة وحدها بل فى الحجاز كله . وكان فى أول أمره يغنى مرتجلاً ويوقع بقضيب ثم غنى بالعود ، وكان عوده على صنعة عيدان الفرس ، وكان أول من ضرب به على الغناء العربى بمكة[٣] .

ولم يتقدم الزمن طويلاً بابن سريج حتى نال شهرة مدوية . قال إسحق : سألت هشام بن المِرِّية وكان قد عُمِّر وكان عالماً بالغناء ، فقلت له : « من أحذق الناس بالغناء ؟ فقال لى أتحب الإطالة أم الاختصار ؟ فقلت أحب الاختصار فقال : ما خلق الله تعالى بعد داود النبى عليه الصلاة والسلام أحسن صوتاً من ابن سريج ، ولا صاغ الله عز وجل أحداً أحذق منه بالغناء ، ويدلك على ذلك أن معبداً كان إذا أعجبه غناؤه قال : أنا اليوم سُرَيْجِىٌّ[٤] » . وينقل إسحق عن أبيه إبراهيم أنه كان يقول : « غناء كل مغن مخلوق من قلب رجل واحد ، وغناء ابن سريج مخلوق من قلوب الناس جميعاً ، وكان يقول : الغناء على ثلاثة أضرب ، فضرب مُلْهٍ مطرب يحرّك ويستخف ، وضرب ثانٍ له شَجًى ورقة ، وضرب ثالث حكمة وإتقان صنعة ، وكل هذا مجموع فى غناء ابن سريج[٥] » . وقال إبراهيم الموصلى أيضاً عن صوت سمعه لابن سريج : « ما سمعت هذا الصوت إلا أبكانى لأنى إذا سمعته أو ترنمت به وجدت غمزاً على فؤادى[٦] » . وسئل إسحق الموصلى عن غنائه وغناء ابن سريج فقال : « والله لقد أخذت بخطام راحلته ، فزعزعتها ، وأنختها ، وقمت بها ، فما بلغته[٧] » وكان يقول : « أصل الغناء أربعة نفر : مكيان ومدنيان ، فالمكيان : ابن سريج وابن محرز ، والمدنيان معبد ومالك[٨] » .

---

(١) أغانى ١/٢٥٥ وما بعدها .
(٢) أغانى ١/٢٥٥ .
(٣) أغانى ١/٢٤٩ وما بعدها .
(٤) أغانى ١/٢٥٦ .
(٥) أغانى ١/٢٩٠ .
(٦) أغانى ١/٢٧٠ .
(٧) أغانى ١/٢٥٢ .
(٨) أغانى ١/٢٥١ .

وتعلق الناس به في عصره ، وخاصة أهل مكة حتى قال ابن تَيزن المغنى ، وهو أحد غلمان ابن سريج : إذا أعجزك أن تُطْرِب القرشى فَغَنِّه غناء ابن سريج فى شعر ابن أبى ربيعة فإنك ترقصه[١]. ومَرَّ بنا أن عطاء سمع صوتاً له فرقص . وكان يتصادف أن يغنى فى أثناء الحج فيحبس الناس عن مناسكهم . ويقال إنه غَنَّى على أَخْشَب منى غداة النَّفْرِ صوتاً فارتفع حنينُ الناس وأنينهم[٢] ، وأهداه شريف من أشراف الحجاج حُلَّة وخاتماً قيمتهما ألف وخمسمائة دينار[٣].

وكان فى ابن سريج رقة فكان لا يغنى الناس صوتاً مُدِح به أعداؤهم ولا صوتاً عليهم فيه عار أو غضاضة[٤]. واستدعاه الوليد بن عبد الملك إلى بلاطه فى دمشق ، وأنزله فى أحد قصوره ، وأجزل له فى جوائزه ، وكان ابن سريج يغنيه فى مديح الشعراء له من مثل الأحوص وعدىّ بن الرِّقاع[٥]. ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم قرب المغنين منذ الوليد إلى نفوس الخلفاء ، فقد كانوا يغنونهم فى مدائحهم ، وربما كان ذلك أهم الأسباب فى أنهم أخذوا يظفرون من جوائزهم بما لم يظفر به شعراؤهم ، ففرق أىّ فرق بين النشيد والغناء .

وترك ابن سريج ثلاثة وستين صوتاً كان يعرفها معرفة تامة إبراهيم الموصلى وابنه إسحق[٦]. ويروى أبو الفرج أنه لما سمع مغنو مكة بسَبْعَة معبد وشهرتها ، وهى أصوات سبعة – كما مر بنا فى غير هذا الموضع – سميت مُدُنَ معبد ، لحقتهم لذلك غَيْرَة ، فاجتمعوا ، فاختاروا من غناء ابن سُرَيْج سبعة ، فجعلوها بإزاء سبعة معبد ، ثم خايروا أهل المدينة ، فانتصفوا منهم[٧].

ولعل فى هذا كله ما يدل على مدى إحسانه ومبلغ تفوقه ، وكان يغنى خاصة بالغناء الخفيف ، فكان أكثر غنائه من الأرمال والأهزاج[٨]، ولذلك كان يستخفه الناس ، وكانوا يقولون كأن غناءه خُلق من كل قلب[٩].

---

(١) أغانى ١/٢٨٣ .
(٢) أغانى ١/٢٩٣ .
(٣) أغانى ١/٢٦٢ وما بعدها .
(٤) أغانى ١/٢٩٦ .
(٥) أغانى ١/٢٩٧ وما بعدها
(٦) أغانى ١/٢٦٨ .
(٧) أغانى طبع دار الكتب ٩/٢٣٨ .
(٨) أغانى ١/٢٦٧ .
(٩) أغانى ١/٢٥١ .

الغَرِيض

هو أبو يزيد أو أبو مروان عبد الملك[١]، أما الغَريض فلَقبٌ لُقِّب به لأنه كان نَضِرَ الوجه غَضَّ الشباب حسن المنظر . وكان مولداً من مولَّدى البربر ، وهو مولى الثريا بنت على بن عبد الله الأموية وأخواتها المعروفات جميعاً باسم العَبَلات[٢].

وهو خرِّيج ابن سريج وتلميذه ، بدأ معه حين كان يحترف النياحة ، فإن مولياته ألحقنه به لكى ينوح لهن على قتلاهن فى الحرة[٣]. ولم يلبث أن تفوَّق على أستاذه فى هذا الفن . ويقال إن ذلك -كما مرَّ بنا- كان سبب عدول ابن سريج عنه إلى الغناء . وعدل الغريض معه إليه ، فكان ابن سريج لا يغنى صوتاً إلا عارضه فيه[٤]، ولكنه لم يستطع أن يبزَّه ، فقد كان دائماً يأتى دونه[٥]، ومع ذلك فقد كان يُعَدّ فى فحول المغنين وكبارهم . وجعله إسحق الموصلى أحد خمسة تفوقوا فى فن الغناء بالحجاز[٦]، ورُوِى أنهم أجمعوا على أن الغريض كان أشجى غناء ، وكان ابن سُرَيْج أحكم صنعة[٧] . ويقال إن السيدة سُكينة بنت الحسين حجت ، فدخل إليها ابن سُرَيْج والغَرِيض ، فقال لها ابن سريج : يا سيدتى ! إنى كنت صنعت صوتاً وحسّنته وتنوّقت فيه وخبأته لك فى حَريرة فى درج مملوء مسكاً ، فنازعنيه الغريض ، فأردنا أن نتحاكم إليك فيه ، فأينا قدمتِه فيه تقدم . ثم غناها كل منهما الصوت ، فقالت : والله ما أفرق بينكما ، وما مثلكما عندى إلا كمثل اللؤلؤ والياقوت فى أعناق الجوارى الحسان ، لا يُدرَى أىُّ ذلك أحسن[٨]. ويظهر أنه استمر يجمع بين الغناء والنوح حتى آخر حياته ، فإن الثريا مولاته حين ماتت ناح عليها[٩]. ويقول أبو الفرج إنه كان ينوح فيدخل المآتم وتُضْرَبُ دونه الحُجب ، ثم ينوح فيفتن كل من سمعه[١٠]. وكان فى الوقت نفسه يغنى فيحسن الغناء ، ولكنه كان يأتى تابعاً لابن سريج . وهذا على كل حال لا يحطّ منه ، فقد كان ابن سريج على ما يظهر يتقدم مغنى الحجاز جميعاً .

(١) أغانى ٢/٣٥٩ وانظر ١/٢٥٥ .
(٢) أغانى ١/٢١١ وانظر ٢/٣٥٩ .
(٣) أغانى ١/٢١١ وانظر ١/٢٥٥ .
(٤) أغانى ١/٢٥٦ .
(٥) أغانى ١/٢٧٦ وكذلك ١/٢٧٨ .
(٦) أغانى ١/٣٨٠ .
(٧) أغانى ٢/٣٦٢ .
(٨) أغانى ٢/٣٦٥ وكذلك ٢/٣٦١ .
(٩) أغانى ١/٢٤٦ وانظر أغانى ٢/٣٦٤ .
(١٠) أغانى ٢/٣٦٠ .

ومهما يكن فقد كان للغريض منزلة عظيمة فى مكة ، وكان الحجاج حين يسمعونه يظنونه من الجن لجمال صوته[١]. وخرج إليه معبد مغنى المدينة الأول ليسمع منه بعض أصواته[٢]، فلما سمعه قال : لقد سمعت شيئاً لم أسمع أحسن منه ، وقصّر إلىَّ نفسى ، وعلمت فضيلته علىَّ . ويظهر أنه كان يحسن التأثر والنقل ، فقد قالوا إنه سمع أصوات رهبانٍ بالليل فى دَيْر لهم فاستحسنها وصاغ على مثالها لحناً[٣].

وكان الغريض مقرباً من نساء مكة والمدينة جميعاً ، وكان يَحْظى بجوائزهن . ومن أشهر من غناهن عائشة بنت طلحة[٤]. وليس من شك فى أنه كان المغنى الأول فى دار مولياته العَبلات وعلى رأسهن الثريا بنت على بن عبد الله الأموية . وكان يلزم عمر ويصحبه فى غُدواته ورَوحاته ، وكان يتخذه رسولاً إلى بعض صديقاته[٥]. وكما كان يلزم عمر كان يلزم الحارث بن خالد المخزومى الشاعر والى مكة لعبد الملك ، وكان يجزل له فى العطاء[٦]. ويقال إنه غَنَّى عاتكة بنت يزيد فأمرت له بخمسة آلاف درهم وثياب عدنية وغير ذلك من الألطاف[٧]. ولما قدم الوليد ابن عبد الملك مكة صَحِبه وغناه فوصله وكساه[٨] ، وكذلك غنى يزيد بن عبد الملك فى أثناء حَجِّه[٩].

ولعل فيما قدمنا ما يدل دلالة واضحة على أنه كان أحد المغنين الممتازين فى عصره ، وتتلمذ لابن سريج كما قدمنا ، ويظهر أنه تتلمذ أيضاً لابن مِسْجح[١٠] ، وكان كثير الروحات إلى دار جميلة فى المدينة[١١]. ولما شدد نافع بن علقمة فى طلب المغنين والمخنثين هرب منه إلى اليمن فمات بها ، وكان ذلك فى خلافة سليمان ابن عبد الملك . ويقال بل توفى فى عُرْسٍ أو ختان ، وتذهب الأسطورة إلى أن الجن نهته عن صوت فغناه فقتلته[١٢].

---

(١) أغانى ٣٦٢/٢ .
(٢) أغانى ٣٨٥/٢ .
(٣) أغانى ٣٩٧/٢ .
(٤) أغانى ٣٧٨/٢ وانظر ٣٢١/٣ .
(٥) أغانى ١٥٠/١ .
(٦) أغانى ٣٢٣/٢ .
(٧) أغانى ٣٢٣/٣ .
(٨) أغانى ٣٩٥/٢ .
(٩) أغانى ٣٨٢/٢ .
(١٠) أغانى ٢٧٧/٣ .
(١١) أغانى ١٨٨/٨ وكذلك ٢١٣/٨ ، ٢٢٦/٨ .
(١٢) أغانى ٣٩٩/٢ وما بعدها .

الأبجر

هو أبو طالب عبيد الله (أو محمد) بن القاسم ، كان مولى لكنانة[١] ، أخذ الغناء على ما يظهر عن الغريض[٢] ولكنه لم يشتهر بادئ الأمر . ويقال إن عطاء ابن أبي رباح خَتَنَ بنيه أو بنى أخيه ، فكان يختلف إليهم ثلاثة أيام يغنى لهم[٣].

وكان يذهب إلى المدينة كعادة زملائه . ويقال إنه اجتمع يوماً مع ابن عائشة مغنى المدينة فى بيت ابن هبّار فتغنى ابن عائشة ، فقال الأبجر : كل مملوك لى حُرّ إن تغنيت معك إلا بنصف صوتى ، ثم أدخل إصبعه فى شدقه ، فتغنى ، فسمع صوته من فى السوق وحُشِر الناس[٤] .

وكان الأبجر يعترض بغنائه الحجاج على عادة المغنين فى مكة ، فكان يحبسهم عن مناسكهم ، وبينما كان يتغنى يوماً وإذا بالوليد بن يزيد -كما أسلفنا- يمر به ، فيعجب بصوته ، ويرسل له بأربعمائة دينار ، ولزمه بعد ذلك فذهب معه إلى الشام ، واستمر عنده حتى قُتل ، فخرج إلى مصر، ومات فيها .

وكانت فيه فكاهة ، فيقال إن رسول الوليد بن يزيد ذهب فى استدعاء المغنين ، فعرض عليه نفسه فأبى أن يأخذه لأنه لم يكن يعرفه ، فقال له خذنى ولك مع هذا شرط ، قال : وما هو ؟ فقال الأبجر : كل ما أصبته فلك شطره ، وذهب مع المغنين ، فغنوا الوليد ، فلم يتحرك ولا نشط ، وغنى الأبجر فطرب ، وارتاح ، وأمر له بعشرة آلاف درهم . فلما خرج المغنون وثب فقال للوليد : إن رأيت يا أمير المؤمنين أن تأمر من يضربنى مائة الساعةَ بحضرتك ، فضحك ، وقال له : قبّحك الله ! وما السبب فى ذلك ، فأخبره بقصته مع الرسول وقال : إننى أريد أن أضربَ مائة ويُضرب بعدى مثلها ، فقال له : قد لطفت ، أعطوه مائة دينار وأعطوا الرسول خمسين ديناراً[٥].

وأغلب الظن أنه كان كثير الجوائز حتى قبيل ذهابه إلى دمشق ومعيشته فى بلاط

---

(١) أغانى ٣/٣٤٤ .
(٢) أغانى ٣/٣٤٧ .
(٣) أغانى ٣/٣٤٨ .
(٤) أغانى ٣/٣٤٨ .
(٥) أغانى ٣/٣٤٨ .

الوليد ، فالرواة يزعمون أنه « لم يكن بمكة أحد أظرف ولا أسرى ولا أحسن هيئة من الأبجر ، كانت حلته بمائة دينار ، وفرسه بمائة دينار ، ومركبه بمائة دينار (١) . وإذا كان أصاب هذا فى حياته فماذا أصاب الذين يتقدمونه من مثل ابن محرز وابن سريج والغَريض ؟ ! وكل النصوص تدل على أن هؤلاء المغنين أحسنوا فنهم إلى حد بعيد .

الهذلى

هو أبو عبد الرحمن سعيد بن مسعود ، وكانت له مهنة غير الغناء ، فقد كان ينقش الحجارة بأبى قُبَيْس (٢) ، وكان منزله فى منًى ، وكان فتيان قريش يأتونه ، فيغنيهم هناك ، وكان يجلس أحياناً على جمرة العقبة ويغنيهم (٣) ، وأحياناً يغنيهم بالبطحاء (٤) . وكانوا يذهبون أحياناً أخرى لمساعدته فى الحجارة ، أو بعبارة أدق كانوا يذهبون لسماع غنائه ، فيأبى إلا أن يساعدوه فى قطع الحجارة (٥) . ويقول أبو الفرج : إنهم كانوا يغدون إليه ومعهم الطعام والشراب والدراهم ، فيقول لهم : الوظيفة ، فيقولون قد جئنا بها ، فيقول : الوظيفة الأخرى : أنزلوا أحجارى ، فينقلون له الحجارة وينزلونها ، ثم يجلس على قطعة بارزة من الجبل ، ويجلسون تحته فى السهل . . وهو يغنيهم حتى المساء (٦) .

ويدل هذا الخبر على أن الناس لم يكونوا يستمعون للمغنين بالمجان ، بل كانوا يستمعون إليهم بالوظيفة والدراهم ، وهى الطريقة نفسها المتبعة الآن . وليس من ريب فى أن هذا كان دخلاً منظماً لهؤلاء المغنين ، وأنه كان يدرُّ عليهم كثيراً من الأموال .

وأهم حادث فى حياة الهذلى أنه تزوج بنت ابن سُرَيْج ، زوّجه منها ابن سريج نفسه ، وهذا دليل على أنه كان يتبعه ويلازمه . ويقول الرواة إنه أخذ غناء أبيها

(١) أغانى ٣/٣٤٥ .
(٢) أغانى ٥/٦٥ .
(٣) أغانى ٥/٦٧ .
(٤) أغانى ٥/٦٦ .
(٥) أغانى ٥/٦٥ .
(٦) أغانى ٥/٦٧ .

كله عنها(١) ، وجاء منها بولد فمر يوماً على مجلس فيه أشعب ، فتساءل الناس مَن هذا الصبي ؟ فقال أشعب : أو ما تعرفونه ؟ هذا ابن الهذلى من ابنة ابن سريج ، وُلد على عود ، واستهلّ (٢) بغناء ، وحُنّك بملوى(٣) وقطعت سرته بوتر ، وخُتِن بمضراب .

وهؤلاء هم أشهر المغنين الذين ظهروا فى مكة فى أثناء العصر الأموى ، وكان وراءهم كثيرون لا يقلون عنهم شهرة . وقد ترجم أبو الفرج لطائفة منهم مثل يحيى قَيْل(٤) مولى العَبلات ، وكان أحد من لقيه الوليد بن يزيد فى مكة واستمع إلى غنائه(٥)، ومنهم عبادل مولى قريش ، وهو مغن محسن متقدم من الطبقة الثانية ، ولم يفارق الحجاز ولا وفد على ملوك بنى أمية ، وكانت له صنعة كثيرة(٦).

وكان بجانب هؤلاء المغنين كثير من المغنيات ، ولكن يظهر أن مكة لم يكن بها دار خاصة بهن ، كدار عَزَّة المَيْلاء وجميلة فى المدينة ، ولذلك لم نسمع كثيراً عنهن ، وإن كانت نصوص الأغانى تدل على أنهن كن كثيرات . وسبق أن قلنا إن التى نقلت للمغنين والناس غناء ابن محرز جارية لصديق له . ودارُ الثريا وأخواتها العَبلات التى أخرجت الغريض ويحى قَيْل أخرجت كذلك مغنية عرفت هناك تسمى سُميَّة ، وكان عمر بن أبى ربيعة يمتلك جاريتين مغنيتين هما بَغُوم وأسماء . ويقول أبو الفرج ، وقدعرض لموكب جميلة حين حَجَّت ، إنه استقبلها فى مكة قيان كثيرات لم يسمَّين لنا(٧). ومن المؤكد أن مكة كانت تكتظ بهؤلاء القيان ، ويقال إن سلامة القس التى نشأت فى المدينة اشتراها يزيد من مكى يسمى سهيل ابن عبد الرحمن(٨)، ومعنى ذلك أن مكة حظيت بأغانيها وغنائها . وكذلك يقال إن حبابة التى اشتراها يزيد أيضاً والتى خرَّجتها جميلة إنما اشتراها من آل لاحق المكيين(٩).

---

(١) أغانى ٥/٦٦ وما بعدها .

(٢) استهل : صاح .

(٣) الملوى : من أجزاء العود .

(٤) أغانى ٣/١١٠ .

(٥) أغانى ٩/٢٧٥ .

(٦) أغانى ٦/٩٦ .

(٧) أغانى ٨/٢١٠ .

(٨) أغانى ٨/٣٣٤ وانظر ٨/٣٣٩ .

(٩) أغاني (طبع بولاق) ١٣/١٥٥ .

وكل الأخبار تؤكد أن مكة فى هذا العصر كانت تكتظ بالمغنين والمغنيات، وأشرنا مراراً إلى زيارة مغنى المدينة لها من مثل معبد وجميلة ، ولا يكاد يوجد مغن مشهور فى المدينة إلا وزارها وكذلك لا تكاد توجد مغنية معروفة فى المدينة إلا وزارتها واستمعت إلى كبار مغنيها . ومن لم يأت منهم استمع إلى هؤلاء المغنين المكيين فى المدينة نفسها ، إذ كانوا يكثرون من زيارتها ومن النزول على جميلة ، وكثيراً ما أحيوا ليالى وحفلات فى دارها .

وكان هؤلاء المغنون من أهل مكة يكثرون من زيارة دمشق ، كما كان يكثر من هذه الزيارة مغنو المدينة ومغنياتها . وأحدثوا فيها بفضل زيارتهم وبفضل اهتمام الخلفاء بهم نهضة فنية فى الغناء ، كان من آثارها هناك أبو كامل الغُزَيِّل مغنى الوليد بن يزيد[١]، بل كان من آثارها الوليد بن يزيد نفسه على نحو ما هو معروف[٢].

ونحن لا نكاد نخطو خطوات فى العصر العباسى حتى نجد هذا النهر ، نهر الغناء الحجازى ، الذى كان يسير نحو الشمال يتجه إلى الشرق حيث العراق ومدنه الكبيرة : البصرة والكوفة ثم بغداد . وكان للرافد الكبير رافد مكة أثر واسع فى هذا التحول وما طُوِىَ فيه من نهضة فنية كبيرة للغناء والموسيقى فى العراق . ولا يكاد يعيش فى مكة مغن مشهور إلى العصر العباسى إلا ونراه هناك . وقد ترجم أبو الفرج فى أغانيه لطائفة كبيرة من هؤلاء المغنين الذين كانوا واسطة انتقال هذا الغناء الموسيقى من الحجاز إلى العراق من مثل ابن عباد وكان مولى لبنى مخزوم وقيل بل مولى لبنى جُمَح ، وهو من كبار المغنين وقد توفى ببغداد فى الدولة العباسية[٣] ومثل إسماعيل بن الهِرْبِذ وكان مولى لآل الزبير بن العوام ، وأدرك آخر أيام الرشيد ، وغناه يوماً فكاد يرقص من شدة الطرب ، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم[٤]، ومثل يحيى المكى ، ويقول صاحب الأغانى : إنه قدم مع الحجازيين الذين قدموا على المهدى فى أول خلافته ، وبقى فى العراق هو وولده يخدمون الخلفاء إلى أن انقرضوا ، وكان آخرهم محمد بن أحمد بن يحيى المكى . وكان يغنى مرتجلا ، ويحضر

---

(١) أغانى طبع دار الكتب ٣٢/٧ وكذلك ٤٦/٧ ، ٩١/٧ وما بعدها .

(٢) أغانى ٣٢/٧ وانظر ٢٧٤/٩ .

(٣) أغانى ١٧١/٦ .

(٤) أغانى ١٠٤/٧ .

مجلس المعتمد مع المغنين[١] ، ومثل سِياط وكان مولى لخزاعة ، وقد ترك ستين صوتاً[٢].

ولنرجع إلى المغنين الثلاثة الممتازين فى عصر هارون الرشيد والذين جمعوا له الأصوات المائة التى أدار أبو الفرج كتابه (الأغانى) عليها ، وهم فُلَيْح ابن أبى العَوْراء وابن جامع وإبراهيم الموصلى ، فإنك إذا ذهبت تبحث فى حياتهم وتكوينهم الفنى وجدت أولهم من أهل مكة وكان مولى لبنى مخزوم[٣]. أما الثانى فكان سياط زوج أمه[٤]. ولهذا يغلب أن يكون مكى الولادة والنشأة ، وأما الثالث فإنه تتلمذ للمكيين ، وأخذ عنهم[٥].

وأكبر الظن أننا لا نسرف إذا قلنا : إن نهضة الغناء فى العراق فى أثناء العصر العباسى إنما كانت امتداداً لهذه الموجة التى نفذت إلى العراق على أيدى مغنى مكة وزملائهم من مغنى المدينة .

---

(١) أغانى ٦/١٧٤ وما بعدها .
(٢) أغانى ٦/١٥٦ وما بعدها .
(٣) أغانى ٤/٣٥٩ .
(٤) أغانى ٦/١٥٢ وانظر ٦/٢٨٩ .
(٥) أغانى ٦/١٥٢ ، ٦/١٧٤ .

الفصل الثالث

الشعر والأغانى فى مكة

١

الشعر فى مكة

كل من يدرس الحياة الأدبية العربية فى العصر الجاهلى يشعر بأن الشعر كان عمود هذه الحياة ، إذ كان سبيل القوم إلى التعبير ، سواء فى وقائعهم الحربية أو وقائعهم اليومية ، فلم يكن قد تكوّن عندهم بعد هذا الحائط العقلى الذى يحوّل الأمة من عالم الشعر إلى عالم الكتابة الفنية . ووُجدَ لدى القوم خطابة ، ولكنها كانت محدودة ، أما الشعر فكان الأسلوب العام للتعبير عن أحداثهم ويومياتهم .

ونحن نجد الشعر فى مكة فى أثناء العصر الجاهلى على كل لسان ، وفى كل مناسبة ، مما يجعلنا نؤمن أن أهل مكة كانوا مثل بقية العرب يعبرون بالشعر عن كل ما يضطربون فيه من عواطف دنيوية أو دينية . ونضرب لذلك مثلا بيت بنى هاشم ، فنحن نجد الرواة ينسبون إلى كل الشخصيات اللامعة فيه شعراً ، فقصىّ وعبد مناف وهاشم وعبد المطلب كل هؤلاء يُنْسَبُ إليهم شعر(١) ، وكذلك حمزة(٢) بن عبد المطلب وأخواه الزبير(٣) وأبو طالب . يقول ابن سلام : « كان أبو طالب شاعراً جيد الكلام ، وأبرع ما قال قصيدته التى مدح فيها النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى :

وأبيضَ يُستَسْقَى الغمامُ بوجههِ ربيعُ اليتامى عِصْمةٌ للأراملِ

---

(١) انظر سيرة ابن هشام الجزء الأول ص ١٣٥ وكذلك ص ٥٢ .
(٢) ابن هشام ٣/٨ .
(٣) طبقات الشعراء لابن سلام (طبع ليدن) ص ٦١ .

وقد زيد فيها وطُوِّلت(١) » . وترْوِى سيرة ابن هشام كثيراً من شعر أبى طالب . وإذا كان هذا شأن بيت واحد من بيوت قريش فما بالنا ببقية البيوت ؟ وإن سيرة ابن هشام لتطفح بكثير من الشعر القرشى ، وكذلك الطبرى وكتاب الأغانى ، فقلما توجد شخصية متألقة فى تاريخ مكة الجاهلى إلا ويُنْسَبُ إليها شعر ، وخاصة من اتصلوا بالسيرة النبوية ، فأبو جهْل بن هشام وأبو سفيان وعمرو ابن العاص ونُبَيْه بن الحجاج وغيرهم من أشراف قريش ينظمون الشعر . وقد ترجم صاحب الأغانى لآخرهم فقال : إنه من وجوه قريش وذوى النباهة فيهم(٢). وممن ترجم لهم أيضاً مسافر بن أبى عمرو بن أمية وكان سيداً جواداً ، وهو أحد أزواد الرَّكْب ، وإنما سُمُّوا بذلك لأنهم كانوا لا يدعون غريباً ولا ماراًّ بطريق ولا محتاجاً يجتاز بهم إلا أنزلوه وتكفلوا به حتى يَظْعن(٣) ، ويعرض أبو الفرج لشعره ، وما كان من مناقضات بينه وبين عُمارة بن الوليد ، وكان هو الآخر شاعراً ، وهو ثانى اثنين أرسلت بهما قريش إلى النجاشى كى يسلم إليهما المسلمين الذين اعتصموا به فى الهجرة الأولى المعروفة(٤) .

ولا نمضى فى حوادث السيرة وهذا الصراع الذى نشب بين الرسول وأصحابه فى المدينة والقرشيين فى مكة حتى تلمع شخصيات كثيرة فى تاريخ مكة الأدبى ، فقد أخذ هذا الصراع مظهرين : مظهراً حربياً فى بدر وأحد والخندق ، ومظهراً أدبياً فى أهاجٍ كانت مكة والمدينة جميعاً تتقاذفان سهامها ونيرانها . وأهم من كانوا يقذفون هذه السهام والنيران من مكة الحارث(٥) بن هشام ، وعمرو(٦) بن العاص ، وهبيرة(٧) بن أبى وهب المخزومى ، وضرار(٨) بن الخطاب وأبو سفيان(٩) ابن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن الزِّبَعْرى ، وهو أهم هؤلاء الشعراء جميعاً .

---

(١) ابن سلام ص ٦٠ .
(٢) أغانى ٦٢/١٦ ومابعدها .
(٣) أغانى طبع دار الكتب ٤٩/٩ .
(٤) المصدر نفسه ٥٥/٩ .
(٥) ابن هشام ١٩/٣ .
(٦) ابن هشام ١٥١/٣ وكذلك ١٥٤/٣ .
(٧) ابن هشام ١٣٦/٣ وانظر ابن سلام ص ٦٥ حيث يقول : إنه كان شديد العداوة لله ورسوله فأخمله الله ودحضه .
(٨) انظر ابن هشام ٥٦/٢ ، ٩٣/٢ ، وكذلك ١٣/٣ ، ١٤٦/٣ ، ١٥٢/٣ ، ١٧٢/٣ .
(٩) ابن سلام ص ٦١ ويقول : له شعر كان يقوله فى الجاهلية فسقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل .

وما زال يتناقض هو وحسان بن ثابت حتى أتم الله نعمته على رسوله ، ففُتحت مكة ، فأسلم ، ومدح الرسول واعتذر إليه ، ومن قوله بعد إسلامه [١] :

يا رسولَ المليك إنَّ لسانى راتقٌ ما فتقتُ إذ أنا بُورُ

وأظن فيما قدمناه ما يدل دلالة واضحة على نشاط الشعر فى مكة فى أثناء العصر الجاهلى .

ويلاحظ ابن سلام أن قريشاً تزيد فى أشعارها [٢] ، وهو يشير بذلك إلى كثرة المنحول فيها . ومن المؤكد أن الشعر كان كل شىء فى حياة القوم الأدبية ، فعلى الرغم من مجلس شيوخ مكة وما يتطلبه من عناية القرشيين بالخطابة تحت تأثير جدالهم وحوارهم فى شئونهم المختلفة ، فإنهم لم يُعْرَفُوا بخطابة حينئذ ، إنما عُرفوا بالشعر . وحوادث السيرة نفسها لا نجد فيها خطباً ، وإنما نجد شعراً وشعراء مما يدل على أن الشعر كان هو الفنَّ المألوف عندهم .

ويذكر ابن سلام أن الشعر فى مكة كان قليلاً ، ويعلل لذلك بأنه لم تكن بين أهلها نائرة [٣] ، كما كان الشأن بين الأوس والخزرج فى المدينة مثلاً ، فإن الحرب بين الحيين هناك سَعرت القوم ، وكَوَّنت منهم شعراء يتبادلون الأهاجى والنقائض . وفقدان مكة للحروب والحزازات بين أهلها فى الجاهلية لا يجعلها تفقد الشعر ، ولا يؤخر مرتبتها فيه ، إنما يلوّن شعرها بلون حياتها فمن الطبيعى ألا يكون هناك هجاء كثير لضعف دواعيه ، ولكن من الطبيعى بعد ذلك أن يتخذ القوم الشعر فى التعبير عن مشاعرهم وعواطفهم ، فينابيع الشعر مستقرة فى نفوسهم استقرارها فى نفوس العرب جميعاً .

ومن المهم أن نعرف أن كثيراً من أحكامنا على الحياة الجاهلية ينقصه الدليل القاطع ، فلم يبق لنا من هذه الحياة إلا رسوم وأطلال ، وخاصة فيما ضادّ الإسلام وعارضه . وكلنا نعرف أن الإسلام محا الوثنية فى الجزيرة محواً وكلّ ما اتصل بها من شعر وقول ؛ ولعلنا لا نخطئ إذا زعمنا أن القرشيين عالجوا فى شعرهم الوثنى

---

(١) ابن سلام ص ٥٩ وابن هشام ٤/٦١ .

(٢) ابن سلام ص ٦٢ .

(٣) ابن سلام ص ٦٥ . ونائرة : عداوة وثارات .

حياتهم الدينية ، فإن العربى من شأنه دائماً أن يعبِّر عن سلوكه فى صراحة وصدق ، وإن قيام مكة على الوثنية فى الجزيرة ليؤكد أن أبناءها نظموا شعراً كثيراً فى آلهتهم . وأيضاً فإن حربهم اللسانية للرسول لا بد أن تكون قد احتوت على دفاع كثير عن دينهم . وكان عبد الله بن رَواحة يعيِّرهم بالكفر[١]. وأكبر الظن أنهم بدءوا هذا الدفاع مع حركة التحنُّف التى ظهرت فى مكة قبيل الإسلام ، فنحن نجد زيد ابن عمرو بن نُفَيْل يفارق دين قومه وينظم شعراً يتلوّمهم فيه على وثنيتهم وآلهتهم[٢] ، ولعلهم نقضوا هذا الشعر وعارضوه بشعر آخر نصروا فيه آلهتهم ووقَّروها .

وإذا كانت نصوص هذا الشعر الدينى انمحت ، فقد بقيت نصوص أخرى غير دينية تدل على أن القوم استخدموا هذه الموهبة الفنية فى كل ما اتصل بحياتهم ، وفى الموضوعات نفسها التى أُثرت عن غيرهم من عرب الجاهلية . فنحن نجد لهم مديحاً[٣] وفخراً[٤] وغزلاً[٥] ورثاء[٦] وعتاباً[٧] . وقصيدة قُتيلة بنت الحارث فى بكاء أخيها النّضر عدو الله ورسوله وعتاب رسول الله على قتله بعد وقعة بدر ذائعة مشهورة ، وفيها تقول :

ما كان ضرَّكَ لو مَننتَ ؟ وربما مَنَّ الفتى وهو المَغِيظُ المُحْنَقُ

النَّضْرُ أقربُ من أسرتَ قرابةً وأحقهم إن كان عِتْقٌ يُعْتَقُ

ظلَّتْ سيوفُ بنى أبيه تنوشُه لله أرحامٌ هنـاك تُشَقَّقُ

ويقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغته هذه القصيدة قال : « لو بلغتنى قبل قتله لمننت عليه[٨] » . ويدل نسج هذه القصيدة على مدى ما بلغته المرأة القرشية فى العصر الجاهلى من إحسان للشعر . ووراء قتيلة نجد كثيرات يُنَسَبُ إليهن شعر كبنات عبد المطلب[٩] ، وهند[١٠] بنت عتبة زوج أبى سفيان ، وصفية[١١] بنت مسافر .

---

(١) أغانى ٤/١٣٨ .
(٢) ابن هشام ١/٢٤١ وما بعدها .
(٣) ابن سلام ص ٥٨ وابن هشام ١/١٨٤ .
(٤) أغانى ٩/٥٥ .
(٥) أغانى ٩/٤٧ وانظر ٩/٤٩ .
(٦) ابن هشام ١/٣٤٧ وكذلك ٣/٢٨ وما بعدها .
(٧) ابن هشام ١/٣٥٤ وما بعدها .
(٨) ابن هشام ٣/٤٤ .
(٩) ابن هشام ١/١٧٩ وما بعدها .
(١٠) ابن هشام ٣/٤٠ وكذلك ٣/٧٢ و٣/٩٧ .
(١١) ابن هشام ٣/٤٢ .

ومكة من هذه الناحية تتفوق على المدينة ، فإذا كان ابن سلام لاحظ أن الشعراء قليلون فى مكة ، وهى ملاحظة تناقَش فى ضوء ما قدمنا ، فإن الشاعرات كن كثيرات . والحق أن مكة كان فيها شعر كثير . واستمرت هذه الموجة الحادة من الشعر والشعراء على ما يظهر فى عصر صدر الإسلام وخاصة فى عصر الرسول حين كانت المعارك مستعرة بين مكة والمدينة ، واستمرت أيضاً بعد الفتح ، فإن مكة أسلمت متأخرة ، ولم تدخل فى الإسلام مبكرة كما دخلت المدينة . ومن هنا كنا نظن أن استجابتها لأوامر الخلفاء الراشدين ونهيهم عن الهجاء والتشبيب بالنساء أضعف من المدينة . وإن كنا نلاحظ من طرف آخر أن دواعى الهجاء بين مكة والمدينة انتهت ، وأن هذه الدفعة المرة تلاشت ، ومع ذلك فالرواة يروون أن ضِرار ابن الخطاب وعبد الله بن الزِّبَعْرَى « قدما المدينة فى عهد عمر بن الخطاب فقصدا أبا أحمد بن جحش الأسدى الضرير ، وكان الناس يجتمعون عنده ويتحدثون ، فقالا له : أتيناك لتجمع بيننا وبين حسان بن ثابت ، فإنه كان ينظم فى الإسلام ، وكنا ننظم فى الكفر ، ونريد أن نسمع منه ويسمع منا ، فأرسل إليه ابن جحش ، فجاءهم وعرض عليه ابن جحش أن يتناشد مع خصميه القديمين ما كانوا ينظمون من شعر قبل فتح مكة ، فقبل حسان ، وبدأ ضرار وعبد الله بن الزِّبَعْرَى يُنْشدانه ، ويُسمعانه مما كانا يقولان فى هجائه وهجاء المسلمين حتى إذا صار حسان يفور كالمِرجل خلَّياه ، وركبا رواحلهما ، وانطلقا صَوْب مكة ، فخرج حسان ، يجر أذياله إلى عمر ، وقَصَّ عليه الخبر ، فأرسل فى طلبهما ، فرُدَّا إليه ، وقال لحسان : أنشدْ ، فأنشد حسان حتى شفى نفسه ، ثم قال : شأنكما الآن ، إن شئتما فارحلا ، وإن شئتما فابقيا[١] » . ولعل فى هذا الخبر ما يدل على أن مكة لم تنس قديمها فى عصر الخلفاء الراشدين ، ونحن نلتقى فيها حينئذ بأبى دَهْبَل الجُمَحِىّ ، وقد ترجم له أبو الفرج فى أغانيه . على أننا لا نتقدم فى العصر الأموى عصر المغنين والغناء ، حتى نجد مكة تموج موجا بالشعراء .

وكثير من المكيين هاجر إلى المدينة مع الرسول صلى الله عليه وسلم وبعد الفتح . وهذه هى الهجرة الأولى ، وهناك هجرة ثانية مع الفتوح الإسلامية فى عهد أبى بكر

(١) ابن سلام ص ٦٠ .

وعمر وعثمان ، ولكن مع ذلك كله استمر لمكة شأنها القديم فى الشعر . ومن المعروف أن أكثر الهاشميين والأمويين نزحوا عنها . وبالرغم من ذلك نجد للأولين شاعراً مشهوراً فى هذا العصر الأموى وهو الفضل بن العباس اللهبى ، كما نجد للآخرين شاعراً مشهوراً هو العَرْجىّ حفيد عثمان .

على أنه ينبغى أن نلاحظ أنه إذا كان أكثر هذين البيتين الكبيرين قد هاجر من مكة ، فقد بقيت بيوت أخرى ، ورجع كثير ممن هاجروا إلى المدينة أو إلى الأمصار الإسلامية . وربما كان أهم بيت بقى فى مكة ، أو على الأقل بقى أكثره هو بيت بنى مخزوم ، وكان لا يقلّ عن البيتين الأولين أهمية فى العصر الجاهلى ، ونبغ منه فى هذا العصر شاعران معروفان هما عمر بن أبى ربيعة والحارث بن خالد .

وبجانب ذلك نجد البيوت الأخرى تمدنا بشعراء ممتازين مثل ابن قيس الرقيات وأبى دهبل الجُمَحِىّ . ومعنى ذلك أن الخيط الفنى القديم استمر ، وأخذت تتشعب منه فى هذا العصر الأموى عصر الغناء والمغنين خيوط وُشَعبٌ كثيرة .

ونحن نلاحظ من طرف ثان أن مكة إذا كانت فقدت فى هذا العصر بعض البيوت وكثيراً من الأسر والشخصيات فإنها أخذت تكتسب عنصراً جديداً ، لم يكن مفقوداً تماماً قبل ذلك ، ولكنه يُعَدُّ على كل حال عنصراً جديداً ، ونقصد الموالى الذين أخذوا يتعلمون العربية ، ويحاولون أن يتخذوها لسانهم وأداتهم فى التعبير . وكانت مكة فى الجاهلية تتجر فى رقيق إفريقيا ، وظهر من هذا الرقيق فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين شاعر حبشى هو عَبْد بنى الحَسْحاس . وإذن فالعنصر الأجنبى فى الشعر المكى عُرف قبل الفتوح الإسلامية ، ولكن الذى نلاحظه الآن هو اتساع هذا العنصر ، ودخول أجانب جدد لا عهد للشعر العربى بهم . ونقصد هؤلاء الموالى من الفرس خاصة الذين جلبهم كبارُ الفاتحين من المكيين . وأشهر الموالى فى مكة حينئذ أبو العباس الأعمى وهو السائب بن فَرُّوخ مولى بنى الدُّئِل .

وعلى هذا كان كثير من أهل مكة فى العصر الأموى يصطنعون الشعر ، فهم يتخذونه أداة تعبيرهم الأدبى ، وهم يَسْكبون فيه عواطفهم ومادة حياتهم . وأخذت مكة تنهض به تحت تأثير الغناء ، فلمعت أسماء وشخصيات كثيرة .

٢

الشعر والأغانى

كل من يُعْنَى بالشعر العربى من أقدم عصوره إلى الآن يلاحظ فيه نوعاً من الشعر تُتّخذ فيه رسوم وتقاليد خاصة من حيث البدء بوصف الأطلال ثم وصف الصحراء والإبل والانتقال من ذلك إلى الموضوع الخاص من مديح وهجاء . وقد شغلت قصيدةُ المديح الشعراءَ منذ زهير إلى العصر الحاضر ، أما قصيدة الهجاء فإنها بلغت الذروة عند جرير والفرزدق والأخطل من شعراء بنى أمية فيما يسمى بالنقائض .

وبجانب هاتين القصيدتين الطويلتين للمدح والهجاء وما يتصل بهما من عتاب أو رثاء ونحو ذلك توجد مقطوعات قصيرة تُشْغل بالغزل عادة ، وقلما تشغل بحماسة أو رثاء أو مديح أو هجاء . وأكثر هذه المقطوعات يدل بصورته على أنه لم يُقَل لينشد فى سوق عكاظ وغيرها من أسواق العرب ، وإنما قيل ليغنى ، إما فى الحرب وإما فى السلم .

ومن يرجع إلى نصوص الشعر التى أنشدها ابن هشام فى السيرة النبوية لأهل مكة فى العصر الجاهلى يلاحظ أن أكثرها يدخل فى باب الأغانى فهى فى جملتها مقطوعات ، وهى فى جملتها سهلة خفيفة على اللسان والأذن حتى ليقول ابن سلام : « أشعار قريش أشعار فيها لين ، يشكل بعض الإشكال[١] » . وأكبر الظن أن الإشكال الذى يقصد إليه ابن سلام هو أن أشعار قريش لا تجرى على صورة القصيدة التقليدية الطويلة التى عُرفت عن شعراء العصر الجاهلى .

وفى رأينا أنه كان ينبغى لابن سلام أن يميِّز عند العرب وعند شعراء المدن خاصة بين نوعين من الشعر : نوع تقليدى يقوم على العناية الشديدة بفن القصيدة من حيث هى قصيدة ، فلها مقدمة شرعها أصحاب فن القصيدة ، وهى مقدمة الأطلال

---

(١) ابن سلام ص ٦٠ .

وبكاء الديار المشهورة ثم لها بعد ذلك رسومها من حيث وصف الإبل والصحراء والانتهاء أحياناً بالحِكَم ، ونوع آخر لا تُلْتَزَمُ فيه كل هذه الرسوم والقواعد ، فأصحابه لم يعقّدوا فنهم كل هذا التعقيد ، إذ هم أهل حياة يومية عاجلة ، لا تعطيهم الفرصة لكى يصنعوا القصيدة فى حول كامل ، كما كان يصنع زهير فى حولياته المعروفة[١] . ولنقارن بين حياة المكى العادى فى الجاهلية وحياة رجل البادية ، فالأخير أمامه الفسحة الكافية من الوقت ليصنع قصيدته كما يريد ، فحياته كلها حياة رَعْيٍ ، وأوقاته كلها مِلكٌ له ، أما رجل مكة فتاجر ، تلهيه التجارة عن أداء أى شىء سواها ، وليس عنده من الوقت ما ينفقه فى أداء التقاليد الفنية المرسومة للقصيدة .

ومن هنا كان المفروض أن لا ينجح فن القصيدة فى مكة ، وإنما ينجح فن المقطوعات والأبيات القليلة التى يعبر بها الشاعر فى سرعة عن حادثة تجرى فى حياته أو فى الحياة الواقعة تحت بصره . وقد وُجدت فى مكة كما قدمنا بيوت للغناء كان يغنى فيها القيان من مثل جَرَادَتَىْ عبد الله بن جُدْعان ، وقيان الحارث بن النَّضْر ، فإذا قلنا بعد ذلك إن مكة عرفت الأغانى بمعناها التام منذ العصر الجاهلى لم نكن مبالغين ، فمن حيث المادة ، وهى المقطوعات القصيرة ، كانت المادة وافرة ، ومن حيث الغناء كان الغناء وافراً أيضاً .

وربما كان من أهم الأدلة ، التى تقطع بما نزعم ، أن هذه المقطوعات المكية التى يرويها ابن هشام فى سيرته تكثر فيها الأوزان الخفيفة من مثل الهزج[٢] والمتقارب[٣] ، بل إننا نجد فيها كثيراً من مجزوءات الكامل[٤] والهزج[٥] والرجز[٦] . ولا ريب فى أن هذه ظاهرة تتصل بالغناء مباشرة ، إذ من شأن التلحين أن يؤثر فى موسيقى الشعر وأن يقصِّر فيها ويمد فتتم تغيُّرات وتحريفات كثيرة . وأيضاً فإن

---

(١) البيان والتبيين ١٣/٢ وما بعدها .
(٢) ابن هشام ٣٥/٣ وكذلك ص ٧٢ ، ٨٢ .
(٣) ابن هشام ٤٠/٣ وهذا البحر كثير جداً فى شعر السيرة .
(٤) ابن هشام ٤١/٣ .
(٥) ابن هشام ٤٢/٣ .
(٦) ابن هشام ١٤٥/٢ .

تاريخ الشعر العربى كله يدل على أن الأوزان الخفيفة إنما تشيع تحت تأثير الغناء ، حدث ذلك فى العراق فى أثناء العصر العباسى ، وحدث ذلك فى الأندلس أيضاً فإذا رأينا بذور هذه الظاهرة واضحة فى مكة منذ العصر الجاهلى آمنّا بأن تأثيرات مشابهة كانت هناك . وهذا إذا لم تصلنا نصوص توضح ما كانت عليه مكة حينئذ ، أما إذا وصلتنا نصوص تؤكد وجود دورٍ للغناء فإن الأمر يختلف ، وأظننا لم ننس بعد هذه الجوقة الكبيرة التى صاحبت جيش مكة فى غزوة أُحد ، وكانت تتألف من بعض نسوة قريش ، فكنّ يضربن على الدُّفوف ، وكانت هند بنت عُتْبة تغنِّى فى أثناء هذا الضرب والعزف بمقطوعات مختلفة ، من مثل[1] :

إن تُقبلوا نُعانقْ ونفرشِ النّمارقْ
أو تُدْبروا نفارقْ فِراقَ غير وامق

ومعنى ذلك أن مكة عرفت فى الجاهلية الأغانى فى السلم والحرب ؛ بل أظننا لا نغلو إذا قلنا إنها لم تكد تعرف الشعر التقليدى إلا فى مواسم الحج وفى سوق عُكاظ حين كان ينشد شعراء البادية شعرهم ، وإلا حين اصطدمت بشعراء المدينة فى عهد الرسول من مثل حسان بن ثابت وكعب بن مالك . ومع ذلك فإنها لم تثبت لحسان ولا لكعب فيما يظهر ، لسبب بسيط ، وهو أنها لم تكن تحسن هذا النوع من الشعر التقليدى ، إنما كانت تحسن الأغانى التى لا تحتاج إلى تقاليد فنية كثيرة . وربما كان من الأدلة المهمة على أنها كانت تحسنها أنها استطاعت أن تطوّع لغة الشعر للغناء بحيث يلاحظ فى شعرها ابن سلام هذا اللين الذى يشير إليه ، والذى دعاه أن يقول : إن شعر مكة يشكل بعض الإشكال . وأظن أنه لم يعد يشكل علينا هذا اللين الآن ، لأننا فهمنا مصدره وعرفنا علته وسببه .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على أن مكة ، كانت مُعَدَّةً منذ العصر الجاهلى لشيوع الأغانى فيها ، فهى من هذه الناحية تتقدم المدينة ، كما تتقدم بيئات الشعر العربى الأخرى فى العصر الجاهلى . ونحن نعرف أن أهم الموضوعات التى دارت عليها الأغانى فى العصر الأموى عند عمر بن أبى ربيعة وأصحابه هى الغزلُ وقصة

---

(١) طبرى ١/١٤٠٠ ووامق : محب .

الحب : حياته ووقائعه وموته . ويظهر أن هذه الظاهرة نفسها قديمة ، بل إن ما طَبَعَ غزلَ بن أبى ربيعة وأصحابه من صراحة يظهر أيضاً أنه كان معروفاً منذ العصر الجاهلى ، فنحن لا نتقدم فى مكة إلى أواخر هذا العصر حتى نجد عبداً أسود نوبياً يشتهر بالشعر ، كان مولى لبنى الحسحاس ، وهم بطن من بنى أسد ، ولذلك يسمى – كما مرَّ بنا – عبد بنى الحسحاس واسمه سُحَيْم . وكان يصنع الشعر فى مقطوعات ، أو بعبارة أخرى كان يصنع هذه الأغانى ، وكانت فيه لُكْنَة أعجمية ، فكان إذا أنشد الشعر يقول أهسنتُ والله ! . وكان ينظم هذا الشعر فى الغزل المادى الإباحىّ . ويقول أبو الفرج : إنه عاش إلى عصر الخلفاء الراشدين ، وقُتل بسبب شعره الماجن وحديثه عن المرأة[١]. ومعنى ذلك أن الغزل الإباحى الذى يدفع إليه الجشع الجسدى وُجد عند شاعر مكى قديم ، وكان فى صورة أفزعت الناس ، صورة ماجنة تختلف عن صورة الغزل الصريح الذى اشتهر به ابن أبى ربيعة وأصحابه ، ولذلك رصده الناس وقتلوه .

ولا نكاد نتقدم بعد عبد بنى الحَسْحاس حتى نجد فى أواخر عصر الخلفاء الراشدين شاعراً مكيا مهما هو مقدمة شعراء العصر الأموى ، وهو أبو دَهْبل الجُمَحِىّ ، ويقول أبو الفرج إنه من أشراف قريش ، وكان يحمل الحمالات والديات ، ويعطى الفقراء ، ويَقْرِى الضيف[٢]، ويتقدم أبو الفرج فى ترجمته ، فيروى أشعاره ويقص أخباره .

وما نلم بهذه الترجمة حتى نشعر بتمام المشابهة بين أبى دهبل وبين شعراء العصر الأموى من مثل عمر ، فأكثر شعره مقطوعات ، أُريد بها إلى الغناء لا إلى الإنشاد ، وليس فيها هذا الجمود عند الأطلال وبكاء الديار ، وإنما فيها وصفُ قصة الحب وما يرتبط بها من عُذَّال ووشاة وتباريح وآلام ، وفيها بجانب ذلك تصويرٌ لأحاديث النساء ومجالسهن على نحو ما نجد عند ابن أبى ربيعة .

وليس هذا كل ما يميز شعر أبى دهبل ، فنحن نجده يمتاز بالظاهرة القديمة

---

(١) أغانى ٢٠/٢ وما بعدها .
(٢) أغانى ١١٦/٧ .

نفسها التى أشار إليها ابن سلام ، ظاهرة اللين والسهولة . وهى طبيعية كما قدمنا ، لأن شعراء قريش فى الجاهلية والإسلام جميعاً لم يكونوا يريدون بشعرهم التعبير عن التقاليد الفنية فى أروع صورها كما نجد عند أصحاب المعلقات مثلاً ، إنما كانوا يريدون التعبير عن عواطفهم فى يسر وسهولة وقرب من مألوف الناس فى لغتهم اليومية .

وعاش أبو دهبل حتى عصر ابن الزبير ، إذ نرى فى شعره مديحاً لابن الأزرق المخزومى واليه على اليمن[١]. ومعنى ذلك أن خيوط الأغانى فى مكة امتدت من الجاهلية إلى العصر الأموى عن طريق أبى دهبل الجمحى . فليست الأغانى إذن التى شاعت وذاعت فيما بعد عملاً مبتكراً من أعمال العصر الأموى ، ولا ظاهرة جديدة منتبتة الصلة بالماضى كما تصوّر بعض الباحثين ، بل هى امتداد واستمرار لظاهرة قديمة .

وكل ما يمكن أن نلاحظ من جديد إنما هو اتساع موجة هذه الأغانى اتساعاً شديداً تحت تأثير الغناء والموسيقى التى أصبحت لهوَ الناس وملء أوقاتهم على نحو ما صورنا ذلك فى فصل الغناء . وأيضاً فالأغانى القديمة لم تكن تُغَنَّى بهذه الرُّقُم الموسيقية (musical notes) التى استحدثها المغنون فى العصر الأموى والتى سبق أن عرضنا لها مما نجده منتشراً فى صفحات كتاب الأغانى من مثل : ثقيل أول وثقيل ثان وخفيف ثقيل ورمَل وخفيف رمل ، لسبب بسيط ، وهو أن هذه الرُّقُم ظهرت لأول مرة فى العصر الأموى تحت تأثير هذه الحركة النشيطة التى قام بها الموالى ، فبديهى ألا يُغَنَّى الشعر القديم على ألحانها ، لأنه سابق لظهورها .

وإذن فنحن نستطيع أن نميز فى تاريخ الأغانى المكية بين عصرين منفصلين : عصر كانت تغنى فيه ولكن لا على نظرية خاصة ، أو على الأقل لم تكن تُغنّى حسب هذه النظرية الجديدة التى وضعها المغنون من مثل ابن مِسْجح وابن سُرَيْج والغَريض ومن لف لفَّهم ، وإن كانت تُغَنَّى على كل حال بألحان ، ولكنها لم تكن تخضع لنظرية معينة ، وإنما كانت تخضع لأذواق المغنين حسب أمزجتهم وميولهم . واستمر

---

(١) أغانى ٧/١١٤ ، ٧/١٢٨ ، ٧/١٣١ وما بعدها .

هذا العصر من الجاهلية إلى أن كان زمنُ بنى أمية وعَمِل نقلُ الحضارات الأجنبية إلى الحجاز عمله . فتراءت أضواء عصر ثان هو عصر الأغانى المكية المؤلفة على نظرية الغناء التى تنتهى أسانيدها فى كتاب الأغانى إلى مغنى العصر الأموى فى الحجاز . ومعنى ذلك أنهم هم الذين أحدثوها من عندهم وتحت تأثير رقى الغناء العربى فى عصرهم .

وهذا العصر الثانى هو عصر النهضة الحقيقية للأغانى المكية وقد لمعت فيه شخصيات كثيرة على رأسها ابن أبى ربيعة وابن قيس الرقيات ممن كتبوا شعرهم تحت تأثير النظرية الغنائية الجديدة .

وأخذت تتسع الفروق بين هذه الأغانى والشعر التقليدى القديم . ولعل أول ما يلاحظ من هذه الفروق شدة الالتحام بين المغنين والشعراء ، وبذلك أصبح الشعراء يعيشون معيشة فنية غنائية خالصة . ولنضرب لذلك مثلا ابن أبى ربيعة ، فأخباره فى كتاب الأغانى دائماً تتصل بالمغنين والمغنيات ، وكان يلزمه ابن سُرَيْج[١] والغَريض[٢] يغنِّيانه فى شعره وكان عنده فى البيت جاريتان تقومان له بما يقوم به ابن سُرَيْج والغريض وهما بَغوم وأسماء[٣]. ويروى أبو الفرج كثيراً أنه ذهب إلى المدينة ليستمع إلى بعض شعره يُغَنَّى فى دار جميلة[٤]. ولعل من الطريف أنه كان إذا أراد أن يرسل ببعض شعره إلى صواحبه أرسل به مع المغنين من مثل بُدَيْح المليح[٥] والغَريض[٦].

وهذا كله معناه أن ابن أبى ربيعة حين كان يصنع أشعاره كان يصنعها تحت تأثير المغنين والمغنيات ، أو بعبارة أخرى تحت تأثير النظرية الجديدة للغناء . ولم يكن هذا شأن عمر وحده وإنما كان شأن بقية الشعراء المكيين من مثل ابن قيس الرُّقَيَّات والعَرْجِىّ ، فقد كانت حياتهم متحضرة ، وكانوا يعيشون للشعر والغناء وهذا الترف الذى أصاب المكيين فى العصر الأموى .

ونستطيع بذلك أن نفهم كيف أن عمر لم ينزع عن الغزل ومقطوعاته إلى الشعر

---

(١) انظر أغانى طبع دار الكتب ١/٢٥٨ وما بعدها
(٢) أغانى ٢/٣٩٥ .
(٣) أغانى ١/١٦٥ .
(٤) أغانى ٨/٢٠٦ .
(٥) أغانى ١/٨٨ .
(٦) أغانى ٢/٣٧٦ .

التقليدى من مديح أو هجاء ، فقد كان ثرياً ، ولم يكن فى حاجة إلى أموال الخلفاء ، وكان يعيش هذه المعيشة الفنية الخالصة التى تقوم على الغناء والموسيقى والشعر ، فبديهى ألا ينزع عن حكاية عواطفه ، وأن يستغرق الحب شعره وخواطره .

وارجعْ إلى ديوان ابن أبى ربيعة ، فستجده كله يُشْغَلُ بالغزل ، وستجد عمر يتيح لهذا الفن تحت تأثير الغناء كل ما يمكن أن يصل إليه من رقى وازدهار . وحقاً وُجد فى مكة مَنْ شغلوا أنفسهم بالمديح ، ولكنهم كانوا أقلية ، وكانوا غالباً من الموالى مثل أبى العباس الأعمى الذى كان يتشيع للأمويين ، وقلما وجدنا قرشياً يُعْنَى بالمديح سوى ابن قيس الرقيات . على أن هذا المديح كان عارضاً فى فنه ، ولذلك كان مديحه أناشيد غناء ، مما سنعرض له فيما بعد .

والمهم أن نلاحظ الآن أن مكة عُنيت عناية بالغة بالأغانى فى العصر الأموى ، وأن بعض الشعراء أخذ يتخصص فى هذا الفن ، لا يتعداه إلى غيره من ضروب الشعر التقليدى . وما للمكيين والشعر التقليدى وما يرتبط به من مديح وهجاء ؟ لقد أصبحوا مترفين ، وأصبحوا ينعمون بألوان وفنون من الحضارة أزالت ما فى نفوسهم من وحشة وخصومة وحدّة ، وهيأتهم لهذه المعيشة الفنية الخالصة من الشعر والغناء والموسيقى . فطبيعى أن لا يُعنوا إلا بالأغانى وأن تكون كل حياتهم وكل فنونهم وكل مواهبهم وكل حواسهم وخواطرهم .

٣

خصائص فى الغزل وأغانيه

من يستعرض شعر الغناء عند العرب فى جميع عصوره من أغانى المكيين فى الجاهلية إلى موشحات الأندلسيين وأزجالهم يجد الحب أهم الموضوعات التى تناولها هذا الشعر . وحقًّا تناول الشعر موضوعات أخرى كالحماسة والمديح والفخر والهجاء ، ولكن ليس ذلك هو الغالب عليه ، إنما الغالب عليه النسيب والغزل .

ونحن لا نصل فى مكة إلى العصر الأموى حتى نجد شعراء الأغانى يكادون

يقصرون أنفسهم وشعرهم على الحب وحكاية حوادثه ووقائعه ، فقد أصبح الغزل الموضوع الأساسى الذى يعالجونه وديوان عمر بن أبى ربيعة خير مثال يصور هذا الجانب ، فليس فيه إلا غزل وتشبيب وتصوير لهذه العاطفة الإنسانية الخالدة : عاطفة الحب .

وليس هذا كل ما يميز الأغانى عند عمر وأصحابه ممن عاشوا فى هذا العصر ، فمن أهم ما يميزها أن فكرة القصيدة كادت تختفى منها إلا قليلاً ، لسبب بسيط ، وهو أن الشاعر لم يكن يريد أن يصنع شعراً فحسب ، وإنما كان يريد أن يصنع شعراً يُغنّى ، ومن طبيعة الغناء أنه لا يحتاج إلى قصائد طويلة ، فحسبُ المغنى أن يغنى طائفة قليلة من الأبيات يُحسِن تنغيمها وتلحينها . واشتهر ابن مُحْرِز – كما مَرَّ بنا – بأنه أول من غنى بزَوْج من الشعر ، ثم اقتدى به المغنون[١].

وما من شك فى أن هذا الذوق كان له تأثيره فى الشعراء فلم تعد هناك حاجة لكى ينظموا قصائد ، فالمغنون لا يغنون قصائد ، وإنما يغنون مقطوعات ، ثم هم يكتفون من المقطوعات بالأبيات القليلة ، بل بالبيتين ، فحسب الشاعر إذن أن يصنع البيتين والثلاثة .

ومع ذلك فقد تطول المقطوعة عنده ، ولكنها على كل حال لا تصبح قصيدة بالمعنى المألوف فى الشعر التقليدى عند زهير والنابغة فى العصر الجاهلى أو عند جرير والفرزدق فى العصر الأموى ، وإنما تصبح مقطوعة طويلة إن صَحَّ هذا التعبير . وهى مقطوعة تبدأ بالحب وتنتهى بالحب .

وليست الأغنية ، وإن طالت وأصبحت قصيدة ، منوّعة الموضوعات كالقصائد التقليدية ، بل إن المقدمة المعروفة فى القصائد التقليدية مقدمة الأطلال والديار نجدها تختفى فى الأغنية إلا قليلا لسبب بسيط ، وهو أن حياة أصحابها لم تكن حياة تنقُّلٍ فى البادية ، إنما كانت حياة استقرار فى المدينة ، فلم تعد هناك حاجة عند الشاعر ولا عند من يخاطبهم لكى يبكى لهم ديار حبيبته ، ويصف أطلالها وما يجوس خلالها من حُمُرِ الوَحْشِ .

---

(١) أغانى ٣٧٩/١ .

ومن هنا اختفت المقدمة التقليدية ، مقدمة بكاء الأطلال والديار من الأغانى ، وأصبح ناظمها لا يعالجها إلا على سبيل الفكاهة ، وفى الحين البعيد بعد الحين . فقد أصبح الشعرُ شعرَ مدنٍ واستقرار ، وأصبح الشاعر لا يتناول فيه حوادث ماضية مع بعض أحبائه اللائى تركهن فى بعض المراعى ، ثم عاد فلم يجدهن ، وإنما يتناول حوادث حاضرة كانت تحدث له مع صواحبه فى مكة والمدينة أو فى ضواحيهما ، إذ يقص حوادثه اليومية مع من شَغَفْنَ قلبه حبًّا ، وما وقع له معهن من وقائع ، وما دار بينه وبينهن من أحاديث .

وقوام هذه الأحاديث وصف الحب نفسه ولواعجه وآلامه وما يرصد المحبين من عذّال ووشاة ، وهو وصف صريح ، فيه مادية، تقل وتكثر حسب الشاعر ، وحسب مَنْ يتغزل بها ، وماذا تريد من شعراء متحضرين سادت فى مجتمعهم ضروب من الحرية ؟ إنهم لا بد أن يفصحوا عن خلجات قلوبهم ، وكل ما ينطوى فى أفئدتهم ، أو ينطبع فى حواسهم .

ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم لماذا كان طابع الأغانى عند عمر بن أبى ربيعة وأصحابه طابعاً صريحاً . فهم شباب مترف أترفته الحضارة الأجنبية التى غرق فيها إلى آذانه ، وأترفت ذوقه وصفّته ورقّقت أحاسيسه ومشاعره وأخذت تسود مجتمعه طوابع من الحرية الاجتماعية المهذبة التى نجدها دائماً فى المجتمعات المتمدنة . وينبغى أن نفرق دائماً بين الحرية وبين الفساد الخلقى ، فمجتمع مكة لهذا العصر ، عصر النظرية الغنائية أو العصر الأموى ، كان يسوده ضرب من الحرية ، ولكن لم تكن تسوده ضروب التحلل الخلقى كما قد يتراءى لمن يقرأ أخبار عمر بن أبى ربيعة وما نسجه خيال الرواة من مبالغات .

ومهما يكن فقد دار هذا الغزل أو هذه الأغانى حول تصوير الحب فى صراحة ، وفى حرية لا تؤدى الذوق ، فالشعراء يصورون حياتهم الفارغة إلا من هذا الحب وما يجدون فيه من وَصَبٍ وشقاء وعذاب .

وإذا تركنا الموضوع الذى عالجته هذه الأغانى إلى لغتها لاحظنا أنها لا تُساق فى عبارة ضخمة غير مألوفة ، وإنما تساق فى عبارة عادية . واقرأْ فى ديوان عمر أو فى ديوان ابن قيس الرُّقَيَّات فإنك تجد لغة قريبة منك كأنما كُتبت بالأمس ،

فليس فيها صعوبة ولا غرابة ، ولا تكلف للفظ ولا لعبارة . وهذا من أهم ما يميز الأغانى فى جميع عصورها ؛ فهى شعر لم يُكْتَبْ لطبقة أرستقراطية فى الأدب ، وإنما كُتِبَ للشعب وللعامة ، ومن أجل ذلك لا يعدل صاحبه إلى لغة الأدب الرفيعة ، وإنما ينطلق مع اللغة الشعبية ، فهو أدب شعبى إن صح هذا التعبير .

واستعرض النصوص المختلفة التى يروى أبو الفرج أنها أُلِّفت فى مكة فى أثناء العصر الأموى ، فإنك تجدها دائماً خفيفة ، فالشاعر كان يتخذ لغته غالباً من الحديث الشعبى حتى يخاطب القلوب مباشرة وكأنه كان يريد بشعره غاية شعبية ، أو بعبارة أخرى كان يريد أن تحمله أفواه الجماهير وأن تتقبله آذانهم ، وأن يدور فى مجالسهم وأحاديثهم ، لأنه من جهة قريب منهم فى لغته ، ثم هو من جهة أخرى مصوِّر لحياتهم اليومية وحياة شعرائهم التى تجرى تحت أعينهم ، فهو كالمرآة الصادقة ، يستبين فيها المكى تقاسيم عواطفه ووجداناته .

ولا نعجب بعد ذلك إذا رأينا ابن سلاَّم يلاحظ على الشعر المكى فى الجاهلية ليناً ، فتلك صفة استمرت فيه من الجاهلية إلى العصر الأموى ، عصر عمر بن أبى ربيعة وأصحابه ، لسبب بسيط ، وهو أن هذا الشعر كان شعر مدينة اتصلت قديماً بالغناء ، وأريد لشعرها أن يُغَنَّى وأن تحمله أفواه الناس الذين كانوا يعيشون مع الشعراء هناك . وما من شك فى أن هذه الظاهرة ، ظاهرة اللين ، أخذت تتسع ، أو قل أخذ سلطانها يتسع بعد العصر الجاهلى ، بحكم التطور الذى أصاب مكة تحت تأثير العناصر الأجنبية التى ملأت شعابها ودورها . وبون بعيد بين مجتمع مكة فى الجاهلية ومجتمعها فى العصر الأموى ، فقد غلبتْ عليه فى العصر الأخير العناصر الأجنبية من فارسية ورومية وأخذ يُطْبَعُ بطوابع غريبة عنه . وبديهى أن الذين كانوا يعيشون فى مكة حينئذ لم يكونوا يحسنون من العربية ما كان يحسنه أسلافهم القدماء ، فقد تحضروا واختلطوا بموال من أمم مختلفة ، وعاشروهم ، وعاشوا معهم فى دورهم وقصورهم . وطبيعة الحياة اللغوية وما يحدث فيها عادة تحت تأثير مثل هذه الظروف ، تجعلنا نجزم بأن لغة المكيين تطورت حينئذ ، وأنها اتخذت سُبُلاً مختلفة إلى السهولة والبعد عن الغرابة .

ولعل هذا ما جعل اللغويين ينفرون من الاستشهاد بأشعار المكيين من مثل عمر

وابن قيس الرُّقَيَّات ، فقد كانوا لا يوِّثقونهم ، ولا يعدُّونهم فصحاء[١] ! لهذا الاختلاط بالأعاجم الذى صاروا إليه . وليس من شك فى أن هذه الأغانى التى كان يريد أصحابها لمجتمعهم أن يحملها وأن تدور بها ألسنته وتتقبله آذانه كانت تُصْنَعُ بحيث تلائم هذا المجتمع الجديد وما فيه من عناصر أجنبية . وأظن أننا لم ننس ما قلناه فى الفصل السابق من أن الذين نهضوا بالنظرية الغنائية عند العرب كانوا من الأجانب مثل ابن مِسْجح وابن مُحْرز وابن سُرَيْج والغَريض ، فطبيعى أن يؤلف لهم عمر وأصحابه الشعر الذى يغنون فيه من لغة سهلة دانية منهم ، يستطيعون أن يفهموها فى يسر وبدون مشقة .

ومعنى ذلك أن عوامل كثيرة تضافرت على أن تصبح لغة الأغانى المكية فى العصر الأموى لغة قريبة من حديث الناس المألوف ، فيها لين ، وفيها عذوبة ورقة ، وفيها هذه الشفافية لا عن الفكر الذى تؤديه بل عن القلوب نفسها التى تعبر عنها . فقد رُفع الحجاب بين اللغة والقلوب التى تؤدى عنها من جهة ، كما رفع الحجاب بين هذه اللغة وبين القلوب التى تخاطبها . فهى لغة من محيطهم ، محيط أحاديثهم الشفوية ومحيط أحداثهم ووقائعهم اليومية . ومن هنا كنا نجد متعة لا تقدَّر فى قراءة هذه الأغانى المكية إذ تعبر عن كل ما فى نفس صاحبها تعبيراً صافياً فيه واقعية إلى أقصى حد ممكن ، وفيه قرب من قصة القلب الإنسانى أيضاً إلى أقصى حد ممكن .

وإذا انتقلنا إلى موسيقى هذه الأغانى ، لاحظنا فيها أيضاً ما لاحظناه فى لغته ، فهى موسيقى شفافة لا تحجب شيئاً مما وراءها ، بل إنها تأتى لتكمل التعبير مع المعانى التى تحملها ، وهى موسيقى شعراء متحضرين قد أُتْرف ذوقهم وأترف شعورهم ، لذلك لا نحس فيها بشذوذ فى نغمة ولا بخدوش فى نبرة .

وأصبح المثل الأعلى عند هؤلاء الشعراء أن تكون أوزانهم سهلة خفيفة حتى تتلاءم وهذا الغناء الجديد وما يُطْوَى فيه من ألحان ، وكان الناس يستهويهم الغناء الخفيف ، وقلما أُعجبوا بالغناء الكامل التام . واشتهر ابن سُرَيْج ، أهم المغنين فى مكة ، بأنه يحسن هذا الضرب من الغناء[٢] إحساناً شديداً ، فإذا عرفنا أن ابن سريج كان يلزم

---

(١) أغانى ٥/٨٨ .

(٢) أغانى ١/٦٨ .

عمر بن أبى ربيعة ، يلحّن له شعره ويغنيه ، عرفنا إلى أى حد كان له أثر فى عُمر وشعره . ويقول أبو الفرج : إن ابن سريج كان يميل فى غنائه إلى الأرمال والأهزاج[١]. وليس من شك فى أن هذا هو السبب الصحيح فى أن هذين الوزنين اللذين يندمجان اندماجاً تاماً فى هذه الألحان ، وهما الرمل والهزج ، يكثران فى ديوان عمر كثرة مفرطة ، كما تكثر الأوزان الخفيفة من مثل المتقارب والمديد والوافر والخفيف والرجز . وكل ذلك ليلائم بين شعره والمغنين من حوله وما يطلبونه لتلحينه ، ولم يكن ابن سريج وحده الذى يطلب الغناء الخفيف ، فقد كان الغريض مثله[٢]. وإذن فالمغنيان الكبيران اللذان لازما عمر وغنّيا له شعره ولحّناه كانا يميلان إلى الغناء الخفيف ، فلا عجب إذا وجدنا ديوانه بعد ذلك يمتاز بظاهرة الموسيقى الخفيفة والأوزان السهلة القريبة .

وليس هذا كل ما يلاحَظ من تأثير للمغنين والغناء على الأغانى فى هذا العصر ، فنحن نظن ظنًّا أن هذه الأغانى حدثت فيها تعديلات كثيرة فى أوزانها تحت تأثير نظرية الغناء الجديدة . ولنتصور الآن أن الملحنين عندنا والمغنين يسعون جادّين إلى إحداث نظرية غنائية جديدة فيها أثر للألحان الأجنبية ، أليس ذلك يتطلب من الشعراء جهداً حتى يلائموا بين أوزان شعرهم وهذه النظرية الجديدة ؟ وأقصر ما فى المسألة وأقلها خطراً ، أن المغنين من دأبهم أن يمدوا فى حروف بعض التفعيلات أو يهمسوا ، وهذا من شأنه أن يحدث تغييراً طفيفاً أو كثيراً فى موسيقى المقطوعة التى يغنونها ، وما دام الشعراء كانوا يعيشون معهم مختلطين ممتزجين كما قدمنا ، فلا بد أنهم كانوا حين يلاحظون ذلك يأتون لهم بمقطوعات جديدة تتلاءم وما يريدون من مدّ وهمس أو تطويل وحذف .

وقد وضع الخليل بن أحمد فى عروضه اسمين لمثل هذه التغيرات هما : الزِّحافات والعلل ، وما نشك فى أن هذه الزِّحافات والعلل إنما تمت تحت تأثير ضروب من الغناء فى الجاهلية والإسلام جميعاً ، غير أنها اتسعت الآن بحكم هؤلاء المغنين من الأجانب ونظريتهم الغنائية الجديدة .

---

(١) أغانى ١/٢٧٦ وانظر ٤/٢١٩ وكذلك ٦/٢٨٣ .

(٢) أغانى ١/٢٧٦ .

ولم يكتف الشعراء بهذه التغييرات الداخلية فى الأوزان ، بل اتجهوا إلى عمل آخر يتضح فى شعر عمر وغيره من المكيين فى هذا العصر ، وهو الحذف فى تفاعيل الوزن ؛ ومن هنا كثرت المجزوءات لا فى الأوزان الطويلة المعقدة فحسب ، بل أيضاً فى الأوزان الخفيفة السهلة من مثل الرجز والخفيف والمديد والرمل والمتقارب والهزج ، فكل هذه الأوزان نجد مجزوءاتها منبثة فى شعر المكيين فى أثناء العصر الأموى .

وتمَّ ذلك كله تحت تأثير الغناء وهذا الالتحام الشديد بين المغنين والشعراء من جهة ، ثم بين الغناء والشعر نفسه من جهة أخرى . وليست لدينا معلومات واضحة عن مدى معرفة عمر وابن قيس الرقيات والعَرْجى وأضرابهم لنظرية الغناء التى عاصرتهم ، ولكن على كل حال هذه المعرفة ليست ضرورية ، فيكفى أن يوجههم المغنون لما يريدون . ومع ذلك فنحن نجد من معاصريهم شاعراً يسمى الدارمىّ يقول أبو الفرج عنه : إن له أصواتاً يسيرة ، وقد روى له صوتاً من المائة المختارة لهرون الرشيد وهو قوله [1] :

أَفِقْ يا دارمىُّ فقد بُليتا ... وإنك سوف توشك أن تموتا
أراك تزيدُ عشقاً كلَّ يوم ... إذا ما قلتَ إنك قد بَرِيتا

والصوت من وزن الوافر . وليس من شك فى أن الدارمى هذا يُعَدُّ مثلاً طريفاً للشعراء المكيين ومدى تأثرهم بالغناء الجديد ، فهو يسعى إلى تعلمه ، كى ينظم شعره حسب ما يريد من ألحان ، أو كى يقع من المغنين فى عصره موقعاً حسناً فيغنّوه .

وعلى هذا النحو كان أصحاب الأغانى يجددون فى أوزانهم تحت تأثير النظرية الجديدة للغناء ، وقد رأوا أن يختاروا للمغنين أوزاناً اكثر بساطة وأكثر ألفة ، فعمدوا إلى الأوزان السهلة الخفيفة ، ولم يكتفوا بذلك بل غيَّروا فى مَدّ حركاتها وتقصيرها عن طريق الزحافات والعلل ، ولم يكتفوا بذلك أيضاً ، ، بل ذهبوا يجزِّئون فيها ويعدّلون حتى تحمل كل ما يريد المغنون لها من إيقاعات وأنغام وألحان .

---

(١) أغانى ٣/٤٤ وما بعدها .

٤

شغف المكيين بأغانى الغزل

إذا قرأنا فى كتاب الأغانى الأخبار التى يسوقها عن المكيين فى هذا العصر شعرنا كأنما كانت هناك خيوط محكمة تصل بين قلوبهم جميعاً وبين قلوب شعرائهم الذين انطلق المغنون يغنُّون فى أشعارهم ، ويخَيَّل إلى الإنسان كأنما أصبحت أغانى الغزل شُغْلَ الناس الشاغل ، فهم يملأون بها أفواههم وأسماعهم وأوقاتهم ، يشترك فى ذلك الرجل والمرأة ، والغنى والفقير ، والحر والمولى ، والعابث المستهتر والعابد الورع . فقد تحولت مكة إلى أغان وغناء ، واحتدَّت الموجة فشملت النساك والفقهاء من أمثال ابن عباس وعطاء ابن أبى رباح وابن جُرَيْج . قال أبو الفرج : « بينا ابن عباس فى المسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق وناس من الخوارج يسألونه إذ أقبل عمر بن أبى ربيعة فى ثوبين مصبوغين مُوَرَّدين أو مُمَصَّرين ، حتى دخل وجلس ، فأقبل عليه ابن عباس ، فقال : أنشدْنا ، فأنشده :

أمن آل نُعْمٍ أنت غادٍ فمُبْكِرُ غداةَ غدٍ أم رائحٌ فمُهَجِّرُ

حتى أتى على آخرها . فأقبل عليه نافع بن الأزرق ، فقال : الله يا ابنَ عباس ! إنا نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصى البلاد ، نسألك عن الحلال والحرام فتتثاقل عنا ، ويأتيك غلام مُترف من مترفى قريش ، فينشدك :

رأت رجلاً أما إذا الشمسُ عارضتْ فيَخْزَى وأما بالعَشِىّ فيَخسَرُ

فقال ابن عباس : ليس هكذا قال ، قال : فكيف قال ؟ فقال : قال :

رأت رجلاً أما إذا الشمسُ عارضت فيَضْحَى وأما بالعَشِى فيَخصَرُ[١]

فقال ابن الأزرق : ما أُراك إلا وقد حفظت البيت ! قال : أجل ، وإن شئت أن أنشدك القصيدة أنشدتك إياها ، قال فإنى أشاء ، فأنشده القصيدة حتى أتى على آخرها . . .ثم أقبل على عمر بن أبى ربيعة ، فقال أنشِد ، فأنشده :

(١) يضحى : يظهر للشمس ، يخصر : يبرد .

تَشطُّ غداً دارُ جِيراننا ... وللدَّارُ بعــد غدٍ أبعدُ

وكان ابن عباس بعد ذلك كثيراً ما يقول : هل أحدث هذا المغيرىّ شيئاً بعدنا[١] » . وإذا كان ابن عباس مع جلاله ووقاره ومجلسه فى الدرس بين سائليه من فقهاء العراق وفقهاء الخوارج يتركهم ليستمع إلى ابن أبى ربيعة وما أحدث فى قصة الحب المكى ، فغيره من أهل مكة كان أشد إعجاباً بابن أبى ربيعة وزملائه من أصحاب الأغانى بل أشد شَغَفًا وسحراً .

ويظن الإنسان أنه لم يعد فى مكة إلا هذا الشعر يتناقله الناس ويغنى فيه المغنون والمغنيات ، وكان من عُبّادهم وفقهائهم مَنْ إذا سمعه أخذ يرقص[٢]. واستمع عطاء ابن أبى رباح يوماً إلى شىء من هذا الشعر فحلف ألا يكلم أحداً بقية يومه إلا به[٣] ، وكان ابن جريح مثل أستاذه يفتتن به فتنة شديدة[٤].

وعلى هذا النحو كان ابن عباس وغيره من الفقهاء يروون هذه الأغانى فى المسجد الحرام ويُنشدونها ويستنشدون أصحابها وكان غيرهم من المكيين يرويها فى الطرقات والمنعطفات وفى شعاب مكة وبطاحها وفى ضواحيها ومتنزهاتها ، إذ لم يكن للقوم من لهوٍ يلهون به سوى الغناء والأغانى التى كانت تقصُّ قصصاً بديعاً رواية الحب المكى وفصولها اليومية .

وكانت الطريقة التى تحمل بها هذه الأغانى إلى الناس فى مكة طريقة محببة إلى نفوسهم ، ألم تكن الغناء الذى كانوا يفتتنون به هو الآخر فتنة بعيدة ؟ . وهكذا أخذت تنشر هذه الأغانى الشغف حولها بما تحمل من معان قريبة كأنها انتزعت من قلوب المكيين جميعاً .

وإنا لنزعم أن المكيين عاشوا حينئذ معيشة كلها شعر وغناء ، بل قل كلها طرب وموسيقى ، وكانوا فى هذا العصر – كما مرَّ بنا – يقولون : « إذا أعجزك أن تُطْرب القرشىّ ، فغنِّه غناء ابن سُرَيْج فى شعر عمر بن أبى ربيعة فإنك تُرْقصه » . وهكذا كانت مكة فى عصر ابن أبى ربيعة كلها طرب وغناء .

واندفع فى هذا الطرب الرجال والنساء ، فكانت هناك الثريا بنت على

---

(١) أغانى ١/٧٢ .

(٢) أغانى ١/٣١٦ وانظر ١/٢٩٠ .

(٣) أغانى ١/٢٥٧ .

(٤) أغانى ١/٣١٦ .

ابن عبد الله الأموية ، وكان فى بيتها من مواليها يحيى قَيْل والغَريض وسُمَيّة ، وكانوا جميعاً يغنّونها فى شعر عمر وغيره من الغزلين فى مكة وأحياناً أيضاً يغنونها فى شعر الغزلين فى المدينة .

وكان القرشيون يعرفون لعمر وشعره هذا التأثير فى أهل مكة رجالا ونساء . حَدَّثت ظبيةُ مولاتها فاطمة بنت عمر بن مصعب أنها مرت بجدها عبد الله بن مصعب وهى داخلة منزله وهو بفنائه ، ومعها دفتر فقال لها : ما هذا معك ؟ ودعاها ، فجاءته ، وقالت له : شعر عمر بن أبى ربيعة ، فقال : « ويحك تدخلين على النساء بشعر عمر بن أبى ربيعة ! إن لشعره لموقعاً من القلوب ومدخلاً لطيفاً ، لو كان شعر يسحر لكان هو[١] » .

ولعل مما يدل على شَغَفِ النساء بهذه الأغانى أن نجدهن لا يتحرَّجن من أن يُذكرن فيها وأن يتغنى الشعراء بأسمائهن ، ومن هنا تردد اسم الثريا بنت على الأموية فى شعر عمر كما تردد اسم زينب بنت موسى الجمحيّة ، وغيرهما من شريفات قريش . وكأنما كن يتخذن من هذه الأغانى ما تتخذه المرأة من الصحافة الحديثة ، فهن يُعْلِنَّ عن أسمائهن فيها ويتخذن من الشعراء ما تتخذه المرأة الحديثة من مصوّرى الصحف ، وكن يَسْتبقن إلى هذا استباقاً . ولم تشترك فيه المكيات المقيمات وحدهن ، بل اشترك فيه المكيات اللائى هاجر آباؤهن إلى المدينة أو إلى دمشق ، فكانت تطلبه – إن صح ما يقوله الرواة – السيدة عائشة بنت طلحة[٢]. بل إننا نجد أبا الفرج يروى – كما مر بنا فى كتاب المدينة – أن أم محمد بنت مروان بن الحكم حجت فأرسلت إلى عمر بن أبى ربيعة ألف دينار كى يذكرها فى شعره ، وأن أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك حجَّت فطلبت إلى الشعراء أن ينظموا فيها شعراً ، فبعضهم تشجع ونظم ، وبعضهم جَبُنَ ، واكتفى بالنظم فى جواريها .

وفى هذا ما يدل إلى أى حد كان يُشْغَفُ بعض النساء بهذه الأغانى ، حتى إن كلا منهن تريد أن تظهر فى مرآتها الصافية ، إذ كانت هذه المرآة تلمع فى أيدى المغنين

---

(١) أغانى ١/٧٨ .

(٢) أغانى ١/٢٠١ .

والمغنيات لمعاناً شديداً قويًّا له بريقه المؤثر فى نفوس الرجال وقلوبهم . ولم يكن النساء يجدن فى هذا عيباً ولا ما يشبه العيب ، بل كن يجدن فيه شرفاً ، فالنساء دائماً هن النساء ، يحببن الثناء على حسنهن والتغنى بجمالهن .

وانساق المكيون جميعاً يصفقون لهذا الشعر الذى يُغَنَّى ، والذى يطربون له أى طرب ، فهو كل بهجتهم فى مدينتهم وكل مسرتهم فى حياتهم . وانساق معهم الفقهاء والعبَّاد على ما قدمنا ، بل إننا نجد منهم من يساهم فى هذا الشعر ، فقد كان هناك ناسك من نساك مكة وقُرَّائها يسمى عبد الرحمن بن أبى عمار الجُشَمىّ ، وكان يُلقب بالقَسّ لعبادته ، فتصادف أن اشترى سلاَّمة نبيلٌ من نبلاء مكة يسمى سهيل بن عبد الرحمن ، وأحضرها معه من المدينة ، وأخذت تغنِّى فى داره ، فسمعها القَسُّ على غير عمد منه ، فبلغ غناؤها منه كل مبلغ ، وما لبث أن شُغف بها وشُهر ، فغلب لقبه عليها ، وسُمِّيت سلامة القس ، وفيها يقول(١) :

سلاَّمُ هل لى منكُمُ ناصرُ   أم هل لقلبى عنكُمُ زاجرُ

قد سمع الناسُ بوجدى بكم   فمنهمُ اللائمُ والعاذرُ

وأخذت أرجاء مكة تردد هذه القصة الطريفة وتردد ما يقوله فيها القَسُّ ، وهى مشفقة عليه ، ولكن ماذا تستطيع مكة ، وسلامة ليست حرة ، وفى ملك نبيل من نبلائها ؟ وسعرت هذه الحالُ القسَّ فلم يستطع إفلاتاً منها ، بل لقد اشتعل قلبه ناراً ، وامتلأ فؤاده حزناً وكمداً ، فذهب يقول(٢) :

سلاَّمُ وَيْحكِ هل تُحيين من ماتا   أو تَرْجعين على المحزون ما فاتا

ولم يلبث يزيد بن عبد الملك أن أرسل إلى سَلاَّمة يشتريها من مولاها ، فلم يستطع أن يمنعها دونه ، ولا استطاع أهل مكة أن يبقوها لصاحبهم ، فتولى أسفاً يكاد يتميز حسرة ولوعة . ولم يكن له إلا الشعر ينفث فيه حُرَق قلبه ولواعج فؤاده من مثل قوله(٣) :

ألا قُلْ لهذا القلبِ هل أنت مُبصِرُ   وهل أنت عن سَلاَّمَةَ اليومَ مُقْصِرُ

---

(١) انظر الأغانى ٨/٣٣٦ وما بعدها .

(٢) أغانى ٨/٣٣٦ .

(٣) أغانى ٨/٣٣٩ .

ألا ليتَ أنى حين صارتْ بها النَّوَى   جليسٌ لسَلْمَى حيث ما عَجَّ مِزْهَرُ

ويقول أبو الفرج : إن للقس أشعاراً كثيرة يطول ذكرها[١] . وليس من ريب فى أن هذه الأشعار كانت تروع المكيين روعة شديدة ، فهى من الأغانى التى كانوا يشغفون بها ، وهى لعابدهم القَسّ المشهور .

وعلى هذا النحو كان عُبَّاد مكة لا يعجبون بالأغانى فحسب ، بل كانوا يساهمون فيها ، ويشتركون فى صنع مقطوعاتها ، فهى الشعر الذى يشغفون به شغفاً شديداً ، وهى الشعر الذى يطلبه الرجال والنساء والأشراف والشريفات ، وهى الشعر الذى يغنيه ابن سُريج والغَريض وابن مِسْجح ومن لفَّ لفهم على آلاتهم الموسيقية . وكأنما كان أهل مكة جميعاً لا يملكون إلا أن يجروا وراء هؤلاء العُزَّاف يستمعون فى نشوة إلى أغانيهم ، التى تفيض سحراً وجمالاً ، وتذوب رقة وعذوبة .

٥

أغانى الغزل على كل لسان

لعل من أهم ما يميز العرب فى مختلف عصورهم أنهم أمة شاعرة تُعنى بالشعر وروايته وحفظه ، وجاء الإسلام وليس لهم رباط يربطهم إلا ما يصنعه شعراؤهم وينشدونه أو يغنونه من قصائد ومقطوعات تردَّد فى كل مكان من الجزيرة العربيــة . وقد أخذ سلطان هذا الشعر على نفوسهم يضعف بنزول القرآن الكريم على رسول رب العالمين ، وزاد فى ذلك أنهم شُغِلوا فى صدر الإسلام بالجهاد والفتوح ، ولكن لا نكاد نتقدم بعد ذلك حتى نجدهم يهدءون ويستقرون ويعودون إلى الشعر سيرتهم الأولى ، وكأنهم كانوا يشعرون أنه الحافظ لهم من فنائهم .

وأخذت كل قبيلة تقدم شعراءها وتُهدى شعرهم إلى القبائل الأخرى إما مديحاً وإما هجاء ، ودارت هذه المعارك من الشعر التقليدى فى إقليم العراق ، حيث كان جرير والفرزدق والأخطل يترامون بسهام الهجاء كما كانوا يهدون أزهارهم وباقاتهم

---

(١) أغانى ٨/٣٣٦ .

من المديح إلى الأمراء والخلفاء . بينما شُغلت الحجاز فى مكة وغيرها من الحواضر بالأغانى التى وصفناها فقد انكبَّ الناس عليها انكباباً ، وكادت ألا تبقى فيهم بقية لهجاء ومديح ، فقد شُغفوا بالقصة الكبرى ، قصة القلب الإنسانى ، ولم يكادوا ينظرون فى القصص المحلية الصغرى ، قصص العرب وحروبهم فى الجاهلية على نحو ما نجد فى نقائض جرير والفرزدق .

وقد يكون من الطريف أن نعرف أن شعر القصة الكبرى ، أو بعبارة أخرى أغانى الغزل كانت أكثر ذيوعاً وانتشاراً من شعر القصص الصغرى ، أو الشعر التقليدى ، لأنها من جهة تحكى وقائع وحوادث حاضرة تتصل بحياة العصر وما انبثَّ فيه من ألوان ترف ، ثم هى من جهة أخرى تُغنَّى وتنقلها ألحان الغناء فى العالم الإسلامى .

وفرقٌ بين شعر تتصل حوادثه أو قل أكثر حوادثه بالجاهلية ، وقصص المحاربين القدماء ، وما كان من أيام وحروب حينئذ ، فإن ترك ذلك فإلى مديح السادة والأشراف بصورة قديمة موروثة . فرقٌ بين هذا الشعر وشعر عمر بن أبى ربيعة وأصحابه الذى كان يحكى قصة الحب ووقائعها فى مكة فى أثناء مواسم الحج وبعد هذه المواسم . وقد أُثر عن الفرزدق أنه استمع إلى بعض شعر عمر فقال : « هذا الذى كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت الديار[١] » . وقال جرير : « هذا الذى كنا ندورُ عليه فأخطأناه[٢]» .

وهذا اعتراف واضح من زعيمى الشعر التقليدى فى العصر الأموى بتفوق عمر وأصحابه حين ولّوا وجوههم نحو هذه القبلة الفنية الجديدة ، قبلة التعبير المباشر عن خطرات القلب وأوهامه وأحلامه وآلامه وآماله . وقد رأينا كيف أن هذا الشعر كان يستهوى أفئدة فقهاء مكة وعُبَّادها ، كما كان يستهوى فتياتها وشبانها وشيبها ، وأيضاً فإنه كان يستهوى المرأة النبيلة الشريفة ، ففيه كانت تُرسَم صورها ، وفيه كان يتردد اسمها .

وإذا كان الخلفاء الأمويون اشتهروا بطلبهم للشعراء التقليديين كى يسمعوا

---

(١) أغانى ١/٧٥ .

(٢) أغانى ١/١٠٦

مدائحهم فيهم ، فإنهم أخذوا منذ يزيد بن معاوية يستقدمون المغنين والمغنيات فى الحجاز كى يُسمعوهم الأغانى التى بغنون فيها . وأقام الوليد بن عبد الملك حفل استقبال فى دمشق لابن سُرَيْج كما قدمنا ، ثم كان يزيد أخوه فبالغ فى استقدام مغنى الحجاز ، وأكثر من إقامة الحفلات لاستقبالهم(١)، وابتاع حَبابة(٢) وسَلاَّمة القس(٣)، وعاش معيشة غنائية خالصة طوال حكمه . ولم يلبث أن خرج من بيته وتحت تأثير هؤلاء المغنين وشعرهم الذى يتغنون فيه شاعرٌ ممتاز ، هو الوليد بن يزيد ، الخليفة المشهور بضربه وغنائه وأصواته فى شعره(٤).

ومعنى ذلك أننا لا نصل إلى عصر يزيد بن عبد الملك حتى تتفوّق أغانى الغزل نهائياً على الشعر التقليدى فى بلاط الخلفاء ، بل إنه يبلغ من نفوذها هناك أن يتحول إليها خليفة من خلفاء الأمويين . وليس من ريب فى أن ذلك كان أثراً من آثار شيوع الأغانى على كل لسان .

ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق مكان إلا وشاع فيه هذا الشعر ودار على جميع الألسنة ، وكان من أهم الأسباب فى ذلك أنه قُيِّد بألحان المغنين ، فكان من يطلب سماع لحن من الألحان عند مغنٍّ مشهور فى الحجاز يسمع فى أثنائه هذه الأغانى الطريفة . وكان الشعراء أنفسهم يعملون على أن يذيعوها عن طريق المغنين ، فعمر ابن أبى ربيعة يلزمه مغنيان مشهوران ، هما : ابن سُرَيْج والغَرِيض ، فلا يكاد يرسل مقطوعة من الشعر ، حتى يلحناها له ، وحتى يحفظاها فى صندوق أنغامهما . ولم يكونا وحدهما اللذان يصنعان ذلك ، فقد كان من ورائهما من مغنى مكة مَن يصنع صُنْعهما ، بل كان يصنع ذلك أيضاً مغنو المدينة ، بل لقد كان لذلك أثره فى العراق فيما بعد ، فإن مدارس الغناء حين ظهرت هناك فى العصر العباسى أخذ المغنون يتداولون الألحان القديمة ، ويضيفون إليها ألحاناً جديدة ، مما أعطى لأصحاب الأغانى فرصة واسعة كى يُحفظ شعرهم من جهة ، ويذيع وينتشر من جهة أخرى . وقد روى أبو الفرج لابن أبى ربيعة قصيدته التى تبدأ بقوله الذى سبق أن أنشدناه :

تَشُطُّ غداً دارُ جِيرانِنا ... ولَلدّارُ بعد غدٍ أَبعَدُ

(١) أغانى ٥/١٠٩ .

(٢) أغانى (طبع بولاق) ١٣/١٥٦ .

(٣) أغانى طبع دار الكتب ٨/٣٤٣ .

(٤) انظر ترجمته فى الأغانى ٧/١ وما بعدها .

ثم ذكر عقبها من غنوا فيها ، فإذا هو يذكر أن الذى أحصى فيها إلى وقته تسعة عشر لحناً ، وممن غنوا هذه الألحان من المكيين ابن مِسْجح وابن سُرَيْج والغَريض والأبجر ، فى حين غنى فيها من المدنيين مَعْبَد ومالك الطائى ويونس الكاتب وأشعب ، أما العباسيون فغنى فيها منهم أحمد بن يحيي المكى وإسحاق الموصلى وابن جامع وعُلَيّة بنت المهدى(١).

وما حدث فى هذه الأغنية حدث فى كثير من أغانى الغزل الأخرى لابن أبى ربيعة وغيره من الشعراء المكيين أمثال ابن قيس الرقيات والعرجى ، فقد كان الشاعر يصنع القطعة الغزلية وما يلبث المغنى أن يلحِّنها ، ولم يكن يلحنها مغنو مكة وحدهم بل كان يلحنها أيضاً مغنو المدينة . ومن يرجع إلى أخبار المغنين والمغنيات فى المدينة فى أثناء العصر الأموى يجد أكثر أصواتهم التى غنوا فيها لشعراء مكة ممن سميناهم . وكان هؤلاء الشعراء أنفسهم يرحلون إلى المدينة يطلبون إلى مغنيها ومغنياتها ، أن يلحنوا لهم أشعارهم ، وأعطى ابن أبى ربيعة أحد مغنى المدينة وهو الدلال مائة دينار على صوت من شعره غناه فيه(٢)، وكان عمر كثيراً ما يذهب إلى دار جميلة ليستمع فيها إلى بعض شعره الذى يغنَّى هناك(٣). ولم يكن عمر وحده الذى يذهب إلى دار جميلة ليستمع إلى شعره يغنى هناك ، فقد كان يصنع صنيعه العَرْجِىّ(٤).

ولم يكن الشعراء وحدهم الذين ينقلون غزلهم ومقطوعاتهم إلى المدينة ، بل كان ينقل ذلك أيضاً المغنون أنفسهم ، فنحن نجدهم دائماً فى المدينة وفى دار جميلة بالذات يتغنون شعر عمر وأصحابه ، يصنع ذلك ابن مِسْجح وابن سُرَيْج والغَريض(٥). هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان المغنون المدنيون أنفسهم يرحلون إلى مكة يأخذون عن مغنيها ، صنع ذلك منهم كثير ، وعلى رأسهم مَعْبَد مغنى المدينة الذائع الصيت(٦). ويخيل إلى الإنسان أنه كانت هناك رحلة مستمرة بين مغنى مكة والمدينة ، فلا يسمع الأولون بمغن مشهور ينشأ فى المدينة إلا ويرحلون إلى سماعه ، وكذلك لا يسمع الأخيرون

---

(١) أغانى ١/٨٦ .
(٢) أغانى ٤/٢٩٦ .
(٣) أغانى ٨/٢٠٨ .
(٤) أغانى ٨/٢٣٠ .
(٥) أغانى ٨/٢١٠ وما بعدها .
(٦) أغانى ١/٥٧ .

بمغن مشهور فى مكة إلا ويقصدونه . وهؤلاء وأولئك جميعاً يملأون حقائبهم وصناديق غنائهم بالشعر المكى ، بحيث لا يستطيع الإنسان أن يميز عند المغنين هنا وهناك أى الشعراء كان أغلب عليه ، شعراء بلدته أم شعراء البلدة الأخرى ، فشعر الأحوص يتردد فى مكة كما يتردد شعر عمر وأصحابه فى المدينة . غير أن من يُنعم النظر يلاحظ أن المدينة ، وإن نافست مكة هذا العصر منافسة شديدة فى الغناء حتى كادت تسبقها فيه من بعض الوجوه ، فإنها لم تستطع أن تظفر هذا الظفر فى الأغانى ، فكل من يقرأ كتاب الأغانى يلاحظ أن عمر وأصحابه كان شعرهم أشد ذيوعاً وأكثر انتشاراً لا فى مكة نفسها بل فى المدينة أيضاً . وآية ذلك أن ترجمة الأحوص وأشعاره التى غُنى فيها لم تستنفد من كتاب الأغانى إلا صفحات معدودة فى حين استنفدت أخبار عمر وأشعاره ، وبعبارة أدق كادت أن تستنفد ، المجلد الأول من كتاب الأغانى . وليس للمدينة بعد الأحوص شاعر أغان يمكن أن تضعه فى صف ابن قيس الرقيات أو العرجى ، بل حتى فى صف الحارث بن خالد المخزومى .

وإذن فمكة هى ذات الحظ الأول من أغانى الغزل فى الحجاز فى أثناء العصر الأموى ، هذا الشعر الذى كانت تردده حلوق المغنين فى كل مكان من الحجاز : فى مكة وفى المدينة ، وأيضاً فى الطائف ، ووادى القُرَى . أما الطائف ، فكان ينزل فى أوديتها العَرْجِىّ ، ويقضى هناك أكثر أيامه وأوقاته ، وكان ينزلها معه فِند المغنى(١) ، وكان كثير من أشراف مكة وشريفاتها ينزلها ، وخاصة فى الصيف ، وكان ممن ينزلها الثريا(٢) بنت على بن عبد الله الأموية ومعها مواليها ، وعلى رأسهم الغريض ويحيى قَيْل وسُمَيَّة .

وليس من شك فى أن هؤلاء المغنين عملوا على إذاعة أغانى الغزل المكية هناك ، وطبيعى أن تعم هذه الأصوات المحببة إلى كل نفس ، وأن تدخل كل دار ، وأن تُغَنَّى فى كل منعطف وشعب من منعطفات الأودية وشعابها . وهذا نفسه نلاحظه فى وادى القُرَى ، فقد كان يفد منه المغنون على مكة يتعلمون الضرب والغناء . ومن أشهر من وفدوا منه عمر(٣) الوادى مغنى الوليد بن يزيد ، ويروى أبو الفرج عن

---

(١) أغانى ٣٩٣/١ .

(٢) أغانى ٢١١/١ .

(٣) أغانى ٨٥/٧ .

عمر – كما مرَّ بنا – أنه سمع صوتاً يغنيه بعض البدو فأعجب به إعجاباً شديداً وأخذه عنه ؛ وكان يقول : إنه لم يترنم به جائع إلا شبع ، ولم يغن به وهو كسلان إلا نشط ، ولم يلحنه وهو مستوحش إلا أنس .

وعلى هذا النحو كان الحجاز كله بحواضره وبواديه يتناقل هذه الأغانى المكية ، إذ كانت بدعة العصر ، وكان الناس يجدون فيها وفيما اقترن بها من ألحان وأنغام متعة لا تقدر . ولم يقف انتشارها عند الحجاز كما مر بنا ، فقد أخذت تفد على الشام ، بل أخذت الشام تشارك فيها عن طريق الوليد بن يزيد . وكما عرفتها الشام عرفتها اليمن ، فقد فرّ إليها الغريض حين تعقبه نافع بن علقمة والى مكة ، وهناك نشر ألحانه ، وما حملته من هذه الأغانى(١) .

وسبق أن عرضنا للمغنين وما كان لانتقالهم فى العراق أواخر هذا العصر وأوائل العصر العباسى من آثار مهمة فى نشوء مدارس غنائية كبيرة هناك ، فقد انتقل فن الغناء بمغنيه ومغنياته وهذه الرُّقُم الموسيقية التى استحدثها ابن مِسْجح وتلاميذه فى مكة ، وطُوَيْس وسائب خاثر وتلاميذهما فى المدينة ، انتقل ذلك كله إلى العراق . وطبعاً انتقل الفن بكل ما رافقه من شعر . ورأينا آنفاً كيف أن مقطوعة لعمر بن أبى ربيعة توارد عليها مغنو مكة والمدينة أولاً ثم مغنو العراق من مثل إسحق وابن جامع .

وأظن فى هذا كله ما يدل إلى أى حد عمل الغناء على شيوع الغزل وأغانيه وانتشارها ، فقد كان المغنون الحجازيون أنفسهم ينقلونها إلى دمشق تارة وإلى اليمن أو العراق تارة أخرى ، ونزل الأبجر المغنى المكى المعروف مصر وبها توفى(٢) . ومعنى ذلك أن هذا الشعر كان يحمله المغنون إلى كل بقعة فى العالم الإسلامى .

وهناك ممر آخر غير ممر المغنين عمل على ذيوع هذا الشعر وانتشاره فى الأقاليم العربية ، ونقصد الحجَّ والحجاج الذين كانوا يفدون على مكة من مشارق الأرض ومغاربها ، فأكبر الظن أن بعضهم كان يختلف إلى دور المغنين فى مكة . على أن المغنين أنفسهم كانوا يتعرضون لهم وهم يؤدون مناسكهم ، روى أبو الفرج أن ابن سريج كان عند بستان ابن عامر يُغنِّى :

---

(١) أغانى ٣٩٨/٢ . (٢) أغانى ٣٤٦/٣ .

لمن نارٌ بأعلى الخَيْـ ... ـفِ دون البئر ما تَخْبو
أَرِقْتُ لذكرِ موقعِها ... فَحنَّ لذكرها القلبُ
إذا ما أُخمِدتْ أُلقِي ... عليها المَنْدَلُ (١) الرَّطْبُ

فجعل الحاجُّ يركب بعضهم بعضاً ، حتى جاء إنسان من آخر القُطُرات فقال : يا هذا قد قطعت على الحاجِّ وحبستهم ، والوقت قد ضاق ، فاتق الله وقم عنهم ، فقام عنهم وسار الناس(٢). وسمعه يزيد بن عبد الملك فى بعض المواسم –كما مرَّ بنا– فأعطاه حُلَّته وخاتمه(٣). وروى أبو الفرج أنه رفع صوته مرة يغنى فى موسم آخر فسمعه الركبان فجعلوا يصيحون به : يا صاحب الصوت أما تتقى الله ؟ ! قد حبست الناس عن مناسكهم ؛ فيسكت قليلاً ، حتى إذا مضوا رفع صوته ، فيقف آخرون إلى أن مرت قطعة من الليل(٤). ومثل ابن سُرَيْج فى ذلك الغريض فقد روى أبو الفرج أنه كان يعترض بصوته الحاجَّ وأنه رجّع صوته يوماً وغنّى فى شعر ابن أبى ربيعة :

أيُّها الرائحُ المجِدُّ ابتكارا ... قد قضى من تِهامةَ الأوطارا

فأصغى الحجاج إليه تعجباً من حسنه ، وتكلم الناس ، فقالوا : طائفة من الجن حجاج ، استحساناً لما سمعوا(٥). ولم يكن مغنو مكة وحدهم الذين يعترضون الحجاج ، فقد كان مغنو المدينة يصنعون صنيعهم(٦).

وهكذا كان المغنون الحجازيون يعترضون الحجاج بغنائهم وما يحمل من أغان وكان يرافقهم فى قوافلهم بعض هؤلاء المغنين إما فى ترحالهم نحو المدينة أو فيما هو أبعد من المدينة . واشتهر فى هذا العصر –كما مرَّ بنا فى كتاب المدينة– أحد أصحاب القوافل وهو دَحمان بالغناء ، وهو من المدينة ، ولا بد أنه كان يغنى فى قوافله هو وبعض جواريه ، فقد استمع الوليد بن يزيد إلى جارية فى إحدى قوافله ، فاشتراها بعشرة آلاف دينار .

ولعل فى هذا ما يدلنا إلى أى حد عمل الغناء على انتشار الأغانى وذيوعها .

---

(١) المندل : العود .
(٢) أغانى ٣١٦/١ .
(٣) أغانى ٢٥٨/١ .
(٤) أغانى ٢٦٢/١ .
(٥) أغانى ٣٦٢/٢ .
(٦) أغانى ٢٠٨/٢ .

وكان لقرب موضوعها ومعانيها من نفوس الناس أثر فى هذا الانتشار والذيوع لا يقل عن أثر الغناء ؛ إذ كان يتناول أصحابها قصة الحب الإنسانى ، هذه القصة التى تطرب لها قلوب البشرية فى مختلف عصورها ، ومختلف أمكنتها وأقاليمها .

واستطاع شعراء الأغانى فى الحجاز وعلى رأسهم شعراء مكة أن ينهضوا بها نهضة واسعة من جميع الوجوه ، وهى نهضة وسّعت طاقة حَمْلها فى الصدور ، فإنهم – كما قدمنا – بسَّطوا فى أوزانها وفى موسيقاها ، كما قربوا لغتها من لغة الناس العامة ، فأصبحت أطوع على الألسنة وأكثر خفة على الأسماع والأفواه . ثم اقترنت بها هذه الطبول والآلات الوترية ، فأضافت إليها شَجىً إلى شَجىً حيناً على نحو ما كان يصنع الغريض(١) أو فرحاً إلى فرح حيناً على نحو ما كان يصنع ابن سُرَيْج(٢) .

والحق أن الغناء أحاط هذا الشعر بهالة من اللهب المستعر ، فإذا هو يلهب القلوب والأفئدة فى الأقاليم العربية ، وإذا هذه الأقاليم تَعْنُو له جباهها ، ولا تلبث الشام أن تدخل فى هالة اللهب عند الوليد بن يزيد ، ثم تتبعها العراق التى زادت اللهب نيراناً ، وأضافت إلى النور أنواراً . ونحن نقف لنعرض أهم من أشعلوا هذه النيران والأنوار فى مكة ، وهما عمر بن أبى ربيعة وابن قيس الرُّقَيَّات .

---

(١) أغانى ٢/٣٦٢ .

(٢) أغانى ١/٢٩٠ .

الفصل الرابع

عمر بن أبى ربيعة

١

نسب عمر وعشيرته وأهله

هو عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة بن المغيرة ، ويغلب عليه أن ينسب إلى جده ، فيقال ابن أبى ربيعة ، وكنيته المشهورة أبو الخطاب[١]. وينحدر عمر وآباؤه من عشيرة مهمة فى مكة ، هى عشيرة بنى مخزوم ، وكانت أحد البطون العشرة التى تؤلف قريش البطاح ، وكان صوتها مسموعاً بين هذه البطون ، وفى مجلس شيوخها المسمى بالملأ[٢].

وما زال نجم المخزوميين يصعد فى أواخر العصر الجاهلى حتى أصبحت لهم شهرة مدوية فى الجزيرة العربية ، وخاصة هذا الفرع الذى نجم منه عمر ، فقد كان أهم فروع المخزوميين ، إذ كان آباؤه وأعمامه يُعَدُّون من سادة قريش الأولين . وكان أحدهم وهو هشام بن المغيرة يُلقب بربِّ قريش[٣]، وكل من يقرأ السيرة النبوية يعرف اسم أخيه الوليد بن المغيرة . ويقول أبو الفرج إنه كان سيداً من سادات قريش وجواداً من أجوادها ، وكان يَعْجب كيف ينزل القرآن الكريم على الرسول ، ولا ينزل عليه أو على عمرو بن عمير الثقفى ، وهما عظيما القريتين[٤]، وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ .

وبجانب الوليد وهشام ابنى المغيرة نجد أبا ربيعة جد عمر ، وكان بطلاً من أبطال

---

(١) أغانى ١/٦١ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية فى مادة مخزوم .

(٣) ابن دريد ص ٦٣ ، ٩٤ .

(٤) ابن هشام ١/٢٢٨ وانظر تفسير الكشاف (طبع المطبعة البهية) ٢/٣٥٠ .

قريش ، ولُقِّبَ ذا الرمحين لأنه حارب يوم عُكاظ برمحين[١].

ويظهر أن المخزوميين اشتهروا بالشجاعة فى الجاهلية ، ولعل ذلك ما جعل قريشاً تسند إليهم أمر القُبَّة والأعِنَّة ، أما القُبَّة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهِّزون به جيش قريش ، وأما الأَعِنَّة فيقصدون بها أنهم يكونون على خيلها فى أثناء الحرب[٢].

وكما تقدَّم المخزوميون فى قريش بالشجاعة ، تقدَّموا أيضاً بالكرم وبذل المال ، فقلما يتردد اسم شخص منهم ولا يتردد معه ذكر كرمه . وكانوا – على ما يظهر – من تجار مكة المثرين ، ولهذا تتردد فى أوصافهم كلمة السيادة ، وهى لا تَعْنى فى مكة التاجرة سوى الثراء العريض ، وقد نزلت فى الوليد بن المغيرة أيضاً الآيات الكريمة[٣] (ذَرْنِى ومَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً وَجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً وَبَنِينَ شُهوداً ومَهَّدتُ له تمهِيداً ثُمَّ يطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إِنَّهُ كانَ لِآياتِنَا عَنِيداً) .

وفى هذه الأسرة يلمع اسم عبد الله بن أبى ربيعة ، ويقول أبو الفرج : كان تاجراً موسراً ، وكان متجره إلى اليمن ، وكانت قريش تلقبه « العِدْل » لأنها كانت تكسو الكعبة فى الجاهلية بأجمعها من أموالها سنة ، ويكسوها هو من ماله سنة ، فأرادوا أنه وحده عِدْل لهم جميعاً . وكان اسمه بَحِيراً ، فلما أسلم عام الفتح سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله .

ويقول أبو الفرج : إنه كان لعبد الله عبيد من الحبشة يتصرفون فى جميع المهن ، وكان عددهم كثيراً ، وعرض على رسول الله أن يستخدمهم ، ويستعين بهم ، حين خرج إلى حُنَيْن ، فأبى[٤]. واستعمله الرسول على الجَند[٥] ومخاليفها فى اليمن ، فلم يزل عاملاً عليها حتى قُتل عمر بن الخطاب ، واستعمله عثمان ابن عفان أيضاً[٦]، وما زال والياً له حتى توفى فى أثناء حصاره عام خمسة وثلاثين[٧].

---

(١) أغانى طبع دار الكتب ١/٦١ .

(٢) ابن عبد ربه ٢/٤٥ .

(٣) تفسير الكشاف ٢/٥٠٢ .

(٤) أغانى ١/٦٥ .

(٥) الجند : إحدى ولايات اليمن الثلاث وهى : الجند وصنعاء وحضرموت ، والمخاليف : جمع مخلاف وهو الكورة .

(٦) أغانى ١/٦٥ وما بعدها وانظر أسد الغابة ٣/١٥٥ والطبرى ١/٣٠٥٧ .

(٧) الكامل لابن الأثير (طبع ليدن) ٣/١٦١ وشذرات الذهب لابن العماد (طبع القدسى) ١/٤٠ .

وتزوج هذا السيد المثرى ، الذى يقال إن رسول الله اقترض منه بضعة عشر ألفاً يستعين بها فى حربه ضد ثقيف ، من امرأتين ، أما أولاهما فحبشية نصرانية ، جاء منها بالحارث وكان صالحاً دَيِّناً [١] وخيِّراً عفيفاً [٢] ، واستعمله عبد الله بن الزبير على البصرة ثم عزله [٣]. وأما الثانية فأمُّ ولدٍ يقال لها مَجد سُبِيَتْ من حَضْرموت ويقال من حمير ، وقد جاء منها بعمر [٤].

وإذن فعمر يمنى الأم قرشى الأب ، وهو من سلالة أشراف قريش ونبلائها . كان أبوه أحد سادتها النابهين ، وكان أخوه الحارث أيضاً من سادتها المقدمين [٥] ، فهو ابن سيادة ، وثراء ، وشرف ، وكرم ، وعز شديد .

٢

حياة عمر وأخلاقه وصفاته

نَبتَ عمر فى أسرة قرشية نبيلة ، ويقال إنه وُلد فى العام الذى قُتل فيه عمر ابن الخطاب [٦] ، وإذن فقد وُلد عام ٢٣ للهجرة ولم ينصّ المؤرخون على مسقط رأسه ، وأكبر الظن أنه وُلد فى مكة ، فالمؤرخون يسلكون أباه فيمن نزل مكة بعد الهجرة إلى الله ورسوله [٧]. ومن هنا كنا نظن أن مكة أول أرض مسّ ترابها عمر ، واستمر فيها فى أثناء نشأته وحياته ، يقول فى بعض شعره [٨] :

وأنا امرؤٌ بقرارِ مكةَ مَسْكنى ... ولها هوايَ فقد سَبَتْ قلبى

ولم يكد عمر يتجاوز الثالثة عشرة من عمره حتى توفى أبوه كما أسلفنا ، وبذلك خُلِّيَ بينه وبين أمه الغريبة ، فنشَّأته كما تهوى ، أو كما تنشِّئ أم سبيّة فتاها الثرىَّ

(١) أغانى ١/٦٦ .
(٢) الشعر والشعراء ص ٣٥٢ .
(٣) طبرى ٢/٦٠٢ وأغانى ١/١١٠ وهو الملقب بالقباع
(٤) أغانى ١/٦٦ .
(٥) أغانى ١/٦٦ .
(٦) أغانى ١/٧١ .
(٧) ابن سعد ٥/٣٢٨ .
(٨) ديوان عمر طبع ليبسك ٢/١٧٦ .

ثراء مفرطاً ، تترك له حَبْله على غاربه ليتناول من اللهو واللعب كل ما تصبو إليه نفسه .

وماذا نريد إلى شاب نُشِّئ فى الحلية والزينة ؟ إن مثل هذا الشاب لا بد أن ينشأ مفتوناً بدنياه وبما حوله من ملاهيها ، وماذا ينقصه ؟ إن داره تكتظ بالجوارى والسَّبايا ، التى كانت تكتظ بها دور نبلاء قريش حينئذ ، وليس هناك طُرْفة يراها من طرف الدنيا إلا وهو يستطيع أن يَقْتنيها ، وأن يلهو بها ما شاء له هواه .

وكان عمر جميلاً[١] ، ولم يلبث أن تفجر فى نفسه هذا الينبوع العذب ، ينبوع الشعر ، مع فتنة فى الحديث ورقة شعور ومزاج ، فأصبح حديث الشباب . وكانت موجة الغناء حادة كما قدمنا ، وكان الشعر هو القطرات التى تعقدها فى أسماع الناس ، وكان عمر يحسن إرسال هذه القطرات النفسية ، فتعلَّق به مجتمع مكة تعلقاً شديداً .

وانضاف إلى ذلك أن عمر كان ثريًّا عظيم الثراء ، فحشد ثراءه لفنه ، فهو يصنع المقطوعة من شعره ، ثم يطلب لها أروع المغنين فى عصره ، ليغنوه فيها لحناً خالداً ، ويجيزهم جوائز مختلفة ، فهذا ابن سُرَيْج يعطيه فى تلحينه لإحدى مقطوعاته ثلثمائة دينار[٢] وهذا الغريض يعطيه فى تلحين مقطوعة أخرى خمسة آلاف درهم[٣] ، وهذا الدلال يعطيه فى تلحين مقطوعة ثالثة مائة دينار[٤] ، وهذه جميلة يعطيها فى تلحين مقطوعة رابعة عشرة آلاف درهم[٥]. ثم هاتان بغوم وأسماء فى داره تغنِّيانه فى كل ما ينظم[٦] وإنه ليعجب بصوت تغنيه جميلة فى شعره ، فيرسل لها بإحدى جواريه تطارحها أياماً حتى تتقنه[٧].

ويؤمن الإنسان بأن حياة عمر فى مكة كانت شعراً وغناء خالصاً ، ولم يكن للناس حينئذ من لهو سوى هذا الغناء وما يصاحبه من شعر ، فدارَ اسمُ عمر على كل لسان .

---

(١) خزانة الأدب للبغدادى (طبع بولاق) ٤٢٠/٢ .

(٢) أغانى ٣٥٩/١ .

(٣) أغانى ٣٢٢/٣ .

(٤) أغانى ٢٩٦/٤ .

(٥) أغانى ٢١٠٨/٨

(٦) أغانى ١٦٥/١ .

(٧) أغانى ٢٢٢/٨ .

وكان مجتمع مكة حينئذ تسوده ضروب من الحرية المهذبة فى لقاء الرجال للنساء ، وكانت بعض أحاديث هذا اللقاء تُملأ بالصبابة والغزل ، وهل هناك حديث للشباب أمتع من هذا الحديث الذى تُرْوَى فيه قصص القلب الإنسانى ؟ .

ونعجب الآن إذ نسمع عن هذه الأحاديث وتلك المجالس لأننا نريد أن نتصور مكة فى صورتها المتحضرة الجديدة قرية بدوية ، وننسى أنه دانت لها وللمدينة قُبيل هذا العصر كل دولة فارس وكثير من دولة الروم ، وأن مجتمعها تطور تحت تأثير العناصر الحضارية التى دخلتها . والمجتمع المتحضر هو المجتمع المتحضر فى كل عصر وفى كل مكان .

تحضرت مكة أو قل أغرقت فى الحضارة ، ووُجِدَت فيها هذه الطبقة اللاهية من الشباب الذين يقضون أوقاتهم فى المتعة بالفنون الجميلة ، وكانت هذه الفنون فى مكة لا تتعدى الشعر والغناء الذى يوقَّع عليه ، فوُجدت المجالس التى تتمتع بهذا الشعر وبذلك الغناء ، وظهر – ككل مجتمع راق – كثير من السيدات اللائى يُعْنين بهذين الفنين وأصحابهما .

ولم تكتف بعض بيوتات مكة بالسماع من هؤلاء المغنين فى الحفلات ، فاقتنت طائفة منهم ، على نحو ما نجد عند الثريا بنت على بن عبد الله بن الحارث ابن أمية الأصغر ، فقد اقتنت الغَرِيض ويحيي قَيْل وسُمَيَّة . وطبيعى أن تُغْنَى مثل هذه الفتاة بالشعر الذى كان يغنِّى فيه مواليها ، وكان أكثره من شعر عمر . ولعل ذلك ما عَجَّل بالصلة بينها وبينه وهى صلة فنية لا صلة شخصية . إذ كانت الثريا تحسن تذوق الشعر(١) ، فطبيعى أن يشْغَف بها عمر وأن يتغنى باسمها .

وفى كل مكان من حياة عمر نجد ثُرَيَّات أخريات ، فقد كانت مكة تحفل بالشريفات والنبيلات ، وكنَّ جميعاً يحتفلن بالشعر والغناء ، ويجلسن ليسمعْن المغنين أو لينشدهن الشعراء . قال الحارث بن خالد المخزومى : « بلغنى أن الغَريض المغنى خرج مع نسوة من أهل مكة من أهل الشرف ليلاً إلى بعض المتحدَّثات من نواحى مكة ، وكانت ليلة مقمرة ، فاشتقت إليهن وإلى مجالستهن وإلى حديثهن .. وكان

---

(١) أغانى ٢١٢/١ .

عمر مني قريباً ، فأتيته ، فقلت له : إن فلانة وفلانة وفلانة – حتى سميتهن كلهن – قد بَعَثْنَنِي ، وهنَّ يَقْرَأْنَ عليك السلام ، وقلن تشوّقن إليك فى ليلتنا هذه لصوتٍ أنشدناه الغريض . وكان الغريض يغنّى هذا الصوت فيجيده ، وكان ابن أبى ربيعة به معجباً ، وكان كثيراً ما يسأل الغريض أن يغنيه ، وهو قوله [١] :

أمسى بأسماءَ هذا القلبُ مَعْمودا ‌ ‌ ‌ إذا أقول صَحَا يعتادُه عِيـــدَا

فلما أخبرته الخبر ، قال : لقد أزعجتنى فى وقت كانت الدعة أحبَّ فيه إلىَّ ، ولكن صوت الغريض ليس له متَّرك ولا عنه مَحِيصٌ ، فدعا بثيابه ، فلبسها ، وقال : امض ، فمضينا نمشى العجل حتى قربنا منهن ، فقال لى عمر : خَفِّض عليك مشيك ، ففعلت ، حتى وقفنا عليهن ، وهن فى أطيب حديث وأحسن مجلس ، فسلمنا ، فتهيَّبْنَنا ، وتخفّرن منا ، فقال الغريض : لا عليكن ! هذا ابن أبى ربيعة والحارث بن خالد جاءا متشوقين إلى حديثكن وغنائى ، فقالت فلانة . وعليك السلام يا ابن أبى ربيعة . والله ما تمَّ مجلسنا إلا بك ، اجلسا ، فجلسنا غير بعيد ، وأخذن عليهن جلابيبهن ، وتقنعن بأَخْمرتهن ، وأقبلن علينا بوجوههن ، وقلن لعمر : كيف أحسست بنا ، وقد أخفينا أمرنا ؟ فقال : هذا الفاسق جاءنى برسالتكن ، وكنت وَقِيذاً [٢] من عِلَّةٍ وجدتها ، فأسرعت الإجابةَ ، ورجوت منكن على ذلك حسن الإثابة ، فرددن عليه : قد وجب أَجْرُك ، ولم يخب سعيك ، ووافق منا إرادة . فحدثهن بما قلت له من قصة غناء الغَرِيض ، فقال النسوة : والله ما كان ذلك كذلك ، ولقد نبهتنا على صوت حسن ، يا غريض هاته . فاندفع الغريض يغنى الصوت حتى أتى على الشعر كله إلى آخره ، فكلٌّ استحسنه . وأقبل علىَّ ابن أبى ربيعة فجزانى الخير ، وكذلك النسوة . فلم نزل بأنعم ليلة وأطيبها حتى بدأ القمر يغيب ، فقمنا جميعاً ، وأخذ النسوة طريقاً ونحن طريقاً ، وأخذ الغريض معنا [٣] » .

وهذه صورة من صور كانت تحدث فى مكة كثيراً ، فكان النساء الشريفات

---

(١) معمودا : هدَّه العشق ، والعيد : ما اعتاده من العشق والهيام . (٢) وقيذاً : مريضاً . (٣) أغانى ٦/٣٢٧ وما بعدها .

يطلبن الغريض وأمثاله ليغنوا فى شعر عمر ونظرائه . وكثيراً ما أقام المكيون حفلات كهذه الحفلات التى تقام فى عصرنا لكبار المغنين والمغنيات . ولست أقصد الحفلات العامة ، وإنما أقصد الحفلات الخاصة . وبلغ من ثراء المكيين وترفهم ألا يقيموا هذه الحفلات كما نصنع الآن لمناسبة زواج أو عقد قران ؛ فقد كانت حياة القوم كلها حفلات ، فهم يقيمونها يومياً إذا أرادوا . وكان المغنون والمغنيات حينئذ يُمْلَكون ، فيكونون عند سادتهم ، يقيمون لهم الحفلات الغنائية كلما شاءوا ، وما أكثر ما كانوا يشاءون . فما كنت تسير فى شِعْبٍ من شِعاب مكة أو فى ضاحية من ضواحيها إلا وتنطلق الأصوات من حولك . وعلى هذا النحو كاد أن يكون فى كل شعب وكل ضاحية مسرح . وكانت المسارح حينئذ متحركة ؛ فهذا ابن سريج بعوده يغَنِّى فى أى مكان ، وهذا الغريض بقضيبه يرتِّل أَشْجَى الألحان ، وهذا عمر وأمثاله من أصحاب الغزل ينظمون ، والمغنون من حولهم يغنون ويلحِّنون .

وكان لعمر القِدْحُ المعلَّى بين شعراء عصره فى ذلك ، فهو سيد من سادات مكة ونبيل من نبلائها ، وهذه البيوت من حوله بيوت الشريفات والنبيلات قلما لا تكون هناك واشجة قرابة بينه وبين من فيها ، ولذلك كثر اجتماعه بصواحبها وكثرت مداخلته لأهلها ، فهو يغشاهم الحين بعد الحين مع المغنين يستمع إلى الغناء فى شعره والتلحين فى نظمه . وأصبح عمر بِدْعَ العصر ، فهو طِلْبَةُ كلّ بيت من بيوت أقربائه ، وهو طلبة كل فتاة تريد أن تظهر فى مرآة شعره وفنه . وما أكثر هؤلاء اللائى كن يُرِدْنَ الظهور فى هذه المرآة الفنية الرشيقة ، فقد كانت مرآة متحركة تدخل فى كل بيت من بيوت مكة ، بل لقد أخذت تدخل فى بيوت المدينة وغيرها من بلدان العالم الإسلامى . وفُتنت السيدات فى المدينة بهذه المرآة كما فُتن سيدات مكة ونبيلاتها ، فقد تعددت صورها وألوانها وتعددت أنغامها وألحانها . وكان يظهر ابن أبى ربيعة فى أكثرها ومعه ابن سريج أو الغريض ؛ بل معه أحياناً جميلة ومَعْبد وغيرهما من مغنى أهل المدينة .

وكل من يقرا فى الأغانى يخيل إليه أن عمر أصبح شغل الشباب فى المدينة ومكة جميعاً ، ولم تكن المسألة مسألة عمر كما قد يُتَبادر ، وإنما كانت مسألة شعره وابن

سُرَيْج والغَرِيض اللذين يلزمانه ، ولا ينفصلان عنه . وكأنما كانت تتكون الفرقة الغنائية لهذا العصر من شاعر دائم هو عمر ومغن هو ابن سُرَيْج أو الغريض(١).

ولم يكن نساء مكة والمدينة وحدهن اللائى يُعْجَبْنَ بعمر. وشعره ومن يغنون فى هذا الشعر ، فقد كانت نساء بنى أمية فى دمشق يعجبن بهذا الشعر أو بهذه المرآة ، وكن يطلبن الظهور فيها حتى أخت عبد الملك بن مروان وزوجة ابنه الوليد — كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع — فإنهما طلبتا أن تظهرا على صفحتها .

وكانت هناك مواسم تكثر فيها هذه الطلبات على عمر وغيره من شعراء مكة ، ونقصد مواسم الحج ، إذ كانت تُحْشد فيها نساء العرب وفتياتهم ، وكان الذوق العربى العام لا يمنع أن يشيد شاعر بجمال امرأة ، بل لعل فى هذه الإشادة ما يعرِّف بها وبجمالها ، ولذلك كانت تطلبها المرأة العربية ولا تجد فيها غضاضة ، بل على العكس كانت تجد فيها طرافة وإعلاناً عنها وتمهيداً لأن يطلبها الأزواج(٢)

وهذا الذوق العام هو الذى أشاع الغزل فى المرأة العربية الشريفة . وأخذ عمر ابن أبى ربيعة يستغله ويبعد فى استغلاله لا فى فتيات مكة ونسائها ، بل فى فتيات العرب جميعاً ونسائهم ممن يحججن إلى مكة وتقع عينه عليهن ، وكأنما كانت عينه « عدسة » مكة فى هذا العصر ، فلا تمر بها سيدة تستحق أن تصوَّر وأَنْ ترسم فى المرآة الفنية المكية إلا وتهبّ عين عمر وتهب عيون زملائه من الشعراء ، فيسجلون صورتها . ومن هنا كنا نقرأ دائماً فى أخباره أشعاراً وقصصاً عن جميلات الحواجّ . فهذه عائشة بنت طلحة تحج فتتعرض لها عين عمر أو عدسة عمر فترسمها(٣)، وهذه فاطمة بنت محمد بن الأشعث الكندية تحج ، فتتلقفها العين أو العدسة(٤) ، وهذه زوجة شيخ النحو أبى الأسود الدؤلى تحج ، فتأبى العين أو العدسة إلا أن تتبعها(٥) ، وهذه ليلى بنت الحارث البكرية مع وقارها ترسمها العين أو العدسة(٦) ، وهذه رملة بنت عبد الله الخزاعية تلمحها العين أو العدسة

---

(١) انظر فى ذلك الأغانى ٣٧٦/٢ .

(٢) أغانى ٢٥٣/١ .

(٣) أغانى ١٩٩/١ وما بعدها .

(٤) أغانى ٨٤/١ وما بعدها .

(٥) أغانى ١٤٧/١ وما بعدها .

(٦) أغانى ١٥٦/١ .

فتصورها(١) . وهذا باب يطول تعداد الأسماء والشخصيات فيه ، فقد أصبح شغلَ الشعراء المكيين وعلى رأسهم عمر ، وأصبحت مواسم الحج مواسم للشعر والفن تُرْسَمُ فيه صور العذارى والسيدات الجميلات ، وحتى أميرات بنى أمية كن يُرْسَمن ويُصَوَّرْن وكن يطْلُبْنَ ذلك – كما ذكر الرواة – ويبتغينه ، فهنا الشعر الجميل الذى يعرف كيف يصور جمال المرأة ، وهنا الأداة البديعة التى تعرف كيف تذيع هذا الشعر ، ونقصد أداة الغناء . فهذه الأغانى هى الشعر الذى ينتشر بسرعة على كل لسان ، والذى يملأ به الحجاج حقائبهم وهم عائدون إلى أوطانهم وديارهم . فليس غريباً إذن أن يطلبه النساء ، وأن يتحول عمر ومغنياه ابن سريج والغريض إلى ما يشبه المصورين فى صحافتنا الحديثة ، فهم يتخللون الحجاج ، وقد يخرجون لاستقبالهم كى يلتقطوا أخبار الفتيات والنساء الجميلات . وأظننا لا نعجب بعد ذلك إذ نقرأ فى أخبار عمر أنه «كان يعتمر فى ذى القعدة ويُحِلّ ، ويلبس تلك الحلل والوَشْى ، ويركب النجائب المخضوبة بالحِنَّاء ، عليها القطوع والديباج ، ويُسْبِلُ لمته ، ويَلْقَى العراقيات فيما بينه وبين ذات عِرْقٍ محرمات ، ويتلقى المدنيات إلى مَرٍّ ، ويتلقى الشاميات إلى الكديد(٢)» . أو نقرأ : «خرج عمر بن أبى ربيعة ومعه ابن سريج على نجيبين ، رحالتاهما ملبستان بالديباج ، وقد خَضَبا النجيبين ولبسا حُلَّتين ، فجعلا يتلقيان الحاجَّ ، ويتعرضان للنساء إلى أن أظلم الليل(٣)» .

وما يزال عمر وابن سُرَيج صاحبه يستعرضان النساء فى النهار على هذا النحو حتى إذا أظلم الليل انطلقا إلى كثيب مشرف ، فألقى عمر على صاحبه ما لقفته العين أو العدسة ، وسرعان ما يضع له ابن سريج اللحن ، ثم يغنيه ، فيحبس الحجاج عن مناسكهم ، ويكاد بعضهم يركب بعضاً – كما مرَّ بنا – من شدة الزحام ومحاولة القرب من مسرح الغناء .

وأظن فى هذا ما يصور كيف كان عمر بن أبى ربيعة يَحْيا فى مكة ، فهو يحيا حياة فنية قوامها الشعر والغناء ، وأمدّه ثراؤه وترفه بكل ما يلزمه فى هذه الحياة ، فهؤلاء المغنون من حوله أمثال ابن سُرَيْج سمَّاعـون لشعره يغنُّون فيه ويلحِّنونه ،

---

(١) أغانى ١/٢١٤ .
(٢) أغانى ١/٢٢١ .
(٣) أغانى ١/٢٥٨ .

ويرتفعون فى هذا الغناء والتلحين إلى مدى واسع من الإحسان والتجويد . وما يزال مع هؤلاء المغنين يتغنى بفتيات مكة ونسائها حتى إذا دار العام وأتى موسم الحج تحوَّل إلى جميلات الموسم يتبعهن ويصورهن .وكان يعيش كما يريد « مهيباً معظماً لا يقدر عليه سلطان ولا غيره[١] » . وأكبر الظن أنه كان أموى الهوى ، فقد هجا مصعب بن الزبير حين قتل زوجة المختار الثقفى ، ومما قاله فى ذلك[٢] :

إنَّ من أعظم الكبائر عندى قَتْلَ حسناءَ غادةٍ عُطْبولِ
كُتِب القَتْلُ والقتالُ علينا وعلى الْمُحْصَنات جَرُّ الذيولِ

وطبيعى ألا يُعْجَب عمر بمصعب وأخيه عبد الله ، فقد كان الأخير خاصة مُتَزَمِّتاً ، ولم يكن يُعْجَب بعمر ولا بشعره[٣] ؛ فى حين كان يعجب بعمر عبد الملك[٤] ، وقد استصحبه الوليد معه ، حين حَجَّ ، إلى الطائف وغنّاه الغَرِيض فى أشعاره[٥].

ولسنا نعرف تفاصيل واضحة عن حياة عمر الشخصية فى أسرته وبيته ، وكل ما ذكره المؤرخون فى هذا الجانب لا يتعدى ذكرهم لزواجه من كلثم بنت سعد المخزومية ، وأنها ولدت منه ولدين كان أحدهما يسمى جُوَاناً وماتت عنده[٦] . ويذكرون أيضاً أنه تزوج من جُمَحِيَّة[٧] ، ولا يذكرون اسمها ، وأكبر الظن أنها زينب بنت موسى الْجُمَحِيَّة ، وله فيها غزل كثير[٨] . وكانت له بنت تسمى أَمَةَ الواحد[٩] ، وقد تسمى أمة الحميد أو أمة المجيد[١٠].

وهذا هو كل ما لدينا من معلومات عن حياة عمر الشخصية ، وهى معلومات لا تكادُ تُبِينُ عن شىء ، إلا أنها على كل حال تدل على أنه لم يتزوج كثيراً . ولسنا ندرى هل تزوج الجمحية بعد وفاة كلثم أو فى أثناء حياته معها . وأكبر الظن

(١) أغانى ٦/٣٢٧ .
(٢) الديوان ص ٢٤١ وانظر أغانى ٩/٢٢٩ . والعطبول : الجميلة الممتلئة
(٣) أغانى ١/٧٣ .
(٤) أغانى (طبعة الساسى) ١٨/١٣٣ وانظر زهر الآداب للحصرى ١/١٢٠ والأمالى ٣/٦٨ وكذلك الأغانى ١٥/٧ وما بعدها .
(٥) أغانى ١/١١٢ وانظر ٢/٣٩٥ وكذلك ١/١١٩ .
(٦) أغانى ١/٢٠٤ وما بعدها .
(٧) أغانى ١/٢٢٠ وما بعدها .
(٨) انظر أغانى ١/٩٣ وما بعدها .
(٩) أغانى ١/٧٠ .
(١٠) أغانى ١/١٦٥ .

أن عمر لم يكن قلقاً فى حياته الزوجية.

والرواة إنما يمدُّوننا فى الواقع بقصَصٍ كثير عن غزليات عمر ، أما حياته وتفاصيلها فقلما عُنوا بها ، وحتى موته نجدهم يضطربون فيه جدًّا فالمشهور أنه عاش سبعين سنة(١) فإذا كان قد وُلد سنة ٢٣ فإنه يكون قد تُوفى سنة ٩٣ للهجرة . ومعنى ذلك أنه توفى فى عصر الوليد بن عبد الملك وأنه لم يلحق عصر سليمان الذى تولى الخلافة سنة ٩٦ ولا عصر عمر بن عبد العزيز الذى ولى الخلافة سنة ٩٩ . وهنا يبدو خلط الرواة فنحن نرى بعضهم يزعم أن سليمان – وكانت فيه شدة – نفى عمر إلى الطائف(٢) ، وأكثر من ذلك نرى بعضهم يزعم أن عمر بن عبد العزيز نفاه كما نفى الأحوص شاعر المدينة إلى دَهْلَك(٣)، وأبعد من ذلك أن نرى بعضهم يقول إن عمر غزا بالبحر فأحرقوا سفينته فاحترق(٤). وهناك رواية تزعم أنه تعرض لسيدة فتغزل بها وهى تحج ، فدعت عليه ، فمات(٥).

وكل هذه فى رأينا فروض أملاها خيال الرواة ، وخاصة من قالوا باحتراق عمر حتى يجعلوه شهيداً ، ولعل أهم ما يدل على فساد ما يقال من أن سليمان نفاه إلى الطائف وأن عمر بن عبد العزيز نفاه إلى دهلك أنه لم يعش إلى عصرهما ، فقد رَوَى أبو الفرج فى حديث بين الثريا والوليد بن عبد الملك عنه أنها قالت : يرحمه الله(٦). ونحن نعرف أن الغريض فر إلى اليمن حين تعقب نافع بن علقمة المغنين فى عهد سليمان ولم يلبث أن توفى هناك ، ولو أن ابن أبى ربيعة كان حيًّا لحمى الغريض من نافع . وفى أخبار الغريض قبل فراره إلى اليمن أن الثريا مولاته ماتت ، وأنه أتى كثير بن كثير السَّهمى ، فطلب إليه أن يصنع فيها أبياتاً لينوح بها على الثريا(٧) ومعنى ذلك أن الثريا تُوُفِّيت إما فى أواخر أيام الوليد أو فى أوائل أيام سليمان ، ولو أن ابن أبى ربيعة كان حيًّا لرثاها ، ولطلب الغريض أبياته التى

---

(١) أغانى ٧١/١ .

(٢) أغانى ٦٧/٩ .

(٣) أغانى ٦٤/٩ وانظر الشعر والشعراء ص ٣٤٩ ودهلك : جزيرة بالبحر الأحمر.

(٤) الشعر والشعراء ص ٣٤٩ .

(٥) أغانى ٢٤٧/١ وما بعدها .

(٦) أغانى ٢٣٧/١ .

(٧) أغانى ٢٤٦/١

ينوح بها عليها من عمر لا من كثير السهمى . ومهما يكن فقد توفى عمر عن سن عالية .

٣

غزل عمر

يكتظُّ كتاب الأغانى بالأصوات أو الأدوار التى غُنِّيت فى شعر عمر ، والتى اشترك فى غنائها كبار المغنين والمغنيات فى مكة والمدينة فى أثناء العصر الأموى . ويكاد الإنسان يؤمن بأن شعره كله قُصِدَ به إلى الغناء ، فقد كانت تغنيه فيه الجوارى فى بيته ، وكان يغنِّى فيه المغنون والمغنيات فى دور اللهو . وكان الحُجّاج كلما ألموا بمكة ملأوا حقائبهم بهذا الشعر وأخباره ، وبماذا يقضون أوقاتهم ولياليهم الطويلة بعد انصرافهم من مناسك الحج سوى أن يسْمروا ويتحدَّثوا ويغنِّيهم من حين إلى حين مغنٍّ أو مغنيةٌ بشعر عمر وأصحابه المكيين ؟ وما يكاد المغنى ينتهى من غنائه حتى يبدأ السمر ، ويبدأ الحديث ، ويبدأ القصص عن عمر وأمثاله من أصحاب الأغانى .

ولعل هذا ما جعل القصص يكثر عن عمر ، فمخيَّلة القُصَّاص لعبت منذ حياة عمر نفسه بأخباره . ومن يرجع إلى ترجمته فى كتاب الأغانى يجد كل أغنية يُرْوَى له معها قِصة . ومن هنا كثر القَصَصُ عن عمر واختلطت صورته على الرواة القدماء أنفسهم كما اختلطت على الباحثين المحدثين ، لسبب بسيط ، وهو أن حياته امتدت أمام الناس لتتسع للتسلية والترفيه عنهم .

وربما كان أهم دليل على ما نزعم أننا إذا حاولنا أن نتبين خطوط أقاصيص حبه الذى عاناه ، والذى ذهب يعبِّر عنها فى أغانيه لم نكد نتبين منها شيئاً واضحاً سوى قصة شغفه بالثريا بنت على بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر بن عبد شمس ، وهى — على ما يظهر — إحدى السيدات القلائل اللائى تَقدَّمنَ

لحماية الفن فى عصرهن ، ولم يكن حينئذ إلا الغناء وهذه الأغانى عند عمر وأمثاله .

ولعلنا بذلك أن نفهم صلتها بالمغنين من جهة وعمر من جهة أخرى ، ففى دارها تخرَّج الغريض ويحيى قَيْل وَسُمَيّة من المغنين ، كما مر بنا ، وفى دارها كانت تستقبل أحياناً عمر ، وتستمع إلى أحاديثه ، وكان لها ذوق أدبى ، فكانت تصطنع الشعر[١]. ولم تلبث أن تحول اللقاء بينها وبين عمر ، وهو الآخر من أشراف قريش ومن أبناء عمها ، إلى ضرب من الرضا والمودة ، فكانت تكثر من لقائه واستقباله والتحدث إليه حديثاً بريئاً حين تكون فى مكة وفى الطائف حين تصيف فيها[٢] . وكانت لا تجد فى ذلك حرجاً ، يقول عمر[٣] :

لم تَرَ العينُ للثريا شبيهاً ... بِمَسِيل التِّلاع يوم التقينا
أعملتْ طَرْفها إلىَّ وقالت ... حُبَّ بالسائرين زَوْراً إلينا
ثم قالت لأختها قد ظَلَمْنا ... إن رجعناه خائباً واعتدينا

وكانت الثريا فى سَعة من العيش[٤]، وشُغف بها عمر ، وله معها أخبار كثيرة يروى أبو الفرج أطرافاً منها ، فتارة ترضى عنه[٥] ، وتارة تغضب عليه[٦] ، وهى فى الحالين تمثل الإدلال والإعجاب بنفسها وبجمالها . وغضبت عليه ذات مرة ، وامتنعت أن تلقاه ، فتولَّه عمر ، إذ رأى الفتاة الأولى فى مكة التى تعجب بفنه ، والتى تشتهر بذوقها المرهف انصرفت عنه . وإنه ليفكر فيها من جهة وفى فنه من جهة أخرى ، فنراه يقول[٧] :

مَن رَسُولى إلى الثريَّا فإنى ... ضِقتُ ذَرْعاً بهجرها والكتابِ
سلبتنى مُجَّاجَةُ المسك عقلى ... فَسَلُوها ماذا أحلّ اغتصابى
وهْىَ مكْنُونَةٌ تحيّر منها ... فى أَديم الخدَّينِ ماءُ الشباب

---

(١) أغانى ٢٣٦/١ .
(٢) أغانى ٢١٢/١ .
(٣) أغانى ٢٢٨/١ وانظر الديوان ص ١٠٦ .
(٤) أغانى ٢١٢/١ .
(٥) أغانى ٢٣٢/١ .
(٦) أغانى ٢٣٠/١ .
(٧) أغانى ٢٢٢/١ .

أبرزوها مثل المَهَاة تَهادَى بين خمس كواعبٍ أترابِ
ثم قالوا تحبُّها قلت بَهْراً عددَ القَطْرِ والحَصى والترابِ[١]

ويروى أبو الفرج أن ابن أبى عتيق «سمع هذه الأبيات فى المدينة ، فقال : إياى أراد وبى نوَّه ! لا جرم والله لا أذوق أكلاً حتى أشخص ، فأصلح بينهما . ونهض ، ونهض معه مولاه بلال ، فجاء إلى قوم من بنى الدُّئِل بن بكر لم تكن تفارقهم نجائب لهم يُكْرونها ، فاكترى منهم راحلتين وأغلى لهم .. ثم ركب إحداهما وركب بلال الأخرى ، فسار سيراً شديداً ، فقال له مولاه : أبْقِ على نفسك ، فإن ما تريد ليس يفوتك ، فقال له : ويلك (أبادر حَبْلَ الودّ أن يتقضَّبا) وما حلاوة الدنيا إن تمّ الصدع بين عمر والثريا . وقدم مكة غير محرم ، فدق على عمر بابه فخرج إليه ، وسلم عليه ولم ينزل عن راحلته ، فقال له : اركب أُصْلح بينك وبين الثريا ، فأنا رسولك الذى سألت عنه ، فركب معه وقدما الطائف . وكان عمر أرضى أمَّ نوفل ، فكانت تطلب له الحيل لإصلاحها فلا يمكنها . فقال ابن أبى عتيق للثريا : هذا عمر قد جَشَّمِنِى السفر من المدينة إليكِ ، فجئتك به معترفاً لك بذنبٍ لم يجنه ، معتذراً لك من إساءته إليك ، فدعينى من التعداد والترداد ، فإنه من الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون . فصالحته أحسن صلح وأتمه وأجمله[٢]» . ورجع ابن أبى عتيق مع صاحبه إلى مكة ، ثم تركه إلى المدينة .

وأظن فى هذا الخبر ما يدل على حياة هذه الطبقة المترفة من أبناء قريش وبناتها ، أو من رجالها ونسائها ، فقد تحضر القوم وأصبح هناك الجوارى اللائى يَدْخُلْنَ بين الرجال والنساء من أمثال أم نوفل ، وأصبحت المرأة القرشية ذات شخصية فى المجتمع الجديد . ولسنا ندرى فيم غضبِت الثريا ؟ هل غضبت لأن عمر تغزل فى قرشيات غيرها ، أو غضبت لأنه ذكر فى غزله ما يشينها ؟ أما الرواة فيقولون إنها غضبت عليه لأنه تغزل فى رملة بنت عبد الله بن خلف الخزاعية حين حجت[٣] . وأكبر الظن أنه لم يذهب عن الثريا أن مثل هذا الغزل غزل عابر ، ولذلك كنا

---

(١) بهراً : عجباً .
(٢) أغانى ٢٢٢/١ وما بعدها .
(٣) أغانى ٢١٤/١ وما بعدها .

تميل إلى أنها غضبت عليه لإحدى اثنتين : إما لأنه لا يحتشم فى غزله معها ، وإما لأنه بدأ يدور حول فتاة أخرى فى مكة لعلها كلثم المخزومية التى اقترن بها ، ففى غزله أن الثريا كانت تود لو يكون لها بعْلاً(١) :

قد تمنيتِ أننى لكِ بَعْلٌ قلت بل ليتنى بخدّكِ خالا

ولسنا ندرى لماذا لم يحقق ابن أبى ربيعة للثريا أمنيتها ، فحياة عمر وحياة الثريا ليست مكشوفة لنا تماماً فى ديوانه ، يقول(٢) :

خبَّروهــا بأننى قــد تزوَّجْ تُ فظلَّتْ تكاتمُ الغَيْظَ سِـرَّا
ثم قالتْ لأختها ولأخرى جَزَعاً ليته تزوَّج عَشْرَا
وأشارتْ إلى نساءٍ لديهــا لا ترى دونهن للسِّرِّ سِتْرا
مــا لقلبى كأنه ليس منى وعظامى إخالُ فيهنَّ فَتْرَا
من حديثٍ نمى إلىَّ فظيعٍ خِلْتُ فى القلب من تلَظِّيه جَمْرا

فإذا صح أن هذه الأبيات قالها فى الثريا بعد زواجه من كلثم ، فإن عمر يكون حينئذ غير وفىّ لحبه . وفى أخباره أنه كان ملولا طرفاً . على أنه ربما كانت الثريا هى التى امتنعت عليه ، فإن الرواة يحدثوننا أنها تزوجت من سهيل(٣) ابن عبد العزيز بن مروان ، وأكبر الظن أنها اختارته على عمر ، ولعله من أجل ذلك تولى أَسِفاً يقول(٤) :

أيها المنكحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلاً عَمْرَكَ اللهَ كيف يلتقيان
هى شاميَّةٌ إذا ما استقلَّتْ وسُهَيْلٌ إذا استقلَّ يمانى

ويستمر الرواة ، فيقصون علينا لوعة عمر بعد زواج الثريا من سهيل وتدلهه ، وحرقة قلبه وفؤاده . ويروون له فيها هذه الأبيات الطريفة التى كتب بها إليها ، ينفث فيها شوقه(٥) :

---

(١) الديوان ص ١٤٠ .
(٢) الديوان ص ٢٣٤ .
(٣) أغانى ١/٢٣٣ .
(٤) أغانى ١/٢٣٤ .
(٥) أغانى ١/٢٣٥ .

كَتَبتُ إليكِ من بلدى　　كتابَ مولّهٍ كَمِدِ
كئيبٍ وَاكِفِ العينـ　　ـين بالحسرات منفرد
يُؤرِّقُهُ لهيبُ الشّوْ　　قِ بين السَّحْرِ والكبدِ[1]
فيمسكُ قلبَه بيـــدٍ　　ويَمْسَح عينـــه بِيَدِ

وبهذه الأبيات تنتهى قصة عمر مع الثريا فى كتاب الأغانى وفى ديوانه . وهى القصة التى تتضح خطوطها بين قصصه . أما بعد ذلك فلا نكاد نجد له على ألسنة الرواة قصة تتكامل .

على أن من يرجع إلى أخبار عمر فى الأغانى يجد اسم سيدة أخرى أكثَرَ من الشعر فيها والتعلق بها ، وهى زينب[2] بنت موسى الجمحية التى اقترن بها كما مرَّ بنا . وتدل أخبارها فى الأغانى أنها من أهل المدينة ، فابن أبى عتيق هو الذى عرَّفه بها وأثنى على حسنها وجمالها[3] وتتردد فى شعره بها أسماء لمواضع بالمدينة مثل الصَّوْرَين[4] وهو بالبقيع فى المدينة . ويظهر أن أول لقاء بينهما كان فى مكة ، فإنها خرجت مع أخيها إلى الحج ، فتعرض لها عمر وكَفَّه أخوها قُدامة أول الأمر[5] ، ولكن أخته لم تلبث أن تعرضت له ، مدلّة بجمالها وما وُهِبَته من إغراء وفتنة ، يقول عمر[6] :

ما زال طَرْفى يَحارُ إذ بَرَزَتْ　　حتى رأيتُ النقصانَ فى بَصَرى
أبصرتُها ليـــلةً ونسْوَتَها　　يَمْشِينَ بين المَقَامِ والحَجَرِ
قالت لترب لهـــا تُحدِّثُها　　لنفسدنَّ الطوافَ فى عُمَرِ
قومى تصدّىْ له ليعرفنـــا　　ثم اغمزيه يا أختَ فى خَفَرِ
قالتْ لهـــا قد غمزته فأبى　　ثم اسْبَطَرَّتْ[7] تسعَى على أثَرى
من يُسْقَ بعد المنام رِيقَتَها　　يُسْقَ بمسْكٍ وباردٍ خَصِرِ[8]

(١) السحر : الرئة .
(٢) أغانى ١/٩٣ .
(٣) أغانى ١/٩٥ وانظر الديوان ص ٤٧ – ٤٨ .
(٤) أغانى ١/١٠٥ وكذلك النعف ، انظر أغانى ١/١٨١ وهو موضع بالقرب من المدينة .
(٥) أغانى ١/٩٨ .
(٦) أغانى ١/١٠٣ .
(٧) اسبطر : أسرع .
(٨) خصر : شديد البرودة .

وانعقدت أواصر المودة بينهما فيما يظهر فى أثناء الموسم . فهى من شريفات قريش ونبيلاتهم اللائى يبرزن للرجال ويتحدثن معهم . وهى جميلة ، يغرى جمالها كل من رآها بالنظم فيها . وقد أعجبتْ بعمر ، كما أعجبت به من قبل فتاة مكة الثريا ، فالتقت به وأكثرت من اللقاء ، وكان المجتمع وما أصابه من تحضر يبيح ذلك ، ولا يجد فيه ما يشين الفتاة . وأخذ عمر يستخدم أفاعيه أو بعبارة أخرى جواريه اللائى كان يرسل بهن إلى من يهواهن ، يقول فى بعض غزله بها[١] :

لقد أرسلتُ جاريتِى وقلتُ لها خُذِى حَذَرَا
وقولى فى ملاطفةٍ لزينبَ نَوِّلِى عُمَرَا
فهزّتْ رأسَها عجباً وقالت مَن بِذا أمرا
أهذا سِحْرُك النسوا نَ قد خَبّرْننى الخبرا

وفى أخبار الأغانى ما يدل بوضوح على أن أهل زينب لم يعجبوا بغزل عمر فى فتاتهم ، فطلبوا إليه من أول الأمر أن لا يتغزل بها . ولعل ذلك ما جعله يكنى عن اسمها كُنًى مختلفة ، فقد كنى عن اسمها بهند ، وتنبه أبو الفرج أو تنبه الرواة لذلك ، فأضافوا إلى أصواته فى زينب أصواتاً نوّه فيها بمن تسمى هنداً[٢] . ومعنى ذلك أنهم لاحظوا أنه يريد بهند فى غزله زينب الجمحية . ومن يتتبع الأخبار التى تُقْرَن بزينب يجدها تقرن بهند ، فعمر يذكر أنه أظل زينب فى يوم ماطر معه بثوب مورد :

وما نلتُ منها مَحْرَماً غير أننا كلانا من الثوب المورَّد لابسُ

ونراه يكرر ذكر هذه الحادثة فى غزله بهند[٣] . وإذن فهند هى نفسها زينب الجمحية . وقد أكثر من الحديث عنها فى ديوانه ، وتردَّد اسمها فى أصوات المغنين بمكة والمدينة . وربما كان مما يدل أيضاً على أن هنداً هى نفسها زينب أننا نجد جارية تسمى « أسماء » تقترن فى الغزل بهما جميعاً ، وكانت جارية لزينب[٤] ،

---

(١) أغانى ١/٩٣ .
(٢) أغانى ١/٩٩ .
(٣) أغانى ١/١٨٣ .
(٤) الديوان ص ١٥٣ .

وهى غير أسماء جارية[١] عمر . ومن الرسل أيضاً بينهما بشرة[٢] وأَرْوَى[٣] وسليمى[٤] . وفى هذا ما يدل على أن الرواة لم يوفقوا حين زعموا أن عمر تغزل فيمن تسمى هنداً[٥] بنت الحارث المرية ، فهو اسم لفقوه حين وجدوا اسم هند يشيع فى شعره ، ولم يجدوا أخباراً تكشفه لهم . ولسنا نشك فى أنها هى نفسها التى أرادها عمر بقوله[٦] :

قال الخليطُ غداً تَصَدُّعُنا	أو بعده أفلا تُشَيِّعُنا
لِتَشُوقنا هندٌ وقد علمتْ	علماً بأنّ البَيْنَ يُفزِعنا
عجباً لموقفنا وموقفها	وبِسَمْعِ تِرْبيها تراجعنا
ومقالِها سِرْ ليلةً معنا	نَعْهَدْ فإن البينَ فاجعنا
قلتُ العيونُ كثيرةٌ معكم	وأظن أن السيرَ مانعُنا
لا بل نزوركمُ بأرضكمُ	فيُطاع قائلُكم وشافعُنا

وهذه القطعة فى رأينا قالها حين همت زينب بالمسير من مكة ، أما ما يزعمه الرواة من أنه قالها فى فتاة لمحمد بن الأشعث فهو غير صحيح . وأكبر الظن أنه يريد بالعيون التى معها أخاها قدامة الذى مر ذكره . وتبعتها نفسه إلى المدينة ، والتقيا فى الصَّوْرَين مراراً[٧].

وليس اسم هند هو الاسم الوحيد الذى اصطنعه لزينب ، وكناها به ، فقد كناها على ما يظهر كُنًى مختلفة . ولعل أهم كنية كناها بها بعد هند كنيةُ نُعْم . واسم نعم هو الاسم الثانى بعد هند الذى يدور فى ديوانه وشعره . وتنبه أبو الفرج إلى أن نعماً هذه جمحية[٨]، ولكنه لم يربط بينها وبين زينب ، وكان ينبغى أن يلتفت إلى ذلك ، فحديثه إلى نعم فيه نفس الصبابة التى نجدها فى حديثه إلى هند أو قل إلى زينب . وأيضاً فإن بعض القصص الذى يُرْوَى عنه مع هند يُرْوَى له

---

(١) أغانى ١/١٦٥ .
(٢) الديوان ص ٨٩ .
(٣) الديوان ص ١٣٠ .
(٤) الديوان ص ٥٥ ومن الرسل أيضاً بينهما قريب أو قريبة . انظر الديوان ص ١١ ، ص ١٠٦ ، ص ١٣٢ .
(٥) أغانى ١/١٥٤ وانظر ١/١٧٥ .
(٦) أغانى ١/٩٠ .
(٧) أغانى ١/١٥٤ ، ١/١٧٥ وانظر ١/١٠٥ .
(٨) أغانى ٤/٢١٣ .

مع نُعْم[١]. وتنبه أبو الفرج نفسه فى موضع آخر من الأغانى إلى أن اسم نعم اسم رمزى[٢] ، وأن عمر قد يسمى صاحبة هذا الاسم باسم ذات الخال[٣] ، وأظننا لم ننس صلة ابن أبى عتيق بحب عمر لزينب ، فهو الذى وصفها له . ومن هنا كان ابن أبى عتيق[٤] يتردد فى غزل عمر بالثلاث ، أو بالفتاة ذات الأسماء الثلاثة : زينب وهند ونعم ، بل ذات الأسماء والكنى الكثيرة ، فهى تكنى هنداً ونعما وذات الخال وتكنى أيضاً أو تسمى جُمْلا[٥] ، فهو يذكر مع جمل البلاطَ وهو من نواحى المدينة ، وتكنى أيضاً أو تسمى رامة[٦]. وجاء فى بعض الأصوات :

حبُّكم يا آلَ نُعمٍ قاتلى   ظهر الحبُّ بجسمى وبَطَنْ

واستبدل الشطر الأول فى بعض الروايات هكذا (إن حبى آل ليلى قاتلى[٧]) . ولعل فى هذا ما يكشف عن العلاقة بين نعم وليلى فى الديوان ، فليلى اسم آخر سميت به نعم أو سميت به زينب . وإذن فلسنا فى حاجة إلى هذا القصص الذى يروى عنه وعمن تسمى ليلى بنت الحارث البكرية ، فهى مثل صاحبتها هند بنت الحارث المرية ، إنما اجتلبت لتفسِّر هذا الاسم ليلى الذى يدور فى شعر عمر .

ومن يقف على مدى ما صنعه الرواة فى أخبار عمر من تلفيق لأسماء فتيات ونساء تغزل فيهن يعرف إلى أى حد تصاب الرواية الأدبية فى كتاب الأغانى بالاضطراب . ولعل هذا الاضطراب لا يظهر فى أخبارٍ ظهورَه فى أخبار عمر ، فقد كثرت الأصوات التى غُنِّيت من شعره ، وبالغ هو فى الرمز عن صاحبته زينب فاضطرب الرواة ، وأرادوا أن يُثْبتوا له فتيات ونساء تغزَّل فيهن ، ولم يجدوا أمامهم سوى التلفيق ، وأن يصطنعوا مثل هذه الأقاصيص .

وكانت زينب كالثريا مترفة غاية الترف ، فبيتها يكتظ بالجوارى ، ويكاد

---

(١) انظر أغانى ٤/٢١٣ .

(٢) أغانى ٩/٢٣٩ وما بعدها .

(٣) أغانى ٩/٢٣٩ .

(٤) انظر أغانى ١/٩٥ وما بعدها وكذلك ٩/٢٤٢ وهو يذكره تارة باسم بكر وتارة باسم عتيق . انظر أغانى ٩/٢٤٢ والكامل للمبرد (طبع رايت) ص ٣٧٣ وانظر الديوان ص ١٩ .

(٥) الديوان ص ١٠٧ .

(٦) انظر أغانى ٨/٢١٩ . وقد كنى عمر عن الثريا كثيراً باسم الرباب . انظر الديوان ص ١٨٠ إذ تذكر مع الثريا فى مقطوعة واحدة .

(٧) انظر أغانى ١/١٥٧ وانظر هنا الهامش .

عمر لا يذكر لقاء بينه وبينها دون أن يذكر من كان معها من جواريها الحسان ، وما تغرق فيه من زينة الحليّ وما يلوِّن حياتها من نعيم ، حتى ليقول[١] :

لو دبَّ ذَرٌّ فوق ضاحى جِلْدِها ... لأبانَ من آثارهنّ حُدُورُ

فهى منعمة مترفة مبالغة فى النعيم والترف ، حتى إن الذر لو علق بجسمها لبانت فيها من آثاره كلوم وحدور وجروح . وأظن فى هذا التصوير منتهى النعيم والترف .

ويظهر أن زينب تعلقت بعمر وتعلق بها عمر تعلقاً شديداً لم يكد يُبقِى فيه لأحد دونها بقية من ود أو حب ، حتى ليقول[٢]:

ما أرى ما بقيتُ أن أذكر المو ... قفَ منها بالخَيْفِ[٣] إلا شجانى
لم تَدَعْ للنساء عندىَ حَظًّا ... غير ما قلتُ مازحاً بلسانى
هى أهلُ الصفاء والودِّ منى ... وإليها الهوى فلا تَعْذُلانى
حين قالتْ لأختها ولأخرى ... من قطينٍ مولَّدٍ : حَدِّثانى
كيف لى اليومَ أن أرى عمرَ المُرْ ... سِلَ سِرًّا فى القول أن يلقانى ؟
قالتـا نبتغى رسولاً إليه ... ونُميتُ الحديث بالكتمان
إن قلبى بعد الذى نلتُ منها ... كالمعمّى عن سائر النسوان

وهذه اللهفة على زينب وأوقاتها ومجلسها نجدها دائماً فى غزله ، وقد جذبته خيوط جمالها إلى موطنها المدينة ، فذهب إليها واستطاع لقرابته منها ، إذ يخاطبها دائماً بابنة العم ، أن يصل إليها وأن يظفر منها بمجالس مع صواحبها ، واسمعه يقول[٤] :

أيهـا الكاشحُ المعيِّر بالصَّرْ ... م تزحزحْ فمـا لها الهِجرانُ
لا مطـاعٌ فى آل زينب فـارجـعْ ... أو تـكلَّـم حتى يمـلَّ اللسانُ
نجعـل الليـلَ موعـداً حين نُمسى ... ثـم يُخـفى حـديثَنـا الكتمـانُ
كيف صَبْرى عن بعض نفسى وهل يَصْـ ... ـبِرُ عن بعض نفسه الإنسانُ

---

(١) الديوان ص ١٥ وانظر فى حليها أغانى ١/٩٥ .
(٢) أغانى ١/٩٤ .
(٣) الخيف : موضع عند منى .
(٤) أغانى ١/١٠٢ .

فعمر لا يخشى الكاشح فى آل زينب ، فإنهم لا يأبون على ابن عمهم لقاء فتاتهم ، إذ كانت من شريفات المدينة اللائى من حقهن أن يلقين الرجال وأن يبرزن لهم . ومرّ أن مجتمع مكة ومجتمع المدينة حظيا بضروب من الحضارة أتاح للمرأة حظوظاً من الحرية ، وأعطاها حقوقاً فى الحياة . ومهما يكن فقد أغرم بصاحبته وتدلّه بها وذهب يروى قصة حبه لها والموضع الذى رآها فيه لأول مرة وهو الخَيْف ، واستمر يردد ذكره فى شعره[١] :

دِينَ هذا القلبُ من نُعْـــمٍ بسَقام ليس كالسُّقمِ[٢]
إنَّ نُعْماً أقصدتْ رجلاً آمناً بالخَيْفِ إذ ترمى[٣]

وليس من ريب فى أن السهم تعمق فؤاده حتى الشغاف ، فإن عمر تبع صاحبَته طويلاً فى شعره وتبعه المغنون يغنون هذا الشعر الذى يُحدثه عمر فى زينب تارة باسمها الحقيقى ، وتارة أخرى باسمها المستعار هند أو نُعم .

ومهما يكن فنحن نستطيع الآن أن نفهم أغانى عمر فى صورة مقاربة ، فقد دارت حول فتاتين قرشيتين ، أو قل دار معظمها ، وهما الثريا وزينب . وكان شغفه بالثانية أشد عنفاً فإنها استغرقته ، استغرقت قلبه وفؤاده ، وكادت تنسيه مَنْ عداها من بنات جنسها ونساء قومها من القرشيات .

ووراء هاتين الفتاتين فى شعر عمر تأتى صور أخرى لقرشيات وغير قرشيات ، ولكنها صور عابرة التقطتها مخيلة عمر فى أثناء الحج . وفى ذلك يقول فى بعض شعره[٤] :

ولم أَرَ كالتجْمِير منظرَ ناظرٍ ولا كليالى الحج أَفلَتْنَ ذا هوَى
فكم من قتيلٍ ما يُباءُ[٥] به دَمٌ ومن غَلِقٍ[٦] رَهْناً إذا لفّه مِنِى
ومن مالئٍ عينيه من شيءٍ غيرِه إذاراح نحو الجمرةالبِيضُ كالدُّمَى

ويظهر من شعر عمر ونظرائه أنهم كانوا يرصدون الحواج ، وكانوا يفردون

---

(١) أغانى ٤/٢١٥ .
(٢) دين : جوزى وكوفئ
(٣) أقصد السهم : أصاب فقتل
(٤) أغانى ٩/٦٢ .
(٥) يباء به : يقتل به .
(٦) غلق الرهن : لم يستطع الراهن افتكاكه .

للجميلات منهن صفحات فى دواوينهم . وأخذ الشاعر المكى فى هذه العصور يشبه تمام الشبه صحفيي عصرنا الحديث ، فكما أن هؤلاء يُعْنَوْنَ بأن يمثلوا فى صحفهم صور المجتمع وأخباره بنسائه وفتياته ، فكذلك كان شعراء مكة فى العصر الأموى وعلى رأسهم عمر بن أبى ربيعة ، فقد كانوا يعنون بأن يذيعوا صور نبيلات قريش اللائى يفدن على مكة وكذلك نبيلات العرب ؛ وأصبح عمر يرى فى الحج فرصة هائلة للاستعراض : استعراض الفتيات والنساء ممن اشتهرن بالجمال فى بلدانهن أو فى أنحاء العالم الإسلامى ، وكان يجد فى تتبعهن واستعراضهن لذة لا تقدّر ، ولعل ذلك ما جعله يقول(١) :

ليت ذا الدهرَ كان حَتْماً علينا　　　كلَّ يومين حِجَّةً واعْتمارا

وعتب عليه عبد الله بن عمر حين أنشده هذا البيت ، وقال له : أما تتقى الله ؟ فقال له عمر : بأبى أنت وأمى ، إنى وضعت ليتاً حيث لا تغنى . فعبد الله ابن عمر يَعْجب منه إذ يدعو أن تكون الأيام كلها حجًّا وعمرة ، وهو لا يريد الحج والعمرة من حيث هما ، وإنما يريد ما يحملان إليه من النسوة الجميلات . ومرَّ فى غير هذا الموضع أنه كان يخرج فى طريق ذات عِرْق يتلقى العراقيات ، وفى طريق الكَديد يتلقى الشاميات وفى مَرّ يتلقى المدنيات ، ويعود معهن فيشترك فى رمى الجمار والطواف ليطَّلع عليهن . يقول فى بعض شعره(٢) :

يقصد الناسُ للطَّواف احتساباً　　　وذنوبى مجموعةٌ فى الطوافِ

ويخيل إلى الإنسان أن عمر لم يترك قرشية جميلة تحج إلى مكة دون أن يتغنَّى بها ، ويصف محاسنها وفتونها .

وهذا كله إنما كان يأتى فى شعره عرضاً ، وإن كان عمر على ما يظهر ، قد بالغ فى الوقوف عند الحواج وفى استعراضهن بنفس الشكل الذى قد نجده عند بعض الصحفيين حين يعلنَّ عن بعض النساء اللائى لا يُحبِبْنَ الإعلان عن أنفسهن .

ووراء فتاتى عمر وحواج قريش وبعض شريفات العرب ، نجد فى أغانيه

---

(١) أغانى ٦٣/٩ .　　　(٢) عيون الأخبار ١٠٧/٤ .

غزلاً فى جاريتيه بغوم وأسماء (١) . وأكثر من ذكر الثانية والتشبيب بها واختلطت صورتها على الرواة ، فظنوا أنها سيدة حرة أحياناً(٢) .

وعلى كل حال الصورة الأساسية فى شعر عمر هى الغزل بالثريا وزينب ، وقد عبّر عما كانا فيه من ترف ونعيم ، وما تميز به المجتمع حينئذ من حرية تحت تأثير الحضارة الجديدة التى دخلت مكة والمدينة وما صاحبها من الجوارى الأجنبيات .

وليس من ريب فى أن شعر عمر طريف من هذه الناحية إذ يصور تصويراً دقيقاً مبلغ ما أصاب المرأة القرشية فى عصره من تحضر، وما طُوى فى هذا التحضر من ترف ونعيم . وكان ذوق عمر نفسه ذوقاً مترفاً غاية الترف ، فيه دقة ، وفيه حساسية شديدة ، وفيه أدب وظرف ، واستمع إليه يقول(٣) :

لَيتَ حظّى كطَرْفة العَيْن منها ... وكثيرٌ منها القليلُ المُهَنَّا
أو حديثٌ على خلاءٍ يُسَلِّى ... ما يُجِنُّ الفؤادُ منها ومنّا
كَبُرَتْ ربٍّ نعمةً منك يوماً ... أن أَراها قبل المماتِ ومَنَّا

فهو يرقّ فى أمانيه رقة شديدة هى رقة الرجل المتحضر الذى نشأ فى الترف والزينة ، بل الذى غرق فيهما ، غرقت عينه وغرقت نفسه .

وارجعْ إلى هذا الشعر الذى أنشدناه كله لعمر ، فإنك ترى فيه آثار هذا التحضر وهذا النعيم سواء فى أحاديث المرأة التى يقصُّ أحاديثها ، أو فى تصوير نفسيتها ووصف خواطرها . وعمر نفسه يتراءى شابًّا مترفاً غاية الترف ؛ فيه إدلال المترفين وفيه تيههم وعُجبهم . ولعل لنشأته أثراً فى ذلك ، فقد كان وحيد أمه ، وكانت غريبة عن مكة ، فكان كلّ شيء فى حياتها . وورثا معاً ثراء عظيماً ، فدللته ، ونَشَّأته على الإدلال والإعجاب بالنفس ، وتصادف أنه كان جميلاً . وليس بين أيدينا من الوثائق ما نعرف به إلى أى حد كانت أمه تُعْنَى بملابسه وعطوره ، ولكن تقدم أنه كان يُعْنَى ، وهو كبير ، بحلله وزينته وطيبه . وأكبر الظن أنه بدأ ذلك فى حداثته واستمر معه فى بقية حياته . وماذا تريد إلى أم مات زوجها ، ولم يبق لها

---

(١) أغانى ١/١٦٥ .

(٢) أنظر أغانى ١/١٣٤ .

(٣) أغانى ١/١٤١ .

من دَنياها إلا هذا الطفل الصغير إنهـا لا بد تبالغ فى زينته ، وخاصة إذا كانت مثل أمِّ عمر ورثت كثيراً من الذهب والفضة .

وهذه النشأة المترفة عند عمر ، أو قل هذا الذوق المترف هو الذى طبع شعره بطابع الإدلال والإعجاب بالنفس مما جعله فى كثير من جوانبه لا يصور فقط حبه للمرأة وما يلاقى فيه من عذاب وحرمان وما يتعطش إليه من وصل ولقاء ، وإنما يصور أيضاً مشاعرها نحوه ورغبتها الشديدة فى رؤيته ولقائه . ولاحظ القدماء ذلك ، فقالوا إنه يتغزل بنفسه لحسنه وجماله[1] . وفى أخباره أنه أنشد ابن أبى عتيق :

بيـــنما يَنْعَتْنَنِى أَبْصَرْنَنى ... دون قِيد المِيلِ يَعْدُو بى الأغَرّْ
قالتِ الكبرى أتعرفنَ الفتى ... قالت الوُسْطى نعم هذا عُمَرْ
قالتِ الصغرى وقد تيَّمْتُها ... قد عرفناه وهل يَخْفَى القَمَر

فقال له ابن أبى عتيق : أنت لم تَنْسُبْ بها وإنما نَسَبْتَ بنفسك ، كان ينبغى أن تقول : قلت لها فقالت لى ، فوضعت خَدِّى ، فوطئتْ عليه[2] والمسألة فى الواقع لم تكن مسألة جمال عمر فحسب ، وإنما كانت مسألة ذوق مترف أفسد الشعور الطبيعى عند عمر ، فجعله يشعر بجماله أمام المرأة ، أو قل بشخصيته ، فإذا هو يجعل نفسه شغل الفتيات الشاغل ، فهن ينعتنه ويصفنه وكأنه ليس فى أذهانهن سواه ، وما يلوح لهن على فرسه من بعيد حتى تسأل كُبْراهن عنه ، فتجيب الوسطى هذا عمر ، وتكتفى بذلك ، فهو العلم الذى لا تجهله فتاة فى مكة . وأما الصغرى فقد تيَّمها ونفذ حبه إلى قلبها ، فأجابت : قد عرفناه وهل يخفى القمر ، كأنها تلوم أختها على التساؤل ، فهو الفتى الذى شغل فتيات مكة والذى يقول عنهن[3] :

وكُنَّ إذا أَبْصَرْنَنى أو سَمِعْنَنى ... سَعَيْنَ فرقَّعْنَ الكُوَى بالمحاجِرِ

وهنّ لا يكتفين بالنظر إليه من الكُوَى أو من وراء الحجاب ، بل يسعين

---

(١) خزانة الأدب ٢/٤٢٠ .
(٢) أغانى ١/١١٨ .
(٣) الديوان ص ٢١٧ .

إليه ، ويحاولن أن يشعرنه بوجودهن . وهن يستعملن فى ذلك ضروب الإغراء المختلفة من ابتسامة أو إشارة ، يقول فى بعض غزله[١] :

أليستْ بالتى قالتْ　　لمولاةٍ لها ظُهُرَا
أشيرى بالسَّلام له　　إذا هو نحونا خَطَرا

فهنّ اللائى يَلْحقنه ، وهن اللائى يتبعنه ، وهن اللائى يسلِّمن عليه من بعيد ، وهن اللائى يشرن إليه ، أو يغمزنه فى أثناء سيره . فعمر فى كثير من غزله هو المتبوع لا التابع والمعشوق لا العاشق ، قد تيّم النساء وملأهن صبابة به وحبًّا ، حتى الثريا وزينب فإنه يصف دائماً إعجابهما به وطلبهما له وأخذهما الموعد منه[٢]. ومن الطريف فى هذا الصدد أن نجده كثيراً يذكر الوشاة والواشين على عادة المحبين ولكن لا ليشكو منهم ، وإنما ليبث شكوى صواحبه ، فهن اللائى يتحدثن بالشكوى منهم . يقول فى بعض غزله بزينب[٣] :

ولمـــا التقينا سَلَّمتْ وتبَسّمتْ　　وقالتْ كقولِ المُعْرِضِ المُتَجَنِّبِ
أمن أجلِ واشٍ كاشحٍ بنميمـــةٍ　　مَشَى بيننـــا صَدَّقْتَه لم تكذِّبِ
قطعتَ وصالَ الحَبْلِ منا ومن يُطِعْ　　بذى وُدِّهِ قولَ المحرِّشِ يُعْتِبِ

فهو لا يطلب الوصل من صواحبه ، وإنما هن اللائى يطلبنه ، ومن ثم هن اللائى يعلنّ الشكوى من الوشاة والواشين ، ويظهرن الألم من سماع محبوبهن لهم وإيمانه بما يقولون . وتتكرر هذه الصورة كثيراً فى شعر الثريا وزينب .

وعلى هذا النحو تطلبه المرأة دائماً فى غزله ؛ فهى عاشقة له تتمنى قربه ولقاءه ، وتفتنُّ فى ذلك فنوناً من اللهو البرىء ، فترسل إليه بالرسل ، يقول فى بعض غزله لزينب[٤] :

إن هنداً قد ارْسَلتْ　　وأخو الشوقِ مُرسِلُ
أرسلتْ تَسْتحِثُّنى　　وتفدِّى وتَعْذُلُ

(١) أغانى ١/٩٢ .
(٢) الديوان ص ٨٠ – ٨١ .
(٣) الديوان ص ١٧٨ .
(٤) أغانى ١/١٨٣ .

والرسل فى ديوانه بينه وبين محبوباته كثيرة كثرة مفرطة ، وهو يصور فى ثنايا ذلك كله تعلق النساء به وتساقطهن عليه من كل جانب . ولا ريب فى أنه يُرْضى بذلك دَلَّه وتيهه وغروره ، وهذا الذوق المترف الجديد الذى يجعل الرجل يشعر بنفسه أمام المرأة ، ويحس أنه المعشوق لا العاشق ، حتى ليأخذ مواقف المرأة فى حبها ، فيطلب ألا تبوح باسمه(١) :

ألم تعلمى ما كنتُ آلَيْتُ فيكمُ — وأقسمتِ لا تَحْكين ذاكرةً باسمى

فهو لا يريد أن يُعرَف اسمه ، ولا أن يذيع سره(٢). وفى أثناء ذلك كله يحكى صبابة المرأة به وجهدها فى استرضائه(٣). واستطاع فى خلال هذا أن يصور ما يدور بنفس المرأة من خلجات وترهات وأفكار مضطربة مختلطة حيناً ومتناقضة حيناً آخر . وليس من ريب فى أن هذا الجانب وما يتصل به من وصف عشق المرأة له أهم شيء يميز غزل عمر وشعره من جميع الغزلين فى العربية .

واتخذ عمر لذلك طريقة امتاز بها هى حديث صاحبته مع جواريها أو صديقاتها ، وفى أثناء هذا الحديث يكشف لنا عن مشاعر صاحبته إزاءه ، كما يكشف لنا عن أفكار المرأة فى مجتمعه وكل ما يميز هذه الأفكار من اختلاط واضطراب . وهذا لا شك يفيض على شعره حيوية ، ففيه قرب من الواقع ، وفيه هذا القصص عن النساء الذى يكشف عن نفسياتهن وما يضطربن فيه من أفكار وما تموج به أحاديثهن من متناقضات .

على أن عمر حين نزع هذا المنزع فى غزله فأكسبه هذا الحوار بين النساء الحجازيات فى عصره أو قل هذا القصص غير المتكامل ، فليست هناك عقدة ، وليست هناك قصة بالمعنى المألوف ، وإنما هناك حوار وضرب من القصص غير التام ، حين نزع هذا المنزع ، أصبح يشبه القصصيين من بعض الوجوه ، فقلَّ الغموض فى غزله ، لأنه كشف لنا عن كثير من الحقائق ، وحاول أن يستخدم تجربته ومعرفته بمجتمعه وبالمرأة فى عصره ، وكأنما كان يحاول أن يزيل الحجاب عنها وعن نفسها .

---

(١) الديوان ص ٧٨ .

(٢) الديوان ص ٨٥ .

(٣) أنظر الديوان ص ٣٧ .

وفى رأينا أن هذه المحاولة لم تكن تامة ، فإنه حاول ذلك من خلال الإعجاب بنفسه وما تَميَّز به من دَلِّه وتيهه . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية اضطره هذا الاتجاه الجديد فى غزله ، اتجاه القصص ، إلى أن يدخل بنا فى تخيلات كعادة القصاصين ، فهم يخرجوننا من عالمنا إلى عالم ملىء بتخيلاتهم . ومن هنا يكون من المبالغة أن نسمى بعض شعره غزلاً ماديًّا ، فلا مادّية فيه ، إنما فيه القصة وخيال القصاص . ولعل هذا غاب عن القدماء فقد اضطربوا فى عمر : أعفيف هو أم غير عفيف[١] ، ونسوا أن ابن عباس كان يحفظ كثيراً من شعره كما قدمنا فى غير هذا الموضع ، وكأنه عرف أن عمر إنما يقص ويحاول أن يبرز ، كعادة القصاصين ، العناصر العاطفية فى المجتمع .

وهذه الروح القصصية التى أملت هذه الأغانى لعمر تعاونت مع طبيعة هذا الشعر لا فى قربه من النفوس فحسب ، بل فى قربه أيضاً من الألسنة ، فمن أهم ما يميز هذا الشعر الذى أنشدنا كثيراً منه أن لغته مألوفة ، وأكبر الظن أنها كانت من نفس لغة الناس اليومية .

نستطيع إذن أن نقول إن الأغانى التى كانت تُغنّى هذا العصر فى المجالس والنوادى ظفرت عند عمر بنوعين من التطور يتلاءمان والجمهور الذى يستمعه ، أما النوع الأول فهو هذه الروح القصصية التى تعبر عن مشاعرهم ، وكأن عمر يريد أن يكون وسيطاً بينهم وبين أفكارهم وتخيلاتهم ، وأما النوع الثانى فهو اتخاذ لغة هذا الشعر من لغة حياتهم اليومية . وبذلك أصبحت الأغانى عند عمر تعبر عن محيط المكيين تعبيراً دقيقاً ، محيط مجتمعهم وما فيه من أفكار مضطربة متناقضة ، ومحيط لغتهم فى حياتهم التى تجرى تحت أعينهم .

وأتاحت طريقة الرمز التى رأيناها عند عمر فى زينب أن يتوسع فى خياله وفى أقاصيصه . ومن يدرى لعله كان ينسى أحياناً فى أثناء الرمز صاحبته ، فيعمد إلى القصص الخيالى فى نُعْم وهند ونحوهما من الرموز الكثيرة فى ديوانه وشعره .

والذى نريد أن ننفذ إليه من هذا كله أن عمر توسع فى قصصه ، وأن هذا

---

(١) أغانى ٧٤/١ وما بعدها وانظر الحيوان ٨٣/٢ .

القصص دعاه إلى أن يستخدم اللغة المألوفة ، كما تدعو إلى ذلك طبيعة القصص دائماً ، وكان أكثر المغنين فى شعره من الأجانب ، فكان من الطبيعى لهذا كله أن تكون لغته قريبة دانية ، إن لم تكن مماثلة لنفس اللغة اليومية .

وهذه الملاحظة فى لغة الأغانى عند عمر تضاف إليها ملاحظة ثانية ولكنها لا تتصل بلغتها ، وإنما تتصل بأوزانها وقوافيها ، فإن من يقرأ ترجمة عمر فى كتاب الأغانى ويستعرض الأصوات التى غَنَّى فيها المغنون يلاحظ أن أكثرها من الأصوات الخفيفة السهلة . وفرق بعيد جداً بين ديوان كديوان الفرزدق فى هذا العصر وديوان عمر ، فالأول يميل إلى الأوزان الضخمة ، كما يميل أيضاً إلى الإغراب فى لغته وتراكيبه ، أما عمر فإنه يطلب الخفيف القريب فى اللغة وفى الوزن جميعاً ، وقلما نجده يميل إلى الأوزان الطويلة المعقدة .

وكان أهم المغنين الذين يغنّون فى شعر عمر ابن سُرَيْج والغَرِيض وكلاهما كما قدَّمنا كان يميل إلى الغناء الخفيف ، فطبيعى أن يوفِّر لهما ذلك الجانب الشاعرُ الذى يغنيان فى شعره . ويمكن لتوضيح ذلك أن يقارن القارئ بين عمر وابن سريج والغريض من جهة وبين الأحوص فى المدينة ومغنيه معبد من جهة أخرى ، فقد كان معبد يميل إلى الأوزان الطويلة والصوت الضخم الممتلئ ، وكذلك كانت جميلة مغنية المدينة كما يظهر من استعراض الأصوات التى تغنت فيها ، وكان لذلك أثره فى الأحوص ، فإن شعره يميل إلى الطول وقلما يعنى بالأوزان الخفيفة أو المجزوءة .

وعلى العكس من ذلك كان عمر يعنى عناية شديدة بالأوزان الخفيفة السهلة القريبة التى تطير عن الشفاه طيراناً ، والتى تكاد تنحلّ بنفسها غناء خالصاً . ومهما يكن فإن عمر استطاع أن يوفر لأغانيه ضروباً واسعة من التلاؤم بينها وبين حاجة المغنين فى عصره ، وهى ضروب وقفت عند الوزن ولم تتعدّه إلى القافية ، فإن التعديل فى القوافى تحت تأثير الغناء إنما تقوم به الأندلس على نحو ما هو معروف فى الموشحات أما هنا وفى مكة فى أثناء العصر الأموى فإن التعديل وقف عند اختيار الأوزان الخفيفة من مثل الهزج والوافر والمتقارب والرمل والسريع والخفيف ، وإيثارها على الأوزان المعقدة الطويلة غالباً إلا أن تُجزَّأ وتُقصَّر وتقلّ كميتها على نحو ما هو معروف فى مجزوء الكامل ومجزوء الرجز . على أن عمر لم يكتف بمجزوءات

البحور الطويلة ، فقد ذهب يجزّىء فى البحور الخفيفة نفسها . فكان كثيراً ما ينظم فى مجزوء الوافر من مثل قوله[١] :

تَبِعْتهمُ بطَرْف العيـــ نِ حتى قيل لى افتضحَا
يودِّع بعضُنا بعضاً وكلٌّ بالهـــوى جُرِحَا

وكذلك المجزوءات الأخرى من مثل مجزوء الخفيف[٢] ومجزوء[٣] الرمل . وعمر يتميز فى هذا الجانب تميزاً واضحاً . وقد جاءه من الملاءمة بين أغانيه وبين الغناء الخفيف عند ابن سريج والغريض .

والحق أن ابن أبى ربيعة نهض بالأغانى فى عصره نهضة واسعة سواء من حيث ما أشاع فيها من الروح القصصية ، أو من حيث ملاءمته بين لغتها ولغة جمهور السامعين ، أو من حيث ملاءمته بين أصواتها وألحان المغنين .

ومن أجل ذلك كله يُعَدُّ عمر زعيم الأغانى فى العصر الأموى غير مدافع ، فقد أتاح لها ضروباً من التطور وفنوناً من الرقى فى المعانى والأفكار ، وفى اللغة والألفاظ ، وفى الأوزان والبحور .

٤

الديوان

ترك عمر ديواناً كبيراً فى الشعر العربى يندمج كله فى هذه الصورة التى وصفناها لأغانيه . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن شعره كله أغانٍ قصد بها إلى الغناء قبل أى شىء آخر . وماذا تريد من سيد شريف من أشراف مكة وثرىّ من أثريائها فى العصر الأموى ينظم الشعر ويجيد نظمه ؟ إنه لا شك إنما يقصد به إلى التعبير فى حرية عن نفسه وعن مجتمعه ، وقد تعلّق بقصة الحب التى شغلت حياته فصوَّرها لنا بجميع أطرافها المختلفة .

(١) أغانى ٣١٢/١ وانظر ٢٣٥/١ ، ٣٠٣/١ ، ١٨٢/١ .
(٢) أغانى ٥٨/١ ، وانظر ١٧٢/١ ، ١٨٣/١
(٣) أغانى ١٧٨/١ .

فعمر ، كما رأيناه ، كان يُعْنَى بوصف العناصر العاطفية لمجتمعه ، وقد تعلق بطبيعة المرأة يرسمها فى الشخصيات التى تعرف عليها ، عن طريق هذا الحوار الذى امتد به فى شعره والذى احتفظ به كتاب الأغانى ، كما احتفظ به ديوانه . فلا فارق مطلقاً بين هذا وذاك ، إذ الكل ينبع من معين واحد ويريد له الشاعر غاية واحدة ، هى وصف المرأة فى عصره وصفاً يطلعنا على جميع مشاعرها ، بل لعله يطلعنا على القوى المحركة للمجتمع كلها ، ونقصد قوى التحضر والحياة الاقتصادية حينئذ .

ومن هنا تأتى أهمية ديوان عمر ، فهو يصوّر لنا قصة القلب الإنسانى كما كانت تُنْسَجُ خيوطها فى هذا العصر وأيضاً يصور لنا قصة المجتمع بجميع فصولها ورسومها وكل ما يُطْوَى فيها من خصائص وسمات . واستعان عمر فى ذلك بمخيلته كما رأينا وهذا الحوار المفتوح الذى لا يُغلَقُ فى ثنايا ديوانه .

وعقلية عمر من هذه الناحية تشبه عقلية القصَصيين الذين يقصُّون علينا فصول الحياة كما تقع فى أخيلتهم ، وهم لا يعزلونها عن الحياة الواقعية بل هم يستمدونها منها ، وكذلك كان عمر يستمد حواره الذى فتحه فى ديوانه من تجاربه وخبراته التى شاهدها فى حياته .

ولم يستطع عمر أن ينفذ إلى القصة بمعناها الكامل من عقدة أو حبكة روائية ، لأن فكرة القصة على ما يظهر لم تتكامل فى نفسه لسبب بسيط ، وهو أنه كان يريد بهذا الشعر ، الذى يصنعه ، الغناء ، وأن يدور على ألسنة المغنيات والمغنين .

فشعر عمر كله الذى يحتويه ديوانه شعر ألف للغناء ، وحقًّا لم يُغَنّ كله ، فهناك مقطوعات كثيرة منه لا نجدها فى كتاب الأغانى . على أنه ينبغى أن نحذر هذا الحكم ، لأن كتاب الأغانى إنما يسجل القطع التى لُحِّنت تلحيناً ممتازاً لابن سُرَيْج والغريض وابن محرز وغيرهم من مغنى مكة ، ومَعْبد ومالك بن أبى السَّمْح وجميلة من مغنى المدينة . أما بعد ذلك فلا بد أن قطعاً كثيرة من شعر عمر غُنِّيت ولم يصلنا غناؤها بين هذه القطع الممتازة التى سجلها الرواة . ونفس الرواة يقولون : إن عمر كانت عنده جاريتان تغنيانه فى شعره على نحو ما تقدم فى غير هذا الموضع ، وكان ابن سُرَيْج والغريض يلزمانه لزوماً ، ولا يكادان يفارقانه إلا لماماً .

ولهذا كله نظن أن المقطوعات الأخرى فى ديوان عمر التى لم يصلنا غناء فيها ، غُنِّى كثير منها ، ولُحِّنَ ، وخاصة أن عمر كما قدمنا كان ثريًّا ثراء مفرطاً ولم يكن له شغل إلا هذا الشعر . ومرَّ بنا كيف كان يعطى المغنين فى تلحين بعض مقطوعات من شعره ألوف الدراهم . وما أظن أن مثل عمر فى ثرائه وغنائه يترك قطعة من شعره دون أن تغنَّى وتلحَّن وترتفع بها أصوات المغنين والمغنيات فى داره وفى دور اللهو بمكة والمدينة .

وأكبر الظن أننا إذا قلنا بعد هذا كله : إن كل ما فى ديوان عمر أغان بالمعنى الكامل لهذه الكلمة ، أى أنه غُنِّى ، أو على الأقل أُلِّف لكى يغنِّى فيه المغنون ، لم نكن مبالغين ولا متجاوزين للواقع فى شىء ؛ فقد كان صاحبه يعيش للشعر والغناء جميعاً ، وكانت حياته تقوم على العناية بالفنين ، أما عنايته بفن الشعر فعناية مباشرة ، وأما عنايته بفن الغناء ، فهى عناية مسبَّبة أو معللة بالفن الأول الذى وهبه حياته وأصفاه نفسه .

وديوان عمر من هذه الناحية طريف فى حياة الشعر العربى ، فهو أول شاعر يرصد شعره كله للغناء ، كما يرصد حياته كلها للمعيشة فى أوساط المغنين ، والائتلاف معهم ائتلافاً تتقطَّر نتائجه فى فنه . ومن هنا لا يكون غريباً إذا قلنا : إنه شاعر أغان بالمعنى الكامل لهذه الكلمة فى تاريخ لغتنا العربية .

ولعل أهم ظاهرة سقطت فى شعره وتجلَّت فيه تحت تأثير الغناء أنه ليس قصائد بالمعنى المألوف القديم الذى كنا نفهمه للقصيدة ، فليس فيه مقدمات أطلال ، وليس فيه شىء خارج عن غايته ، إنما هو شعر يؤلَّف فى الحب ، وهو يؤلَّف فى مقطوعات قصيرة ، لأنه يراد به إلى الغناء لا إلى الإنشاد . وإذا استثنينا القصيدة الأولى فى الديوان ، لم نكد نجد بعدها قصيدة طويلة لعمر . وما لعمر وللطول ، وهو لا يريد أن ينشد المنشدون شعره فى المحافل والمجامع ، وإنما يريد أن يغنيه المغنون ، وهؤلاء لا يمتدّ نَفَسُهم إلى أكثر من خمسة أو ستة أبيات إلا فى القليل النادر ، وكان ابن محرز يأبى أن يغنى فى أكثر من بيتين .

وإذن فعمر لا يستطيع الإطالة فى شعره ، لأن المغنين لا يعطونه الفرصة ، ولأن هذا الشعر نفسه الذى يقدمه إليهم بطبيعته شعر محدود يصف خواطر الحب عند

الرجل أو عند المرأة أو عندهما جميعاً وهى فى أصلها محدودة .

ومع ذلك فقد أتاح عمر لهذه المعانى أن تتسع وأن تطول قليلاً بفضل هذه الروح القصصية التى عممها فى ديوانه والتى ذهب يصوّر فيها عواطف المرأة المتحضرة حين تحبّ ، وما يكون بينها وبين جواريها من أحاديث عن صاحبها تارة ، وعن صواحب أخرى يحسدنها عليه تارة أخرى ، وكذلك ما يكون بينها وبين صديقاتها من فنون قول .

وعمر طريف فى هذه الناحية طرافة بالغة فى ديوانه ، فكل من يقرؤه يحس أنه كان على علم دقيق بطبيعة المرأة وما يعتورها من ضعف فى الحب . ومن هنا يُعْجَبُ بعمر كل من يقرأ ديوانه ، إذ يحس كأنه يقرأ لشاعر حديث من عصره ، فقد استطاع أن ينفذ من شعره إلى رسم صورة حية للمرأة فى عصره ، وهى صورة تتطابق معها فى كل عصر وكل زمن .

وعمر فى الواقع تُرْفَع الحواجز بينه وبيننا لهذا كله ، فقد استطاع أن يضع تحت أعين الناس صورة تتجدد لهم فى كل زمان ومكان ، ونقصد صورة المرأة ومشاعرها ، أو قل بعبارة أدق صورة الطبيعة البشرية وكل ما فيها من نقص وضعف .

على أنه ينبغى أن نشير دائماً إلى وجوب الحذر من أقاصيص الرواة ، فقد شوَّهوا لنا عمر وشوهوا معه المرأة المكية والمرأة الحجازية بصفة عامة فيما قصوه عنه وعنها قَصَصاً يتجاوز الواقع فى أغلب صوره . وهو قصص أُريد به كما قلنا غير مرة إلى السمر فى المجتمعات والنوادى الأدبية . وأتاحت طبيعةُ شعر عمر وأنه أغان تغنَّى فى دور اللهو والسمر لحياة عمر وحياة المرأة فى عصره كلَّ هذا الخلط والتشويش اللذين نقرؤهما فى كتاب الأغانى عن عمر وأخباره مع المرأة فى زمنه .

ومهما يكن فعمر فى ديوانه كما فى الأصوات التى غُنِّيت من شعره متكامل الشخصية ، أو قل متكامل الأسلوب . ولسنا نعرف شاعراً تتضح جميع خصائصه فى مقطوعاته المأثورة عنه كما تتضح فى عمر ، فدائماً تقابلنا السمات نفسها والصفات نفسها ، ودائماً تقابلنا الشخصية نفسها والأسلوب نفسه .

وعمر من هذه الناحية يصوِّر لنا تطوراً حقيقيًّا أصاب الشعر العربى فى عصره

تحت تأثير الحضارة الجديدة ، إذ ليس من شك فى أن شعره لا يماثل الشعر القديم ، شعر القصيد . وهذا شىء طبيعى لأن مكة تحضرت وسيطر أبناؤها على العالم ، أو قل على أطراف كثيرة من العالم ، وشَعر كل قرشى بغير قليل من الزهو إزاء هذه السيطرة ، وقد أخذت نفسه تتغير تحت تأثير الحضارات الأجنبية التى صَبَّت فى بلدته ، وأصبح يتصور الحياة فى صورة تغاير صورتها القديمة فى عقل أجداده وذهن آبائه . ومن أجل ذلك كله أصبح من المحتم أن يتطور هذا القرشى لا فى حياته ، فقد تطورت ، وإنما فى فنه وشعره .

ولا ريب فى أن عمر ، أو قل ديوان عمر ، يصور هذا التطور تصويراً طريفاً ، فهو يقصُّ علينا حبه ، ولكن لا نقرأ هذا القَصص حتى نحس أننا بإزاء مجتمع متحضر ، تكاد تُقْطع الصلة بينه وبين مجتمعات البدو القديمة ، ففيه للمرأة من الحرية ما لم تكن تتمتع به المرأة القديمة ، كما أن لها من الترف ومن الجوارى اللائى يخدمنها ما لم تكن تتمتع به المرأة القديمة . وفيه بجانب ذلك دلال المرأة المترفة وغزلها ونفسيتها بكل ما فيها من اضطراب وتناقض ، وفيه أيضاً ما يصور حياة الشاب المترف ، حياة عمر وما انطبع فى نفسه لجماله وثرائه من زهو ودَلٍّ وما تميَّز به من دقة الحس ورهافة الشعور .

فديوان عمر إذن أهم ما يميزه أنه ثمرة حياة متحضرة ، استطاع أن يعبِّر عن جميع جوانبها فى نفسه ، كشاب متحضر ، وفى نفس المرأة المعاصرة له التى أُتْرِف ذوقها وشعورها . ويحس قارئ عمر إحساساً تاما بأن الأسلوب القديم للشعر قد هُجِر ، أو أصبح مهجوراً لسبب بسيط ، وهو أن الحياة القديمة هُجرت ، فأصبح لابد أن ينشأ أسلوب جديد يتلاءم والحياة الجديدة ، أو قل الحضارة الجديدة .

وفرق بين شعر يقال فى بيوت مكة القديمة وشعر يقال فى قصورها الإسلامية الحديثة وما تكتظ به من جوار وإماء وما تملأ به من ألوان حضارات فارسية أو رومية . ومن هنا كنا لا نقرن ديوان عمر إلى ديوان شاعر جاهلى قديم إلا نجد الفرق واضحاً جداً ، وهو فرق الحياة وما أصابها من تبدل وما تم لها من تطور . وهل كان من الممكن أن نجد فى الشعر القديم مثل الثريا وزينب صاحبتى عمر ، وكل ما لهما من دلال ، وكل ما لهما من ثراء ؟ وعمر نفسه هل كان من الممكن أن نجده

فى الشعر القديم بهذه الشخصية المتميزة التى تُفْرده عن أسلافه ؟ لقد كانت الحياة القديمة راكدة ، ولذلك كانت الصور الفنية راكدة أيضاً ، فكان فيها هذا التكرار الذى يشعر به كل من يقرأ الشعر الجاهلى ، وكان فيها هذا الجمود الذى يجعل أساليب الشعراء متشابهة .

وقد تبدل العرب فى مكة وتبدلت حياتهم القديمة ، وعاشوا معيشة جديدة ، ونجم بينهم عمر ليعبّر تعبيراً كاملاً عن هذا التبدل وهذه المعيشة ، ومن هنا كان أسلوبه يخالف أساليب الشعر القديم ، فهو أسلوب تكامل له تحت تأثير حياة متحضرة جديدة ، فيها ترف بالغ ، وفيها هذا الغناء الذى حوّله المغنون إلى نظرية كاملة .

لم يعد عمر ينظم شعره بالأسلوب القديم ، ولذلك نَفَرَ من القصيدة وهجرها فى نماذجه ، واختار مكانها هذه المقطوعات القصيرة التى تقال لا لتُنْشَد كما كان الشأن فى الحياة القديمة ، وإنما تقال لتُغَنَّى ، ولتسمعها الطبقةُ المترفة التى نشأت فى مكة وفى أختها المدينة .

وهذا هو معنى ما نقوله من أن الشعر العربى عند عمر تطور ، فقد أصبح مقطوعات بعد أن كان قصائد ، وأصبح يُتَّخَذ من لغة قريبة ، لغة مألوفة للناس ، ليس فيها هذا الإغراب الذى نجده عند الشعراء القدماء ، وليس فيها هذا التعقيد فى التراكيب الذى نجده عندهم أيضاً . ومن يبحثون عن اللغة القديمة والتراكيب القديمة أو قل الأساليب القديمة ينبغى ألا يبحثوا عنها فى مكة أو الحجاز ، بل يبحثوا عنها فى البصرة والعراق حيث كان جرير والفرزدق والناس من حولهما يجتّرون حياتهم القديمة . أما فى الحجاز وفى مكة ، فقد انصرف الناس عن حياة آبائهم القديمة وغرقوا فى ألوان من الترف والنعيم ، ولذلك أصبحت أساليب الشعر القديم لا تلائمهم ، فإما أن يهجروا هذا الشعر كله ، وإما أن يظهر لهم شاعر يعبر لهم عن حياتهم بأسلوب جديد . وكانت الحياة العربية من القوة بحيث لا يمكن أن يُهْجَرَ الشعر ، وأيضاً كانت من القوة بحيث لا بد أن يظهر الشاعر الذى يعبر للناس عن حياتهم الجديدة بأسلوب جديد .

وكان عمر بن أبى ربيعة هو الشاعر الذى استطاع أن يهجر أساليب الشعر

القديمة ، ويسوّى للناس مكانها أساليب جديدة تقوم على القرب والدنو منهم ومن لغتهم اليومية ، كما تقوم من طرف آخر على تصوير العناصر العاطفية التي يزخر بها مجتمعهم عن طريق تصوير حبه ومشاعر المرأة المعاصرة له ، وما بثَّ في هذا التصوير من حوار ، كأنه استمده من قلب كل امرأة تتحدث عن فتاها . وهذا جانب فى شعر عمر أعطاه قرباً من النفوس فى كل عصر ، وهو من هذه الناحية لا يكاد قارئ يلم به حتى يحس كأن عمر قريب منه ، فهو يدنو من جميع العصور ومن جميع النفوس . ويظهر أن ديوانه لم يصلنا كله ، فطبعة ليبسك ، وهى أهم طبعاته ، نجدها تفْرد ملحقاً لمقطوعات بلغت نحو المائة لم تكن فى الديوان ، وإنما كانت متناثرة فى كتب الأدب وعلى رأسها كتاب الأغانى . ومعنى ذلك أن طَرَفاً من الأصوات أو الأدوار التى غُنِّيَتْ من شعره لم يسجَّل فى ديوانه ، ولاحظ الذين وقفوا على طبع الجزء الأول من كتاب الأغانى – وهو الذى يحتوى ترجمة عمر – فى أكثر الأصوات التى غنيت من شعره اختلافاً كثيراً بين رواية الصوت ورواية الديوان[١] ، كما لاحظوا أن ترتيب الأبيات فى الصوت أو فى الأغنية قد يختلف مع ترتيبها فى مقطوعتها من الديوان[٢] . ولاحظوا أيضاً أن أبيات الصوت قد تلفّق من مقطوعتين[٣] ، وأن الصوت قد يكون فيه بيت ليس لعمر[٤] . ومن قبل لاحظ أبو الفرج هذه الملاحظة[٥] .ولعل فى هذا الجانب ما يدل على عمل المغنين فى شعر عمر ، وكيف أنهم كانوا يستبدلون أحياناً بعض ألفاظه ، وقد يضيفون إلى أبياته بيتاً جديداً ، يتراءى لهم أنه يكمل المعنى أو يحدث فيه طرافة . ومهما يكن فإن ديوان عمر بن أبى ربيعة يشفّ عن شخصية صاحبه ، وعن عصره ومجتمعه وكل ما فيه . واستطاع عمر حقًّا أن يتميز من شعراء عصره والعصور التالية بهذه الروح القصصية النادرة التى قلما نصادفها فى شعراء العربية . ومن الطريف أنه نفذ إليها من خلال هذه الأغانى القصيرة التى كان يتناولها منه ابن سريج والغريض

---

(١) انظر مثلاً أغانى ١/٩٤ ، ١/١٠٤ ، ١/١٢٥ ، ١/١٥١ ، ١/٢٠١ .

(٢) انظر أغانى ١/١٨٠ وكذلك ١/١٨٣ ، ١/٢٣٧ .

(٣) انظر أغانى ١/١٨٧ .

(٤) أغانى ١/٩٥ وكذلك أغانى ١/١٧٠ ، ١/٢٤٢ .

(٥) أغانى ٤/٢١٣ .

وأمثالهما من المغنين ، أو قل إنّ قِصَرَ هذه المقطوعات لم يحلْ بينه وبين ما أراد من تصوير عصره عن طريق هذا الحوار الذى عقده تارة بينه وبين من شُغِفَ بهنّ ، وتارة بين أنفسهنّ وبين أخواتهن أو صديقاتهن أو وصيفاتهن وجواريهن .

وما نعرف فى العربية شاعراً استطاع أن يعيش حياته فى تصوير قصة الحب على هذا النحو الذى نجده عند عمر . قد يوجد بعض الشعراء الذين قصروا أنفسهم أو كادوا على تصوير حبهم مثل العباس بن الأحنف ، ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يتحول بحبه إلى هذه الروح القصصية وما يُطْوى فيها من حوار عند عمر .

ونحن نعيد ما قلناه من أن الرواة – كما يمثلهم كتاب الأغانى – أفسدوا هذه الروح عند عمر بما أضافوا إليها من أقاصيص ماجنة ، وكأنهم لم يفهموا عمر ولا فهموا روح عصره . والمسألة لم تكن أكثر من شاعر مجدد استجاب لنزعة الحضارة الجديدة فى عصره ، ونهض بتمثيل أمواجها بل بتمثيل ذرات هذه الأمواج أحياناً ، ونقصد أمواج العواطف والوجدانات . ومثّل عمر ذلك من خلال إحساساته وإحساس المرأة المكية والمدنية فى عصره .

وكان عمر لذلك كله موضع إعجاب الناس من حوله ، حتى الفقهاء من مثل ابن عباس كانوا يروون شعره ويتناقلونه ، لأنهم لم يجدوا فيه ما حمّله القصّاصون بعدُ من عبث ومجون ، وإنما وجدوا فيه صورة حية لعصرهم ومجتمعهم ، قد يكون فيها ظرف ، وقد يكون فيها مبالغة بحكم أن الشاعر ينقلنا إلى عالم يعتمد على القصص والخيال ، ولكن ليس فيها على كل حال ما ينافى العفة الثابتة(١).

---

(١) أغانى ١/١١٩ وكذلك ١/٢٣٧ وزهر الآداب ١/٢٩٢ .

الفصل الخامس

ابن قيس الرُّقَيَّات

١

اسم ابن قيس ولقبه وعشيرته

اختلف الرواة فى اسم ابن قيس وهل هو عبد الله أو عبيد الله . وقد ذكره الجاحظ(١) والمبرد(٢) باسم عبد الله ، وكذلك ذهب مذهبهما المسعودى(٣) والمرزبانى(٤) والجوهرى والصحاح والفيروزابادى ، فى القاموس « مادة رقى » . وفى الخزانة عن خط الشاطبى أن الأصمعى وافق ابن قتيبة على أن اسمه عبد الله(٥).

وذكره ابن سلام فى كتابه طبقات(٦) الشعراء — وهو أقدم نص ورد اسمه فيه — باسم عبيد الله ، وترجم له أبو الفرج فى الأغانى بهذا الاسم(٧) . وفى الخزانة: أنه عبيد الله ، ومن الرواة من يقول : الشاعر عبد الله وهو خطأ(٨). وأجمعت نسخ الديوان المطبوعة والمخطوطة بدار الكتب المصرية على أن اسمه عبد الله .

وكما اختلف الرواة فى اسم الشاعر اختلفوا فى علة تلقيبه بالرُّقَيَّات ، أما ابن سلام فقال : إنه سُمِّى بذلك لأن جدّات له توالين يُسمَّيْن رُقَيَّة(٩). وقال ابن قتيبة : إنه لقِّب بذلك لأنه كان يُشَبِّب بثلاث نسوة يقال لهن كلهن رقية(١٠). وقال أبو عبيدة فى كتاب النسب : سُمِّى بذلك لأنه كان يشبِّب بامرأتين كل منهما

---

(١) انظر الحيوان ٧/١٥٤ .

(٢) الكامل للمبرد ص ٣٩٧ .

(٣) مروج الذهب ٥/٢٥٠ .

(٤) الموشح ص ١٥٠ ، ١٨٦ ، ٢٢١ .

(٥) خزانة الأدب للبغدادى طبع بولاق ٣/٢٦٦ .

(٦) طبقات الشعراء ص ١٣٧ .

(٧) انظر الأغانى ٥/٧٣ .

(٨) الخزانة ٣/٢٦٧ وانظر الولاة والقضاة للكندى ص ٥٢ .

(٩) طبقات الشعراء ١٣٧ .

(١٠) الشعر والشعراء (طبع دى جويه) ص ٣٤٤ وانظر الأغانى ٥/٣٧ .

تسمى رقية[١]. وفى الخزانة قيل إن قيساً تزوج نسوة كل منهن اسمها رقية[٢]. وفى الصحاح والقاموس إنما أُضيف قيس إلى الرقيات لأنه تزوج عدة نسوة وافق أسماؤهن كلهن رقية .

ومن يرجع إلى أخبار الشاعر وشعره يؤمن بأنه أُضيف إلى الرقيات لأن أكثر تشبيبه فيمن سُمِّين رُقَيَّة . ولعل فكرة أن أباه تزوج عدة نسوة يسمين رقية ، وكذلك أن جدات له تتابعن يسمين رقية ، لعل ذلك جاء من أن كلمة الرقيات أُضيفت إلى قيس ، فهو يشتهر بين الرواة باسم ابن قيس الرُّقَيَّات .

وينسب الرواة الشاعر على هذا النحو : عبيد الله بن قيس بن شُرَيْح بن مالك بن ربيعة (وهو النُّوَيْعم) بن أُهَيْب[٣] بن ضِباب بن حُجَيْر بن عَبْد بن مَعِيص بن عامر بن لُؤَىّ بن غالب[٤] . فهو قرشى إلا أنه ليس من قريش البطاح ، إنما هو من قريش الظواهر . وإذن فعشيرته ليست من العشائر الثرية التى كان لها شأن عظيم فى أمور مكة فى أثناء العصر الجاهلى على نحو ما كان لقريش البطاح . ومع ذلك يظهر أنها كانت تشتهر بالبأس والشجاعة . فأبو الفرج يقول : كان يقال لبنى مَعيص بن عامر بن لؤى وبنى محارب بن فهر الأجْرَبان ، وكانا متحالفين ، وإنما قيل لهما الأجربان من شدة بأسهما ، وعَرِّهما من ناوأهما كما يَعُرُّ الجَرَب[٥].

وتسمى عشيرة عبيد الله باسم جده الثامن ، فيقال بنو مَعيص ، وقد تنسب إلى جده السابع فيقال بنو عَبْد[٦] ، وإلى جده الثالث ربيعة الملقب بالنُّوَيْعم[٧]. ويفتخر عبيد الله بعشيرته فى ديوانه كما يفتخر بقرشيته ، فيقول[٨] :

نحنُ الصَّرِيحُ إذا قريـ ... شٌ قام منها الناسبُ[٩]
من سِرِّهــا وأَرُومها ... إذ للأَرُومِ مراتبُ[١٠]

---

(١) الخزانة ٣/٣٦٦ .
(٢) الخزانة ٣/٢٦٥ .
(٣) فى الديوان (طبع فيينا) ص ٦٧ : وهيب .
(٤) أغانى ٥/٧٣ وانظر الديوان ص ٦٧ .
(٥) أغانى ٥/٧٣ .
(٦) الديوان ص ١٨٧ ، ١٩٣ .
(٧) الديوان ص ١٩١ .
(٨) الديوان ص ٢٥ .
(٩) يريد بالصريح أنهم من قريش فى الصميم .
(١٠) الأروم : الأصول .

وكما يذكر عشيرته الأقربين يذكر أبناء عمهم مالك[١] بن حِسْل بن عامر ، وأيضاً فإنه يذكر بني جابر بن وَهْب بن ضِباب وبني شِبْل بن عبيد بن منقذ بن عمرو ابن مَعيص[٢] ، وهو شديد الاعتزاز بهم جميعاً .

وأم عبيد الله قتيلة بنت وهب بن عبد الله بن ربيعة من بنى لَيْث بن بكر بن عبد مَناة ، وقد افتخر بأخواله فى ديوانه[٣] كما افتخر بأهله . وكان له أخ يسمى عبد الله[٤]، ولعل ذلك ما جعل الرواة يخلطون فى اسمه ؛ وأعقب عبد الله أبناء مختلفين ، منهم سعد وأسامة وقد قُتلا فى موقعة الحَرَّة مع طائفة من عشيرتهما ، ورَثَى القتلى جميعاً عبيد الله رثاء حاراً[٥]. وفى أخباره أن أُثَيْلة بنت مسافع زوج أسامة كان لها منه قيس وعقبة ومحمد ، وقد لجأت بهم بعد موقعة الحرة إلى عبيد الله[٦]. ولعل فى هذا ما يدل على أن عبد الله كان قد فارق الحياة وإلا لجأت إليه زوج أسامة ولم تلجأ إلى عبيد الله .

وليس لدينا أخبار واضحة عن أزواج عبيد الله ، وهو يذكر فى ديوانه زوجة كنانية[٧]، ولكنا لا نعرف شيئاً عن هذه الكنانية . وزعم صاحب الخزانة أنه لم يكن له عَقِب[٨]، ومن يرجع إلى ديوانه يجد وصية له موجهة إلى شخصين يسميان شُرَيْحاً ومِحْصَناً ، وهى أشبه بأن تكون وصية أب لابنيه ، إذ يقول[٩] :

أُوصّى شُرَيْحاً إن هلكتُ ومِحْصَناً بعونٍ على الجُلَّى وتَرْكِ المحارِمِ
وذبٍّ عن الجار الملبِّس حَبْلَهُ بحبليهما وبالحَليفِ المقاسم
وإن حاربَ المولى فحاربْ بحربِهِ وإن سَالَمَ المولى عليك فسالِمِ

وفى الأغانى أنه كان له بنون ثلاثة وبنات ثلاث وأنه زوج البنين الثلاثة ببنات أخ له ثلاث ، كما زوج البنات الثلاث من بنى أخ له[١٠].

---

(١) الديوان ص ١٨٧ ، ٢١٣ .
(٢) الديوان ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ .
(٣) الديوان ص ٢٤٤ .
(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (المخطوطة التيمورية بدار الكتب المصرية) مجلد ٢٥ الورقة ٢٠٨ .
(٥) الديوان ص ١٨٤ وما بعدها .
(٦) الديوان ١٩٢ .
(٧) الديوان ص ٢٠١ - ٢٠٢ .
(٨) الخزانة ٣/٢٦٥ .
(٩) الديوان ص ٢٤٧ .
(١٠) أغانى ٥/٩٣ - ٩٤ .

٢

حياة ابن قيس وأخلاقه وصفاته

نشأ ابن قيس الرقيات فى مكة ، ولكن يظهر أنه تركها فى مقتبل عمره إلى المدينة ، ومع ذلك فقد ظل يتردد عليها وعلى منزله[١] فيها . وليس بين أيدينا معلومات واضحة عن هذه الفترة الأولى من حياته إلا ما يرويه فِنْد المغنى وهو من مغنى المدينة فى الصدر الأول[٢] قال : « حجَّت رُقيَّة . . . فكنت آتيها وأحدثها فتستظرف حديثى وتضحك منى ، فطافت ليلةً بالبيت ، ثم أهوت لتستلم الركن الأسود وقبَّلته ، وقد طفت مع عبيد الله بن قيس الرقيات ، فصادف فراغنا فراغها ، ولم أشعر بها ، فأهوى ابن قيس يستلم الركن الأسود ويقبّله ، فصادفها قد سبقت إليه ، فنفحته بِرُدْنها[٣]، فارتدع ، وقال لى : من هذه ؟ فقلت أولا تعرفها ؟ هذه رقية بنت عبد الواحد ابن أبى سعد ، فعند ذلك قال :

مَن عَذيرِى ممّنْ يَضِنُّ بمبـذو ... لٍ لغيرى علىَّ عند الطوافِ »[٤]

ولا نجد بعد ذلك فى أخبار ابن قيس حادثة تتصل بحياته فى مكة . وتَركها ، على ما يظهر ، إلى المدينة مع جماعة من أهله ، فإننا نجد هناك أولاد أخيه عبد الله وقد قُتِلَ منهم اثنان فى موقعة الحرَّة كما أسلفنا . ولعل أكبر دليل على نزوله المدينة أننا لا نجد له أخباراً مع مغنى مكة من مثل ابن مِسْجح وابن مُحرز وابن سُرَيْج والغريض ، إنما تساق أخباره دائماً مع مغنى المدينة من مثل فند ، وسائب[٥] خاثر ، وبُدَيْح[٦]. وأشار بعض شعره إلى دار له فيها ، إذ يقول[٧] :

شبَّ بالعال من كَثيرةَ نارُ ... شوَّقَتْنا وأين منَّا المزارُ

(١) أغانى ٥/٧٧ .
(٢) ابن عبد ربه ٣/٢٤٥ .
(٣) أغانى ٥/٩٦ .
(٤) أغانى ٥/٩٦ .
(٥) أغانى ٥/٨١ .
(٦) أغانى ٦/٢٢٠ .
(٧) الديوان ص ٩٤ .

تلك نارٌ لها أضاءَ سَناها لمحبٍّ له بيثرِبَ دارٌ

فهو يشير إلى دار اتخذها لنفسه فى المدينة . وفى الأغانى ما يدل على أنه كان ينزل بها فى أثناء حكم مروان بن الحكم وسعيد بن العاص لها فى خلافة معاوية ، فقد كان معاوية يُعقب بينهما يُوَلِّى هذا سنة وهذا سنة [١] ، وكانت فى مروان شدة وغلظة ، فلما ولى المدينة ولَّى مصعب بن عبد الرحمن بن عوف الزُّهرى شُرْطته ، وأعانه بمائتى رجل من أهل أَيْلة (العقبة) فضبطها ضبطاً شديداً ، فقال ابن قيس [٢] :

عَلِّلِ القومَ يَشربوا كى يَلَذُّوا ويَطْربوا
إنمـــا ضلَّل الفؤا دَ غزالٌ مُرَبَّبُ
فرَشَتْهُ على النما رقِ سُعْدَى وزينب
حَالَ دون الهوى ودو نَ سُرَى الليل مُصْعَب
وسياطٌ على أكـ فٍّ رجالٍ تُقَلِّبُ

فديوان ابن قيس يرتبط بحوادث المدينة فى أثناء خلافة معاوية ، وقد يكون فى هذه القطعة ما يدل على أن ابن قيس كان يَحيا من بعض الوجوه حياة لاهية ، فهو يتبع المغنين ، وهو يضج من صعوبة مصعب وسيده مروان ، وهو يدعو إلى الطرب والشراب .

على أن اتصاله بسائب خاثر وبُدَيح ، وكانا موليين لعبد الله بن جعفر سيد بنى هاشم ، يدل على أنه اتصل بسيدهما . وليست المسألة مسألة استنتاج ، فديوانه ملىء بأشعار فى مدح عبد الله ، وسنراه يلجأ إليه ويلزم حِماه فيما بعد . ونلاحظ هنا أن طبيعة حياة ابن قيس وشعره ، إذ كان يمدح به سادة قومه ، تدل دلالة قاطعة على أنه اتصل بعبد الله بن جعفر ، جواد الحجاز ، منذ هذا التاريخ . وزعم بعض الرواة أنه شبب برقية ابنته [٣] .

غير أن الرواة على عادتهم شوّشوا لنا فى أخباره وجعلوه لا يتصل بعبد الله فى

---

(١) ابن عبد ربه ٣/٢٤٥ .
(٢) أغانى ٥/٧٢ – ٧٤ .
(٣) انظر الورقة الأولى فى ديوان ابن قيس (مخطوطة بدار الكتب) رقم ٨٨ ش .

هذه الفترة من حياته ، إنما يتصل به فيما بعد على ما سنرى . ويقول أبو الفرج : كان ابن قيس الرقيات منقطعاً إلى عبد الله بن جعفر وكان يصله ويقضى عنه دَينه(١).

وما نمضى بعد خلافة معاوية إلى خلافة يزيد ابنه حتى نجد ابن قيس يترك المدينة إلى الجزيرة وإلى الرَّقَّةِ خاصة . يقول السكرى جامع ديوانه : « خرج الوليد ابن عقبة بن أبى مُعَيط سنة سبع وثلاثين حتى نزل الرَّقة فكان بها وكان معه العلاء ابن عبد بن أُهبان بن جابر بن ضِباب بن حُجير بن عبد بن مَعِيص . وكانت تحته هند بنت عقبة أخت الوليد فى ناس من قومهم ، فيهم عبد الواحد بن أبى سعد بن قيس بن وهب فأقاموا معه وأقبل عبيد الله بن قيس الرقيات . . . فأقام فيهم حتى كانت وقعة الحرّة ، فقُتل فيها ناس من أهل بيته ، وكان الذى كتب إليه بنعيهم ابن عم له يقال له يزيد بن على بن عبيد الله بن رَحْضة بن عامر بن رواحة بن منقذ ابن عمرو بن مَعيص ، فنعى إليه أُسامة وسعداً ابنى عبد الله بن قيس الرقيات(٢)» . ويمضى السكرى فيقول : « إن أُثَيلة بنت مسافع بن فضالة الخزاعية امرأة أسامة حملت أولادها قيساً وعقبة ومحمداً إلى الجزّيرة حين قُتل أبوهم وعمهم ، فبقيتْ بها ، فأقام عبيد الله بن قيس كذلك . ثم أغار عُمَيْر بن الحُباب ، على بنى عامر بن لؤى ، وكانوا يحبون بنى أمية ، وإنما سمى واديهم « وادى الأحرار » بيزيد بن معاوية ، وكان نزل بهم فى خلافته ، وذلك لأن حَرب بن عبد الواحد بن أبى سعد أصاب رجلاً من بنى ذَكوان (من سُلَيْم) فقتله ، فآلى عمير بن الحباب ألا يدع بوادى الأحرار رجلاً إلا قتله به . وأغار عمير فأخذ عبيد الله بن قيس أسيراً ، فلما قدمه ليقتله وثب عليه رجل من بنى قُنفذ من رِعْل ، فمنعه(٣)، وذكر ذلك ابن قيس فى شعره(٤). ونحن نعرف أن عمير بن الحباب كان من زعماء القيسية فى الموصل وأنه بايع مروان ابن الحكم بعد وقعة مرج راهط ، ثم خرج عليه بعد قتل إبراهيم ابن الأشتر لابن زياد وهزيمة جيشه الذى وجهه عبد الملك لحرب المختار الثقفى والى ابن الزبير على الكوفة ، وكان ذلك فى أواخر سنة ٦٦ للهجرة .

---

(١) أغانى ٥/٨٢ .

(٢) الديوان ص ١٨٤ .

(٣) الديوان ص ١٩٢ .

(٤) الديوان ص ١٩٤ وكذلك ص ١٩٧ .

ولجأ عمير إلى زُفَر بِقَرْقيسيا وأخذ يكيد لتغلب واليمنية وأنصار الأمويين[١]، فكانت من ذلك غارته على عشيرة ابن الرقيات ، ونظن أن ذلك إما كان فى أواخر سنة ٦٦ للهجرة أو أوائل سنة ٦٧. ويقول السكرى : إن ابن قيس ارتحل بعد ذلك سائراً إلى فلسطين[٢] ويظهر أنه لم تكن وجهته فلسطين ، وإنما كانت وجهته الحجاز ، فنحن لا نجد فى أخباره ما يدل على أنه اتصل حينئذ بعبد الملك ، وقد صارت إليه الخلافة بعد أبيه مروان منذ سنة ٦٥ للهجرة . وإن كنا نلاحظ من طرف آخر أن ابن قيس حتى هذا التاريخ لم يكن زبيرياً ، فقد كان بين عشيرته فى الموصل ، وكانوا يحطبون فى حَبْل بنى أمية على الرغم من قُتل منهم فى موقعة الحرة .

وولَّى ابن قيس وجهه نحو الحجاز ، ونزل بالمدينة ، ولقى سعيد بن المسيِّب ، فهشَّ وقال : مرحباً بظفر من أظفار العشيرة ، وكان سعيد مخاصماً للأمويين[٣]، ولعله هو الذى أملى على ابن قيس اتجاهه الجديد إلى الزبيريين . ويقول من حدَّثوا بهذا اللقاء إنه أنشد سعيداً :

أتلبثُ فى تكْرِيتَ لا فى عشيرةٍ　　شهودٍ ولا السلطانُ منك قريبُ
وأنت امرؤ للحَزْم عندك منزلٌ　　وللدينِ والإسلامِ منك نصيبُ

فقال سعيد : لا مقام على ذلك ، فاخرُجْ منها ، قال : قد فعلت ، قال : قد أصبت ، أصاب الله بك[٤]. وصمم ابن قيس ألا يعود إلى تكريت فى الموصل ، وآزر ذلك ووكّده فى نفس ابن قيس ما كان من قتل الأمويين وجنودهم لابنى أخيه فى موقعة الحرّة ، فانصرف عنهم إلى آل الزبير .

ويظهر أنه لم يذهب إلى مكة ، بل ذهب مباشرة إلى العراق حيث وَلِيَ مصعب ابن الزبير هناك على البصرة ، وكان بحراً فياضاً من بحور قريش ، فلزمه منذ ولايته هذه ، ورأى حربه مع المختار الثقفى والى الكوفة وقضائه عليه ، وذكر ذلك فى شعره[٥].

---

(١) الكامل فى التاريخ لابن الأثير طبع أوروبا ٢٥٣/٤ وما بعدها .
(٢) الديوان ص ١٩٩ .
(٣) طبرى ١١٦٩/٢ .
(٤) أغانى ٩١/٥ .
(٥) الديوان ص ١٧٥ ، ص ٢٧٣ .

وعلى هذا النحو لا نصل إلى سنة ٦٧ للهجرة حتى يصبح ابن قيس زُبَيْرِىَّ[١] الهوى . وعَزَلَ عبد الله بن الزبير أَخاه عن العراق سنة ٦٧ بعد أن قتل المختار ، ثم أعاده ثانية[٢] سنة ٦٨ ، واستمرَّ معه ابن قيس هناك بل أصبح شاعر الزبيريين الأوّل . وهو فى الواقع كان شاعراً لمصعب نفسه قبل أن يكون شاعراً لأخيه ، وقد ذهب يتغنى غناء خالداً بأعماله وحروبه مع المختار ، والخوارج ، والجيوش التى أرسلها عبد الملك ، فباءت بالخيبة والفشل ، وما زال مع مصعب يغنيه أعماله حتى تحرك عبد الملك إلى حربه . ونحن ننقل ما ذكره بنفسه عما كان من شأنه معه : « قال : خرجت مع مصعب بن الزبير حين بلغه شخوص عبد الملك ابن مروان إليه ، فلما نزل مصعب ابن الزبير بَمَسْكِن[٣]، ورأى معالم الغدر ممن معه دعانى ودعا بمال ومناطق ، فملأ المناطق من ذلك المال ، وألبسنى منها ، وقال لى انطلق حيث شئت فإنى مقتول ، فقلت : لا والله ولا أَريم[٤] حتى أرى سبيلك ، فأقمت معه حتى قُتلَ . ثم مضيت إلى الكوفة ، فأول بيت صرت إليه دخلته ، فإذا فيه امرأة لها ابنتان كأنهما ظبيتان ، فرقيت فى دَرجة لها إلى مَشرَبة[٥]، فقعدت فيها ، فأمرت لى المرأة بما أحتاج إليه من الطعام والشراب والفرش والماء للوضوء . فأقمت عندها أكثر من حَوْل ، تقيم لى ما يصلحنى ، وتغدو علىَّ فى كل صباح . . . وأنا فى ذلك أسمع الصياح فىَّ والجُعْل . فلما طال بى المقام ، وفقدت الصياح فىَّ وغَرضت[٦] بمكانى غَدَت علىّ ، فعرَّفتها أنى قد غرضت ، وأحببت الشخوص إلى أهلى ، فقالت لى : نأتيك بما تحتاج إليه إن شاء الله تعالى ، فلما أمسيت وضرب الليل بأرواقه رَقِيَت إلىّ ، وقالت إذا شئت ! فنزلت وقد أعدَّت راحلتين عليهما ما أحتاج اليه ومعهما عبد ، وأَعطت العبد نفقة الطريق ، وقالت : العبد والراحلتان لك ، فركبت ، وركب العبد معى حتى طرقت أهلى بمكة ، فدققت منزلى ، فقالوا لى : مَن هذا ؟ فقلت عبيد الله بن قيس الرقيات ، فولَولوا وبكوا ، وقالوا ما فارقنا طلبك

---

(١) أغانى ٧٦/٥ .

(٢) ابن الأثير ٢١٩/٤ – ٢٣٨ .

(٣) مسكن : موضع قريب من دير الجاثليق على نهر دجيل .

(٤) لا أريم : لا أبرح .

(٥) مشربة : غرفة .

(٦) غرض : ضجر .

إلا فى هذا الوقت . فأقمت عندهم حتى أسحرت ، ثم نهضت ومعى العبد ، حتى قدمت المدينة ، فجئت عبد الله بن جعفر بن أبى طالب عند المساء ، وهو يُعَشّى أصحابه ، فجلست معهم وجعلت أتعاجم ، وأَقول يا ريار ابن طيار ، فلما خرج أصحابه كشفت له عن وجهى ، فقال : ابن قيس ؟ فقلت : ابن قيس ، جئتك عائذاً بك ، قال : ويحك ما أجدّهم فى طلبك وأحرصهم على الظفر بك ! ولكنى سأكتب إلى أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان ، فهى زوجة الوليد بن عبد الملك ، وعبد الملك أرق شىء عليها ، فكتب إليها يسألها أَن تشفع له إلى عمها ، وكتب إلى أبيها يسأله أَن يكتب إليها كتاباً يسألها الشفاعة ، فدخل عليها عبد الملك كما كان يفعل وسألها : هل من حاجة ؟ فقالت : نعم لى حاجة ، فقال : قد قضيت كل حاجة لك إلا ابن قيس الرقيات ، فقالت : لا تستثن علىّ شيئاً ، فنفح[1] بيدها ، فأصاب خدها ، فوضعت يدها على خدها ، فقال لها : يا ابنتى ارفعى يدك ، فقد قضيت كل حاجة لك ، وإن كانت ابنَ قيس الرقيات ، فقالت : إن حاجتى ابن قيس الرقيات تؤمِّنه ، فقد كتب إلىّ أبى يسألنى أن أسألك ذلك ، قال : فهو آمن فمُريه يحضر مجلس العشيَّة ، فحضر ابن قيس ، وحضر الناس حين بلغهم مجلس عبد الملك ، فأخرَّ الإذن ، ثم أَذِن للناس ، وأَخّر إذن ابن قيس الرقيات ، حتى أخذوا مجالسهم ، ثم أذن له ، فلما دخل عليه قال عبد الملك يا أهل الشام أتعرفون هــذا ؟ قالوا لا ، فقال : هذا عبيد الله ابن قيس الرقيات الذى يقول :

كيف نَوْمى على الفِراش ولمـا تشملِ الشامَ غارةٌ شَعْواءُ
تُذْهِلُ الشيخَ عن بَنيه وتُبدى عن خِدامِ[2] العقيلةُ العذراءُ

فقالوا يا أمير المؤمنين : اسقنا دم هذا المنافق ! قال الآن وقد أمّنته وصار فى منزلى وعلى بساطى ؟ ! قد أخّرت الإذن له لتقتلوه ، فلم تفعلوا . فاستأذنه ابن قيس أن ينشده مديحه ، فأذن له ، فأنشده قصيدته التى يقول فيها :

عاد له من كَثيرةَ الطّـرَبُ فعينُـــه بالدموع تنسكبُ

(١) نفح : ضرب ضربة خفيفة . وهو الخلخال .
(٢) خدام : على نية المضاف إليه أى خدامها

حتى قال فيها :

إن الأغرّ الذى أبوه أبو الـ عاصى عليه الوقارُ والحجُبُ
يعتـدل التاجُ فوق مَفْرِقِهِ على جبينٍ كأنـه الذهبُ

فقال له عبد الملك يا ابن قيس : تمدحنى بالتاج كأنى من العجم وتقول فى مصعب :

إنمـا مصعبٌ شهابٌ من اللـ ـهِ تجلّتْ عن وجهه الظلماءُ
مُلْكُه مُلْكُ عِزّةٍ ليس فيه جبروتٌ منه ولا كبرياءُ

أما الأمان فقد سبق لك ، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبداً . وقال ابن قيس الرقيات لعبد الله بن جعفر : ما نفعنى أمانى ، تُرِكْتُ حَيًّا كميت لا آخذ مع الناس عطاء أبداً ، فقال له عبد الله بن جعفر : كم بلغت من السن ؟ قال ستين سنة ، قال فعمّر نفسك ؟ قال عشرين سنة من ذى قَبَل(١) ، فذلك ثمانون سنة . قال : كم عطاؤك ؟ قال ألفاً درهم ، فأمر له بأربعين ألف درهم ، وقال : ذلك لك علىّ إلى أن تموت على تعميرك نفسك(٢)» .

وإنما نقلنا ذلك الخبر على طوله مع أنه يشبه أن يكون قصة ، لأنه يتضمن فى ثناياه الحقيقة ، فإن ابن قيس استمر ملازماً لمصعب حتى قُتلَ ، فلما قتل فَرّ ، وأهدر عبد الملك دمه ، فكان لابد له من الاختفاء . وهنا تلعب القصة دورها ، فقد زعم الرواة أن المرأة التى اختفى عندهـا هى كثيرة(٣) التى شَبَّبَ بهـا كثيراً فى شعره .

ويبالغ الرواة ويعطون القصة لونها الذى رأيناه ، فقد أمضى عند كثيرة هذه سنة تتعقبه شرطة عبد الملك ويتعقبه الصياح به وأنّ من وجده أو دلَّ عليه فله ألف دينار(٤) ثم تخفّ الحملة عليه ، ويفقد الصياح فيطلب من المرأة أو من كثيرة الخروج من دارها ، فتأتيه تحت الليل براحلتين وعبد معهما ، وتعطيه نفقة الطريق .

---

(١) من ذى قبل : يريد فى المستقبل .
(٢) أغانى ٥/٧٦ .
(٣) أغانى ٥/٨٤ .
(٤) تاريخ دمشق المجلد ٢٥ الورقة ٢٠٩ .

وربما كانت كثيرة هى المفتاح الذى نعرف عن طريقه كل هذه القصة ، فابن خلكان يذكر أن كثيرة هذه تزوجت على[١] بن عبد الله بن العباس ، وفى الطبرى أنه لما دخل عبد الملك الكوفة بعد مقتل مصعب سأل عن بعض أنصاره ممن أوغروا الشام عليه وأفسدوا العراق ، فقيل قد أجارهم رؤساء عشائرهم ، قال وهل يجير علىّ أحد؟ وكان عبد الله بن يزيد بن أسد لجأ إلى على بن عبد الله بن العباس ولجأ إليه أيضاً يحيى بن مَعْيوف الهمدانى ، فأمّنهما عبد الملك وظَهرا[٢].

ونستطيع أن نصل الآن بين كثيرة وزوجها الذى كان يلجأ إليه من يطلبهم عبد الملك بعد مقتل مصعب ، وأن نظن أن ابن قيس إنما لجأ إلى على بن عبد الله لا إلى كثيرة نفسها كما ظن الرواة ، ولم يستطع على فيما يبدو أن يستصدر له أمراً بالعفو من عبد الملك ، لأنه سبق إلى إعلان إهدار دمه ، أو لأن ذنب ابن قيس كان عظيماً ، فقد كان يدعو إلى حربه ، وكان يؤلِّب عليه ، مع مصعب ، بشعره . وأخفاه علىّ بن عبد الله عنده حتى إذا ضعف طلبه أعانه على الفرار إلى ابن عمه عبد الله بن جعفر ، فقد كان قريباً من نفس الأمويين وكان محبباً إليهم ، وأصهر إليه عبد الملك . على أن ابن جعفر نفسه لم يستطع أن يطلب له الأمان من عبد الملك مباشرة ، بل أرسل إلى عبد العزيز بمصر ، واتخذ له وسيطاً بنته عند أم البنين ، فشفعت فيه على ما جاء فى القصة

ولجوءُ ابن قيس إلى عبد الله بن جعفر تضافرت به الروايات[٣]، وفى شعره ما يؤكده ، بل ما يثبته من نحو قوله[٤]:

تداركَنى عبدُ الإله وقـد بَدَتْ ... لذى الحقد والشّنآن منّى مَقاتلى
فأنقَذنى من غَمْرة الموت بعدمـا ... رأيتُ حِياضَ الموت جَمًّ المناهـل

ومعنى ذلك أن استجارة ابن قيس بابن جعفر ثابتة ، ولكن بقيت فى القصة بقية ، فهل شفع له ابن جعفر عند عبد الملك مباشرة ، أو شفع له بواسطة أم البنين ؟

---

(١) وفيات الأعيان (طبع أوربا) ص ٤١٢ . ص ٣٩٨ والخزانة ٢٦٨/٣ .
(٢) الطبرى ٨١٧/٢ وانظر اليعقوبى ٣٢٧/٢ . (٤) أغانى ٨٢/٥ .
(٣) انظر الشعر والشعراء ص ٣٤٤ والكامل للمبرد

أما القصة السابقة فتزعم ذلك ، ولكن هناك قصصاً أخرى نجد ابن جعفر فيها يشفع له مباشرة . فأبو الفرج يروى أن ابن قيس استجار بعبد الله بن جعفر ، وأنه أعطاه فى أول لقائه ثمانمائة دينار ، فلما قبضها قال له : اسأل أمير المؤمنين فى أمرى . قال : نعم ، فإذا دخلت إليه معى ودعا بالطعام ، فكل أكلاً فاحشاً . فركب ابن جعفر ، فدخل معه إلى عبد الملك ، فلما قُدِّم الطعام جعل يسيء الأكل ، فقال عبد الملك لابن جعفر من هذا ؟ فقال هذا إنسان لا يجوز إلا أن يكون صادقاً إن استُبْقى ، وإن قُتل كان أكذب الناس ، قال : وكيف ذلك ؟ قال لأنه يقول :

ما نَقَموا من بنى أميــة إلا أنهم يَحلُمون إن غَضِبُوا

فإن قتلته لغضبك عليه أكذبته فيما مدحكم به ، قال : فهو آمن ، ولكن لا أعطيه عطاء من بيت المال ، قال ابن جعفر : ولِمَ وقد وهبته لى ؟ فأحب أن تهب لى عطاءه أيضاً ، كما وهبت لى دمه ، وعفوت لى عن ذنبه ، قال قد فعلت ، قال : وتعطيه ما فاته من العطاء ، قال : قد فعلت وأمرت له بذلك[١]» .

وهذا الخبر وإن انتهى بطلب العفو عند ابن جعفر ، فإن أثر الانتحال فيه بيّن ، لأن عبد الملك كان قبل طلب أبيه للخلافة يعيش فى المدينة ، وأسلفنا أن ابن قيس كان هناك أيضاً فى أثناء خلافة معاوية وحكم أبيه مروان للمدينة ، فيبعد ألا يكون على معرفة به وخاصة أنه شاعر ، وكان شعره يُرْوَى فى المدينة حينئذ ، بل كان مروان أبوه نفسه يرويه[٢].

ولا يبعد أن يكون ابن جعفر قد طلب الأمان له ، وطلبه أيضاً عبد العزيز ابن مروان عن طريق ابنته أم البنين ، ولكن على كل حال إنما يعترف ابن قيس فى شعره بأن ابن جعفر هو الذى أمّنه على نفسه .

ولسنا ندرى هل عاد ابن قيس مع ابن جعفر إلى المدينة ، أو أنه ولّى وجهه نحو وجهة أخرى ، ففى شعره ما يدل على أنه كان فى العراق سنة ٧٣ للهجرة ، إذ نراه يهجو من يسمى عبد العزيز بن عبد الله بن خالد ، وكان قد هُزم أمام الخوارج[٣]، وفى الوقت نفسه نراه يمدح بِشْراً[٤] بن مروان ، ويقال — إن صحت الرواية — إنه

---

(١) أغانى ٥/٨١ .
(٢) ابن عبد ربه ٣/٢٤٥ .
(٣) طبرى ٢/٨٢٨ .
(٤) الديوان ص ٢٤٥ .

أنشده يوماً قصيدة يقول فيها :

يا بشرُ يا ابنَ الجَعفَريَّةِ مـــا خَلَقَ الإلهُ يديك للبخلِ

فقال له بشر : احتكمْ ، قال : أعطنى عشرين ألف درهم ، فقال بشر : قبحك الله ، لك عشرون وعشرون وعشرون وعشرون وعشرون ، فأعطاه مائة ألف درهم(١). ونحن نعرف أن بشراً وافته المنية سريعاً فسرعان ما توفِّى وخلفه الحجاج سنة ٧٥ للهجرة . وليس فى ديوان ابن قيس ولا فى أخباره ما يدل على أنه وفد على العراق بعد وفاة بشر ، ولعله لم يذهب مخافة الحجاج على نفسه ، أو لعله لم يذهب لأنه اتصل بعبد العزيز بن مروان والى مصر . ومر بنا ما يقال من أنه كان أحد شفعائه عند عبد الملك ، ولا نعرف لماذا لم يذهب إليه مباشرة وذهب إلى العراق ، ولعله إنمـا ذهب إلى العراق لأنه ترك هناك بعض أهله ، وكان كثير من عشيرته فى الموصل .

ونحن نظن أن ابن قيس لم يستمر فى العراق حتى وفاة بشر وأنه عاد قبل ذلك ، فقد اتخذ على ما يظهر مكة مقاماً(٢) له ، وكان يرحل منها إلى المدينة لمديح ابن جعفر وأخْذ نواله ، كما كان يرحل منها إلى مصر لمديح عبد العزيز وحمل جوائزه وعطاياه . وفى ديوانه قصائد كثيرة فى مديح عبد العزيز وابن جعفر . ويروى أبو الفرج أن صلةً جاءت ابن جعفر من لدن عبد الملك وابن قيس غائب ، فأمر عبد الله خازنه ، فخَبأً له صلته ، فلما قدم دفعها إليه ، وأعطاه جارية حسناء ، فقال ابن قيس(٣) :

إذا زرتُ عبدَ الله ، نفسى فـداؤه رجعتُ بفضلٍ من نَداه ونائـلِ

حَبانىَ لمـــا جئته بعطيَّـــةٍ وجاريةٍ حسناءَ ذاتِ خلاخِلِ

وما زال يأخذ صلات ابن جعفر حتى توفى سنة ٨٠ للهجرة ، وقيل بل سنة أربع وثمانين أو خمس وثمانين(٤). وأكبر الظن أن صلات عبد العزيز بن مروان

---

(١) انظر أنساب الأشراف للبلاذرى ١٧٥/٥ .

(٢) انظر أغانى ٩٣/٥ .

(٣) أغانى ٨٢/٥ .

(٤) أسد الغابة ١٣٥/٣ .

لم تنقطع حتى توفى هو الآخر سنة ٨٥ للهجرة[١]، فقد لزمه وكاد أن يكون شاعره .

ولا نجد ذكراً لابن قيس الرقيات بعد هذا التاريخ إلا ما يذكره الرواة من أن أم البنين حجت فى خلافة زوجها الوليد بن عبد الملك (٨٦ – ٩٦ هـ) فنظم الشعراء فيها وفى جواريها . وروى أبو الفرج لابن قيس شعراً قاله حينئذ فى أم البنين[٢]. ومعنى ذلك أن ابن قيس عاش إلى ما بعد وفاة ابن جعفر وابنى مروان : عبد العزيز وعبد الملك ، ولكن ليس فى ديوانه ما يدل على أنه مدح الوليد . وأكبر الظن أنه لم يعش حتى آخر عهده بل لم يستمر فى خلافته طويلاً ، فإن عمر بن عبد العزيز ولى المدينة سنة ٨٧ للهجرة ، وليس فى ديوان ابن قيس مديح له ، ولو لحقه ابن قيس لمدحه كما مدح أباه ولى نعمته ، وكان يتعصب لبيته على بيت عبد الملك تعصباً شديداً . ويُروى أن ابن جعفر قال له سنة ٧٣ للهجرة حين طلب له العفو من عبد الملك : عَمِّر نفسك ، فعمَّرها ستين ، وإذن فعبد العزيز بن مروان توفى وعمره اثنتان وسبعون سنة ، ويغلب على الظن أنه لم يعش طويلاً بعد ذلك .

ونرى مما قدمنا أن ابن قيس عاش حياة طويلة ، وقد لُوِّنت فى أوائلها وفى أثناء مقامه فى مكة والمدينة بألوان من اللهو[٣] ، إذ كان يجرى فى أثر المغنين والمغنيات ، وكان يتبعهم ، ويعقد الصداقة بينه وبينهم . على أنه سرعان ما اصطدم بالحوادث بعد ذلك ، فانتقل إلى الرَّقة ، وأسره عُمَيْر بن الحباب ، ثم افتكَّ أسره ، وقد أخذ يكثر من بكاء شبابه[٤]منذ أن جاءته أخبار وقعة الحَرَّة وموت ابنى أخيه : أسامة وسعد فيها ، وتعلو شعره من حين إلى آخر مسحة من الحزن والتفكير فى الحياة والموت كقوله[٥]:

هل ترى من مُخلَّدٍ غير أن اللـــــه يبقى وتــذهب الأشيــاءُ
يأمل الناس فى غدٍ رَغَبَ الدّهـ ـرِ ألا فى غدٍ يكون القضاءُ

---

(١) طبرى ٢/١١٦٥ وابن الأثير ٤/٤٠٩ .
(٢) أغانى ٦/٢٢٠ .
(٣) أغانى طبع بولاق ١٦/٥٩ .
(٤) الديوان ص ٦٨ ، ١٣٥ ، ١٤١ ، ٢٠١ .
(٥) الديوان ص ١٧٣ .

وطبيعى أن ترتفع هذه النغمة الحزينة فى شعر ابن قيس من وقت إلى آخر ، فقد ألمت به حوادث كثيرة ، وأوشك عبد الملك أن يطير به طيرة بطيئاً سقوطها ، ومن قبله أوشك عمير بن الحباب أن يقضى عليه . ومن هنا لا يكون غريباً أن تَغْمُر شعرَه ظلالٌ حزينة أحياناً .

وقد يكون لهذه النزعة فى طوايا نفسه أثر فى إقباله على الشراب ، ومرت بنا قطعة قالها فى أيامه الأولى بالمدينة حين وليها مروان بن الحكم وضبطها مصعب بن عبد الرحمن بن عوف برجال من أَيْلَةَ تتحرك السياط فى أيديهم ويخاف الناس من مغنين وغير مغنين بطشهم . ونراه فى هذه القطعة يدعو إلى الشراب . ويظهر أنه عُنِىَ بعد مفارقته المدينة به ، فعن يونس أنه شغل نفسه بالشراب بتكريت[١]، وربما كان يونس مبالغاً . وفى ديوانه[٢]:

وسُلافٍ مما يعتَّقُ حِلٍّ زاد فى طِيبها ابنُ عبدِ كُلالِ

وأكبر الظن أنه يقصد نبيذ التمر الذى كانوا يحلونه فى المدينة[٣]، ولذلك نعته بأنه حِلّ . ولكن على كل حال هذا بيت عابر فى الديوان ، ومثله بيت القطعة التى أشرنا إليها :

علِّلِ القــوم يشربوا كى يلذُّوا ويَطْــربوا

أما بعد ذلك ، فليس هناك ما يدل على ما زعمه يونس من أنه شغل نفسه بالشراب ، فأكبر الظن أنه إنما صنع ذلك فى فترات متقطعة ، وقد تكون حياة اللهو والبهجة فى المدينة هى التى دفعته أولا إلى شراب الخمر ، ثم أخذ يشربها بعد وقعة الحرَّة فى تكريت وغيرها لينفّس عن نفسه وما أصابها من حزن وحسرة ، غير أن ذلك كان عارضاً فى حياته كما عرض البيتان السابقان فى ديوانه .

وأهم صفة تميز ابن قيس هى صفة الوفاء ، فقد كان وفيًّا لآله وأصدقائه . أما وفاؤه لآله فيتضح فى تأثره الشديد بقتلاهم فى موقعة الحَرَّة ، وما صاغه من شعر عقب

---

(١) أغانى ٥/٨٨ .

(٢) الديوان ص ٢٠٦ .

(٣) أغانى ١٥/١٥ وانظر أغانى طبع دار الكتب ٢/٣٥١ وما بعدها .

ذلك . وأما وفاؤه لأصدقائه فيتضح فى رثائه لمصعب وقد بكاه طويلاً فى ديوانه . وفى الأغانى أنه « كان عند عبد الملك ، فأقبل غلمان له معهم عِساس[١] خَلَنْجٍ ، فيها لبن البُخْتِ[٢] ، فقال عبد الملك يا بن قيس أين هذا من عساس مصعب التى تقول فيها :

ملكٌ يُطعم الطعــامَ ويَسْقى   لَبَنَ البُخْتِ فى عِساسِ الخَلَنْجِ

فقال : لا أين يا أمير المؤمنين لو طرحت عِساسك هذه فى عُسٍّ من عساس مصعب لوسعها وتغلغلت فى جوفه . فضحك عبد الملك ثم قال قاتلك الله يا ابن قيس ! فإنك تأبى إلا كرماً ووفاء » . وهذه شهادة عظيمة ، من خصم مصعب ، بوفائه وحرصه البالغ على الوفاء .[٣]

٣

غزل ابن قيس وشعره

احتفظ لنا كتاب الأغانى بطائفة من أغانى ابن قيس ، وأكثرها يدور حول الحب الذى شغلت أقاصيصُه الناس فى هذا العصر ، فقد كان العصر عصر فراغ وتعطل . لم تعد هناك هذه الحروب المدوية فى أطراف العالم الإسلامى ، وعاد الناس أو عاد كثير منهم إلى مسقط رأسه فى مكة والمدينة ، وامتلأت حجورهم بالمال الذى جلبوه من الخارج ، وأخذوا يعيشون على نمط جديد ، فيه فراغ من جهة ، وفيه ترف ودعة من جهة أخرى ، فظهر الغناء ، ولم يلبث أن ارتفع به المغنون إلى الأوج أو إلى القمة ، وكاد أن يكون فى كل بيت من بيوت أشراف قريش مغن أو مغنية أو مغنون ومغنيات ، كبيتِ الثريا فى مكة ، وقد تحدثنا عنه مراراً ، وكبيت عبد الله بن جعفر فى المدينة ، وكان فيه سائب خاثر وبُدَيْح ونشيط ، وعلى أيديهم تخرّج أكثر المغنين والمغنيات فى المدينة .

(١) العساس : جمع عس وهو القدح . والخلنج نوع من الخشب .
(٢) البخت : جمع بختية وهى الناقة الخراسانية .
(٣) أغانى ١٦٧/١٧ .

وكانت الحياة فى مكة والمدينة هذا العصر تدفع كل شاعر هناك للاتصال بالمغنين حتى يروج اسمه ، وتشيع شهرته بين النبلاء والأشراف ، الذين لم يكن لهم عمل سوى الاستماع إلى الغناء وآخِر ما أحدثه أصحابه من أغنيات .

ولم تقف المسألة عند الرجال فإن المرأة القرشية الشريفة أخذت تُعْنَى بهذا الجانب وما يتصل به من الشعر على نحو ما كانت السيدة ثُريًّا تصنع فى مكة ، وفيها يقول ابن قيس الرقيات[١] :

يا سليمانُ إن تُلاق الثُّرَيَّا ... تلقَ عيشَ الخلود قبل الهلالِ
حَبَّذا الحَجُّ والثُّرَيَّا ومَنْ بالْـ ... ـخَيْفِ من أجْلها ومُلْقَى الرِّحالِ
دُرَّةٌ من عقائل البحر بِكْرٌ ... لم تنلها مثاقب اللآَّلِ

وهل هناك من شاعر يعيش فى مكة ، ويستمر له العيش فيها أو يفارقها ، إلا وهو يذكر الثريا صاحبة الغريض ويحيى قَيْل وُسمية ، وكانت تستقبل فى منزلها الشعراء وعلى رأسهم عمر بن أبى ربيعة . إنها سيدة مكة ، سيدة شريفاتها اللائى أظهرن ذوقاً بديعاً فى العناية بفن الغناء الجديد وأصحابه من المغنين ومن يصنع لهم الأغانى من الشعراء . لهذا كله يكون من الطبيعى أن يذكرها ابن قيس ، فهى الزهرة الغضة الناضرة بمكة ، وهى صاحبة الذوق الفنى السليم فى تقدير الشعر والشعراء والغناء والمغنين .

ونحن لا بد أن نلاحظ الأيام التى مرت على الناس وعلى المرأة خاصة فى مكة فى عصر الفتوح وبعده . فقد هاجر كثير من الشباب إلى الفتوح والبلاد المفتوحة وكثير منهم عاد ومعه غنائم الفتوح من أموال ورقيق وجوارٍ وسرعان ما رأت المرأة القرشية نفسها تخرج من حياتها القديمة الخشنة إلى حياة جديدة مترفة زاخرة بألوان من الحضارات الأجنبية وبصنوف من الجوارى الأجنبيات ، فكان من الطبيعى أن تندفع فى هذه الحياة وأن تأخذ منها بحظ بل بحظوظ ، فتساهم فى المتاع بفن الغناء الجديد ، وتهئ بمالها من مكانة رفيعة فى مجتمعها لهذا الفن جوًّا من استحسانه والعناية البالغة به .

---

(١) الديوان ص ٢٠٦ وانظر أغانى ١/٢١٣ .

وأعدَّ ذلك لنهضة حقيقية فى الغناء وفى الشعر الذى يتخذه هذا الغناء ، وكان ابن قيس ثانى اثنين ينهضان بهذا الشعر : هو من طرف ، وابن أبى ربيعة من طرف آخر ، غير أن ابن قيس لم تهدأ له الحياة هدوءها لعمر . ومعنى ذلك أن الأسباب لم تُكفَل له ، حتى يخصص نفسه لهذا الشعر الذى كانت تطلبه مجالس الأشراف والشريفات فى مكة والمدينة ونوادى الغناء فيهما ، ونقصد شعر الحب أو كما يسمى شعر التشبيب والغزل ، فقد ألهته أحداث الدنيا عن هذا التخصص ، ولم يكن ثَرِيًّا ثراء عمر ، فانقسمت نفسه بين المديح والغزل .

ومع ذلك فشعر ابن قيس فى الغزل والتشبيب يحلِّق فى أجـواء الفن العليا من حيث الصفاء وشفافية التعبير ، ومن حيث القيم الغنائية الخالصة ، فقد توفرت له المعيشة فى مكة ، هذه البيئة المترفة حيث الثريا ومغنوها ومغنياتها ، وحيث ابن سُرَيْج وابن مِسْجح وابن محرز . ثم انتقل ابن قيس إلى المدينة ، وانعقدت فى أثناء مقامه بها الصداقة بينه وبين فِنْد ثم بينه وبين سائب خاثر وبُدَيْح على ما مرَّ فى غير هذا الموضع . وكما صحب هناك المغنين صحب المغنيات وعلى رأسهن سلاَّمة القس التى فتنت قَسَّ مكة المشهور عبدَ الرحمن بن أبى عمار الجُشَمِىَّ وفيها وفى أختها رَيّا يقول بيتيه اللذين أنشدناهما فى ترجمة سلامة بكتاب المدينة :

لقد فتنتْ رَيّا وسَلاَّمةُ القَسَّا ... فلم تتركا للقَسِّ عَقْلاً ولا نَفْسَا
فتاتان أما منهما فشبيهةُ الـ ... هلالِ وأخرى منهما تشبه الشمسا

وفى الأغانى أنه كان يجلس إليهما يستمع إلى غنائهما فى شعره وشعر غيره[1]. وحياة ابن قيس من هذه الناحية حياة شاعر أغان بالمعنى الكامل ، فهو يلزم المغنين والمغنيات ويستمع إلى ألحانهم وأنغامهم ، ويقف على ما يريدون من تجديد فى الشعر تحت تأثير هذه الأنغام والألحان . وفى أثناء ذلك كان يقدم لهم ما يُحْدث من طرائف الأغانى ، فيذيعونها على قيثاراتهم .

وكل من يطّلع على الأغانى التى كان يلحِّنها المغنون والمغنيات فى شعره يُعْجَبُ

---

(١) أغانى ٣٣٧/٨ .

بمقدرته على النظم فى هذا الشعر الذى يقطِّر فيه ابن قيس عواطف الناس من حوله ، وهى عواطف كان يَعْبَقُ بها جو مكة والمدينة ، وكان ابن قيس يجمع لنفسه منها كل ما يستطيع من قطرات نفسية وحبّات وجدانية ، ويرسلها فى الناس عن طريق المغنين والمغنيات ، فيضجون بالإعجاب والاستحسان الشديد(١) .

وتنوعت الأسماء التى احتواها شعر ابن قيس ، والتى تغنَّى بها فى ديوانه ، فنحن نجد هذه الأسماء عنده : أمَة الغفار وتُكتَمَ وأم مساحق وأُثْلَة وقسيمة وليلى وأسماء (أم بشر) ورَيَّا وسلاَّمة وسَعْدَة وسُعْدَى وسَلْمَى وسُلَيْمَى ومريم بنت الحوارىّ وعاتكة وسلمَة ورقية (نعما ، أم عمرو) وأم الوليد وأم البنين وكثيرة والثريا وعائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين .

وأكثر هذه الأسماء جاء فى شعره عابراً ولم يُعنَ به الرواة ، وهى كما نرى أسماء تختلط فيها الجوارى من مثل ريا وسلامة بالشريفات من مثل الثريا وأم الوليد بن عبد الملك وأم البنين زوجته وعاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجة عبد الملك وبنت الحوارى ولعلها أخت مصعب بن الزبير فهو يسميه كثيراً ابن الحوارى(٢) ، كما تختلط فيها أسماء قريباته من مثل ليلى وأسماء(٣) (أم بشر) وأثلة(٤) بغيرهن من غير قريباته .

والنساء اللائى تعلق بهن واللائى قال فيهن ما يمكن أن نسميه غزلاً هن رُقَيَّة بنت عبد الواحد ابن عمه وأختها سعدة ، وكَثِيرة ، ثم نساء بنى أمية وعائشة وسكينة زوجتا مصعب بن الزبير .

ولا بد أن نميز بين غزل ابن قيس فى رقية وأختها وغزله فى نساء مصعب وبنى أمية ، فهو فى غزله الأول يحكى عاطفة حقيقية ، أما فى غزله الثانى فيحاول أن يرضى السياسة أحياناً وأن يرضى عواطف الناس وعواطف هؤلاء اللائى تغزل بهن أحياناً أخرى .

وتتقدم النساء اللائى تغزل بهن جميعاً رقيةُ ابنة عمه عبد الواحد ، وكان لتسمية

---

(١) أغانى ٥/٩٩ . وانظر ص ٢١٣ .

(٢) الديوان ص ٢٨٧ وأغانى طبع بولاق ١٧/١٦٥ .

(٣) الديوان ص ١٨٨ وانظر ص ٢٣٧ وص ٢٥٣ .

(٤) الديوان ص ٢٦٣ وانظر ص ١٩٢ .

معاصريه له بابن قيس الرقيات أثر بعيد فى اختلاط الأمر على الرواة كما تقدم فى حديثنا عن تلقيبه ، فقالوا إنهن ثلاث : رقية ابنة عمه ، ورقية ابنة عم لها ، ورقية ثالثة اختلفوا فيها ، فقال قوم : هى أموية ، وقال آخرون : هى ابنة عبد الله ابن جعفر ، ورأى أبو عبيدة أنهن اثنتان لا ثلاث .

وكل هذا يدل على اضطراب الرواة ، وفى رأينا أنها لم تكن إلا رقية واحدة هى ابنة عمه عبد الواحد . ويقول السكرى جامع ديوانه – كما مرَّ بنا – إن عبد الله أقبل على الرَّقَّة فأقام فى جماعة من قومه فيهم عبد الواحد بن أبى سعد ابن عمه وإنما لجّ عليه « الرقيات » لأنه كان يشبب برقية وسلمة ابنتى عبد الواحد[١] ، ومعنى ذلك أن معرفته برقية جاءت بعد نزوله فى أهلها بالرقة . وفى الأغانى أنه رآها فى أثناء حجها مع أهلها كما قدمنا . وربما كان هذا الرأى أوجه من الرأى الأول ، فإننا نجد لابن قيس قطعة فى رقية تجرى على الألسنة فى المدينة ، ويرويها مروان ابن الحكم فى أثناء عَزْله عن المدينة زمن معاوية[٢] . فمعرفة ابن قيس برقية قديمة .

ومن يطلع على ديوان ابن قيس يجده يكثر من حادث رؤيته لصاحبته فى الحج ، ولذلك كنا نظن بل نقطع بأنها صحبت أباها فى أثناء حجّ له . وهناك رآها ابن عمها فشغفت قلبه حبًّا ، وحاول أن يسلو عنها بانتقاله إلى المدينة ، ولكن مرضه بها كان يعاوده ، وكان أقوى فى نفسه من أن ينصرف عنه ، فذهب يتغنى بها منذ فارق رَكْبُها مكة[٣] إلى أن لقيها فى الرَّقَّة .

رقية إذن هى المرأة الأولى فى حياة ابن قيس ، وقد ذهب يملأ باسمها جميع أركان مكة والمدينة ونواديهما ، يحاول أن يجد فى ذلك ما يخفف من لواعج الحب فى نفسه ، بل لعله كان يريد أن يذكيها ، وأن يشعل بها جنبات نفسه وجنبات المدينتين الكبيرتين من حوله . إنها ابنة عمه ، وهى أولى من غيرها بشعره ، إنها لا تقصر عن هؤلاء النبيلات اللائى يتغنى بهن ابن أبى ربيعة . ويظهر أن ابن عمه عبد الواحد كان يعجب بذلك منه وكان يرضى عنه ، ففتيات بنى معيص بن عامر ابن لؤى لسن أقل جمالاً ولا تأثيراً فى نفوس الشعراء من فتيات الأمويين وغيرهم من

---

(١) الديوان ص ١٨٥ .

(٢) ابن عبد ربه ٣/٢٤٥ .

(٣) الديوان ص ٢٦١ وص ٢٨٩ وهنا يذكر سلمة أخت رقية .

نبلاء قريش ، فلما تبع ابن قيس هواه فى الرقة وجد هناك قلوباً تنتظره وأفئدة تصبو إليه ، فطاب له المقام هناك ترعاه عين رقية من بعيد وعين أختها سلمة وعيون قومه وعشيرته .

وتمتاز مقطوعات ابن قيس فى رقية بصدق العاطفة وحرارة الوجدان ودقة المشاعر والإحساسات ورهافتها رهافة بالغة ، هى رهافة المحب الذى يترجم عما فى قلبه ويعبر عما فى جوانحه على نحو ما نرى فى مثل قوله(١) :

رُقَىُّ بعيشكم لا تهجُرينا ... وَمنِّينا المُنَى ثم امطُلينا
عِدينا فى غدٍ ما شئتِ إنا ... نحبُّ وإن مطلتِ الواعدينا
فإمَّا تُنجزى عِدَتى وإما ... نعيش بما نؤمِّل منك حينا
أغرَّكِ أننى لا صبرَ عندى ... على هجرٍ وأنكِ تَصْبرينا

وهو هنا يعلن أنه تبعها إلى الرقة وترك أهله فى المدينة أو فى مكة ، وأظننا الآن أدركنا حلاوة صوت ابن قيس فى أغانيه التى ينظمها فى رقية ، ونراه يعبر عن ذوق حضرى فى تدليل محبوبته والتذلل لها والضراعة والتوسل ، فهو يطلب منها نائلاً قليلاً أن تعده فهذا حسبه ، وسواء بعد ذلك أوفت بوعدها أو لم توف ، فإن ذلك يكفيه منها هناءة ومسرة ، واستمع إليه يقول فيها(٢) .

حَبَّ ذاك الدَّلُّ(٣) والغُنُجُ ... والتى فى عينها دَعَجُ
والتى إن حدّثتْ كذبتْ ... والتى فى وعدها خَلَجُ(٤)
وترى فى البيت صورتَها ... مثلما فى البِيعَة(٥) السُّرُجُ
خبرِّونى هل على رجلٍ ... عاشقٍ فى قُبلةٍ حَرَجُ

فإنك تحس فى هذا الشعر أن قلب صاحبه يختلج بالفرح ، فهو يعبر فى سرور وخفة روح عن حبه ، وليس من ريب فى أن هذه الأبيات تمثل ذوقاً جديداً هو ذوق الشباب الحجازى فى عصر ابن قيس الذين رَقَّ شعورهم ، وصفا إحساسهم ،

(١) أغانى ٩٤/٥ - ٩٦ .
(٢) أغانى ٩٧/٥ .
(٣) الدل : التدليل . الغنج : حسن الدل .
(٤) الخلج : الاضطراب وعدم الثبات
(٥) البيعة : متعبد النصارى .

وأصبحوا أرواحاً خالصة . وما أظننا نبعد إذا قلنا إننا هنا أمام ذوق جديد وشعور جديد بالمرأة ، فرجل البادية لم يكن يدقّ شعوره كل هذه الدقة ، ولم يكن له هذه الخفة فى غزله ، ولم يكن ينفذ به إلى قلوبنا كل هذا النفوذ الذى نجده عند ابن قيس ، واستمع إليه يقول(١) :

رُقَيَّةُ تَيَّمَتْ قلبي فواكبدِي من الحبِّ
وقالوا داؤه طِبٌّ ألا بل حبُّها طِبِّي
نهانى إخوتى عنها وما للقلب من ذَنْب
وما أقبل نُصحَ النّا صِحى من شدَّة الكرْبِ

فإنك تجد فى هذه الأبيات شَفافية عن القلب والفؤاد ، فليس هناك شيء يحجب بيننا وبين الشاعر فقد صهره الحب ، وأشعل قلبه ، فعبَّر عنه هذه التعبيرات الرقيقة .

واستمر ابن قيس متعلقاً برقية يقول الشعر فيها ينفث فيه ما يختلج فى قلبه من عواطف وإحساسات حتى اضطرته الحوادث إلى مفارقة الرَّقَّة على نحو ما قدمنا . وفى ديوانه قطعة فى رثاء عبد الواحد(٢) ، ولسنا ندرى أتوفى قبل مفارقته الرقة أو بعد ذلك ، إلا إننا نلاحظ أنه انقطع عن ذكر رقية بعد هجرته من ديارها هناك ، أما القطعة التى جاء اسمها فيها وظن السكرى أنه وجهها فى مديح عبد الله بن الزبير لقوله أثنائها (٣) :

وابنُ أسماءَ خيرُ من مَسَحَ الرُّكْ نَ فَعالاً وخَيرُهم بُنْيانا

فأظنه وهماً منه ، إذ ابن جعفر ممدوحه ابن أسماء أيضاً ، وقد دعاه بأمه فى قطعة أخرى بالديوان(٤) . وليس من شك فى أن صلته بابن جعفر كانت أقدم من صلته بعبد الله بن الزبير وأخيه مصعب ، وشعره فى رقية إنما كان قبل اتصاله بهما ، وقد فارقها وهو يردد فى نفسه(٥) :

---

(١) أغانى ٥/٩٥ والديوان ص ١٤٠ – ١٤١ .
(٢) الديوان ص ١٥٩ .
(٣) الديوان ص ٢٦٣ .
(٤) الديوان ص ٢٤٩ .
(٥) أغانى ٥/٩٤ والديوان ص ٢٨٥ .

أَمستْ رُقيَّة دونَها البِشْرُ فالرَّقَّةُ السوداءُ فالغَمْرُ[١]

وانطلق ابن قيس كما قدمنا إلى فلسطين فالحجاز فالعراق حيث مصعب ، وهناك رأيناه يتغزل أو يشبب بزوجتى مصعب : عائشة وسكينة غزلاً أو تشبيباً لا يراد به إلى إعلان حبه لهما ، وإنما يراد به إلى إعلان جمالهما ، وما يمتلك مصعب من دنيا المرأة ، وإنه لأولى بدنيا الرجال أن تزحف وراءه زحفاً ، ومن قوله فى عائشة[٢]:

جنيَّةٌ برزتْ لتقتلنى مطليَّةُ الأصْداغ بالمسْكِ
عجباً لمثلكِ لا يكون له خَرْجُ العراق ومِنْبُرُ الملك

فهو يخلط غزلها بالسياسة ، أو هو غزل أريد به إلى السياسة وبيان حق عائشة وزوجها مصعب فى الملك والحكومة .

وعلى هذا النحو كان ابن قيس الرقيات يشبِّب بعائشة أو بسكينة ، ليشهرهما من جهة ، وليثبت حقهما فى الملك والحكومة ، وإن لم يصرح بذلك كما صرح فى البيتين السابقين[٣]، فغرضه على كل حال الدعاية لمصعب ولأهل بيته ، عن طريق الغزل . ولا نسميه غزلاً بل نسميه مديحاً لزوجتيه : عائشة وسكينة ، فالغزل حينما يصبح الغرض منه التعبير عن جمال المرأة والدعاية لها دعاية سياسية أو غير سياسية يخرج من بابه إلى باب المديح ، وفطن القدماء لذلك ، فعبروا كثيراً بقولهم : قال يمدح فلانة ، وهو إنما يشبِّب بها ، وماذا نريد فى مديح المرأة ؟ أنريد وصفها بالفروسية والشجاعة ؟ إن هذا إن حدث يعتبر هجاء ، فالمرأة فى كل عصر هى نفسها ، ثروتها كلها جمالها ، ولذلك كانت تعجب دائماً بمن يصور هذا الجمال للناس من الشعراء ، ويريهم أو يسمعهم ما امتازت به من حسن وفتنة .

وهذا الغزل الذى يمكن أن نسميه مديحاً فى عهده الجديد ، عهد ملازمته لمصعب ، اقترن به غزل آخر يمكن أن نسميه هجاء ، واختص به ابن قيس عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجة عبد الملك وأم البنين بنت عبد العزيز بن مروان زوجة

---

(١) البشر : جبل يمتد من الشام إلى الفرات .
(٢) أغانى (طبع بولاق) ١٠/٥٤ .
(٣) الديوان ص ١٣٠ .

الوليد بن عبد الملك ، فنراه يتغزل بالأولى فى إحدى قصائده لمصعب غزلاً فيه حرية ، فهو يخاطبها ، وهى تخاطبه ، وإنها لتأسى على ما صارت إليه قريش من أضغان ، تجعلها لا تستطيع لقاءه ، يقول على لسانها(١) :

وقالتْ لو انـّـا نستطيع لزاركم طبيبان منـا عالمان بدائكا
ولكنّ قومى أحدثوا بعـد عهدنا وعهدك أَضْغانا كَلفْنَ بشانكا

فابن قيس يشبب بعاتكة هنا كما نرى ليؤذيها ، ويؤذى وقارها ووقار زوجها ، فهو غزل لا يراد به إلى مديح المرأة ، وإنما يراد به إلى هجائها إن صَحَّ هذا التعبير . فهو غزل لا تجد فيه المرأة ما يرضيها ، وإنما تجد ما يؤلمها ، فهو إلى الهجاء أقرب منه إلى أى شىء آخر ، وحاول أن يبلغ من هذا الهجاء كل ما يريد من إقذاع ولكن لا مع عاتكة ، وإنما مع أم البنين إذ يتغزل بها فى إحدى قصائدة لمصعب على هذه الشاكلة(٢) :

ألا هزئتْ بنـا قُرشيّـ ـةٌ يهتزُّ موكبُهـا
رأتْ بى شيبةً فى الرأ س منى ما أُغيّبُها
فقالتْ أَبنُ قيسٍ ذا وغيرُ الشيبِ يعجبها
رأتْنى قد مضى منى وغَضّاتٌ صواحبهـا
ومثلِك قد لهوتُ بها تمامُ الحسن أعيبُها
لها بَعْلٌ غيورٌ قـا عدٌ بالبـاب يَحْجُبها
يرانى هكذا أمشى فيوعـدُها ويضربها
ظللتُ على نَمارقها أفدّيهـا وأخْلُبُهـا
أَحدّثُهـا فتؤمنُ لى فأَصْدُقهـا وأكْذبها
فدَعْ هـذا ولكن حا جةٌ قـد كنتُ أطلبها
إلى أمّ البنينَ متى يقرّ بهـا مقرّبهـا
أتتنى فى المنام فقلتُ هـذا حين أُعْقَبُها
فلما أن فرحتُ بها ومـال علىّ أعْذَبُها

(١) الديوان ص ٢١٨ .
(٢) الديوان ص ٢٢٦ .

شربتُ بريقهـا حتى نَهِلْتُ وبتُّ أُشْرِبُها
وبتُّ ضجيعها جَذْلا ن تُعْجبنى وأعْجِبُهـا
وأُضْحِكُهـا وأبكيها وأَلْبِسُهـا وأسْلُبُهـا
أعالجهـا فتصرعني فأُرْضيهـا وأُغْضِبهـا
فكانتْ ليلةً فى النَّوْ مِ نَسْمُرها ونلعبهـا
فأيقظنـا منادٍ فى صلاة الصُّبْح يَرْقُبُهـا

وواضح فى هذه المقدمة الغزلية أن ابن قيس أراد السخرية من أم البنين ، حتى يخفض من تيهها ويطأطئ من كبريائها ، وإنه ليبتذلها فى غزله ، ويجعلها وكأنها مثل هؤلاء الجوارى اللائى يُبَعْنَ ، واللائى تَقَرَّبُ منهن كل الأيدى وإنه ليبتذل معها زوجها فيرميه بالغيرة والغفلة . ثم ما يلبث أن يرسم هذه الصورة المفرطة فى الابتذال ، فيتصور أنها جاءته فى الحلم ، وأنها لم تمنع منه شيئاً . كل ذلك يريد به ابن قيس إلى الامتهان وإيـذاء نفس أم البنين وزوجها الوليـد وعمها عبد الملك ، وما نظن إلا أن عبد الملك كان يضطغن على ابن قيس هذه المقدمة الغزلية بأكثر مما كان يضطغن عليه هجاءه له مباشرة ، فتلك صورة ليس فيها هتك للحرمات ، أما صورة أم البنين فصورة بشعة تؤذى النفس العربية الحرة . وهذا ما كان يريده ابن قيس بغزله فى الأمويات حين كان يعيش فى ظل مصعب ، وحين كانت تزين له نفسه أن مصعباً سينتصر وسيتحول الأمر إليه وإلى أخيه عبد الله لا فى الحجاز والعراق فحسب ، بل أيضاً فى الشام ومصر .

ولم تلبث آمال ابن قيس أن تحطمت فقُتل مصعب وعبد الله وأصبح الأمر كله لعبد الملك ، ولجأ صاحبنا إلى ابن جعفر يشفع له ، فقد كان ذنبه عظيماً ، وقيل إن عبد العزيز بن مروان وابنته أم البنين شفعا له مع ابن جعفر ، فتحول ابن قيس إلى مديح الرجلين وأراد أن يمدح أم البنين فلجأ إلى الغزل والتشبيب بها ، ولكن فى صورة جديدة تقف عند تصوير حسنها وما يميزها من فتنة وإغراء ، ويظهر أنها أوتيت من الجمال حظًّا بعيداً ، وقد ذهب يغنِّيها ويملأ باسمها جميع الأرجاء من الحجاز والشام إلى العراق ومصر ، ومن قوله فيها(١):

(١) الديوان ص ٢٥١ .

أمَّ البنين سَلَبْتِنِي حِلْمى وَقَتَلْتِنى فتحمَّلى إثمى
وتَرَكْتِنى أدعو الطبيبَ وما لطبيبكم بالداء من عِلْمِ
بالله يا أمَّ البنين ألم تَخْشَىْ عليكِ عواقبَ الظلمِ
خافى إلهَكِ فى ابن عَمِّك قد زوَّدْتِهِ سُقْماً على سُقْمِ
وتَرَكْته يمشى وليس له عَقْلٌ يعيش به مع الحَزْمْ

وابنُ قيس لا يريد حقاً أن يُعْلن عن توهه بأم البنين ، أو أم الوليد زوج عبد الملك كما جاء فى بعض الروايات[١] ؛ وإنما يريد أن يعلن عن جمال المرأة ، أوقل بعبارة أدق إنه يريد أن يمدحها ، والمرأة إنما تمدح بجمالها وبفتنة الناس بها ، وكأن ابن قيس يريد أن يبلغ من ذلك كل ما تريده أم البنين . ولعل من الطريف أن نجده يقدم إحدى قصائده لعبد الملك بتشبيبه فيها ، فيقول[٢] :

أصحوتَ عن أمّ البنـــ ينَ وذكـرِهـا وعَنائهـا
وهجرْتَهـا هـجرَ امرىءٍ لم يَقْلِ صَفْـوَ صفـائهـا
قـرشيـةٌ كالشمس أشْ رقَ نـورُهـا ببهـائهـا
زادتْ على البيض الحسا ن بحسنهـا ونقـائهـا
لمـا اسبكـرّتْ للشبـا بِ وقُنّعتْ بـردائـهـا[٣]
لـم تلتفـتْ لِلِـداتهـا ومضتْ عـلى غُلَوائهـا
اسمَـعْ أمـير المـؤمنـ ين لمـدحتى وثنـائهـا
أنت ابنُ عائشـة التى فضلتْ أُرومَ نسـائهـا
ولـدتْ أغـرَّ مبـاركـاً كـالبـدر وسْـطَ سمائهـا

وعائشة : أم عبد الملك وهى بنت معاوية بن المغيرة بن أبى العاص بن أمية[٤] فهو يجمع فى القصيدة بين مديح أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك وعائشة أم عبد الملك . ولعل فى هذا ما يرينا كيف أن الخلفاء فى هذا العصر لم يكونوا يكرهون أن يشبِّب الشعراء بنسائهم ، لأن الشعراء لم يكونوا يشبِّبون فى الواقع ، وإنما كانوا

---

(١) انظر الأغانى ٦/٢٦٠ .
(٢) أغانى طبع بولاق ١١/٤٩ .
(٣) اسبكرت : اعتدلت واستوت .
(٤) انظر الطبرى ٢/١١٧٣

يمدحون ، وهل يمكن أن يقبل عبد الملك غزلاً أو تشبيباً خالصاً من ابن قيس فى زوج ابنه إلا أن يفهمه على أنه مديح ، وأن الشاعر قسم القصيدة بين زوج ابنه وأمه . وكان ابن قيس متصلاً أيضاً بعبد العزيز بن مروان بل كان شاعره إن أمكن أن نجعل له شاعراً ، فلا يعقل أن يشبب بابنته وهو يريد التشبيب من حيث هو ، وإنما كان يريد أن يمدحها ، وقد عُرف عبد العزيز بأنه كان يطلب من الشعراء أن يشيدوا باسم أمه ليلى فى مدائحهم له ، وذكرها ابن قيس فى قصائده التى قدَّمها إليه مراراً (١) .

ولعله شبَّب بكثيرة اعترافاً منه بفضلها وفضل زوجها ، وقد أسلفنا أنها تزوجت على بن عبد الله بن العباس وأنه أجار على عبد الملك بعض الخارجين عليه مع مصعب . فإذا كان ابن قيس قد عاذ بكثيرة فلعله عاذ فى الواقع بزوجها ، فاختفى عنده ولم يستطع أن يستصدر له عفواً من لدن عبد الملك ، وأكرمته كثيرة فى أثناء ذلك ، فذهب يتغزل بها ، وإن كنا نلاحظ أنه ليس فى شعره ما يشير إلى أنه اختفى عندها أو لجأ إليها ، بل كل ما فيه أنها مترفة ونراه يلقِّبها بالأميرة(٢) ويُطْنب فى وصف عطرها وملابسها(٣) ، ويقول إنها خزرجية(٤) ، وقد شبَّب بها فى القصيدة الأولى التى لقى بها عبد الملك سنة ٧٣ للهجرة إذ يقول(٥) :

عادَ له من كثيرةَ الطَّرَبُ ... فَعَيْنُــه بالدمــوع تَنْسَكبُ
كوفيّةٌ نازحٌ مَحلّتُهـا ... لا أَمَمٌ دارُها ولا صقَب(٦)
والله ما إن صَبَت إلىَّ ولا ... إنْ كان بينى وبينها سَبَبُ
إلا الذى أورثتْ كثيرةُ فى الـ ... ـقلب وللحبِّ سَوْرَة عَجبُ

وهو هنا يؤكد أنه ليس بينه وبينها صلة إلا الذى أورثته قلبه من هذا الحب الذى لا تخمد نيرانه ، وهو حب من طرف واحد . ويحس كل من يقرأ أغانيه فيها أنه بث فى غزله بها حنينه إلى العراق وإلى ما فاته هناك من نعيم الحياة ، وكأنه

---

(١) الديوان ص ٨٣ ، ٢٥٥ ، ٢٦٦ .
(٢) الديوان ص ١٨٩ وما بعدها .
(٣) الديوان ص ١١٥ وانظر ص ٩٤ .
(٤) أغانى ٩١/٥ .
(٥) الديوان ص ٦٧ وأغانى ٧٩/٥ .
(٦) أمم : قريب . صقب : ملاصق .

يتخذها رمز دنياه ونعيمها الذى طُرد منه ، ولذلك كان شعره فيها يُطبع بطابع من الحنين والأسف على دنيا زائلة .

وهذا الجانب فى ابن قيس يلفتنا إلى مقدرة رمزية كامنة فيه ، فهو يتخذ من كثيرة رمزاً لأيامه فى العراق ولذلك يكثر من بكائه ودموعه فى غزله بها . وفى ديوانه ما يدل على أن هذا الاتجاه انطوى فى نفسه مبكراً ، فنحن نجده يرمز لرقية باسم نُعْم [١] تارة واسم أم عمرو [٢] تارة أخرى ، وقد رُمز لأم البنين باسم سُلَيْمى [٣] . ولا ندرى لماذا رمز لها ولا لماذا رمز لرقية إلا أن يكون هذا جانباً فى نفسه ، كان كامناً ، وكان يظهر بين الحين والحين .

ولعل من الطريف فى هذا الصدد أنه حين رضى عنه عبد الملك وقابل إساءته بالصفح وولَّى وجهه نحو العراق حيث بشر بن مروان ، حين أصابته كل هذه السعادة وجدناه يمدح بشراً فيقدم لمدحه بغزل لمن تسمى سُعدى ، وهو يتخذ من اسمها رمزاً لكل ما فى نفسه ، ولكل ما أصاب من تحقيق آماله ، يقول[٤] :

قد أتانا من آل سُعْدَى رسولُ ... حَبَّذا ما يقول لى وأقولُ
من فتاةٍ كأنها قَرْنُ شمسٍ ... ضاق عنها دَمالجُ[٥] وحُجُولُ
حبذا ليلتى بِمِزَّةِ كَلْبٍ ... غال عنى بها الكَوانينَ غولُ

ومِزّة كلب : قرية كبيرة فى وسط بساتين دمشق ، وواضح أنه يعلن بذلك سروره ، فقد عفا عنه عبد الملك ، وطابت بذلك أيامه ولياليه ، فالدنيا من حوله كلها بشر وسلام ، بل فرح ومسرة ، وهو يبث كل ما فى نفسه من ذلك فى اسم سعدى صاحبته التى أرسلت إليه رسولها ، فقد دنت منه السعادة ، بل مَسَّتْ قلبه وفؤاده . وهذه هى أول قطعة غنَّى فيها باسم سعدى ، وخليق به أن يغنى بهذا الاسم وقد ابتسمت له الدنيا من حوله . وعاد إلى ذكره مرة ثانية ، ولكن بعد أن توفى بشر ولزم عبد العزيز بن مروان وأصبح شاعره الذى يتكلم باسمه . وحدث أن فكر

---

(١) الديوان ص ١٠٨ .

(٢) الديوان ص ١٠٨ ، ٢٣٦ .

(٣) الديوان ص ٢٤٥ وأغانى (طبع بولاق) ١١/ ٥٠.

(٤) الديوان ص ٢٤٥ وأغانى (طبع دار الكتب) ٥/ ٩٩ .

(٥) الدمالج : جمع دملج وهو حلية تلبس فى العضد . والحجول : جمع حجل وهو الخلخال .

عبد الملك فى تحويل عهد أبيه بالخلافة من بعده إلى أخيه عبد العزيز ، وجعلها لابنه الوليد ، فغضب عبد العزيز وغضب شاعره ابن قيس ، وقال فى ذلك شعراً أغضب عبد الملك مما جعله يتهدده . حينئذ نظم ابن قيس قصيدة رمزية يذم فيها الذين يغتابونه عند الناس ويأكلون لحمه ، وبدأها بذكر سعدى ولكنه أضاف إليها ما يعبر تعبيراً رمزياً بديعاً عن كل ما فى نفسه إذ يقول(١) :

بشَّر الظَّبْىُ والغُـرابُ بسُعْدَى ... مرحباً بالـذى يقول الغُـرَابُ
قال لى إنّ خيرَ سُعْـدَى قريبٌ ... قد أَنَى أن يكون منه اقتراب
قلتُ أَنَّى تكـون سُعدى قريباً ... وعليهـا الحصونُ والأبوابُ
حبـذا الرِّئْمُ ذو الوِشاحين والقَـ ... ـصْرُ الـذى لا ينالـه الأتراب(٢)
إنّ فى القصر لو دخلت غـزالاً ... مُوصَداً مُصْفَقاً عليـه الحِجاب
أرسلتْ أن فَدَتْكَ نفسىَ فاحـذر ... شُرْطةً ها هنا ، عليك غِضابُ
أقسموا إن رأوك لا تطعم المـا ... ء وهم حين يَقْدرون ذِئـاب
قُلت قـد يغفل الرقيب وتُغْفِى ... شُرطَةٌ أو يَحين منهـا انقلاب
أو عسى اللهُ أن يُؤَتِّىَ أمـراً ... ليس فيـه على المحبّ ارتقاب
ارجعِى فاقرَئى السلامَ عليهـا ... ثم رُدِّى جوابَنا يا رَبابُ
حدّثيهـا بمـا لقيتُ وقـولى ... حُقّ للعاشق الكريم ثـواب
رجلٌ أنتِ همُّـه حين يُمْسِى ... خامرتْـهُ من أجلك الأوْصَابُ
لا أشمّ الريحـانَ إلا بعينى ... كرماً إنمـا تَشُمّ الكلاب

ثم استطرد ابن قيس يحتقر المغتاب والمنافق ويذمهما ذماً بليغاً ، وهو فى ذلك كله يريد أن ينفس عن نفسه . وأظن أن المقدمة الغزلية اتضحت لنا الآن ، فقد حمّلها ابن قيس كل ما يريد من خوف عبد الملك على نفسه ، ومن بيان أن أبوابه أُوصدت دونه ثانية ، فقد عاد ابن قيس يرْسف فى أغلال الوجل التى خلعها من يديه ابن جعفر وأم البنين . وهو هذه المرة مضطرب اضطراباً شديداً فهو لا يدرى من ينقذه من عبد الملك ، وربما كان ابن جعفر قد مات ، وهذا عبد العزيز لا يستطيع الآن أن يدافع عنه . إن الحياة قد أظلمت فى وجهه ، وإن الفأل لَيبشر بسعدى

(١) الديوان ص ١٦٥ وأغانى طبع بولاق ١٦/٥٧ . (٢) الرئم : الظبى

وأنها سترضى عنه ، ولكن الشؤم يتبعه ويلازمه . ولا نشك فى أن ابن قيس وُفِّق فى هذه المقدمة التى تصف حركات نفسه الباطنة توفيقاً بعيداً ، وقد ذهب يرمز فى البيت الأخير إلى عفته ، وأنه مهما تغزل برقية أو كثيرة أو أم البنين إنما يعبر عما رأت عيناه ، وعما يتولاه عن طريقهما من دهشة وحيرة . أما بعد ذلك فنفسه طاهرة وروحه طاهرة وجميع أفكاره طاهرة ، وكأنه يريد أن يعبر عن طُهرٍ عام فى أخلاقه ، فهو لا تدنسه لعبد الملك ولا لغيره أمنيةٌ سيئة ولا نية شريرة .

وإن هذه المقدمة الرمزية لتدل دلالة واضحة على تقدم الحياة وتقدم الذوق الفنى عند العرب ، فقد كان الشاعر القديم لا يرمز ولا ينطوى على نفسه ، فالحياة صريحة وليس فيها تعقيد ، أما فى هذا العصر الأموى فقد تغيرت الحياة تحت تأثير الحضارات التى عرفها العرب ، وأصبحت صلة الفرد بالحاكم معقدة ، لم تعد كالصلة القديمة بين شيخ القبيلة وأفرادها ، بل أصبحت على هيئة جديدة ، هيئة معقدة ، فيها شرطة وفيها عقاب قاس حين يريد الحاكم العقاب .

والحق أن ديوان ابن قيس يعبر عن ذوق جديد لا فى هذه الناحية فحسب ، بل كما قدمنا فى ناحية التشبيب والغزل أيضاً ، فالأفكار التى يؤلف ابن قيس منها غزلياته أفكار رجل متحضر ، فيها خفة ، وفيها دقة متناهية فى الحس ، ودقة بالغة فى الشعور .

وأظن الفرق واضحاً جداً بين غزليات ابن قيس السابقة ومطالع القصائد فى الجاهلية ، تلك المطالع التى كانوا يقفون فيها عند الأطلال والديار يتحدثون عن النُّؤْيِ والأثافىّ والأوتاد والآرام والظباء وبقر الوحش وهذه الحيوانات التى تجوس خلال الديار ، حتى إذا فرغوا من ذلك انتقلوا إلى وصف إبلهم ورحلاتهم فى الصحراء ، وقلما نجد فى أثناء ذلك وصفاً معنوياً للمرأة . وقد يذكر ابن قيس الديارَ ولكن فى بيت أو بيتين أو أبيات قليلة ، ثم يتركها إلى وصف خواطره نحو المرأة والتعبير عما لحبيبته فى نفسه ، فى تذلل وتوسل وضراعة ، وهو فى أكثر حالاته يعمد إلى ذلك دون مقدمة الأطلال والديار ، فهى لا تأتى إلا قليلاً جداً ، وحينما يكون قد رحل حقاً إلى ممدوحه من الحجاز إلى مصر مثلاً ، ومع ذلك فإنه يتركها تواً ليسرد لنا أفكاره وخواطره ، ويصف لنا عشقه وحبه .

وهذا هو معنى أن الحياة تغيرت فى الحجاز ، فقد أخذ الشعراء يعمدون إلى أساليب جديدة فى تعبيرهم ولم يعودوا يتمسكون بالأساليب القديمة ، فالحياة تغيرت تحت أعينهم ، ولم تعد الأساليب القديمة تصلح لهم كل الصلاحية إلا ما يمكن الاحتفاظ به من عناصرها كفكرة رحيل الأحبة وبكاء ديارهم ومنازلهم التى نزلوها كرحيل رقية وأهلها عن مكة . فالفكرة تستمر ويستمر معها بعض الأساليب القديمة التى كانت تعبِّر عنها ، ولكن بعد أن تُعدَّل ، وبعد ألا يكون وصف الأطلال والديار غاية للشاعر ، وإنما تكون غايته التعبير عن دخائل نفسه .

وقد يكون فى هذا ضرب من شعور الفرد بنفسه أكثر مما كان الشأن فى القديم ، فقد أصبح العربى ، والعربى القرشى بصفة خاصة ، يرى نفسه يملك من بقاع الأرض ما يريد ، ويستخدم من سادة الشعوب المجاورة من يريد ، ويكتظ بيته بالرقيق وبضروب من الحضارة وحظوظٍ مختلفة من المتعة بالحياة ، فطبيعى أن يسود فى هذا العصر التعبير عن النفس وخاصة فى الحجاز وفى مكة وبين القرشيين . ولعل هذا أحد الأسباب المهمة فى شيوع شعر الحب ، فالشاعر يغنى نفسه ، ويعبر عنها ، بأسلوب فنى جديد .

وهذا التغيير الطارئ فى أساليب الفن والشعر فى الحجاز عند ابن قيس وأمثاله لا نلاحظه فقط فى هجر بعض الأساليب القديمة ، وهجر بعض المعانى التى كانت تعالجها ، وإنما نلاحظه أيضاً فى اللغة نفسها ، فلغة ابن قيس ليست هى اللغة القديمة الزاخرة بالغريب التى نعرفها عند لبيد مثلاً ، بل ليست هى اللغة التى نعرفها عند شعراء العراق المعاصرين له من أمثال جرير والفرزدق ، فإن تيار الشعر كان يستمد هناك من الصورة القديمة بشكل أعنف وأقوى مما كان عليه الشأن فى الحجاز . وفرق بعيد جداً بين ديوان الفرزدق مثلاً وديوان ابن قيس ، فعند الأول نجد الألفاظ الغريبة تنصبّ علينا انصباباً كما تنصب علينا العبارات الملتوية المعقدة ، بينما عند الثانى لا نجد نتوءاً فى التعبير ولا لفظاً مهجوراً ، فالأساليب الفنية أصبحت سهلة مستساغة تحت تأثير ما أصاب النفوس فى الحجاز من تغير أساليب الحياة وتعمق ألوان الحضارات التى غرقوا فيها إلى آذانهم .

وليس من ريب فى أن للغناء أثراً بعيداً فى هذا التطور الذى أصاب لغة الشعر

فى الحجاز ، فإن المغنين كانوا من الأجانب غالباً ، وكان ذوقهم متحضراً يأبى الأسلوب المعقد المكتظ بالغريب ، فجاراهم الشعراء فى المقطوعات التى ألفوها . ولا بد أن الشعراء أنفسهم كانوا يسعون إلى أن يكون شعرهم شعبياً يشيع فى الناس ، ويدور على ألسنتهم ، ولذلك التمسوا له الأساليب الخفيفة السهلة ، ولم يقفوا بهذه الأساليب عند الغزل بل أشاعوها فى كل ما نظموا من موضوعات . وهل من ريب فى أن مدائح ابن قيس لمصعب وعبد الملك وعبد العزيز وابن جعفر هى من ذوق جديد فى اللغة غير ذوق الفرزدق ومن لفَّ لفه ممن كانوا يأتمون قليلاً أو كثيراً بالشعراء القدماء . واستمع إلى ابن قيس يقول فى عبد الملك(١):

ما نَقموا من بنى أمية إلا أنهم يحلمونَ إن غَضِبوا
وأنهم مَعدن الملوك فلا تصلُحُ إلا عليهمُ العرَبُ
إن الأغرَّ الذى أبوه أبو الـ عاصى عليه الوقار والحجُب
خليفةُ الله فوق مِنْبره جفَّت بذاك الأقلامُ والكتبُ
يعتدل التاجُ فوق مفرِقه على جبينٍ كأنَّهُ الذهبُ

فهذا مديح بلغة سهلة خفيفة وبذوق حضرى جديد ، وليس من ريب فى أن الرواة أخطأوا حين زعموا –كما مرَّ بنا– أن عبد الملك لم يعجبه هذا الشعر وأنه قال لابن قيس : تمتدحنى بالتاج كأنى من العجم ، ونسوا أن الحياة العربية تغيرت ، وأنها استعجمت فى بعض جوانبها ، فلا بأس أن يمدح الشاعر الخليفةَ بالتاج .

وهذا التغيير الذى نلاحظه عند ابن قيس فى لغة المديح وأساليبه نلاحظه أيضاً فى رثائه ، فهو ليس رثاء ضخماً مطولاً على نحو ما نعرف فى الرثاء القديم ، وإنما هو مقطوعات قصيرة تسيل فيها النفس ويسيل فيها الحزن سيلاناً . واستمع إليه يرثى مصعباً ، فيقول(٢) :

إن الرزِّيةَ يوم مَسْ كِنَ والمصِيبة والفَجيعَهْ
بابنِ الحوارىِّ الذى لم يَعْدُه يومُ الوَقيعَه
غَدَرَتْ بهِ مُضَرُ العرا قِ وأمكنتْ منه ربيعه

(١) الديوان ص ٧٠ وأغانى ٥/٧٩ – ٨٤ . ١٧/١٦٥ .
(٢) الديوان ص ٢٨٧ وأغانى (طبع بولاق) .

فأصبتِ وِتْرَك يا ربيـ ع وكنتِ سامعةً مطيعَه
يا لهفَ لو كانت له بالدّيْرِ يوم الدّيرِ شِيعَهْ

وواضح أن هـذا الرثاء مكتوب بلغـة دانيـة قريبـة من مألـوف الناس ، وكأنـه نُظم ليغنَّى ، كشعر الحب الـذى ينظمـه ابن قيس . وغُنِّيت هـذه القطعة فعلاً فإنها أُلِّفت فى الواقع لا لتنشد وإنما ليغنى فيها المغنون ، وليصنعوا فيها الألحان والأنغام . فشعر ابن قيس كله شعر يراد به إلى الغناء لا إلى الإنشاد ، ومن هنا تأتى جملة الخلافات التى بينه وبين أصحاب الشعر التقليدى ، فهو يؤلف أغانى فى الحب وفى المديح وفى الرثاء ، واشتهرت له هذه الأغنية التى قالها فى رثاء أهله بعد موقعة الحرة وهى تجرى على هذا النمط[١] :

ذهبَ الصِّبَا وتركت غَيَّتِيَهْ ورأى الغَوانى شيبَ لِمَّتِيَهْ
وهَجَرْنَنى وهجرتهنَّ وقـد غَنِيَتْ كرائمُها يَطُفْنَ بِيَهْ
إذ لِمَّتى سوداءُ ليس بهـا وَضَحٌ ولم أُفْجَعْ بإخْوَتِيَهْ
الحـاملين لواءَ قومهمُ والذائدين وراءَ عَوْرَتِيَـهْ
إنَّ الحوادثَ بالمدينـة قد أَوْجَعْنَنى وَقَرَعْنَ مرْوَتِيَـهْ[٢]
وَجَبَبْنَنى جبّ السَّنام[٣] فلم يتركن ريشاً فى مناكبِيَهْ
وأتى كتابٌ من يزيد[٤] وقد شُدّ الحزام بسرْج بَغْلتيه
يَنْعى بـنى عبدٍ وإخوتَهم حَـلّ الهلاكُ على أقاربيه
ونَعىَ أسامةَ لى وإخـوته فظللت مُسْتَكاً مسامعيه
كيف الرقادُ وكلما هجعَتْ عينى ألَمَّ خيـالُ إخوتيـه
تبكى لهم أسمـاءُ مُعْولةً وتقـول لَيْلَى وارزِيّتيه
تاللهِ أَبْرَحُ فى مقدَّمـةٍ أُهْدى الجيوشَ علىَّ شِكّتِيهْ[٥]
حتى أفجعهم بإخوتهـم وأسوقَ نِسْوتهـم بنسوتيهْ

---

(١) الديوان ص ١٨٦ .
(٢) قرع مروته : أصابه بشر .
(٣) السنام : واحد أسنمة الأبل .
(٤) هو يزيد بن على بن عبد الله من بنى عمرو بن معيص وهو الذى نعى إلى الشاعر قتل ابنى أخيه ومن معهم من بنى عبد .
(٥) الشكة : السلاح .

وليس من ريب فى أن هذه قطعة رائعة وأنها تدل على ذوق جديد فى الرثاء ، فقد استطاع الشاعر أن يذيب نفسه وكل ما فيها من حسرة وتلهف على أقاربه فى هذه الأبيات الطريفة التى هى أقرب إلى أن تكون أنشودة حزينة أو نواحاً وندباً منها إلى أى شىء آخر ، فهى قطعة قيلت لينوح بها بنو عبد ، أو بنو معيص أو بنو عامر ابن لؤى ، قتلاهم ، وليرسلوا فيها كل ما يريدون من تنهدات وزفرات .

وموسيقى القطعة متكاملة لكى تتيح لها كل ما يمكن من نواح بها وندب ، فقد اختار ابن قيس وزن الكامل الذى تكثر حركاته لكى يبطئ النائح بالكلمات وحروفها كما يريد ، وختمها بالهاء الساكنة ليقف الصوت عندها ويأخذ النائح الفرصة لإخراج آهاته ، فيعلو بالصوت ثم ينخفض به عند القافية ، وقد انسابت حركة الياء ، وختمت بالهاء ، ليتم له كل ما يريد من انطلاق بالصوت وانخفاض به شأن النائحين النادبين . ويقول الرواة إنه أنشد هذه القطعة عبدَ الملك ، فقال له(١): « أحسنت لولا ما خنَّثت به شعرك ، أو لولا أنك خنثت فى قوافيه ، فقال ابن قيس : والله ما عدوت قول الله عز وجل : (ما أغنى عنى ماليَهْ . هلَكَ عنى سُلطانيَهْ) . ونحن نشك أن يصدر ذلك من عبد الملك ، وكان قارئاً للقرآن الكريم محدّثاً قبل اعتلائه عرش الخلافة ، وأكبر الظن أن الرواة نسبوا ذلك إليه . وعلى كل فالقطعة تُعَدُّ شذوذاً فى الرثاء على ذوق الرواة ، وقد يكون عبد الملك أحسَّ هذا الإحساس لأنه لم يتعود أن يستمع إلى هذه الموسيقى وهذه القافية فى الرثاء .

وليس فى القطعة تخنث كما زعم الرواة ، وإنما فيها هذا التكامل الموسيقى لتؤدى غرضها ، وأظنها تدل أبلغ الدلالة على هذا الذوق الجديد فى صنع الشعر ، وهل من الممكن أن يصل شاعر إلى هذا التعبير الشفاف عن حزنه دون أن يدعم ذوقه بأسباب حضارية ؟ إن الحياة المتحضرة الجديدة التى أبدلت ذوق الناس فى الحجاز ، وجعلتهم أرق شعوراً وأدق إحساساً هى التى هيأت للتبديل والتغيير فى ذوق الفنانين وبالتالى فى أساليبهم .

وكان للغناء أثر عميق فى ذلك كله ، فالشعراء أخذوا يتأثرون بألحان المغنين وأنغامهم ، وأخذوا يحاولون أن يكملوا لاشعارهم كل ما يمكن من قيم صوتية . ومن

---

(١) الشعر والشعراء ص ١١٣ .

المعروف أن المغنى يهمس أو يجهر فى بعض الحروف وبعض الحركات ، أو بعبارة أخرى يطيل أو يحذف فى بعض الحروف وبعض الحركات . وكان الشعراء يلاحظون ذلك ، ومن غير شك كان ابن قيس وأمثاله من أصحاب الأغانى يحاولون أن يقيسوا شعرهم على أسس النظرية الجديدة للغناء التى سبق أن وصفناها وألحانها من ثقيل أول أو ثان وخفيف رمل أو هزج ونحو ذلك ، وكان الشعراء على اتصال دائم بالمغنين والمغنيات . وقدمنا أن ابن قيس كان صديقاً لِفنْد وسائب خاثر وبُدَيح وسلاَّمة . ومعنى ذلك أنه كان على اتصال دائم بالمغنين والمغنيات وما يطلبونه من الشعر .

وليست المسألة مسألة إثبات نظرى ، فهذا ديوان ابن قيس أمامنا نستطيع إذا رجعنا إلى ما فيه من أوزان ثم قابلنا بين أوزانه وأوزان أصحاب الشعر التقليدى أن نلاحظ الأوزان الخفيفة فى شعره ، فهو يكثر من المديد والكامل والوافروالمتقارب والرمل والهزج ، وإن استعمل الأوزان المعقدة مثل الطويل أحسسنا كأن الوزن يتغير تحت تأثير ذوقه واختياره لألفاظه . ونراه بجانب ذلك يكثر من مجزوءات الأوزان كمجزوء الكامل ومجزوء الوافر . وكل ذلك إنما تمّ عنده وعند نظرائه من أصحاب الأغانى تحت تأثير نظرية الغناء الجديدة وما يطلبه المغنون . ويستطيع القارئ أن يرجع إلى ما أنشدناه من شعره ليرى التجزئة فى الأوزان ، بل ليرجع إلى ما لم يُجزِّئ فيه ليرى آية ما نقول من أن الشعر عند ابن قيس تأثر بالغناء الجديد ، فكثير من القطع يكاد ينحلُّ إلى أصوات خالصة .

والحق أن شعر ابن قيس قيل ليغنَّى ، ولم يُقَلْ لينشد ، ومن هنا يأتى الخلاف الشديد فى موسيقاه وموسيقى الشعر التقليدى ، فالفرزدق وجرير ونظراؤهما لم يكونوا يفكرون فى الغناء ، ولذلك كانوا يصنعون مطولات ، أما ابن قيس وأضرابه ، فكانوا يفكرون فى الغناء قبل كل شىء ، ولذلك كانوا يصنعون مقطوعات ، أو كما يسميها أبو الفرج نفسه أغانى ، فهم يصنعون قطعاً لتغنَّى ، وهم يرتبطون بحياة الغناء الجديدة وذوق المغنين وما يريدون من ألحان وأنغام . وهذا هو معنى أن شعر ابن قيس أغان بينما شعر جرير والفرزدق وأمثالهما شعر تقليدى . ولعل هذا هو السر فى أننا لا نجد عند ابن قيس ولا عند ابن أبى ربيعة عناية بالصور الشعرية ، فالأخيلة قليلة

والاحتفال لعمل الصور فى الشعر قليل ، وقد تأتى بعض الصور فى شعرهم ولكنها قليلة ونادرة ، فهم مشغولون عنها بالاهتمام بالموسيقى ، فهى كل همهم وكل شغلهم ، وكل عنايتهم مقصورة عليها قصراً .

على كل حال الصورُ نادرةٌ عند ابن قيس ، ولكن الموسيقى والقيم الصوتية متوفرة ، وهو يرتفع فى هذا الجانب ويحلق فيه إلى الغاية التى يمكن أن تنشد من مثله ، فقد تحقق للشعر عنده كل ما يمكن من صفاء فى موسيقاه ونقاء فى ألفاظه ، وكأنما وُضعت اللغة بين يديه ليختار منها ما يريد من كلمات داخلية فى الأبيات وقواف خارجية ، يختم بها هذه الكلمات ، ولعل ذلك ما جعل حماداً الراوية يقول : « إن أردت أن تقول الشعر فارْوِ شعرَ ابن قيس الرُّقَيَّات فإنه أرق الناس حواشى شعر[١] » . فهو شعر يموج بالخفة والرقة حتى فى الموضوعات الكئيبة المحزنة ، وهو شعر يكتمل له الصوت المفرح حين يكون صاحبه فرحاً مسروراً ، ويكتمل له الصوت المحزن حين يكون مكتئباً محزوناً .

٤

الديوان

تنطبق الصورة العامة التى صورنا بها أغانى ابن قيس على ديوانه انطباقاً تاماً ، فهو كله يخضع لفكرة صنع الشعر من أجل الغناء لا من أجل الإنشاد . وأول ما يلاحظ من ذلك أنه مقطوعات ، وقد توجد فيه القصيدة من أجل المديح ولكنها لا تطول ، ولا يحتفل صاحبها بمقدمات المديح الطويلة . هى فى الواقع أنشودة تكتب وأغنية تنظم .

وهذه الأغانى التى يتضمنها ديوان ابن قيس ، تطبعها كلها طوابع أسلوب واحد ، فالمرونة والقرب من لغة الناس وقلوبهم والشفافية الشديدة التى تشف عن الحركات النفسية للشاعر كل ذلك يتجلى فى صفحات الديوان ، لا فارق بين

---

(١) شرح شواهد المغنى للسيوطى طبعة الخانجى ص ٤٧ وتاريخ دمشق المجلد ٢٥ الورقة ٢٠٨ .

صفحة وصفحة ، ولا بين مقطوعة وقصيدة .

ولعل هذا أهم خلاف يفرق بين دواوين أصحاب الأغانى ودواوين أصحاب الشعر التقليدى ، فالأولون فرديون أكثر من الثانين ، يشعرون بذاتهم وشخصياتهم أكثر مما يشعر زملاؤهم ، وهذا هو الذى يجعل شعرهم قريباً من نفوسنا ، فهم يخاطبوننا مباشرة دون أساليب ملتوية تُحْشَدُ من القديم ، فهمّ الشاعر ليس حشد الأساليب القديمة ، وإنما همه حشد نفسه وحشد وقائع الحياة من حوله ، وهو لذلك لا يتخذ الأسلوب القديم ، فهو لا ينهض بما يعبر عنه ، وإنما يتخذ أسلوبه فى اللغة من الحياة اليومية ، ومن الوقائع النفسية لمعاصريه ، فهو يؤمن بنفسه وبعصره وبمجتمعه وبالحياة التى تجرى تحت عينه . ومن أجل ذلك يتصل بهذا كله ويحاول التعبير عنه ، فيضطر اضطراراً إلى استخدام أسلوب جديد ، ليس هو الأسلوب القديم . قد يستمد منه كما هو الشأن عند ابن قيس ولكنه لا يطغى عليه ، فمثلا قد يذكر الأطلال والديار ، ولكن فى بيت أو أبيات قليلة جداً . وليس هذا كل ما يدخله من تعديل فهو يضيف إليه خواطر حبه وتولهه بمحبوبته ، ثم هو لا يذهب بعيداً فى الغريب على عادة القدماء ، فالقديم قد يأتى فى شعره ، ولكن بعد أن يحوَّر ويعدَّل ويُطْبَعَ بطابع جديد .

وأكثر منظومات ابن قيس والجمهور من شعره لا يكاد يستمد من القديم . فهو مقطوعات تقال فى الحب ، تحكى عواطفه وعواطف الناس من حوله فى أبيات قليلة قلما تجاوزت عدد أصابع اليدين . وكل من يقرأ هذه الأبيات يحس الفرق الواضح جداً بين أسلوبها والأسلوب القديم . ولم لا ؟ لقد تغيرت الحياة العربية تحت تأثير حضارات جديدة جلبتها الفتوح العربية إلى الحجاز ، وأصبح من الضرورى أن يحطم الفنان الأسلوب القديم ، أو على الأقل يحطم إطاره فى بعض جوانبه ، ليعبر عن الحياة الجديدة .

ومن غير شك نهض ابن قيس نهوضاً حسناً بصنع هذا الأسلوب الذى يتراءى فى المقطوعات السابقة التى أنشدناها من شعره ، وكانت لديه مقدرة رائعة فى ذلك ، فلم يبدِّل فقط فى أسلوب الغزل والتشبيب ، بل بدَّل أيضاً فى أسلوب المديح ، وظهر التبديل أوضح فى أسلوب الرثاء ، إذ جعله على نحو ما قدمنا غناء خالصاً ،

فغنى فيه المغنيات والمغنون .

وليس هذا كل ما نجده عند ابن قيس فى ديوانه من جديد ، فنحن نجد جديداً آخر ، ولكن هذه المرة لا نلاحظه فى صورة الشعر ، وإنما نلاحظه فى جوهره ، فمن أهم ما يميز شعره فى ديوانه رقة حسٍّ بالغة ، وهى رقة تعبر عن كل ما أصاب القوم فى شعورهم وأذواقهم تحت تأثير الحضارة الجديدة ، رقة نشاهدها عند الرجال المهذبين فى الأمة حين تتحضر فنرى جماعة يدق إحساسهم دقة بالغة . ولعل من أهم ما يصور هذا الجانب فى ديوان ابن قيس أننا لا نجد فيه هجاء إلا قطعة واحدة قيلت فى عبد العزيز بن عبد الله بن خالد الذى فشل فى حرب الخوارج وفرَّ مهزوماً أمامهم وترك لهم زوجته ، وهى قطعة لا تُعَدّ هجاء بالمعنى الكامل ، بل هى أقرب إلى أن تكون عتاباً له ، فإنه لم يحارب مع جيشه بل تركه ولا أمير عليه ونسى عِرْسَه فسباها الخوارج ، فقال ابن قيسَ(١):

عبدَ العزيز فضحتَ جَيْشَكَ كلَّهم ... وتركتَهم صَرْعَى بكل سبيـــلِ

من بين ذى عَطَشٍ يجود بنفسة ... ومُلَحَّبٍ بين الرجــال قتيلِ(٢)

وتركتَ جيشك لا أميرَ عليهمُ ... فارجعْ بعارٍ فى الحياة طويل

ونسيتَ عِرْسَك إذ تُقــاد سَبِيَّةً ... تُبكى العيونَ برَنَّةٍ وعَويــلِ

فابن قيس لا يهجو حقا ، وإنما يعتب . وفرق بعيد بين هذا العتاب وبين أهاجى جرير والفرزدق المعروفة التى تقوم على القدح والإقذاع فى الهجاء إقذاعاً يؤلم الذوق المتحضر فى أكثر الأحيان . ولم تصح نسبة قطع فى الهجاء لابن قيس سوى هذه القطعة . وهذا لا شك غريب على ذوق من يقرءون الدواوين العربية إذ يجدون دائماً باباً فيها للهجاء ، أما عند ابن قيس فهذا الباب أوصد أمام القارئ ، بل أوصد أمام نفسية الشاعر بسبب هذه الرقة فى الشعور التى وصفناها ، وهى رقة تمنع الرجل المهذب من أن يخوض فى أعراض الناس أو يذكرهم أو يصفهم بما يسوءهم .

ديوان ابن قيس إذن ديوان شخص متحضر أثرت الحياة الحضارية الجديدة التى عاشها فى ذوقه وفى حسه وفى فنه . ومن هنا كان قارئه يشعر بأنه صاحب أسلوب

---

(١) الديوان ص ٢٩٣ وانظر الطبرى ٨٢٨/٢ وابن الأثير ٢٧٩/٤ .

(٢) ملحب : ممزق بالسيف .

جديد ، وأنه يعبر عن حياة جديدة صُهِرَ فيها صهراً وذاب فيها ذوباناً . وقليل هم الذين يستجيبون للحياة الجديدة على نحو ما يستجيب ابن قيس للحياة فى عصره . وكأنما هو قيثارة وهبتها الطبيعة للحجاز حين تحضَّر ، لنسمع فيها كل التغيرات التى أصابته تحت تأثير الحضارة من جهة ، وتحت تأثير الغناء والتعبير عن عواطف الناس من جهة أخرى .

وشعرُ ابن قيس من هذه الناحية ينسجم انسجاماً تاماً مع عصره ، ولعل هذا هو أهم سبب يتيح له هذه الرشاقة التى تميز أسلوبه والتى تجعلنا نُسْحَر به كلما قرأنا فيه ، فهو أسلوب تام من جهة الألفاظ وانتخابها ومن جهة العواطف والتعبير عنها تعبيراً حاراً حينما تطلب الحرارة ، وهادئاً حينما يطلب الهدوء . وكل ذلك يعلوه تموج رشيق ، كما تعلوه هذه الجدة فى الحس وهذه الرهافة فى الشعور التى تميِّز ابن قيس فى كل ما ينظم وكل ما يقول .

ولقد مرت به أوقات كان فيها متحزباً لمصعب وأخيه عبد الله ضد عبد الملك وأسرته ، ومع ذلك فقلما نجد عنده الكلمة النابية ، بل إننا نجده دائماً محزوناً أسفاً على ما أصاب قريشاً من تفرّق كلمة أبنائها،وإنه ليذيع ذلك فى قصائده التى يمدح بها مصعباً ، يقول فى بعض مدحه[١] :

فقُطِّعَ أرحــامٌ وفُضَّتْ جماعةٌ   وعادتْ رَوَايا الحِلْمِ بَعْدُ ركائكا[٢]

وفى جميع جوانب مدحه لمصعب نجده يأسى على هذا النحو لما صار إليه أمر قريش من تقاطع وتنابذ وانقسام كلمة ، واستمع إليه يقول فى بعض مدائحه له[٣] :

حَبّذَا العيْشُ حين قومى جَميعٌ   لم تُفرِّقْ أمورَها الأهــواءُ
قبــل أن تطمع القبائلُ فى مُلْـ   ـكِ قُرَيشٍ وتَشْمَتَ الأعــداءُ
أيهـا المُشْتَهِى فَنَـاءَ قريش   بيَــدِ اللهِ عُمْـرُهَا والفَنَـاءُ
إنْ تُوَدِّعْ من البلاد قريشٌ   لا يكنْ بعــدهم لحيٍّ بقــاءُ

---

(١) الديوان ص ٢٢٨ .

(٢) روايا الحلم : الحلماء . ركائك : جمع ركيك وهو الضعيف .

(٣) الديوان ص ١٧٢ .

لو نُعَفِّى ونترك النـــاس كانوا غنمَ الذئب غاب عنها الرِّعاءُ(١)

فابن قيس يؤذيه اختلاف قريش إيذاء الشخص المهذب رقيق الحس . وهذا جانب يتردد فى مدائح مصعب مما يدل على أنه يصدر عن شعور صادق . وقد يُظَن أن هذا يدل على بعد نظره وأنه يوطِّئ لنفسه حين يتحول الأمر إلى الأمويين إن تحول ، ولكن هذا فى الواقع تعليل سطحى لا يتفق ونفسية ابن قيس ، إنما التعليل الصحيح هو رقة حسه حين رأى قريشاً تنقسم هـذه الانقسامات ، فيقتل الحسين ، ويقتل عثمان وعلى والزبير وطلحة من قبل ، ويقتتل عبد الملك ومصعب أخيراً ، وتذهب أثناء ذلك فى ذمة الله ضحايا الحرة ، لقد كان ذلك يؤذيه فى ضميره كما يؤذى القرشى فى عصره رقيق الشعور . وبلغ من رقة شعوره أن أشاد بعثمان فى أثناء مدحه لمصعب بعد الأبيات السابقة فقال(٢) :

الذىَ أُشرِبَتْ قريشٌ له الحبَّ عليـــه ممـــا يحبُّ رداءُ

ولعل هذه الرقة هى التى جعلته يفى لمصعب بعد موته على نحو ما أسلفنا ، فقد كان من رهافة الشعور ودقة الحس بحيث لا يستطيع أن ينكر ماضيه ولا أن يكون كنوداً لمن أحسنوا إليه .

الوفاء إذن عند ابن قيس خيط من الخيوط التى تتصل برهافة الشعور ورقة الحس ودقته عند الرجل المتحضر المهذب . وهناك خيط ثان يتضح فى شعره لمصعب وعبد العزيز بن مروان ، فكل من يقرأ الديوان يلاحظ أن ابن قيس لزم مصعباً دون أخيه عبد الله الخليفة ، كما لزم عبد العزيز أيضاً دون أخيه عبد الملك . وكان لذلك أثره فى شعره ، فعبد الله بن الزبير لا يكاد يظهر إلا فى قصيدتين سبق أن وضحنا زيف القول بأنهما فى مدحه ، فإحداهما فى مدح عبد الملك والثانية فى مدح ابن جعفر . أما عبد الملك فقد مدحه فى الديوان مراراً لأنه عفا عنه وأكرمه(٣).

والخيط الذى نشير إليه هو خيط المبالغة فى الشعور فإن عطايا مصعب وعبد العزيز تأسره ، فنرى اندفاعاً شديداً فى مدحهما ، حتى ليخيَّل إلى الإنسان

---

(١) الرعاء : الرعاة . ونعفى : نذهب .

(٢) الديوان ص ١٧٩ .

(٣) الديوان ص ٧٦ .

أنه كان يعطى مصعباً صفات الخليفة ، فهو الخليفة الحقيقى فى حسّه ، يقول فى بعض مدحه[١] :

عَلى بيعةِ الإِسلام بايَعْنَ مُصْعَباً   كَراديسَ من خَيْلٍ وجَمْعاً مباركاً

وكأنه كان يؤمن بأن مصعباً خليفة أخيه عبد الله وأن بيعته بالخلافة تتضمن بيعة أخيه ، وذهب يبالغ فى مدحه وكأنه يعتبر نفسه داعية له . وهذا الجانب نجده فى مدائحه لعبد العزيز وكان ولىّ عهد فعلاً لأخيه عبد الملك ، فلما فكر عبد الملك فى خلعه وتولية ابنه الوليد مكانه رأيناه يثور معه وفاءً له وعرفاناً بجميله ، فيقول[٢] :

لِتَهْنِه مصرُ والعراقُ وما   بالشام مِنْ بَزِّهِ ومن ذهبهْ
يَخْلُفُكَ البيضُ من بنيك كما   يخلف عودُ النُّضارِ فى شُعَبه[٣]
نحن على بَيْعةِ الرسولِ وما   أُعطِىَ من عُجْمِهِ ومن عَرَبِهْ

وما من ريب فى أن هذا اندفاع وتهور جلبتهما رقة حِسّ ابن قيس ورهافة شعوره ، فكان إذا أخلص بالغ فى إخلاصه وباع نفسه لصديقه .

على كل حال ابن قيس فى ديوانه مثال للرجل المتحضر الراقى الذى لا تخدشه العيوب الخلقية ، وهو فى شعره مثال لشاعر الأغانى المتحضر الذى لا تخدش شعره عيوب فنية . وأظن أننا لا نبالغ بعد كل ما قدمنا إذا قلنا إن ابن قيس ماهر فى الضرب على قيثارة الأغانى الجديدة ، وإنه استطاع أن يستخرج منها أصواتاً رائعة تدل على إحسانه فى فنه وإتقانه لفهمه ، أصواتاً نجد فيها صورة عصره وما اضطرب فيه من أحداث ، بل صورة نفسه وما اضطرم فيها من وقائع سياسية وعاطفية . وقد لا نبالغ أيضاً إذا قلنا إنه شدَّ إلى القيثارة المعاصرة وتراً جديداً ، فكل من يقرؤه يستطيع أن يميز شعره وأن يميز أسلوبه بما يجرى فوق سطحه وفى داخله من أمواج نفسية تشفُّ عنه شفًّا ، وكأن شعره مرآة صافية لعصره ولنفسه ، ولما تأثرت به هذه النفس من ألوان حضارة وأصباغ حياة .

ابن قيس إذن صاحب أسلوب واضح فى تاريخ الأغانى عند العرب ، وهو

---

(١) الديوان ص ٢٣٠ وانظر الأغانى (طبع بولاق) ١٦/٥٧ .

(٢) الديوان ص ٨٢ – ٨٤ وانظر الأغانى ١٦/٥٧

(٣) يخلف : ينبت عوداً بعد عود .

أسلوب يميزه من نظرائه ، وقد استطاع أن يعمم هذا الأسلوب فى موضوعات الشعر التقليدى ، وكأنه خُلق ليكون شاعراً ، وكأن روحه كانت تحوى قبساً لا يمس شيئاً إلا تحول إلى غناء . وطبعاً إنما تمَّ هذا كله تحت تأثير حياة جديدة شُفعت بنظرية للغناء كما شفعت بألوان حضارية مختلفة . وانطلق ابن قيس يعبِّر عن ذلك فى أساليب جديدة ، وهى أساليب حية ، كانت تستمد من مألوف الناس فى لغتهم وعواطفهم ، كما كانت تستمد من التهذيب الهائل الذى حصل لفن الغناء نفسه ، وأيضا فإنها كانت تستمد من الذوق المتحضر الجديد . وكل ذلك نهض به ابن قيس ، واستطاع أن يوقِّعه على قيثارة الشعر العربى ، بل استطاع أن يشد أوتار هذه القيثارة شداً جديداً ، بل كاد أن يضيف إلى أوتارها وتراً ، حتى تصبح أكثر بساطة وأكثر ألفة للناس وقرباً من نفوسهم وأكثر صدقا وصراحة فى التعبير عن عواطفهم .

خاتمة

١

خلاصة

حاولت فى الصحف السابقة أن أرسم الخطوط المختلفة للأغانى فى المدينة فى أثناء العصر الأموى ، ولاحظت أن المدينة قبل هذا العصر اتخذها النبى صلى الله عليه وسلم داراً لهجرته ، واتخذها الخلفاء من بعده مقراً لعاصمة الإمبراطورية العربية ، وصبّت فيها حينئذ كنوز الأرض ، كما صبّ فيها الموالى من فرس وروم وشآميين ومصريين ، وهيأ ذلك كله لحضارة جديدة فيها ، أخذ زخرفها يتماثل منذ عصر عثمان .

وما يلبث عصر الخلفاء الراشدين أن يذهب وإذا بالمدينة تدخل فى حياة جديدة من جميع النواحى السياسية والاجتماعية والحضارية . أما من حيث الناحية السياسية فقد فقدت زعامتها على العالم الإسلامى وأصبحت ولاية تابعة لدمشق . وكانت تقف طوال العصر الأموى فى صفوف المعارضة لبنى أمية ، ومن أجل ذلك كان الأمويون ينصرفون عن أهلها فلا يستخدمونهم فى وظائف الدولة الكبرى إلا فى القليل النادر .

هذا من حيث الناحية السياسية ، أما من حيث الناحية الاجتماعية وكذلك الحضارية فإن المدينة أخلدت إلى حياة مترفة ، وقد تكونت فيها طبقة من الشبان الفارغين العاطلين ، وذهبت هذه الطبقة العاطلة تملأ أوقاتها باللهو ، وساعدها على ذلك ما كانت فيه من ثراء ، ورثته عن آبائها الذين فتحوا الأمم الأجنبية ، وأيضاً فإن الأمويين أغدقوا عطاياهم عليهم هناك ، حتى يصرفوهم عن التفكير فى الدولة والحكم .

شباب عاطل ، وثراء وحضارة ، وترف ورقيق لا يكاد يحصى . كل هذا عرفته المدينة فى العصر الأموى ، وقد وصفتُ ذلك كله ، ومضيت منه أبيِّن كيف أن أهلها تعلقوا بضرب من الملاهى ، كان له أثره الواسع فى أدبهم وشعرهم ، وأقصد الغناء

وما صحبه من موسيقى ، فإن أهل المدينة شُغِفوا به شغفاً شديداً لم يسلم منه شاب ولا شيخ ولا لاهٍ ولا عابد .

ونهض الموالى من المغنين والمغنيات بهذا الغناء نهضة واسعة ، بحيث أصبح فناً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، إذ نكوَّنت نظريته نهائياً ، وعُرفت له مصطلحاته وتقاليده ، التى نقرؤها فى كتاب الأغانى . وأخرجت المدينة حينئذ كثرة وافرة من المغنيات والمغنين الذين خلد اسمهم على مر الزمن ، مثل طُوَيْس ، وسائب خاثر ، ومَعْبد ، وعَزَّة المَيْلاء ، وجميلة ، وسَلاَّمة ، وغيرهم كثير .

واقترنت هذه النهضة لفن الغناء بنهضة كبيرة للأغانى التى كانت تُغَنَّى وتُصْحَبُ بالعزف والضرب على الآلات الموسيقية ، وكانت تدور فى أغلبها على الحب وبيان مشاعره وقد عُنيت بدرس هذه الأغانى فى المدينة درساً مفصلاً ، ولاحظت أنها كانت فى أكثر جوانبها غزلاً صريحاً ، وخاصة أن الشعراء هناك كانوا يُعْنَوْنَ بالغزل فى الإماء من المغنيات ، فكانوا يصرِّحون بكل ما يجول فى أنفسهم ، لا يكادون يتحرَّجون من شىء .

كان غزل المدينة صريحاً فى أكثره ، ولكن ليس معنى ذلك أنه انساق كله فى هذه الوجهة ، فقد كان هناك غزل عفيف نجده عند عُبّاد المدينة وفقهائها ، من مثل عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة أحد فقهاء المدينة السبعة ، وقد وقفت وقفة قصيرة عند غزله ، وصورت كيف كان غزلاً عفيفاً فيه مثالية ، وفيه طهر وتسام عن المتع الجسدية .

ولاحظت أن هذه الأغانى فى المدينة كانت تفترق من النسيب فى العصر الجاهلى مفارق واسعة . وأقصد هذا النسيب الذى كان يوضع بين يدى القصائد ، والذى كان يتحدث عن الأطلال والدِّمَنِ ، والذى كان لا يُتَّخَذُ غاية ، إنما كان يتخذ وسيلة إلى غرض الشاعر من قصيدته ، فهو أشبه ما يكون بمقدمة موسيقية يسوقها الشاعر أمام غايته . أما فى هذا العصر فقد أصبح هو الغاية ، إذ لا يضعه الشاعر بين يدى قصيدته إنما يضعه قصيدة مستقلة قائمة بنفسها ، ولم تكن هذه القصيدة تؤلَّف من عشرات الأبيات ، بل قد تؤلف من أبيات قليلة لا تتجاوز عدد أصابع اليد إلا فى النادر ، أما الكثرة فهى أصوات أو قل كما نقول الآن

أدوار تؤلَّف من أجل الغناء . وكان المغنون والمغنيات لا يغنون فى أبيات كثيرة ، فقد يغنون فى البيتين أو فى الثلاثة ، ومهما أطالوا فلن يزيدوا فى غنائهم عن عشرة أبيات ، بل كان منهم من لا يغنى إلا فى البيتين . من أجل ذلك كله لم يكن من الضرورى للأغانى أن تكون طويلة ، بل لقد كان أكثرها قصيراً

كانت هذه الأغانى فى الواقع مقطوعات وأدواراً ، ولم تكن قصائد بالمعنى القديم للقصائد . وليس هذا كل ما يلاحظ عليها فإنها أيضاً كانت تُتَّخَذُ من اللغة المألوفة للناس ، ومن هنا كانت أكثر من الشعر التقليدى بضربيه المديح والهجاء قرباً منهم ، فهى من محيطهم ، محيط لغتهم ، ومحيط حياتهم ، وما فيها من شعر الحب والغزل .

وكان طبيعياً لهذه الأغانى أن تتأثر بالغناء والموسيقى التى كانت ترافقها لسبب بسيط ، وهو أن المغنين أدخلوا نغما وألحاناً أجنبية كثيرة ، وأحدثوا نظرية عربية جديدة للغناء ، مما جعل شعراء الأغانى يحوّرون ويجزِّئون فى شعرهم وأوزانه تحت تأثير هذه النظرية . وقد عرضت لذلك كله فى أغانى المدينة ولاحظت أن موجتها كانت حادة حدة عنيفة فى هذا العصر ، وأنها أخذت تَطْرد كل ما تلقاه من موجات الشعر التقليدى ، لا فى الحجاز ، بل فى الشام والعراق أيضاً .

ولما تَمَّ لى تصوير ذلك وقفت عند الأحوص أكبر شعراء الأغانى فى المدينة لهذا العصر ، فتحدثت عن حياته أولاً ، ثم انتقلت إلى غزله ، فكشفت عن خصائصه فيه ، وما كان من حريته وتشبيبه الصريح فى الإماء وتعلقه بهن ، ثم تركت غزله إلى مدائحه وأهاجيه ، فتحدثت عن لغة هذه المدائح والأهاجى وموسيقاها ، وما كان من أثر الغناء فيها . ولم ألبث أن خرجت إلى بيان منزلته بين شعراء عصره . وقد ذهبت أدعو إلى اتخاذ مقاييس جديدة غير مقاييس القدماء فى الحكم على الشعراء فى العصر الأموى حتى نستبين حقيقة فن الشعر حينئذ ، ونتعرف على أهم الشعراء الذين تطوروا به فى معانيه وألفاظه وموضوعاته وأوزانه . ومن أجل ذلك رفضت حكم ابن سلام فى طبقاته ، إذ قدَّم أصحاب الشعر التقليدى على أصحاب الأغانى ، وقد جعل الأحوص وأكثر الغَزِلين فى الطبقة السادسة من طبقات

الإسلاميين ، وهم الذين نسميهم الأمويين .

والحق أن أصحاب الأغانى فى هذا العصر هم الخليقون أن يوضعوا فى الطبقات الأولى من الشعر الأموى الإسلامى . وليس من شك فى أن الأحوص يوضع فى المرتبة الأولى من هذه الطبقات فهو شاعر الأغانى بالمدينة فى هذا العصر غير مدافَع .

ولما أنهيت الحديث عن المدينة وأغانيها وشاعرها الأحوص أخذت فى رسم صورة صحيحة صادقة لمجتمع مكة فى العصر الأموى وما ازدهر فيه من أغان تغنت بها الأجيال المعاصرة والتالية . وذهبت أبحث أصول الحياة فى هذا المجتمع وجذورها منذ العصر الجاهلى ، حتى تتبين لى هذه الحياة من جميع وجوهها ، وحتى تكون الخطوط والألوان التى أصنع منها الصورة غير ملتبسة ولا مكتسية بإبهام أو غموض .

ولاحظت أن الترف الذى أصيبت به مكة فى العصر الأموى لم يكن شيئاً حادثاً ، فقد كان بها فى الجاهلية حياة تجارية خصبة ملأت حجور كثير من القرشيين بالمال والثراء المفرط . على أن الإسلام لم تلبث أضواؤه أن ظهرت فى الأفق وأخذت تعم الجزيرة العربية وسرعان ما حمل المسلمون مشاعلها يريدون أن يضيئوا بهـا العالم ، فكانت الفتوح الإسلامية ، وكانت مغانم لا تحصى من أموال ورقيق وجَوارٍ . وصبَّ ذلك كله فى مكة ، وصبَّت معه الحضارات الأجنبية وما لوّنها فى بيئاتها الأصلية من ترف .

وكان من آثار هذا الترف والتحضر أن نما الغناء ، وأن أخذ بعض المغنين يحاول أن يخضعه لرسوم وتقاليد ، فكانت النظرية الغنائية المبثوثة فى كتاب الأغانى ، حين نجد أبا الفرج يعلق على الصوت بقوله مثلاً : ثقيل أول أو ثقيل ثان أو خفيف رمَل ونحو ذلك مما عرضنا له فى موضعه . وما زال المغنون فى مكة والمدينة يصعدون على مراقى هذه السلالم الموسيقية ، كل يحاول أن يصل إلى مراقى الغناء العليا ، حتى حققوا لأنفسهم كثيراً من التفوق والنبوغ .

وقد تغيرت الحياة فى مكة ، إذ كان الفرد يشعر بنفسه شعوراً تامًّا ، فقد أصبحت الدنيا ملكاً له ولقريش ، وأصبح البيت القرشى يعجّ بالرقيق الأجنبى ، ولم تعد

فى مكة تجارة إلا ما قد يكون فى أثناء الحج ، أما التجارة القديمة التى عرفناها فى الجاهلية ، فقد قضى عليها الإسلام حين استولى على العراق والشام ، فانفتح أمام توابل الهند وصادراتها طريقُ الموصل ، ولم تعد هناك حاجة إلى الطريق المعقد ، طريق مكة القديم .

ومع ذلك فمكة عرفت فى العصر الأموى ثراء لم يعهده أهلها فى القديم ، وهو ثراء جاءها من الفتوح الإسلامية ومغانمها وأسلابها ، ثم من هذا العطاء المنظم الذى فُرِضَ لأهلها منذ عمر بن الخطاب . ومن هنا تكونت فى مكة طبقة من الشباب العاطل الذى لا يعمل فى تجارة ، فقد أغناه آباؤه الذين اشتركوا فى الفتوح الإسلامية ، وأغناه العطاء المنظم الذى يرِدُ من دمشق .

وعلى هذا النحو تكوَّن فى مكة جيلُ الشباب العاطل الفارغ الذى لا بد له من ملهاة أو تسلية يمضى فيها أوقاته . واستطاع الرقيق الأجنبي أن يرضى رغبته عن طريق هـذا الغناء الذى وصفناه وما استحدث فيه من ألحان وإيقاعات وأنغام .

واندفع الشباب فى إعجابهم بهذا الفن وأصحابه واندفعت معهم المرأة القرشية ، وأخذت تلمع حينئذ أسماء بعض الفتيات والسيدات ككل المجتمعات المتحضرة الراقية ، فأصبح هناك الرجل الذى يأخذ بيد هؤلاء المغنين ، كما أصبحت هناك المرأة التى تأخذ بيدهم أيضاً .

ترف وغناء عرفهمـــا مجتمع مكة فى العصر الأموى ، وفى أثناء ذلك اعتداد بالنفس وشعور بالغ بها ، فأى شعر يسود فى هذا المجتمع ؟ أيسود الشعر التقليدى الذى يمجد الآخرين على نحو ما نعرف فى المديح ؟ طبعاً لا يمكن أن يسود مثل هذا الشعر الذى يُعْنَى بالآخرين ، وكذلك لا يمكن أن يسود قرينه من شعر الهجاء والنقائض الذى نجده عند جرير والفرزدق ، فقد كان القوم مترفين ، ولم تكن فى نفوسهم كل هذه الحزازات الجاهلية التى كانت فى نفوس أهل العراق من القبائل العربية .

ولم تُعْرَفْ مكة فى الجاهلية بشىء من هذه الحزازات ، بل لقد كان أهلها يعملون على موتها إبان ظهورها ، ولعل مرجع ذلك أنهم كانوا يعيشون معيشة فيها

شيء من التحضر ، ولذلك كانت أكثر أشعارهم التى رُوِيَتْ لهم فى السيرة أشعاراً فردية تعبر عن شعور القرشى إزاء حادثة من الحوادث . ومعنى ذلك أن القرشيين كانوا مُعَدِّين منذ العصر الجاهلى للأغانى وشعر الحب بأكثر مما أُعِدّوا للشعر التقليدى .

فلما كان الإسلام وجدنا أبا دهبل الجُمَحِى ينظم شعراً لا يكاد يختلف فى شيء عن شعر عمر بن أبى ربيعة ، وعاش أبو دهبل أشواطاً من الزمن فى العصر الأموى . كل شيء كان يُعِدُّ إذن لنمو الأغانى وشعر الحب فى مكة ، فهناك أصول قديمة أَعَدَّتْ له ، وقد أعدت له أيضاً هذه الحياة المترفة التى عاشها القرشيون فى العصر الأموى وأعدّ له أيضاً شعور الفرد بنفسه وإحساسه بها إحساساً قوياً فى هذه الحياة . وكان مما أعدّ له أيضاً أن المرأة القرشية ساهمت فى العناية بفن الغناء الذى يقوم عليه . وكان للمغنين أنفسهم أكبر الأثر فى نمو هـــذه الأغانى وتطورها ، فإنهم طلبوها . وطلبتهم النوادى والمجالس . فكان لا بد أن يوجد الشعراء الذى ينهضون بحاجة المغنين وحاجة الناس من حولهم ؛ وحاجاتهم أنفسهم فى إرضاء المغنين من جهة والتعبير عن إحساساتهم من جهة أخرى ؛ ثم حاجة المرأة القرشية وإرضائها من حيث الثناء على ما أوتيت من جمال وحسن .

كان كل شيء فى مكة يدفع إلى نمو الأغانى ، وأن يحسنها الشعراء إلى أقصى حدود الإحسان وأن يطوِّروها مع فن الغناء الجديد إلى أقصى حدود التطور ، ولمعت حينئذ أسماء كثيرين عرضنا بالتفصيل لاثنين منهم وهما : ابن أبى ربيعة وابن قيس الرقيات . وكان يشتهر بجانبهما الحارث بن خالد المخزومى والعَرْجى ، غير أن ما رُوِىَ لهما من أغان محدود جدًّا ، وكل أغانى الحارث تقريباً فى عائشة بنت طلحة ، تارة يتغزل بها مباشرة ، وتارة يتغزل بها عن طريق جاريتها بُسْرة تعريضاً[1] ، وليس فى هذا الشعر جديد بالقياس إلى الموجتين الحادثتين الكبيرتين : موجة ابن أبى ربيعة وابن قيس الرقيات . وكذلك الشأن فى العرجى حفيد عثمان بن عفان ، فقد أضاع الرواة أغانيه إلا مقطوعات نظمها فى أم محمد بن هشام المخزومى والى مكة لابن

(١) أغانى ٣١٧/٣ وما بعدها وكذلك ٣٢٩/٣ ، ٣٣٥ .

أخته هشام بن عبد الملك ، وأخرى فى زوجة محمد بن هشام[١] ، وهى جميعها يراد بها الهجاء لا الغزل الصادق . وقد اشتهر له قوله فى جَيْداء أم محمد بن هشام[٢] :

أماطتْ كِساءَ الخَزِّ عن حُرِّ وَجْهِها   وأَدْنتْ على الخَدَّيْن بُرْدًا مُهَلْهَلا
من اللاءِ لم يَحْجُجْنَ يَبْغين حِسْبَةً   ولكنْ ليقتلْنَ البرىءَ المغفَّــلا

ويُجْمع الرواة على أن العَرْجى خَلَفَ عمر فى مكة وأنه كان يحتذى على مثاله[٣] ، ولكنهم لم يحتفظوا لنا بما يصور ذلك من شعر العرجى وغزلياته .

أما ابن أبى ربيعة وابن قيس الرقيات فقد خلد لكل منهما على مر الزمن ديوانٌ كبير يصوره ويصور مجتمعه خير تصوير ، واستطاع ابن أبى ربيعة أن ينهض حقاً بالأغانى ، فديوانه كله نُسجت خيوطه من قصة القلب الإنسانى ، وهى معروضة فى قصص بديع . وعمر من هذا الجانب يتقدم جميع الشعراء فى العربية فلا نعرف قبله ولا بعده من نحا بغزله كله نحو القصص ، وملأ ديوانه بعوالم من واقعه وخياله جميعاً ، فقد اتحد فى ديوانه الواقعُ والخيال ، واستطاع بمواهبه الفنية أن يؤلف منهما مادة فنية بديعة .

على أن الغاية من هذه الأشعار والأقاصيص وأنها أريد بها إلى الغناء جعلت عمر لا يطيل فيها ، فهو ليس من أصحاب القصائد المطوّلة ، وإنما هو من أصحاب المقطوعات التى تغنَّى ، ولذلك قلما تجد عنده قصيدة بالمعنى الكامل . وحاول عمر فى أثناء هذه الغاية الغنائية أن يحقق لموسيقى شعره ضروباً من التلاؤم بينها وبين الغناء ، وكأنها كانت تُصْنَعُ من نفس الألحان والأنغام التى يُصْنَعُ منها الغناء ، وكان من آثار ذلك أن كثرت التجزئة والتعديل فى شعره ، وأن خفت لغته خفة شديدة .

وكأنما كان عند عمر هدف واضح أن يحقق لمعانى غزله ضروباً من التطور عن طريق هذه الخيوط القصصية التى نسجه فيها ، وليس ذلك فحسب ، بل أيضاً أن يلمس قلوب الناس وأفئدتهم بما يقطِّر فى شعره من عواطفهم ، وهى عواطف قوم تحضروا ، وأصبح لهم ذوق جديد يتلاءم وكلَّ متحضرين من بعدهم . ولعل

---

(١) أغانى ١/٣٨٥ ، ٤٠٤ - ٤٠٨ .
(٢) أغانى ١/٤٠٤ .
(٣) أغانى ١/٣٨٥ .

ذلك ما جعله يختار اللغة الخفيفة السهلة اللينة التى تجرى على كل لسان . وليس ذلك ما صنعه عمر فحسب ، فإنه أيضاً استطاع أن يلائم أوسع ملاءمة بين شعره وبين ألحان المغنين وإيقاعاتهم حتى لكأنه كان ينظم شعره على الآلات الوترية نفسها التى يضربون عليها .

وكان يعاصره ابن قيس الرقيات ولم يهب نفسه كلها للأغانى وشعر الحب ، فقد خرج من مكة واضطرب فى الحوادث السياسية التى نشبت بين مصعب بن الزبير وأخيه عبد الله من جهة وعبد الملك بن مروان من جهة أخرى . ومع ذلك فهو يعد شاعراً موسيقيًّا من طراز ممتاز ، لا من حيث أغانيه فحسب بل أيضاً من حيث ما نظمه من مدائح ومراث ، إذ استطاع أن يحول كل ما نظمه من شعر تقليدى إلى أغان . وهنا تظهر مهارة ابن قيس فإن الطاقة الموسيقية فى شعره كانت قوية إلى أقصى حد .

وطبيعى أن نجد عند ابن قيس شيئاً من الأساليب التقليدية بحكم اهتمامه بالشعر التقليدى ولكنها نادرة جداً ، فقد جعل نصب عينيه أن يترك هذه الأساليب وأن يضع مكانها الأساليب الموسيقية التى تتلاءم وعصره . ومن هنا قلنا إن شعره كله موسيقىّ بالمعنى التام ، فهو شعر كُتب ليغنّى فيه المغنون لا لينشده المنشدون .

وتميز ابن قيس بذوق حضرى مترف حساس بالغ الحساسية ، فلم يَهجُ أحداً ، ولم يحاول أن يؤذى شخصاً ، وكان فى غزله بل فى شعره كله رشيقاً منتهى ما يكون من رشاقة ، وهى رشاقة مردها إلى هذا الذوق المترف الذى عرف كيف يصهر الشعر فى ألحان المغنين ، وكأنما كانت لديه حاسة سادسة يستقرئ بها فى دقة الألفاظ بل المعانى التى تدل عليها الألفاظ ، أو هما جميعاً .

والحق أن أصحاب الأغانى فى مكة وعلى رأسهم عمر بن أبى ربيعة وابن قيس الرقيات استطاعوا أن يحققوا لشعرهم كل ما يمكن من نهوض ورقىّ به ، وإن أسماءهم ما تزال تظنّ فى سمع اللغة العربية ، بل فى سمع الموسيقى العربية ، فهم الذين نهضوا بهذه الموسيقى حقًّا من حيث المطابقة بينها وبين أوزانهم ، فقد عاصروها فى بدء نشأتها حينما تحولت إلى النظرية المعروفة فى كتاب الأغانى ، واستطاعوا أن يقدموا للمغنين والمغنيات كل ما احتاجوه لفنهم الجديد ، وأن يشتقوا لأنفسهم فى أثناء ذلك أساليب فنية بارعة ، تعبِّر عما أصاب الحياة عندهم من تطورات تحت تأثير الحضارات الجديدة .

٢

تعليق وتعقيب

تحدثنا عن صحف الأغانى فى المدينة ومكة وما ارتبط بها فى العصر الأموى من لهو وترف وغناء . وليس معنى ذلك أن المدينة ومكة لم يكن بهما فى ذلك العصر سوى هذه الصحف ، فقد كانت هناك صحف أخرى بأيدى كرام بررة كانت كل خطوطها وألوانها زهداً وورعاً وتقوى وعبادة .

كانت المدينة ومكة إذن دارين للزهد والعبادة ، كما كانتا دارين للغناء وما يدمج فيه . ومن يتصفح طبقات ابن سعد يجد كثرة غامرة من العباد والنساك عاشوا فيهما فى أثناء العصر . وكان على راس هؤلاء النساك والعباد عبد الله بن عمر المتوفى سنة ٧٣ للهجرة ، وكان يرفض الحياة المترفة ويتخذ لنفسه حياة زاهدة ، وصوَّر ذلك ابن سعد فى طبقاته تصويراً طريفاً ، فذكر عنه أنه كان يترك الحمام يعده من رقيق العيش ، وقال إنه لم يكن يلبس الخَزَّ ، ولا كان يشرب فى أقداح مفضَّضة ولا من قوارير وإنما كان يشرب فى أقداح من عيدان ، ولم يتوضأ فى الصُّفر (النحاس) ، وإنما كان يتوضأ فى أقداح الخشب ، ولم يكن يستخدم الطيب ، وكان يكسر النَّرْد . وروى ابن سعد أنه أعجب يوماً بجارية عنده فأعتقها ، وزوَّجها مولى له ، كما روى أنه كان مرتحلاً ، فسمع صوت زمارة راعٍ فوضع إصبعيه فى أذنيه ، وعدل براحلته عن الطريق[1] .

ولم يكن ابن عمر وحده هو الذى يتخذ لنفسه حياة خشنة زاهدة ، بل كان هناك كثيرون يحيون حياته مثل أبى هريرة ، وكان يقول ما وجع أحبُّ إلىَّ من الحمى لأنها تعطى كل مفصل قسطه من الوجع ، وإن الله يعطى كل مفصل قسطه من الأجْر[2] ، ومرَّ بمروان بن الحكم وهو يبنى داره فقال : ابْنِ شديداً وأمِّلْ بعيداً ،

---

(١) انظر ترجمة عبد الله بن عمر فى طبقات ابن سعد الجزء الرابع القسم الأول ص ١٠٥ وما بعدها .

(٢) ابن سعد الجزء الرابع القسم الثانى ص ٦١ .

وعِشْ قليلاً ، وكُلْ خَضْماً ، والموعد الله[١] . وبجانب أبى هريرة وابن عمر نجد كثيرين من الصحابة والتابعين يختارون لأنفسهم هذه الحياة الزاهدة .

ولم يكن الزهد أغرب ما فى حياة هذه الجماعة ، بل كان النسك والعبادة والخوف من الله وخشية لقائه روى الرواة عن أبى هريرة أنه بكى فى مرض موته ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : أما إنى لا أبكى على دنياكم هذه ولكنى أبكى لبعد سفرى وقلة زادى ، أصبحت فى صَعود مهبطة على جنة ونار ، فلا أدرى إلى أيهما يُسْلَكُ بى[٢]. ووراء أبى هريرة وُجدتْ جماعة من البكَّائين الذين يبكون ليل نهار[٣] ، كما وُجِدَتْ جماعة عاهدت الله أن تصوم الدهر مثل عبد الله بن حنظلة الذى كان يبيت فى المسجد ، وما كان يزيد على شربة من سَويق يُفْطر عليها إلى مثلها من الغد يُؤْتَى بها فى المسجد ، وكان يصوم الدهر ، وما رُئِىَ رافعاً رأسه إلى السماء إخْبَاتاً[٤].

وكما كان هناك جماعة من الصوَّامين أمثال ابن حنظلة كان هناك جماعة عاهدوا الله ألا يشهد الليل عليهم بنوم أبداً ؛ فهم يصلون ، وهم يكثرون من الصلاة ، حتى ليصلى بعضهم ألف ركعة ، على نحو ما كان يصنع على بن الحسين ، وقد حج خمساً وعشرين حِجَّةً[٥] راجلاً . وكان من هؤلاء المصلين المكثرين من يلقب بالراهب لكثرة صلاته وعبادته[٦] وكان منهم من يسجد فيطيل فى سجوده حتى إن العصافير لتسقط على ظهره تحسبه حائطاً ، واشتهر بذلك محمد[٧] بن طلحة بن عبيد الله .

ويخيل إلى الإنسان أن هؤلاء العباد خرجوا عن دنياهم وعن كل ما يتصل بها حتى لقد يرث الشخص منهم ميراثاً ، فيفرِّقه فى الناس ؛ كما صنع ابن عمر ؛ وكما صنع عبد الله بن عتبة بن مسعود ، فقد باع أرضاً ورثها بثمانين ألفاً ؛ وأنفقها فى سبيل الله ، فقيل له : لو اتخذت لولدك من هذا المال ذُخْراً ، قال : أنا أجعل هذا المال ذخراً لى عند الله ، وأجعل الله ذخراً لولدى[٨]

---

(١) البيان والتبين ١٧٢/٣ والخضم : الأكل بجميع الفم .
(٢) ابن سعد الجزء الرابع القسم الثانى ص ٦٢
(٣) البيان والتبيين ١٥١/٣ وما بعدها .
(٤) ابن سعد ٤٨/٥ .
(٥) ابن عبد ربه ٣٦٩/١ .
(٦) ابن سعد ١٥٣/٥ .
(٧) الحيوان للجاحظ طبع الحلبى ٢٣٨/٥
(٨) البيان والتبيين ١٤٦/٣ .

وفى كتب الأدب والتاريخ قَصص كثير يروى عن عُبَّاد المدينة ومكة ونُسَّاكهما ، فمن ذلك أن سالم بن عبد الله بن عمر دخل مع هشام بن عبد الملك البيت فقال له هشام : سَلْنى حاجتك فقال له : أكره أن أسأل فى بيت الله غير الله[١]. ومن ذلك ما يُرْوَى عن الزُّهْرِىّ من أنه قارف ذنباً فاستوحش من الناس وهام على وجهه ، فقال زيد بن على بن الحسين له : يازُهْرى لقُنُوطُك من رحمة الله التى وَسِعَتْ كلَّ شىء أشدُّ عليك من ذنبك ، فقال الزهرى : (الله أعلم حيث يجعل رسالته !) ورجع إلى أهله وماله وأصحابه[٢]

ولم يقف نسك هذه الجماعة عند نفسها ، فقد تجردت منهم طائفة لوعظ الناس ، وكان على رأسها القصاص الذين يقصُّون فى المسجد الحرام ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد بدأ القصص فى المدينة تميم الدَّارِىّ فى عهد عمر[٣] ، واستمر من بعده ، واشتهرت جماعة به فى العصر الأموى مثل عُبَيْد بن عمير . وكان يجلس إليه عبد الله بن عمر فكانت عيناه تهرقان بالدموع[٤]. ومن مشاهير القصاص مسلم بن جُندب ، وهو من قراء المدينة ، وكان عمر بن عبد العزيز يقول : من سره أن يقرأ القرآن غضاً فليقرأه على قراءة مسلم بن جندب[٥] .

ولعل أهم واعظ عرفته المدينة ومكة فى العصر الأموى هو أبو حازم الأعرج وكان يقول : « نحن لا نريد أن نموت حتى نتوب ونحن لا نتوب حتى نموت[٦]» .

وليس هذا كل ما يلاحظ فى المدينتين المقدستين ، فقد يكون الشخص عابداً ناسكاً ويقدر الغناء ويقدر النسيب والغزل على نحو ما مرّ بنا عند أبى السائب المخزومى ، وتقدم أنه كان يصلى فى اليوم والليلة ألف ركعة ، ومع ذلك كان يُشْغَفُ بالغزل والغناء شغفاً شديداً ، وكأنهم لم يجدوا فى الغناء والغزل من حيث هما إثماً ، ولا ما يشبه الإثم . وهما فى الواقع لا يكونان إثماً إلا إذا اقترنا بما يخرجهما إلى ذلك . روى المبِّرد أن مدنياًّ كان يصلى منذ طلعت الشمس إلى أن قارب النهار أن ينتصف

---

(١) البيان والتبيين ١٢٧/٣ .

(٢) المصدر نفسه ١٦٨/٣ .

(٣) الإصابة لابن حجر (طبع مطبعة السعادة) ١٩١/١ .

(٤) ابن سعد الجزء الرابع القسم الأول ص ١٠٩ .

(٥) طبقات القراء لابن الجزرى طبع برجشتراسر ٢٩٧/٢ .

(٦) البيان والتبين ١٦٤/٣ وفى مواضع متفرقة وابن عبد ربه ٣٦٩/١ وما بعدها .

ومن ورائه رجل يتغنى وهما فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا رجل من الشُّرَط قد قبض على المغنى ، فقال : « أترفع عقيرتك بالغناء فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، فأخذه فانفتل المدنى من صلاته ، فلم يزل يطلب إليه فيه حتى استنقذه ، ثم أقبل عليه فقال : « أتدرى لَم شفعت فيك ؟ » فقال : « لا والله ولكن إخالك رحمتنى » قال : « إذن فلا رحمنى الله » ، قال : « فأحسبك عرفت قرابة بيننا » قال : « إذن فقطعها الله » ، قال : « فليدٍ تقدمت منى إليك » ، قال : « لا والله، ولا عرفتك قبلها » ، قال : « فخبِّرنى » ، قال : « لأنى سمعتك غنيت آنفاً ، فأقمت واوات معبد ، أما والله لو أسأت التأدية لكنت أحدَ الأعوان عليك[1] » .

ولم يكتف عباد المدينة ومكة بهذه المشاركة البعيدة على استحسان الغناء وأصواته ، بل لقد كان منهم من شارك فى شعر النسيب والغزل كعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود وعبد الرحمن بن أبى عمار الجُشَمىّ ، ولعل فى هذا كله ما يتيح لنا أن نزعم أن المدينة ومكة كانتا حقًّا فى العصر الأموى ، تجمعان أروع صور الزهد والورع مع صور الغناء والغزل .

---

(١) الكامل للمبرد (طبع أوربا) ٣٩٤/١ .

فهرس

صفحة

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

فى الدراسات القرآنية

* سورة الرحمن وسور قصار : عرض ودراسة
الطبعة الأولى ٤٠٤ صفحات

فى تاريخ الأدب العربى

* العصر الجاهلى
الطبعة السابعة ٤٣٦ صفحة
* العصر الإسلامى
الطبعة السابعة ٤٦١ صفحة
* العصر العباسى الأول
الطبعة الخامسة ٥٧٦ صفحة
* العصر العباسى الثانى
الطبعة الثانية ٦٥٧ صفحة

فى مكتبة الدراسات الأدبية

* الفن ومذاهبه فى الشعر العربى
الطبعة الثامنة ٥٢٤ صفحة
* الفن ومذاهبه فى النثر العربى
الطبعة السابعة ٤٠٠ صفحة
* التطور والتجديد فى الشعر الأموى
الطبعة الخامسة ٣٤٠ صفحة
* دراسات فى الشعر العربى المعاصر
الطبعة الخامسة ٢٩٢ صفحة
* شوقى شاعر العصر الحديث
الطبعة السادسة ٢٨٦ صفحة
* الأدب العربى المعاصر فى مصر
الطبعة الخامسة ٣٠٨ صفحات
* البارودى رائد الشعر الحديث
الطبعة الثانية ٢٣٢ صفحة
* البحث الأدبى : طبيعته ، مناهجه ، أصوله ، مصادره
الطبعة الأولى ٢٧٨ صفحة

فى الدراسات النقدية

* فى النقد الأدبى
الطبعة الثالثة ٢٥٠ صفحة
* فصول فى الشعر ونقده
الطبعة الأولى ٣٦٨ صفحة

فى الدراسات البلاغية واللغوية

* البلاغة : تطور وتاريخ
الطبعة الثانية ٣٨٠ صفحة
* المدارس النحوية
الطبعة الثانية ٣٧٦ صفحة

فى مجموعة نوابغ الفكر العربى

* ابن زيدون
الطبعة السابعة ١٢٠ صفحة

فى مجموعة فنون الأدب العربى

* الرثاء
الطبعة الثانية ١٠٨ صفحات
* المقامة
الطبعة الثانية ١١٢ صفحة
* النقد
الطبعة الثانية ١١٢ صفحة
* الترجمة الشخصية
الطبعة الثانية ١٢٨ صفحة

* الرحلات
الطبعة الثانية ١٢٨ صفحة

فى التراث المحقق

* المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد
الجزء الأول – الطبعة الثانية ٤٦٨ صفحة
الجزء الثانى – الطبعة الثانية ٥٧٢ صفحة

* كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد
الطبعة الأولى ٧٨٨ صفحة

فى سلسلة اقرأ

* العقاد
* البطولة فى الشعر العربى

رقم الإيداع	١٩٧٦/٢٧٤٨
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٦ - ٢٠٣-٦

١ / ٧٥ /٢٥٢

مطابع دار المعارف بمصر
١٩٧٦